



6.1.2015



دوستويفسكي

الجريمة والعقاب

الجزء الأول

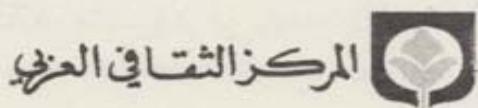
ترجمة: سامي الدروبي

دوستويفسكي

الجنة والعقاب

1

ترجمة: سامي الدروبي



لقد طُبعت أعمال الكاتب الروسي الكبير «دostويفسكي» أكثر من مَرَّة.
ونحن نعيد طباعتها بموجب عقد مع ورثة المترجم الأستاذ سامي
الدروبي بعد إعادة تنضيدها وإخراجها في حلة جديدة

الكتاب : الجريمة والعقاب (1) (رواية)

المؤلف : دوستويفسكي

المترجم : سامي الدروبي

الطبعة الأولى : 2010

ISBN 978-9953-68-462-6

جميع حقوق هذه الترجمة محفوظة لـ :

الناشر : المركز الثقافي العربي

بيروت والدار البيضاء

بيروت — لبنان

ص.ب. 5158 - 113 الحمرا

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 01750507 - 01352826

فاكس: +961 - 01343701

الدار البيضاء — المغرب

ص.ب. . : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 522307651 - 522303339

فاكس: +212 522 2305726

Email: markaz@wanadoo.net.ma cca@ccaedition.com www.ccaedition.com

كلمة عن دوستويفسكي

بقلم: الكاتب دانييل جرانين

في التاسع من فبراير عام 1981 احتفل العالم أجمع بالذكرى المائة لوفاة فيودور ميخائيلوفتش دوستويفسكي . وقد اتجهت أنظار الناس وخواطرهم في جامعات تشيكوسلوفاكيا واستراليا وإنجلترا واليابان والولايات المتحدة والسويد إلى تلك الدار المكونة من ثلاثة طوابق في إحدى حارات بطرسبرج والتي شهدت في شتاء 1881 وفاة الكاتب . لقد كانت حياة دوستويفسكي في بطرسبرج مرتبطة كلها بأحياء صغار الموظفين ، والطلاب ، والغرف المفروشة المؤجرة ، والأفنية الحجرية الضيقة كالآبار ، والأسواق ، والحانات . . .

لقد غيرت المائة سنة التي مرت منذ ذلك الحين أشياء كثيرة في ذهن البشرية . ولكن أعمال دوستويفسكي مرت عبر كل هذه التحولات دون أن تُمنى بخسائر ، بل على العكس ، خرجت منها أكثر حداثة ، بل واكتسبت طابعاً عصرياً ملحاً ، غريباً في بعض الأحيان . وقد يبدو ذلك أحياناً أشبه بالنبوءة . إن كثيراً من المواقف في روايتها «الأبالسة» و«الأخوة كaramazov» تُقرأ كنبؤات ، وهي من الكثرة بحيث يصعب اعتبارها صدفة . وكأنما قدمت عبقرية دوستويفسكي وحدست مجرى

تطور البشرية. ولكن، أليس ذلك من واجب العبرية؟

ذات مرة قادني حفيد دوستويفسكي أندريه دوستويفسكي في شوارع المدينة وهو يريني أماكن أحداث رواية «الجريمة والعقاب». واتضح فجأة أن كل شيء يمكن رؤيته. واكتسب كل شيء مغزى تاريخياً. فهنا كان يعيش دوستويفسكي ، وهنا كان يعيش آل مارميلاروف .

ونحن نلاحظ دقة وصف الأماكن لدى كتاب آخرين ، مثلما لدى بوشكين في ميخائيلوفسكيه ، ولدى ديكتنر في لندن ، ولدى بونين في يلنا . ونجد المناظر الطبيعية والوصف بمثابة ديكورات للأحداث الجارية . ولكن الأمر مختلف لدى دوستويفسكي . إنه يعد مع راسكولنيكوف الخطوات من دار راسكولنيكوف حتى دار العجوز المرا比ة . وهو يعثر على تلك الدار ، وعلى السلم في تلك الدار ، وعلى الشقة المطلة عليه ، أي يبدو وكأنه يُخرج مسرحية . إنه كاتب مسرحي ومخرج في نفس الوقت . ولا بد له أن يرى ما يحدث بعينيه ، وأن يفهم . والفهم هو الأمر المدهش حقاً . إذ إن راسكولنيكوف يظل بالنسبة له سراً إلى حد كبير . ودوستويفسكي يحاول أن يفهمه ، ويقدم لذلك عدداً من التفسيرات . وهو لا يتظاهر بعدم الفهم ، فلا معنى لذلك ، إذ إنه يعرف عن راسكولنيكوف الكثير . . . يعرف أفكاره وأحساسه وكلماته وتصرفاته ، ولكن ذلك كله لا يكفي لتفسير وتعليق الدافع والبواعث الكامنة في اللاوعي والتي حدثت براسكولنيكوف للتصرف بما يخالف المنطق . إن كل ذلك لغز بالنسبة لدوستويفسكي . وهو ينظر إلى أبطاله نظرته إلى سرّ ، فال Amir ميشكين سرّ ، وايفان كaramazov سرّ ، وستافروجين سرّ⁽¹⁾ .

إن ليف تولستوي يساعدنا على إدراك الإنسان ، ويطلعنا على تطور شخصيته ، وعلى منابع أفكاره ، ويقودنا إلى أعماق روحه .

أما دوستويفسكي فيساعدنا على إدراك استحالة معرفة الإنسان ،

ويطلعننا على لامحدوديته، وعلى فوضى مشاعره، ويرينا أي تناقضات وأي أعمق لا يمكن بلوغها تكمن في نفس الإنسان.

وتلك هي ضريبة احترام الإنسان، وهذا هو الدرس الذي يقدمه دوستويفסקי لكل كاتب. فماذا نفعل نحن؟ إننا في أدبنا نعرف الكثير والكثير عن أبطالنا، وهم واضحون لنا حتى أعماق أعماقهم. ونحن على دراية بكل شيء وفي كل الظروف، وكل شيء له دوافعه وكل شيء مفهوم واضح، وبوسعنا أن نحلل أبطالنا حتى النهاية فلا يبقى منهم شيء مجهول.

وذلك يعكس إلى حد ما عصرنا، عصر الثورة العلمية التقنية، حيث الأفعال عادة ما تكون ذات طبيعة نفعية، تخضع للمصلحة والمنطق والظروف. وأمثال هؤلاء الأشخاص يبدو وكأنهم مطلوبون، فهم مريحون، وهم مناسبون... . وعندئذ يتضح أن دوستويفסקי يحمينا من هذا الشخص - المنفعة، هذا الشخص - الوظيفة، يحمي كرامة السر والغاية السامية لوجود الإنسان.

والسيكولوجيا لدى دوستويفסקי أداة لدراسة أهم قضايا الحياة، ولدراسة القضية التي ربما كانت الأولى بينها، قضية الإيمان. بم يؤمن الإنسان؟ وهل يمكن أن يوجد الله؟.. لعله من السذاجة الظن بأن الإلحاد يقضي على الإيمان، الإيمان بالانسجام، بالسعادة العامة، بالمغزى والغاية الخاصة من وجود الإنسان... .

وإذا ما تحدثنا عن دروس دوستويف斯基 بالنسبة لعصرنا فأعتقد أنها ليست تلك الأسئلة الجريئة التي يطرحها في دائرة القضايا التي يثيرها - على الرغم من معايشة دوستويفסקי ومعاناته لكل الهموم السياسية والشعبية لذلك العصر... . كلا، بل هي الأسئلة الأكثر إلحاحاً وأزلية. ولعله من المفيد أن نرى كيف كانت القضايا اليومية الملحة تنتصر وتصفي في روايات دوستويف斯基 لتخرج منها الأفكار الحية، لا

التهويمات المجردة، الأفكار المضزجة بالدم والدموع لنفس حية.

دوستويفسكي يصور بجسارة أناساً فقدوا الإيمان... تخلى الإيمان عنهم وتركتهم الآلهة وماتت. والسؤال الذي يعذّب الكاتب هو: ما الذي سيحدث للبشرية إذا لم يكن هناك إله؟ ما الذي سيحدث إذا ما حل محل الإنسان الإله شخص قوي يستبيح لنفسه كل شيء؟ فماذا لو أن النزعة الإنسانية راحت إذا تنقرض وتفنى؟ كيف نواجه ذلك وندفعه عنا؟ وما الذي يجوز للإنسان أن يفعله؟ هل يجوز له أن يتصرف في أقدار الآخرين وحياتهم من أجل مصلحة الآخرين؟ من الذي يقتل فيدور كاراما佐夫؟ كيف يدور الصراع بين الخير والشر في النفس البشرية؟ أئمة خلود؟ ومن أين يأتي الازدواج والثنائية في الإنسان؟... إنه يدرس قضایا الوجود، والعذاب. والشر، والحب، والجريمة، والجنون، والأهواء، والمنفعة المغرضة...

لقد تميزت عبقرية دوستويفسكي الفنية بقوة فلسفية هائلة. وهو مهموم دائماً بالقضايا الجذرية، الحاسمة. والأدب بالنسبة له وسيلة تفكير، والكاتب عنده لا يتمتع فقط بالقدرة على ملاحظة تفاصيل الحياة بألوانها وروائحها وكلماتها المميزة ودقائقها، بل وأيضاً بالتفكير المضني في مغزى الحياة. تلك هي قوة دوستويفسكي، وذلك هو المثل الذي يقدمه للأدب المعاصر.

إن مؤلفاته خالية من الأمور العادية، فقد كان قادراً على رؤية خالية الحياة الروسية.

كل ما يجري يجري في أكثر المدن واقعية، إذا جاز التعبير، ومع ذلك فكل ما يجري خيال. ليس هناك شياطين مرعبة، ولكن الواقع تزحزح قليلاً، وأحياناً بدرجة لا تلحظ، ولذا فقد ظهرت إمكانية النظر في فجاج ومهماً لم تكن تخطر لنا على بال.

قراءة دوستويفسكي أمر صعب، وأحياناً تثير الشعور بالضيق، فما

السبب؟ إن رواياته تخلو من المشاهد الطبيعية وليس فيها تلذذ بوصف الأحداث المرعبة وأعمال العنف المقبضة. ولكن هذا السؤال صعب ولا أستطيع أن أتصدى للإجابة عنه، وبودي فقط أن ألفت النظر إلى إحدى خصائصه، إلى أحد جوانب عقريته والذي يبدو وكأنما يكشف أمرنا.

أريد أن ألفت النظر مثلاً إلى قوله في «المراهق»: «الإحساس الإنساني العادي ببعض السرور عندما تقع مصيبة لآخرين، أي عندما تنكسر ساق أحدهم، أو يتلطخ شرفه، أو يفقد عزيزاً لديه... الخ...». أو قوله في مشهد الكارثة التي أصابت آل مارميلادول في هذه الرواية: «... فهاهم أولاء سكان البيت يتوجهون نحو الباب واحداً بعد آخر، وهم يشعرون بذلك الإحساس الغريب، إحساس اللذة الذي يلاحظ دائماً حتى لدى أقرب الأقرباء حين يرون شقاء يحل بقريهم، وهو إحساس لا يخلو منه أي إنسان مهما يكن إحساسه بالأسف والشفقة صادقاً...».

بالطبع لا يريد أحد أن يكتشف في نفسه مثل هذا. ولكن دوستويفسكي يجبرنا بطريقة ما على أن نجد في نفوسنا الشيء السيء، وأن نعثر فيها على تلك الأهواء التي تعصف بأبطاله. وعلى هذا نصبح وكأننا مشاركون، ومذنبون نحن كذلك، وهذا قد افتضحتنا وانكشف أمرنا... ويتبين أننا لسنا أفضل من هؤلاء الأبطال، بل إننا مستعدون لارتكاب ما ارتكبواه. وحينما تحدث رواية «المراهق» عن أن الإنسان قادر على أن يرعى في روحه أسمى المثل إلى جانب أحط الدناءات، وكل ذلك عن صدق خالص... فهل هذا الكلام عن أناس الماضي فحسب؟

عندما تقرأ دوستويفسكي ينتابك الخجل... وهذه أعظم سمة من سمات عقريته، وينبغي علينا أن نتعلمها إذا كان من الممكن تعلم

ذلك . تشعر بالخجل وتشعر بتأنيب الضمير ، ولذلك تصعب القراءة . فهو يجبرك على أن تخجل وتستحي ، ويقضي على كافة محاولات التهرب وتبير الشر والفساد الخلقي . وما أبرعه في تصوير الدناءة والنفاق والرياء والقسوة ! كلا ، كلا هذه ليست عبقرية مريضة ، بل الأقرب إلى الصواب إنها موهبة شافية ، ليست قاسية بل إنسانية . أليس من الجائز أننا عندما نسعى بكل جهودنا إلى تصوير المظاهر الطيبة والجميلة والسامية والفضلة وحدها ، وعندما نختار ونمدح أفضل النماذج وأكثرها مثالية فحسب . . . أليس من الجائز أننا بذلك نحمد يقظة الضمير ونضعف التشدد ، وننافق الناس والشعب . إن المكانة التي تبوأها الأدب الروسي إنما تعززت أساساً بفضل ما قام به دوستويفسكي من فضح لا يكل للرذائل والضلالات . ولم يشارك في هذا العمل دوستويفسكي وحده بل الأدب الروسي كله ، الذي تحلى بشجاعة أن يقول لشعبه كلمات الغضب والحزن . . .

وليس من السهل اليوم أن تهز ضمير الإنسان المعاصر ، فهو محصن بسياج دفاعي متين . ولكن دوستويفسكي يستطيع ، كما لا يستطيع أحد غيره ، أن يخترق الحواجز والدفاعات ، وهو في ذلك واحد من أكثر الكتاب معاصرة لنا .

وابداع دوستويفسكي يحفز الفكر ، وقد أثر على أكبر الفلاسفة وعلماء النفس والعلماء في العالم . والكتب التي وضعنا عن دوستويفسكي تشير الاهتمام بما يتميز به من قيمة فلسفية وعلمية مستقلة . وهي بحد ذاتها رائعة .

الفنان وحده ، والكاتب في المقام الأول ، هو الذي يستطيع أن يساعد الناس على اكتشاف حقائق جديدة عن أنفسهم . وبهذا المعنى كان دوستويفسكي وسيبقى مفخرة لروسيا وللأدب الروسي وللأدب العالمي . ولتاريخ الفنون الطويل كله .

أنا لا أرى لماذا تُؤلف الكتب . وقد قال بوشكين ذات مرة : «ان غاية الشعر هي الشعر». فما هو الбаृعث وما هو الدافع المحرك للفنان ولأي غرض يعمل؟ ألم اللّمتعة ؟ أم للتربية ، أم للبحث؟ لست أدری . بيد أن ذلك كله ، وبأسمى درجة ، تقدمه لنا كتب دوستوييفسكي . وفيها ، علاوة على ذلك ، الإحساس بالمعجزة التي تشـد إلـيـها مشاعـرـنا وأفـكارـنا أكثر فأـكـثر ، وتسـمـو بأفـكارـنا فـتـمـكـنـنا من رؤـيـة أنـفـسـنا وـعـالـمـنـا بـكـلـ بـؤـسـهـ وـعـظـمـتـهـ بـكـلـ جـدارـتـهـ وـقـيمـتـهـ ، عـالـمـنـا كـلـهـ بـرـوعـة جـمالـهـ وـاسـتحـالـةـ إـدـراكـهـ .

الجنة والأول

الفصل الأول

في الأيام الأولى من شهر تموز، وكان الحر شديداً للغاية، خرج شابٌ في نحو نهاية الأصيل، خرج من الغرفة الصغيرة التي كان يسكنها في زقاق س...⁽²⁾ واتجه نحو جسر ك... بطيء الخطى كأنه كان متربداً.

لقد أسعفه الحظ فأفلح أثناء هبوطه السلم في تحاشي لقاء صاحبة الشقة التي يسكن عندها. إن الغرفة التي يسكنها الشاب تقع تحت السقف من منزل عال يتتألف من أربعة طوابق، وهي أقرب إلى جحر منها إلى مسكن. وكانت صاحبة الشقة التي تؤجره هذه الغرفة مع الطعام والخدمة تسكن هي نفسها في الشقة المنفردة في الطابق الأدنى، فكان لا بد للشاب، كلما خرج، أن يمر حتماً أمام مطبخها الذي يظل بابه مفتوحاً على السلم دائماً. وكان الشاب يشعر في كل مرة أثناء مروره بضيق وحرج وانزعاج فيحسن بالخجل من هذا الشعور ويتقلص وجهه، ويغدو قاتم النفس. كان مديناً لصاحبة الشقة فيخشى أن يلتقي بها.

وليس مرد ذلك إلى أنه جبان رعديد، أو إلى أنه مرقع مذعور، بالعكس... ولكنه يعاني منذ بعض الوقت حالةً من التوتر والعصبية توشك أن تكون مرض الكآبة. لقد بلغت حياته من الاعتزال ومن فرط الانطواء على النفس أنه يخشى لقاء أي إنسان، لا لقاء صاحبة الشقة

فحسب . كان يعيش في فقر مدقع ، وبؤس شديد ، ولكن العوز نفسه أصبح في هذه الأونة الأخيرة لا يشغل عليه . أصبح الشاب لا يهتم بشؤونه ولا يريد أن يهتم بها . الواقع أن صاحبة الشقة كانت لا تخيفه ، مهما تكن المكائد التي تدبرها له . ولكن الوقوف على فسحة السلم ، والإصغاء إلى ثرثرات سخيفة شتى عن ترهات لا تعنيه في قليل ولا كثير ، واحتمال التذكير الدائم المستمر ، الذي تصحبه تهديدات وشكاوی ، بضرورة مبادرته إلى دفع الأجرة ، واضطراوه إلى اختلاق الحيل وانتحال الأعذار وتلقيق الأکاذیب . . . ولكن ذلك كلّه أصبح من الأمور التي لا يمكن أن يطيقها ، فهو يؤثر على ذلك أن يتسلل على السلم تسلل هرّة ، وأن يفرّ دون أن يراه أحد . على أن الخوف الذي شعر به هذه المرة من تصور أن دائنته قد تراه ، أدهشه هو نفسه منذ أصبح في الشارع .

حدّث نفسه يقول وهو يبتسم ابتسامة غريبة : «أفكر في الإقدام على عمل مثل ذلك العمل ، ثمأشعر بخوف لأمر تافه هذه التفاهة ! نعم ، إن كل شيء موجود لدى الإنسان ، ومع ذلك يدع الإنسان لكل شيء أن يمر تحت أنفه . . . وما ذلك إلا لأن الإنسان جبان . . . نعم ، هذه بديهية . . إنه لمن الشائق أن نعرف ما الذي يخافه البشر أكثر مما يخافون . . إلا أن ما يخافه البشر أكثر ما يخافون هو أن يتقدموا خطوة إلى أمام ، هو أن يقولوا كلمة شخصية . على أنني أسرف في الشرارة كثيراً . وإذا كنت لا أعمل شيئاً ، فلأنني أثرث . . أو قل على نحو أصح وأدق : إذا كنت أثرث فلأنني لا أفعل شيئاً . ومع ذلك فأنا في هذه الأشهر الأخيرة إنما تعلمـتـ الشرارة قابعاً في ركني أـفكـر . . . أـفكـرـ في كل شيء ولا أـفكـرـ في شيء . مثلاً : فيـمـ أـذهبـ الآنـ إـلـىـ هـنـاكـ ؟ـ أناـ قادرـ عـلـىـ أنـ أـفـعـلـ «ـذـلـكـ الـأـمـرـ»ـ ؟ـ هلـ «ـذـلـكـ الـأـمـرـ»ـ جـدـ حـقاـ ؟ـ لاـ . .ـ ماـ هوـ بالـجـدـ الـبـتـةـ !ـ وـاـنـماـ هوـ نـزـوـةـ خـيـالـ لـأـكـثـرـ !ـ إـنـيـ «ـأـدـغـدـغـ»ـ نـفـسـيـ مـلـتـمـسـاـ تـسـلـيـةـ .ـ نـعـمـ ،ـ أـعـتـقـادـاـ جـازـمـاـ بـأـنـيـ أـلـتـمـسـ لـنـفـسـيـ تـسـلـيـةـ . . .ـ »ـ .ـ

الحر في الشارع ما يزال مرهقاً . يضاف إلى ذلك نقص الهواء ،

والازدحام، والكلس المنتشر في كل مكان، والسدادات، والأجر، والغبار، ثم ذلك التن الصيفي الخاص الذي يعرفه كل ساكن من سكان بطرسبرج لا تتيح له موارده أن يستأجر بيته صيفياً في الضواحي. إن اجتماع ذلك كله قد أثار أعصاب الشاب الذي كانت أعصابه مهترئة من قبل فأورثه مزيداً من الضيق. وهذه رواجـة كريهة تنشرها خمارـات كثيرة جداً في هذا القسم من المدينة، وهمـلـاء سـكـارـى يـلقـاهـمـ الـمرـءـ عـنـدـ كـلـ خطـوـةـ رـغـمـ أـنـ الـيـوـمـ لـيـسـ يـوـمـ الـأـحـدـ بلـ هـوـ يـوـمـ عـمـلـ، فـتـصـطـبـعـ اللـوـحةـ بـلـوـنـ حـزـينـ منـقـرـ. إنـ شـعـورـأـ عـمـيقـاـ بـالـأـشـمـئـزاـزـ يـرـتـسـمـ لـلـحـظـةـ عـلـىـ الـقـسـمـاتـ الـدـقـيقـةـ مـنـ وـجـهـ الشـابـ. وـالـشـابـ حـسـنـ الصـورـةـ وـسـيمـ الـطـلـعـةـ، لـهـ عـيـنـانـ دـكـنـاوـانـ رـائـعـتـانـ، وـشـعـرـ أـشـقـرـ ضـارـبـ إـلـىـ لـوـنـ كـلـونـ الرـمـادـ، وـقـامـةـ فـوـقـ الـوـسـطـ طـوـلـاـ، نـحـيـلـةـ مـمـشـوـقـةـ. وـلـكـنـهـ لـاـ يـلـبـثـ أـنـ يـبـدوـ عـلـىـ الـإـسـتـرـسـالـ عـمـيقـاـ فـيـ التـفـكـيرـ، أـوـ قـلـ الـانـهـدارـ إـلـىـ نـوـعـ مـنـ الـغـيـبـوـةـ. وـظـلـلـ يـسـيرـ لـاـ يـرـىـ مـنـ حـوـلـهـ شـيـئـاـ، وـلـاـ يـرـغـبـ فـيـ أـنـ يـرـىـ أـيـ شـيـئـ. كـلـ مـاـ هـنـالـكـ أـنـهـ كـانـ، بـيـنـ الـفـيـنـةـ وـالـفـيـنـةـ، يـسـأـنـفـ مـحـاـوـرـةـ نـفـسـهـ، جـرـيـأـ عـلـىـ عـادـةـ إـلـقاءـ مـوـنـلـوـجـاتـ، تـلـكـ العـادـةـ الـتـيـ اـعـتـرـفـ بـهـاـ لـنـفـسـهـ الـآنـ. وـأـدـرـكـ فـيـ تـلـكـ الـلـحـظـةـ نـفـسـهـاـ أـنـ خـواـطـرـهـ وـأـفـكـارـهـ تـخـتـلـطـ وـتـضـطـرـبـ مـنـ حـيـنـ إـلـىـ حـيـنـ، وـأـنـهـ ضـعـيفـ جـداـ: إـنـهـ لـمـ يـكـدـ يـأـكـلـ شـيـئـاـ مـنـذـ يـوـمـيـنـ.

وـكـانـ يـرـتـديـ ثـيـابـاـ تـبـلـغـ مـنـ الرـثـاثـةـ أـنـ شـخـصـاـ آـخـرـ غـيـرـهـ كـانـ لـاـ بـدـ أـنـ يـشـعـرـ بـضـيقـ وـحـرـجـ، مـهـماـ تـكـنـ عـادـاتـهـ الـمـكـتـسـبـةـ، إـذـاـ هـوـ خـرـجـ فـيـ وـضـحـ النـهـارـ بـمـثـلـ تـلـكـ الـأـسـمـالـ. الـحـقـ أـنـ هـذـاـ الـحـيـ لـيـسـ مـنـ الـأـحـيـاءـ التـيـ يـمـكـنـ أـنـ يـسـتـغـرـبـ فـيـهـ النـاسـ مـنـظـرـ رـدـاءـ. إـنـ هـذـاـ الـمـكـانـ الـقـرـيبـ مـنـ «ـسـوقـ الـعـلـفـ»⁽³⁾، الـذـيـ تـكـثـرـ فـيـهـ مـحـالـ مـنـ نـوـعـ خـاصـ، وـالـذـيـ يـتـأـلـفـ سـكـانـهـ أـسـاسـاـ مـنـ صـنـاعـ وـحـرـفـيـنـ مـتـكـدـسـيـنـ فـيـ هـذـهـ الشـوـارـعـ وـالـأـزـقـةـ مـنـ مـرـكـزـ بـطـرـسـبـرـجـ، يـشـتـملـ عـلـىـ تـنـوـعـ كـبـيرـ فـيـ الـأـفـرـادـ يـسـتـغـرـبـ مـعـهـ أـنـ يـُـدـهـشـ أـحـدـ مـنـ شـخـصـ مـتـفـرـدـ بـعـضـ التـفـرـدـ. عـلـىـ أـنـ نـفـسـ الشـابـ قـدـ

بلغت من فرط الامتناع بالاحتقار الكاره أنه رغم ما يتصرف به طبعه من شدة التأدي [الذي يتميز به أحياناً الشباب]، كان لا يشعر بخجل كثير من عرض أسماله البالية في الشارع. ولا كذلك إذا هو التقى بأشخاص يعرفهم أو برفاق قدامى لا يحب على وجه العموم أن يختلف إليهم... . ومع ذلك حين أحوال سكير كان مقوداً (لا ندرى إلى أين ولا لماذا) في عربة كبيرة يجرها حصان قوي، حين أحوال هذا السكير على حين فجأة قائلاً بصوت مجلجل وهو يومئ إليه بيده: «هيه، أنت يا صاحب القبعة الألمانية!»، فإن الشاب توقف بفترة، وقبض على قبعته بحركة عصبية. هي قبعة عالية مشتراء من عند تسيميرمان⁽⁴⁾ لكنها قد اهترأت اهتراء تماماً، واحمرّ لونها، وغشّيتها البقع وثقبتها الثقوب وزالت حافتها وانطوى أحد طرفيها حتى صار زاوية بشعة كريهة. على أن الشاب لم يشعر بخجل، وإنما استولت عليه عاطفة أخرى تشبه الهلع.

ودمدم يخاطب نفسه مضطرباً:

«كنت أعرف هذا حق المعرفة... . قدرته من قبل!... ذلك أسوأ ما في الأمر! تكفي ترهة سخيفة من هذا النوع، يكفي أمر تافه كهذا، حتى يتعرض كل شيء للخطر! نعم، إن هذه القبعة صارخة... . هي مضحكة، وهي لذلك صارخة... . ما دمت أرتدي هذه الأسمال البالية فلا بد لي من قلنوسوة، أو من أية طاقية عتيقة. أما هذه القبعة الفظيعة فلا!... ما من أحد يلبس قبعة كهذه القبعة. إنها تُرى من مسافة فرسخ كامل... . ومن رآها مرّة يتذكّرها ولا ينساها... . يتذكّرها في المستقبل... . فتكون هي الدليل القاطع... . إنني أحتج الآن إلى أن لا ينتبه إلى أحد!... إن الأشياء الصغيرة هي التي لها أكبر شأن وأعظم خطر!... هذه هي الحقيقة، إن أشياء صغيرة كهذه القبعة هي التي تفسد كل شيء في آخر الأمر دائمًا... »

لم يكن طريقه طويلاً، حتى لقد كان يعرف عدد الخطوات التي يجب

أن يقطعها منذ يجتاز باب منزله : إنها سبعمائة وثلاثون خطوة تماماً . لقد عدَ هذه الخطوات ذات يوم من الأيام بعد أن أفرط في الاستسلام لأحلامه . في ذلك الأوّان لم يكن يصدق بعدُ أن هذه الأحلام واقعة ، وإنما كان يرُوح عن نفسه بما تشمل عليه تلك الأحلام من جرأة دنيئة فتانية في آن واحد . أما الآن ، بعد انقضاء شهر على ذلك الأوّان ، فقد أخذ يرى الأمور رؤية مختلفة ، ورغم جميع المفاورات المحنقة التي كانت تجري بينه وبين نفسه ، والتي كان في أثنائها يعيّب على نفسه ضعفه وتردداته ، فإنه قد اعتاد ، رغم إرادته تقريراً ، أن ينظر إلى هذا «الحلم الدنيء» نظرته إلى مشروع عليه أن ينفذه » ، دون أن يزداد من ذلك ثقة بنفسه على كل حال . وهو الآن ذاهم لاجراء تمرين على ذلك الفعل الدنيء ، فاضطرابه يزداد قوة عند كل خطوة .

وفيما هو منهار القلب تسري في جسمه رعدة عصبية ، اقترب من مبني ضخم يطل من إحدى جهتيه على القناة ويطل من الجهة الأخرى على شارع س... ، إن هذا المنزل ، المقسم إلى مساكن صغيرة ، يسكنه أناس من جميع الأنواع : خياطون ، وقفاليون ، وطباخون ، وألمان مختلفون ، وشابات يعشن من جمالهن ، وموظفو صغار ، وهلم جرا... إن الذهاب والأياب تحت قوسِي مدخليه الكبيرين ، وفي فناءيه الواسعين ، لا ينقطعان . وثمة بوابون ثلاثة أو أربعة يتولون أمره . فما كان أشد سرور الفتى حين لم يلتقي بأحد منهم . فلما اجتاز المدخل تسلل إلى السلالم الأيمن دون أن يراه أحد . إن هذا السلم ضيق ، مظلم ، «أسود» ، ولكن الشاب يعرفه فقد سبق أن درسه ، ثم إن هذا الجو يعجب الفتى ويرضيه ، فهو في ظلام كهذا الظلام لا يخشى أن تقع عليه نظرة مستطلعة . ومع ذلك قال الفتى لنفسه رغم إرادته حين وصل إلى الطابق الثالث : «إذا كنت أشعر الآن بهذا الخوف كله ، فبماذا يمكن أن أشعر إذا اتفق أن مضيت إلى آخر الشوط؟... وهنالك كان يسد طريقه صناديق وجند سابقون كانوا يخلون أحد المساكن من أثاثه . كان الفتى

يعرف من قبل أن موظفاً ألمانياً هو رب أسرة كان يقيم في هذا المسكن حتى ذلك الحين. فقال لنفسه أيضاً قبل أن يقرع جرس الباب: «إن هذا الألماني ذاهب إذن الآن، فلا يبقى على الفسحة الثالثة من السلالم، خلال فترة من الوقت، إلا مسكن واحد مشغول هو مسكن المرأة العجوز. ذلك أمر تسرّ معرفته... حين تأذف الساعة». ثم ضعظ على جرس باب الشقة ورنّ الجرس رنيناً ضعيفاً كأنه من حديد أبيض لا من نحاس. إن الأجراس تكون دائماً من هذا النوع في المساكن الصغيرة التي تتّألف منها عمارة من هذا الطراز. وكان الشاب قد نسي صوت ذلك الجرس، فإذا هو يحس هذا الصوت الآن تذكيراً مباغتاً بشيء تخيله واضحـاً... فارتعد. كانت أعصابه في هذه المرة منهكة. وبعد دقيقة شقّ الباب شيئاً ضيقـاً، وأخذت ساكنة البيت تتفحص القادم الجديد، من خلال هذا الشق، بشكّ واضح وارتياـب ظاهر. إن المرء لا يرى، في هذا الظلام، إلا عينيها الملتمعـتين. ولكنها حين أبصرت على فسحة السلالم أناساً كثيرـين اطمأنـت ففتحـت الباب فتحـاً كاملاً. اجتاز الفتى العتبـة، وولـج حجرة المدخل المظلمـة التي يقطعـها حاجـز جعلـ ما وراءـه مطبـخـاً صغيرـاً: وقفـت العجوز قـبـالـته صـامتـة تحـدـجه بنـظـرـةـ سـائـلةـةـ هي امرأـةـ عـجوـزـ قـصـيرـةـ جـداًـ نـحـيـلـةـ جـداًـ، فيـ نحوـ السـتـينـ منـ العـمـرـ، لهاـ عـيـنـانـ حـادـتـانـ شـرـيرـتـانـ، وـأـنـفـ صـغـيرـ مدـبـبـ. وـكـانـتـ حـاسـرـةـ الرـأـسـ، فـشـعـرـهاـ الـفـاتـحـ قـلـيلـ الشـيـبـ يـلـتـمـعـ بـبـرـيقـ الزـيـتـ. وـحـولـ عـنـقـهاـ الطـوـيلـ النـحـيـلـ الـذـيـ يـشـبـهـ سـاقـ دـجـاجـةـ، كـانـتـ تـلـتـفـ خـرـقـ مـبـهـمـةـ منـ قـمـاشـ «ـالـفـلـانـيـلـ»ـ، وـتـضـعـ عـلـىـ كـتـفيـهاـ، رـغـمـ الـحرـ الشـدـيدـ، سـتـرـةـ قـصـيرـةـ فـرـائـيـةـ قدـ اـصـفـرـ لـونـهاـ وـتـنـسـلـ وـبـرـهاـ. وـكـانـتـ العـجوـزـ تـسـعـلـ وـتـتأـوـهـ فـيـ كـلـ لـحـظـةـ. وـأـغـلـبـ الـظـنـ أـنـ الفتـىـ أـلـقـىـ عـلـيـهـ نـظـرـةـ خـاصـةـ، لـأـنـ الشـكـ وـالـارـتـيـابـ عـادـاـ يـظـهـرـانـ فـيـ عـيـنـيهـ.

تذكر الفتى فجأةً أن عليه أن يكون لطيفـاً ودوـداً، فأسرع يدمـدمـ قـائـلاًـ للـتـعـرـيفـ بـنـفـسـهـ وـهـوـ يـنـحـنـيـ نـصـيفـاًـ:

- راسكولنيكوف⁽⁵⁾، طالب. جئت إليك منذ شهر . . .
فخاطبته العجوز تقول بصوت واضح متميز دون أن تحول نظرتها
السائلة عن وجهه :
- أتذكر يابني ، أتذكر جيداً أنك جئت . . .
فتتابع راسكولنيكوف كلامه وقد ساوره شيء من الدهشة والارتباك
حين لاحظ شك العجوز وارتبابها :
- ها أنذا أجيء إليك مرة أخرى . . . لأمر صغير من ذلك النوع
نفسه . . .

وحدث نفسه قائلاً وهو يشعر بضيق : «الحقيقة أنها ربما كانت هكذا
دائماً، ولكنني لم ألاحظ ذلك في المرة الماضية» .
وصمتت العجوز كأنما لتفكير، ثم تنحت قليلاً، وقالت للزائر وهي
تلدّه على باب الغرفة وتدعه يمر قدامها :
- تفضل ادخل يابني !

دخل الشاب غرفة صغيرة مفروشة الجدران بورق أصفر، فيها أزهار
جيرانيوم، ولنوافذها ستائر من قماش المسلمين. وكانت الغرفة في تلك
لحظة تضيئها أشعة الشمس الغاربة بنور ساطع. قال الفتى يحدث
نفسه : «ماذا؟ هل تستطيع الشمس إذن هذا السطوع حينذاك». لقد
اخترقت هذه الفكرة ذهن راسكولنيكوف على غير علم منه، فإذا هو
يلف الغرفة كلها بنظرة سريعة ليدرس ترتيبها وليحفظه في ذاكرته إن
إمكان ذلك. ولكن هذه الغرفة لا تتميز كثيراً بصفات خاصة. إن أثاثها
المصنوع من خشب أصفر على طراز عتيق، يتتألف من أريكة ذات مسند
خشب ضخم له أقواس، ومنضدة بيضاوية الشكل موضوعة أمام
الأريكة، وخوان زينة بمرآة صغيرة موضوع بين نافذتين وكراسي
مصفوفة على طول الجدران، ولوحتين أو ثلاث لوحات لا قيمة لها،
موضوعة في إطار مصفرة، تمثل آنسات المانيات في أيديهن طيور. ذلك

هو الأثاث . وفي ركن من الأركان ، أمام أيقونة صغيرة كان يسع سراج صغير . والمكان كله تسوده نظافة قصوى . فالاثاث وأرض الغرفة قد دُلّكت بالشمع فهي تلمع . قال الفتى يحدث نفسه : « هذا من عمل اليزافيتا ! » ما كان لأحد أن يستطيع العثور على ذرة غبار واحدة في المسكن كله . عاد راسكولنيكوف يحدث نفسه فقال : « لا يجد المرء نظافة بهذه النظافة إلا عند الأرامل العجائز الشريرات ». قال ذلك والتفت بيصره خلسة يستطلع ستارة من فماش قطني تحجب ببابا يصل هذه الغرفة بغرفة صغيرة أخرى فيها سرير العجوز وخزانتها وهي غرفة لم يسبق له أن دخلها قط . إن المسكن كله لا يضم إلا هاتين الغرفتين .

سألته العجوز بتساؤل وهي تدخل الغرفة بعده وتقف مرة أخرى أمامه لتفحصه وجهاً لوجه :

- أي خدمة ؟

قال الفتى :

- جئتكم بشيء أريد أن أرهنه . هو ذا . . .

قال ذلك وأخرج من جيبه ساعة عتيقة مصنوعة من فضة ، رسمت على غطائها الكرة الأرضية ، ولها سلسلة من فولات .

قالت المرأة العجوز :

- ولكن مدة رهنك الأولى قد انتهت . انقضى على الرهن الأول شهر منذ أمس الأول .

- سأدفع لك الفائدة عن شهر آخر . أصبرني على .

قالت :

- أنا التي أقرر أأصبر أم أبيع الرهن الآن . هذا شأنني أنا يابني .

- هل تقرضيني مبلغاً كبيراً على رهن هذه الساعة يا أليونا إيفانوفنا ؟⁽⁶⁾

- إنك تجيئني دائمًا بأشياء صغيرة تافهة ليس لها قيمة البتة... . لقد أقرضتك في المرة الماضية ورقتين صغيرتين (أي روبلين) على رهن خاتمك، مع أن في إمكان أي إنسان أن يشتري من عند الصائغ خاتماً جديداً من نوعه بروبل ونصف روبل.

- أقرضيني أربعة روبلات على رهن الساعة. سأفكها قريباً...
ورثتها عن أبي. وسيصلني مبلغ من المال بعد مدة قصيرة.

- أقرضك على رهنها روبلان ونصفاً، والفائدة تُدفع سلفاً.

صاحب الفتى متوجباً:

- روبلان ونصفاً؟

- لا مساومة. إما أن تقبل وإما أن ترفض.

قالت العجوز ذلك ومدت إليه الساعة، فتناولها الفتى غاضباً حتى لقد همّ أن ينصرف. ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك إذ ذكر أنه ليس هناك مكان آخر يذهب إليه وأنه جاء لغرض آخر أيضاً.

قال بلهجة خشنة:

- هاتي!

فدرست العجوز يدها في جيبها لتخرج مفاتيحها، ومضت إلى الغرفة الأخرى وراء الستارة. فلما أصبح الفتى وحيداً وسط الغرفة، أصاخ بسمعه مستطلعاً، وأطلق العنان لخياله.

سمعها تفتح الخزانة. قال يحدث نفسه: «أغلب الظن أنه الدُّرُج الأعلى... هي تحمل مفاتيحها إذن في الجيب الأيمن... والمفاتيح كلها كتلة واحدة تضمها حلقة من فولاذ... وبين المفاتيح مفتاح مسنن الرأس أكبر من غيره ثلاثة مرات، ولكن من الواضح أنه ليس مفتاح الخزانة... إذن هناك أيضاً سحارة أو صندوق صغير... هذا أمر هام. إن لجميع الصناديق مفاتيح من

هذا النوع... على كل حال، هذا كله كريه بشع...»
وعادت العجوز.

- خذ يابني. إذا كانت الفائدة عشرة كوبىكات عن كل روبل في الشهر تُقطع سلفاً، فإن الفائدة عن روبل ونصف روبل تكون خمسة عشر كوبىكاً. يضاف إلى ذلك عشرون كوبىكاً عن الروبلىن اللذين افترضتهما في المرة الماضية على أساس تلك الفائدة نفسها، فيكون مجموع ما يجب اقتطاعه خمسة وثلاثين كوبىكاً، فيبقى لك عن رهن الساعة روبل وخمسة عشر كوبىكاً. إليك المبلغ.

- كيف؟ ألا يبقى لي إلا روبل وخمسة عشر كوبىكاً؟
- تماماً.

لم يناقشها الفتى، وتناول المال. وكان ينظر إلى العجوز ولا يستعجل الخروج، كأنما كان يريد أن يقول شيئاً، أو أن يفعل شيئاً، دون أن يدرى ما هو هذا الشيء على وجه الدقة...
وقال لها أخيراً:

- ربما جئتكم بشيء آخر في الأيام القليلة القادمة يا أليونا إيفانوفنا... هو شيء من فضة... شيء ذو قيمة... علبة سجائر...
نعم، سأجيئكم بعلبة سجائر متى رذها إلي صديق لي...
ارتبك الفتى وصمت.

فقالت العجوز:

- طيب يابني... ستكلم في الأمر في حينه.
قال لها الفتى بلهجـة منطلقة على قدر المستطاع، وهو يتوجه نحو حجرة المدخل:

- استودعك الله... أنت إذن وحيدة في البيت دائماً دون أن تكون أختك معك؟

- فيم يعنيك هذا يا بني؟
- لا يعنيني في شيء... انه مجرد سؤال هكذا... دون هدف...
إذا أنت... استودعك الله يا أليونا إيفانوفنا.

خرج راسكولنيكوف وهو فريسة اضطراب عميق ما ينفك يزداد، حتى توقف عدة مرات مذهولاً أثناء هبوطه السلم. فلما صار في الشارع آخر الأمر هتف يقول:

«آه... رباه! ما أبشع هذا كله! هل يمكنني، هل يمكنني حقاً أن...»

ثم أضاف يقول باقتناع:

«لا... هذه حماقة... هذه سخافة... هل يمكن حقاً أن تكون فكرة شيطانية كهذه الفكرة قد ساورت ذهني؟ ما أقدر ما في قلبي إذن من وحل! ثم إن هذا كله وسخ جداً، مقزز جداً، قذر جداً! كيف أمكنني، خلال شهر بكماله، أن...»

ولكن الفتى لم يجد الكلمات التي كان يمكن أن تعبّر عن حالته العصبية الرهيبة. إن الإحساس بالاشمئاز الذي لا نهاية له والذي كان قد بدأ يجثم على صدره ويقبض قلبه ويختنقه خنقاً أثناء ذهابه إلى مسكن العجوز قد بلغ الآن أبعاداً عظيمة وأخذ يتجلّى بعنف شديد حتى صار الفتى لا يعرف كيف يتخلص من هذه النازلة التي ألمت به وهذا الحزن الذي عصف بقلبه. كان يمشي على الرصيف كالسكران لا يلاحظ حتى المارة الذين كان يصطدم بهم. ولم يثب إلى رشده إلا في الشارع التالي. فلما نظر حواليه لاحظ أنه أمام خماره ينزل إليها النازل على سلم يؤدي من الرصيف إلى القبو. وفي تلك اللحظة نفسها كان يخرج من الخمار سكراناً يسند كل منهما الآخر، ويتبادلان الشتائم أثناء صعودهما السلم. فلم يلبث راسكولنيكوف أن هبط إلى الخمار دون تردد. لم يسبق له أن دخل خماره في يوم من الأيام، ولكنه يشعر الآن

بدوار في رأسه، كما أن ظمأ لا يطاق كان يعتذبه. اشتتهى أن يشرب بيرة باردة، لا سيما وأنه كان يعزو ضعفه المفاجئ إلى الجوع أيضاً. جلس في ركن مظلم قدر أمام مائدة صغيرة متسخة بالدهن، وطلب بيرة فشرب كأساً أولى بشرابة، فلم يلبث أن شعر بشيء من التخفف والراحة، وأصبحت أفكاره أوضح. قال لنفسه وقد ارتد إليه الأمل: «ذلك كله سخافات! لا داعي إلى القلق! هو انزعاج جسمي لا أكثر! فما أن يشرب المرء كأساً من بيرة وما أن يأكل قطعة من بسكويت حتى يستند فكره ويقوى ذهنه وتتضخم أفكاره وتترسخ عزيمته. أوه! ذلك كله باطل!...» ولكن رغم بادرة الاستخفاف هذه، كان راسكولنيكوف كمن تحرر الآن فجأة من حمل ثقيل: ها هو ذا شيء من فرح يتجلّى منذ الآن في نظرته التي أخذت تطوف على الحضور بمودة وصداقة. ومع ذلك أحس، حتى في تلك الدقيقة، إحساساً غامضاً بأن حالة التفاؤل التي صارت إليها نفسه حالة مرضية هي أيضاً.

لم يبق في الخمارة في تلك الساعة إلا عدد قليل من الناس. فبعد السكرانين اللذين التقى بهما على السلم خرجت من الخمارة، دفعة واحدة، عصبة تتالف من خمسة شبان يجررون فتاة ومعهم أكورديون. فما أن انصرفوا حتى عاد الهدوء إلى الخمارة، فأصبح المرء يحسن بحرية أكبر. لم يبق في القاعة إلا شخص ثمل بعض الشمل، جالس أمام كأس بيرة، أغلب الظن أنه تاجر، ومعه رفيقه وهو رجل طويل سمين يرتدي قفطاناً قصيراً له لحية شائبة كان قد بلغ السكر منه كل مبلغ، فهو غافٍ فوق دكة، وهو يصفق بأصابعه من حين إلى حين كأنه يخرج من نومه على حين بغتة، ويأخذ يباعد ذراعيه، ويرجح القسم الأعلى من جسمه، دون أن ينهض عن الدكة، مدمداً بكلام سخيف، محاولاً أن يتذكر أبياتاً من الشعر من هذا النوع:

لأعبت زوجتي طوال السنة

لا... عبت زوجتي طوال السنة

أو قائلاً بعد أن يستيقظ من جديد:

حين مررت بشارع بودياتشسكيا⁽⁷⁾

التقيت بصديقتي القديمة الطيبة

ولكن لم يكن يشاركه أحد سعادته. حتى لقد كان رفيقه الصموم يرد على هذه الانفجارات باتخاذ وضع عدائٍ رياضي. وكان هنالك رجل ثالث يدل مظهّره على أنه موظف صغير محال على التقاعد. كان هذا الرجل متزويًا أمام كأسه يشرب من حين إلى حين، ويطوف ببصره على ما حوله، ويبدو عليه أنه يعاني هو أيضًا حالة عصبية.

الفصل الثاني

لـ يكن راسكولنيكوف معتاداً صحبة الناس، وكان كما سبق أن قلنا يتحاشى كل مجتمع، ولا سيما منذ فترة من الوقت. غير أن شيئاً كان يجذبه الآن إلى البشر على حين فجأة، فكان شيئاً جديداً قد حدث في نفسه، وكان يشعر في الوقت ذاته بشيء من الظماء إلى عقد الصلات بينه وبين أقرانه. إن ذلك الشهر الذي قضاه في غم ثقيل واحتياج كالح قد جعله متعباً إلى حد أنه يتوق الآن إلى استرداد أنفاسه ولو لحظةً من الزمن، في عالم آخر، في أي عالم آخر. لذلك شعر من بقائه الآن في الخمارة بلذة كبيرة رغم رداءة المكان.

وكان صاحب الخمارة يجلس في غرفة مجاورة، ولكنه يظهر في القاعة الرئيسية مرةً بعد مرة. وكان يصل إلى هذه القاعة هابطاً بضع درجات، فكان الجالس في هذه القاعة يرى، أول ما يرى، جزئيه الملمعتين بأناقة واللتين لهما حافتان مقلوبتان حمراوان. وكان لا يضع رباط عنق، يرتدي سترة مضيقه عند الخاصرة وصديرية سوداء من قماش الأطلس قد بلغت من الاتساع حداً رهيباً. أما وجهه فكان يلتمع من الدهن التماع قفل مزيت. ووراء البسطة كان يجلس صبي في نحو الرابعة عشرة من العمر. وكان هنالك صبي آخر أصغر سناً، يخدم الزبائن. وعلى البسطة كانت تُعرض دوائر خيار، وبسكويت أسود،

وشرائح سmk ، وكان ذلك كله ينشر رائحة كريهة . الجو خانق لا يكاد يطاق ، والهواء يبلغ من التشبع برائحة الخمرة أنه يكفي أن يمكث المرء فيه لبعض الوقت حتى يسكر .

يتفق للمرء أحياناً أن يلقى أناساً لا يعرفهم البتة فإذا هو يأخذ يهتم بهم منذ أول نظرة قبل أن يبادلهم كلمة واحدة . ذلك كان هو الإحساس الذي أحده في راسكولنيكوف الزبون المنزوبي الذي يدل مظهره على أنه موظف متلاعنة . تذكر الفتى مراراً كثيرة ، فيما بعد ، ذلك الإحساس الأول ، حتى لقد عزاه إلى نوع من النبوءة . كان راسكولنيكوف لا يحول بصره عن الموظف ، ولعل مرد ذلك أيضاً إلى أن هذا الموظف كان يلح في النظر إلى راسكولنيكوف ، وكان واضحأً أنه راغب رغبة قوية في عقد حديث معه . أما الأشخاص الحاضرون الآخر ، ومنهم صاحب الخمارة ، فقد كان الموظف ينظر إليهم نظرة جليس من جلسات الخمارة المزمنين ، مع ضجر منهم ومع شيء من الاحتقار لهم والتعالي عليهم في الوقت نفسه ، بأنه يعدهم أدنى كثيراً منه ، سواء من ناحية منزلتهم الاجتماعية أو من ناحية ثقافتهم وأدبهم ، فليس عليه أن يكلمهم . هو رجل تجاوز الخمسين من عمره ، متوسط القامة قوي البنية ، على رأسه الأصلع قليل من شعر أبيض ، له وجه أصفر أو قل ضارب إلى خضراء ، قد ورمه الشراب ، تستطع فيه تحت جفونين منتفخين عينان صغيرتان محمرتان حادتان . ومع ذلك كان في هذا الوجه شيء غريب جداً . إن نظرته تتلمع بنوع من الحماسة بل ولا تخلو من ذكاء وفكراً ، ولكن تلم بها ومضات جنون في بعض الأحيان . وكان يرتدي « فراكاً » عتيقاً رثاً قد سقطت أزراره ، إلا زرأ واحداً ما يزال في مكانه مهلهلاً يوشك أن يسقط ، ولكن الرجل قد أدخله في العروة حتى لا يجافي آداب اللياقة . ومن صدريته المصنوعة من قماش قطني أصفر كانت تخرج حافة قميص مجعدة متسخة ملطخة . وكان حليق الذقن ، كما يليق بموظف ، ولكن كان واضحأً أنه لم يكرر حلقة ذقنه منذ مدة طويلة ، فشعرها القاسي قد

أخذ يزّق خديه . هذا عدا أن وضعه يكشف عن شيء من وقار هو ما يتميز به موظف من الموظفين . ولكنه كان يُظهر قلقاً شديداً، وينفس شعره، ويضغط رأسه بيديه حزيناً يائساً، واضعاً كوعي كمية المثقوبين على المائدة الرطبة اللزجة . وفي النهاية نظر إلى راسكولنيكوف محدقاً في عينيه ، وقال يخاطبه بصوت عال ثابت :

- هل أجرؤ ، أيها السيد الكريم ، أن أوجه إليك بضع كلمات باحترام؟ فإن تجربتي تكشف فيك ، رغم مظهرك البسيط المتواضع ، عن إنسان حسنت ثقافته ، ولم يألف أن يشرب . لقد كنت طوال حياتي احترم الثقافة حين تقترب بعواطف القلب . وأنا عدا ذلك أحمل لقب مستشار اعتباري . اسمي مارميلادوف ، ولقبني مستشار اعتباري⁽⁸⁾ ،
أجرؤ أن أسألك هل أنت موظف؟

أجابه الفتى وقد أدهشه هذه اللهجة المنتفخة في كلام الرجل ، وأدهشه أن يخاطبه الرجل مباشرةً بلا لف ودوران :

- بل أنا أتابع دراستي .

وشعر راسكولنيكوف ، رغم ما أحسه منذ قليل من رغبة في صحبة أي إنسان ، شعر فجأة منذ الكلمات الأولى التي خاطبه بها الرجل ، بذلك النفور المأثور الأليم الذي كان يشعر به كلما قاربه إنسان مجهول أو حاول أن يقاربه .

- أنت إذن طالب ، أو طالب سابق... ذلك ما قدرته! هي التجربة يا سيدي الكريم ، تجربة طويلة متصلة! ومن أجل أن يعتبر عن احترامه لنفاذ بصيرته وسداد حكمه ، وضع اصبعاً على جبهته .

وأردف يقول :

- لقد كنت طالباً ، إلا أن تكون قد حضرت عدداً محدوداً من الدروس فحسب... ولكن اسمح لي... .

ونهض متربحاً ، فتناول زجاجته وقدحه وجاء يجلس قرب

راسكولنيكوف موارباً قليلاً. لقد كان سكران. ولكنها يتكلم بوضوح وطلاقه وحماسة. كل ما هنالك أنه يفقد حبل الحديث من حين إلى حين، فيبيطؤ تدفق كلامه. لقد هجم على راسكولنيكوف هجوماً يبلغ من الشراهة أن من يراه يعتقد أنه لم يكلم أحداً منذ شهر كامل هو أيضاً.

بدأ يقول بلهجة توشك أن تكون ذات أبهة:

- أيها السيد الكريم، ليس الفقر رذيلة، ولا الإدمان على السكر فضيلة، أنا أعرف ذلك أيضاً. ولكن البؤس رذيلة أيها السيد الكريم، البؤس رذيلة. يستطيع المرء في الفقر أن يظل محافظاً على نبل عواطفه الفطرية، أما في البؤس فلا يستطيع ذلك يوماً، وما من أحد يستطيعه قط. إذا كنت في البؤس فإنك لا تُطرد من مجتمع البشر ضرباً بالعصا، بل تُطرد منه ضرباً بالمكنسة، بغية إذلالك مزيداً من الإذلال. والناس على حق في ذلك، لأنك في البؤس أول من يريد هذا الذل لنفسه بنفسه. وهذا سبب ادمانك على الشراب! أيها السيد الكريم، منذ شهر، ضرب السيد ليزرياتنيكوف زوجتي، وزوجتي تختلف عني اختلافاً كبيراً! هل تفهم؟ اسمح لي أيضاً أن أقي عليك سؤالاً، هكذا، ولو من باب الفضول: هل حدث لك أن قضيت الليل في مركب علف على نهر النيفا؟)

أجاب راسكولنيكوف:

- لا... لم يحدث لي ذلك... ما هذا؟

- أما أنا فإني آت من هناك، من مركب العلف... وهذه هي الليلة الخامسة...

قال الرجل ذلك وصب قدحاً ثم أفرغه في جوفه وأخذ يفكر. وكان يُرى فعلاً، هنا وهناك، على ملابسه، وحتى على شعره، تبَّنَ ما يزال عالقاً. أغلبظن أنه لم يخلع ملابسه ولا غسل وجهه منذ خمسة أيام. وكانت يداه خاصةً قدرتين حمراوين أظافرهما الوسخة طويلة.

ويبدو أن كلامه قد أيقظ في نفوس الحضور اهتماماً عاماً، وان يكن

هذا الاهتمام ممتزجاً بالإهمال. أخذ الصبيتان، من وراء البسطة، يضحكان. ونزل صاحب الخمارة من الطابق الأعلى خصيصاً، من أجل أن يستمع للرجل «المازح»، فجلس متزوياً بعض الانزواء، وأخذ يتناءب في كسل، ولكن بكثير من الوقار والكبرياء. لا شك أن مارميلادور معروف هنا منذ زمن طويل. وأغلب الظن من جهة أخرى أنه قد اعتاد حب الكلام المزوج في أعقاب أحاديث كثيرة ألف أن يجريها في الخمارة مع أناس لا يعرفهم. إن هذه العادة تغدو حاجة قوية لدى بعض السكيرين، ولا سيما لدى أولئك الذين يعاملون في بيوتهم معاملة خشنة ظالمة. لذلك تراهم يحاولون متى سكرروا في صحبة الناس أن يدافعوا عن أنفسهم بخطب وكأنهم يبرؤون أنفسهم، وأن يكسبوا اعتبار الآخرين إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

قال صاحب الخمارة بصوت عالٍ:

- هل تمزح! لماذا لا تعمل؟ ولماذا لا تواظب على عملك ما دمت موظفاً؟

أجاب مارميلادور يقول مخاطباً راسكولنيكوف وحده، كأن راسكولنيكوف هو الذي ألقى السؤال:

- لماذا لا أواظب على عملي أيها السيد الكريم؟ لماذا لا أواظب على عملي؟ ولكن هل تظن أن قلبي لا يتآلم لمنظر خستي حين أرى أنني أمرؤ لا نفع فيه ولا جدوى منه؟ حين حدث منذ شهر أن ضرب السيد ليبيزياتنيكوف زوجتي، وكنت أنا رافقاً كالميت من فرط السكر، هل تظن أنني لم أتألم؟ اسمح لي أيها الفتى، هل اتفق لك... هم... نعم... هل اتفق لك مثلاً أن طلبت من أحد أن يقرضك مالاً دون أن يكون لديك أمل؟

- وقع لي هذا... ولكن ماذا تعني بقولك: دون أن يكون لديك أمل؟...

- أعني دون أن يكون لديك أي أمل، فإنك تعلم سلفاً أن طلبك لن يثمر شيئاً! . . . مثلاً: أنت تعلم سلفاً على وجه اليقين أن هذا المواطن مهما يكن صالحاً ومهما تكن نياته حسنة لن يعطيك المال بحال من الأحوال . . . ولماذا عساه يعطيك مالاً ما دام يعرف أنك لن ترده اليه؟ أمن باب الشفقة؟ إن السيد ليبزياتنيكوف، وهو مطلع على الأفكار الجديدة والأراء الحديثة، قد شرح منذ أيام أن الشفقة في أيامنا هذه يحظرها العلم، وأن الأمور تجري على هذا النحو منذ الآن في بلاد الإنجليز التي يسودها الاقتصاد السياسي. فلماذا عساه يعطيك مالاً؟ ومع ذلك، رغم علمك سلفاً بأنه لن يعطيك مالاً، فإنك تمضي إليه، و. . . قال راسكولنيكوف:

- ولماذا تمضي إليه؟

- كيف لا أمضي إليه إذا لم يكن هناك أحد غيره، وإذا لم يكن هناك مكان آخر أذهب إليه! لا بد لكل إنسان من أن يجد ولو مكاناً يذهب إليه، لأن الإنسان تمر به لحظات لا مناص له فيها من الذهاب إلى مكان ما، إلى أي مكان! حين ذهبت ابتي الوحيدة، أول مرة، إلى الشارع مع بطاقتها الصفراء⁽⁹⁾ ذهبت أنا أيضاً . . .

وأضاف مارميلادولف شارحاً وهو ينظر إلى الشاب بشيء من القلق:

- ذلك أن ابتي لها بطاقة صفراء.

وضج الصبيان بالضحك، وابتسم صاحب الخمارة، فأسرع مارميلادولف يقول فوراً وهو يصطنعم الهدوء:

- لا بأس يا سيدي الكريم، لا بأس . . . لا بأس . . . إن هزّهم رؤوسهم لا يبيث الاختصار في نفسي، لأن الأمر أصبح معروفاً لدى جميع الناس. نعم: كل خبيء مآلاته إلى ظهور⁽¹⁰⁾. وأنا لا أتعامل مع هذه الأشياء باحتقار بل بمذلة. طيب . . طيب . . «هوذا الإنسان!»⁽¹¹⁾ . . . اسمح لي أيها الفتى: هل تستطيع . . لا . . ي يجب

أن ألقى عليك هذا السؤال بقوة أكبر، بطريقة أبلغ دلالة وأصدق تعبيراً، يجب أن لا أقول هل تستطيع، بل يجب أن أقول هل تجرؤ أن تؤكد حين تتأملني في هذه اللحظة، أنتي لست خنزيراً؟
لم يجب الشاب بكلمة.

وتتابع الخطيب كلامه بمزيد من الرصانة، بعد أن انتظر انتهاء القهقهات التي أثارتها أقواله الأخيرة، تابع كلامه فقال:

- طيب... فلنسلم بأنني خنزير، ولكنها هي سيدة! حقاً إنني أشبه «الوحش»⁽¹²⁾ كل الشبه، ولكن زوجتي كاترينا ايفانوفنا إنسانة تملك حظاً عظيماً من الثقافة، هذا عدا أنها ابنة ضابط كبير. لنسلم، لنسلم بأنني وجد دنيء، ولكنها هي ذات نفس كبيرة وروح جميلة، ولها بحكم تربيتها عواطف نبيلة ومشاعر كريمة. ومع ذلك... آه... ليتها تشفق عليّ! سيدى الكريم، سيدى الكريم، لا بد لكل إنسان من أن يجد أيضاً، في مكان ما على الأقل، شخصاً يشفق عليه! ولكن كاترينا ايفانوفنا ظالمة، رغم أنها سيدة تفيض نفسها سماحة. ورغم أنني أفهم أنا نفسي، حين تشدني من شعري، أنها إنما تشدني من شعري شفةً على ورأفة بي. لست أخجل من أن أكرر أيها الفتى أنها تشدني من شعري (كذلك أكد مارميلادولف بمزيد من الرصانة حين سمع انفجار القهقهات من جديد)، فإني أتمنى، يا رب، أن يتყق لها مرةً واحدةً... ولكن لا، لا، هذا كله لا فائدة منه، ولا طائل تحته، ولا يستحق أن أتكلم عنه! لا يستحق!... ذلك أنهم اشفعوا عليّ أكثر من مرة وتحقق ما كنت أتمناه غير مرة. ولكن هذه طبيعتي أيضاً. نعم، إنني إنسان فُطر على الغلطة والفظاظة.

- جداً!

كذلك قال صاحب الخمارة متثائباً.

فضرب مارميلادولف المائدة بقبضة يده ضربة قوية، وقال:

- هذه هي طبيعتي! هل تعلم، هل تعلم أيها السيد أنني شربت خمراً حتى بثمن جوربيها؟ لا بثمن حذاءيها، فلو قد شربت خمراً بثمن حذاءيها لكان الأمر طبيعياً بعض الشيء، ولكنني شربت خمراً بثمن جوربيها، نعم بثمن جوربيها! حتى وساحتها الصغير المصنوع من شعر الماعز، بعثه أيضاً وشربت بثمنه خمراً، وكان قد أهدي إليها من قبل، فهو ملكها، ملكها هي، لا ملكي أنا. ونحن نعيش في غرفة باردة، وقد مرضت في هذا الشتاء، وأخذت تسعل، حتى إنها تبصق دماً منذ الآن... ولنا ثلاثة أولاد صغار، إن كاترينا ايفانوفنا تعمل من الصباح إلى المساء: تمسح وتغسل، وتنظف الأولاد! ذلك أنها معتادة على النظافة منذ صغرها. إن رئتها ضعيفتان، ومهيأة للإصابة بمرض السل، أنا أحس هذا. أنا لا أحس هذا؟ بالعكس، كلما شربت مزيداً من الخمرة، أحسست به مزيداً من الإحساس. نعم، إذا كنت أشرب، فإنما أنا أشرب سعيأً وراء الشفقة، وراء العاطفة. أنا أشرب لأتألم الما مضاعفاً... .

قال مارميلاروف ذلك، وأسند رأسه على المائدة وقد عبر وجهه عن غاية الحزن والكرب. ثم عاد ينتصب ليكمل كلامه قائلاً:

- أيها الفتى، أحسب أنني أقرأ في وجهك حزناً. ولقد قرأت هذا الحزن في وجهك منذ دخولك، لذلك سارعت أخاطبك. فإذا كنت أنقل إليك قصة حياتي، فإني لا أفعل ذلك لأحرّر نفسي أمام هؤلاء الكسالي الذين يعرفونها معرفة تامة على كل حال، بل لأنني أبحث عن إنسان حساس كريم النفس حسن التربية. اعلم أن زوجتي قد تربت في مدرسة داخلية ارستقراطية بالأقاليم، وأنها رقصت رقصة الشال أمام المحاكم وشخصيات أخرى، وأنها قد نالت على ذلك ميدالية ذهبية⁽¹³⁾ وشهادة فخرية... فأما الميدالية فقد بعندها أيضاً... منذ زمن طويل... هم... وأما الشهادة الفخرية فهي ترقد حتى الآن في صندوق، وقد حرصت كاترينا ايفانوفنا على أن تريها لصاحبة البيت... .

نعم... فرغم أن بينها وبين صاحبة البيت مشاجرات مستمرة، فقد راودتها الرغبة في أن تعتز أمام شخص ما، أن تذكر شخصاً ما بالأيام الجميلة من ماضيها. لست ألومنها على ذلك، لست ألومنها، لأن هذه الذكرى هي كل ما تملكه الآن، أما الباقي فقد طار كله! نعم... إن زوجتي سريعة الغضب، شديدة الكبراء، صعبة المراس. إنها تغسل أرض الغرفة بيديها، وتكتفي بخبز أسود، ولكنها لا تسمح أن يقلل أحد من احترامها. ذلك هو السبب في أنها لم تشاً أن تسكت للسيد ليبيزياتنيكوف عن فظاظته، فلما ضربها لذلك، فإنها لم تمرض بسبب الضربات التي كالها لها بل بسبب الإساءة التي لحقت كرامتها. لقد تزوجتها أرمل لها أولاد ثلاثة هم جميـعاً صغار. كانت قد تزوجت مرة أولى عن حب، تزوجت ضابط مشاة هربت معه من منزل أبيها. كانت تحب زوجها حباً عنيفاً، ولكن زوجها اندفع في المقامرة، وأحيل إلى المحاكمة فمات. وكان في المدة الأخيرة يضربها، ورغم أنها كانت لا تسكت له عن شيء - وهذا ما أعرفه من وثائق مفضلة يُركن إليها - فإنها ما تزال تبكي حين تتذكرة، وتعيرني بالمقارنة بيني وبينه. وأنا أبتهج بهذا، أبتهج به، ف بهذه الطريقة تعتقد على الأقل أنها كانت سعيدة في يوم من الأيام... وبعد موت زوجها بقيت وحيدة مع أولادها الثلاثة في مقاطعة نائية متوحشة كنت أعيش أنا فيها أثناء ذلك الوقت. كانت في بؤس يبلغ من الهول أنني لن أستطيع أن أصفه لك إذا أنا حاولت ذلك، رغم أنني قد عانيت أنا نفسـي أنواعاً كثيرة من البؤس. جميع أفراد أسرتها أداروا لها ظهورهم. وكانت هي شديدة الكبراء... وفي ذلك الوقت، يا سيدـي الكريم، إنما طلبت أنا يدها، وكنت أرمل أيضاً، لي من امرأـي الأولى بـنت في الرابـعة عشرـة من عمرـها... طلبت يدها لأنـي لم أـكن أـستطيع أن أحـتمـل عـذـابـاً كـذـكـ العـذـابـ.

في وسعك أن تخيل درجة البؤس الذي لا بد أنها كانت تعانيـه حين ارتضـتـ، هي المرأة المثقـفةـ التي تربـتـ أـحسـنـ تـربـيةـ والـتيـ تـنـتمـيـ إـلـىـ

أسرة مرمودة، حين ارتفعت أن تتزوجني! صحيح أنها وافقت على ذلك باكيةً متحبةً عاقفةً يديها من الحسرة والحزن، ولكنها تزوجتني، لأنه لم يكن لها مكان تذهب إليه! هل تدرك يا سيد الكريمة، هل تدرك ما معنى أن لا يكون للإنسان مكان يذهب إليه؟ لا، إنك لا تستطيع أن تدرك هذا بعد... وخلال سنة كاملة ظللت أقوم بواجبي بشرف وأمانة وإخلاص، دون أن أقارب هذه (هنا أشار مارميلا دوف بإصبعه إلى الزجاجة)، لأنني إنسان ذو عاطفة. ولكنني بهذا أيضاً لم أستطع أن أفوز برضاهما. وإذا فقدت أثناء ذلك وظيفتي أيضاً، دون أن يكون لي في هذا ذنب على كل حال، وإنما كان فقدى وظيفتي نتيجة لتغييرات في هيئة الموظفين، فقد أخذت ألامس هذه!... ومنذ سنة ونصف تقريباً إنما هبطنا، بعد ترحال كثير ومصائب لا حصر لها، إنما هبطنا هذه العاصمة الرائعة ذات المباني التاريخية التي لا يُحصى عددها. وهنا عثرت على وظيفة. عثرت عليها ثم فقدتها من جديد. هل تفهم؟ لقد كان الذنب في فقدها هذه المرة ذنبي أنا، لأن طبيعتي الحقيقية قد انتصرت... ونحن نقيم الآن في ركن من بيت امرأة اسمها آماليا فيدوروفنا ليبيفكسن، أما ممّ نعيش وكيف ندفع أجراً المسكن، فذلك ما لا أعرف عنه شيئاً! وفي المسكن يقيم أناس كثيرون غيرنا... نحن في سدون فظيعة... هم... نعم!... وفي أثناء ذلك كانت ابنتي من زواجي الأول تكبر. لن أحدهك عن المعاملة التي تحملتها ابنتي من زوجة أبيها. إن كاترينا يفانوفنا شديدة الغضب، عنيفة، سريعة الاندفاع، رغم أن نفسها تفيض بالمشاعر السمحاء!... نعم! دعنا من هذا على كل حال. ما فائدة تذكر هذه الأمور الآن! تستطيع أن تخيل طبعاً أن ابنتي صونيا لم تصب حظاً من تعليم. صحيح أنني حاولت، منذ أربع سنين، أن أعلمها الجغرافيا والتاريخ العام، ولكنني لم أكن قوياً في هذا الميدان، وكانت تعوزني الكتب المناسبة من جهة أخرى، فإن الكتب القليلة التي كنت أملكها... هم... أصبحت لا أملكها... لذلك توقفت دراسة

ابنتي . . . وصلنا إلى الحديث عن سيروس، ملك الفرس . . . وبعد ذلك، حين بلغت ابنتي سن الرشد، قرأت بعض الكتب الروائية، ثم قرأت في الآونة الأخيرة، بواسطة السيد ليزياتنيكوف، كتاب ليويس⁽¹⁴⁾ «الفيزيولوجيا»، هل تعرف هذا الكتاب؟ قرأته ابنتي بكثير من الاهتمام، حتى لقد قرأت لنا فقرات منه بصوت عال. ذلك هو كل ما حصلته ابنتي صونيا⁽¹⁵⁾ من تعليم. والآن أتوجه إليك يا سيدي الكريم، فألفي عليك هذا السؤال بصفة شخصية تماماً: هل تستطيع فتاة فقيرة لكنها شريفة، هل تستطيع في رأيك أن تكسب مالاً كثيراً بالعمل الشريف؟ إنها لن تكسب خمسة عشر كوبيناً في اليوم، إذا هي كانت شريفة وإذا هي لم تملك أية هبة خاصة، وهذا على شرط أن لا تترك العمل دقيقة واحدة أيضاً. ثم إن مستشار الدولة⁽¹⁶⁾ كلوبيشك، إيفان ايفانوفتش كلوبيشك - هل سمعت عنه؟ - لم يكتف بأن لا يدفع لها أجراًها عن ستة قمصان خاطتها له من قماش هولندي، بل زاد على ذلك فطردها شرط طردة وهو يقع الأرض بقدمه ويصفها بأبغض النعوت، بحجة أن إحدى الياقات لم تكن على قياس عنقه، وأنها قصتها مقلوبة. والصغر في أثناء ذلك جائعون . . . وكاترينا ايفانوفنا في أثناء ذلك تمشي في الغرفة ذاهبة آيبة، عاقفة يديها، وقد أخذت البقع الحمراء تظهر على خديها، كما يحدث ذلك دائماً للمصابين بهذا المرض. قالت كاترينا ايفانوفنا لابنتي صونيا: «يا عالة، إنك تسكنين في غرفة دافئة ولا تزيددين هنا على أن تملئي بطنك طعاماً وشراباً!» لأن المسكينة قد أتيحت لها أن تأكل وأن تشرب وهي لم تضع في فمها كسرة خبز منذ ثلاثة أيام! و كنت أنا راقداً . . . نعم . . . فعلاً . . . كنت راقداً سكران . . . وهاؤنا ذا أسمع ابنتي صونيا تتكلم (إنها عزلاء، لا تملك عن نفسها دفاعاً . . . ما أعدب صوتها . . . هي شقراء كل الشقرة . . . ووجهها شديد الشحوب والنحول دائماً) قالت: «أحقاً يا كاترينا ايفانوفنا، أحقاً تريدين أن أعد نفسي لمثل هذا الأمر؟» والموضوع أن داريا فراتسوفنا، وهي امرأة سيئة النيات تعرفها

الشرطة جيداً، كانت قد استعلمت عن صونيا ثلاث مرات بواسطة صاحبة البيت. أجبت كاترينا ايفانوفنا وهي تضحك ساخرة: «هه! ألا أن كنزاً كهذا الكنز ليستحق أن تحافظي عليه!» ولكن لا تفهمها، لا تفهمها يا سيدي الكريم، لا تفهمها! لم تكن تتكلم هادئة النفس مالكة وعيها... لقد كانت محطمة الأعصاب مريضة وصغارها يبكون جوعاً. ثم إننا لا يجوز لنا أن نفهم أقوالها بمعناها الحقيقي، وإنما يجب أن نفهم هذه الأقوال على أنها إهانة فحسب... ذلك هو طبع كاترينا ايفانوفنا: حين يبكي أولادها، ولو من الجوع، فإنها تأخذ تضربهم فوراً. وهاؤنا، قبل الساعة السادسة بقليل، أرى صونيتاشكا تنهض فتناول وشاحها وبرنسها وتخرج، ثم تعود قبل الساعة التاسعة. فلما دخلت مضت إلى كاترينا ايفانوفنا قُدّماً فوضعت أمامها على المنضدة ثلاثين قطعة نقدية من فئة الروبل، ثم لم تزد، حتى دون أن تنظر إليها، ودون أن تقول كلمة واحدة، لم تزد على أن تناولت الشال الكبير الأخضر المصنوع من صوف خفيف (نعم، عندنا شال من هذا النوع يستعمله جميعاً)، فغطت به رأسها ووجهها تماماً، ورقدت على السرير متوجهة بوجهها نحو الحائط، فكنا لا نرى إلا ارتجاف كتفيها وارتعاش جسمها... وكانت ما أزال على حالي تلك نفسها... فرأيت عندئذ، أيها الفتى، رأيت كاترينا ايفانوفنا تقترب، دون أن تقول كلمة واحدة هي أيضاً، من سرير ابنتي صونيتاشكا، وتظل هنالك طوال السهرة راكعة عند قدميها تقبلها ولا ت يريد أن تنهض. وبعد ذلك، بعد ذلك، رأيتهما تنامان معاً متعانقتين... معاً... كلتيهما... وكانت أنا راقداً... على حالة السكر تلك ذاتها... .

صمت مارميلادولف لأن صوته قد انقطع، ثم ملأ كأسه فجأة وبسرعة فأفرغه في جوفه، ودلك حلقه، وتتابع يقول بعد لحظة صمت:

- ومنذ ذلك العين يا سيدي، على أثر ظرف تعيس ونتيجةً لوشایة أشخاص أشرار، ولا سيما داريا فرانتسوفنا، بحجة أننا لم نراعها،

اضطرت ابنتي صوفيا سيميونوفنا أن تكون ذات بطاقة صفراء وأن تتركنا تبعاً لذلك، لأن صاحبة البيت، آماليا فيودوروفنا، لم تشاً أن تحتمل هذا الوضع (مع أنها كانت قد ساعدت داريا فرانتسوفنا في ذلك الأمر في الماضي)، وكذلك السيد ليزياتنيكوف... وحول موضوع صوفيا هذا إنما جرت تلك الحكاية بينه وبين كاترينا إيفانوفنا. ففي بداية الأمر كان هو نفسه قد حاول التقرب من صونি�تشكا والتماس الحظوة بها، ثم ها هو ذا يثور قائلاً: «كيف يمكنني، أنا الرجل المستنير، أن أعيش في نفس المسكن الذي تعيش فيه هذه ال...». ولكن كاترينا إيفانوفنا لم تستسلم، بل تدخلت... فحدث ما حدث. والآن تزورنا صونি�تشكا من حين إلى حين (بعد هبوط الليل)، فتساعد كاترينا إيفانوفنا وتمدها باللازم... إنها تقيم في مسكن الخياط كابرناوموف⁽¹⁷⁾ الذي استأجرت غرفةً عنده. وكابرناوموف، عدا أنه يعرج ويثنىء، له أولاد كثيرون يثنئون جميعاً كذلك. وامرأته ثثنىء أيضاً... إنهم يسكنون جميعاً في حجرة واحدة. ولكن صوفيا لها حجرة خاصة بها وراء حاجز... هم... نعم... أنساس لا يتصور للمرء أن يكون في العالم من هم أفقر منهم... وهم إلى ذلك ثثنائون... نعم... ونهضت في ذات صباح، فارتديت أسمالي البالية، ورفعت ذراعي نحو السماء مبتهلاً، ثم ذهبت إلى عند صاحب السعادة إيفان آفاناسييفتش. هل تعرف صاحب السعادة إيفان آفاناسييفتش؟ لا تعرفه؟ إذاً فأنت لا تعرف إنساناً قلبه لله، هذا رجل نقى نقاء الشمع، نقاء شمع بكر أمام وجهه... والشمع يذوب... وقد ذاب هو دموعاً بعد أن تفضل فأصغى إلى كلامي حتى النهاية. فلما فرغت من حديثي قال لي: «اسمع يا مارميلادولف، لقد خبيت ظني مرة... ولكنني سأوظفك هذه المرة أيضاً، على مسؤوليتي الخاصة - تلك كانت أقواله - فتذكرة هذا. والآن في وسعك أن تصرف». قبلت موطئ قدميه - بالخيال طبعاً، لأن هذا الموظف الكبير الذي آمن بالأفكار الجديدة على صعيد الدولة والثقافة ما كان له أن

يسمح لي بأن أقبل موطن قدميه بالفعل . وعادت إلى مسكنى ، فلما زفت إليهم بشرى أنني سأعود إلى وظيفتي وأنني سأتقاضى راتباً . . . آه . . . رباء . . . لا أستطيع أن أصف لك ما حدث . . .

صمت مارميلادولف من جديد ، مضطرباً أشد الاضطراب . وفي تلك اللحظة دخلت عصبة كبيرة من السكارى آتية من الشارع ، وعلى عتبة الخمارة دوت أصوات أرغن يدوى استؤجر لهذه المناسبة ، كما دوى صوت نحيل هو صوت طفل في السابعة من العمر كان يغنى أغنية «القرية الصغيرة» . ضجت القاعة بالصخب . وأسرع صاحب الخمارة والخدم يهتمون بالقادمين الجدد ، ولكن مارميلادولف تابع سرد قصته دون أن ينتبه إلى أحد . كان يبدو وكأن الخمرة قد حطمته وسحقته ، ولكن كلما ازداد سكره ازداد تدفقه في الكلام . أن ذكرى النجاح الأخير الذي أصابه مسعاه قد أنعشته بعض الانعاش ، حتى لقد أضفت على وجهه نوعاً من الاشراق والاشعاع . وكان راسكولنيكوف يصغي إليه بانتباه . . .

- حدث ذلك منذ خمسة أسابيع يا سيدى . . . نعم . . . فما أن علمت كاترينا إيفانوفنا وصونيتتشكا بالنها حتى حدث - يا رباء ! - ما يشبه أن أكون قد انتقلت إلى السماء . قبل ذلك كنت ألبث راقداً على الأرض كبهيمة وأتلقي الشتائم وأبلغها ! أما الآن فإنهما تسيران على رؤوس الأصابع ، وتسكنتان الأولاد قائلتين : «لقد تعب سيميون زاخارتش اليوم في مكتبه ، فهو الآن يستريح . . . هست !» وصرت قبل أن أذهب إلى عملي ، أوتى بالقهوة وتسخن لي القشدة . صارت تستطيعان الحصول على قشدة . . . حقيقة . . . هل تسمع ؟ وأين يمكنهما الحصول على أحد عشر روبلأ وخمسين كوبيكأ لتجهزاني تجهيزاً لائقاً ؟ ذلك أمر لم أفهمه في يوم من الأيام . حذاءان ، بزة رسمية ، قمصان ممتازة . . . لقد اشترا هذه الأشياء كلها بأحد عشر روبلأ وخمسين كوبيكأ ، وجعلتها حسنة المظهر لائقة . ماذا رأيت عند أول صباح عدت فيه من المكتب ؟ أعدت كاترينا إيفانوفنا طبقين ، حساء

ولحم بقير مملحا من فجل حار، وذلك أمر لم يحدث قبل ذلك في يوم من الأيام. ثم إنها لم تكن تملك ما تدثر بها ظهرها... لم تكن تملك أي شيء يمكن أن يسمى دثاراً للظهور... فها هي ذي في ذلك الصباح مرتدية أجمل حلة، كأنها كانت ذاهبة إلى زيارة. وليس لباسها جديداً ولكنها تستطيع أن تخلق من العدم شيئاً. كانت وقد صفت شعرها تصفيقاً جميلاً وأحاطت جيداً بيافطة صغيرة بيضاء، وزينت ذراعيها بكمين لطيفين، قد أصبحت إنسانة أخرى تبدو أصغر سناً وأحسن رونقاً وألطف جمالاً! أما صونيتشكا، يمامتي الصغيرة، فقد اكتفت بتقديم المال، وقالت: «ولكنني أنا لن أستطيع أن أجيء إليكم الآن كثيراً، فذلك ليس بلاائق، وإنما أجيء إليكم عند هبوط الليل، حتى لا يراني أحد». هل تسمع؟ هل تسمع؟ وبعد الغداء مضيت أرقد على السرير. فهل تصدق؟ إن كاترينا ايفانوفنا لم تطق صبراً. لم يكن قد انقضى على تشاجرها مع آماليا فيدوروفنا صاحبة البيت إلا أسبوع في أكثر تقدير، ومع ذلك دعتها إلى تناول فنجان من القهوة. وقضتا ساعتين كاملتين تتهامسان دون توقف. قالت لها: «إن سيميون زاخارتش⁽¹⁸⁾ له الآن وظيفة، وهو يقبض الآن راتباً. لقد ذهب بنفسه إلى صاحب السعادة، وهب صاحب السعادة نفسه إلى لقائه: جعل جميع الناس ينتظرون، وأمام جميع الناس تناول يد سيميون زاخارتش وقاده إلى مكتبه (هل تسمع؟ هل تسمع؟) وقال له صاحب السعادة: إبني أتذكر بالطبع خدماتك الطيبة يا سيميون زاخارتش، ورغم انقيادك لمليك الطائش، فإنني آمل، ما دمت تعد بأن لا تنقاد بعد اليوم لذلك الميل الطائش، وما دام كل شيء، من جهة أخرى، قد جرى هنا أثناء غيابك مقلوباً (هل تسمع؟ هل تسمع؟)، فإنني آمل أن تفي الآن بوعدك وأن لا تخون العهد الذي تقطعه على نفسك». الحق أن هذا كله إنما اخترعته اختراعاً وارتجلته ارتجالاً - أنا أقول لك الآن ذلك - ولكنها لم تعمد إلى هذا الاختراع والتلفيق انسياقاً مع ميول صبيانية، ولا حبأ في إظهار قيمتها

وإعلاه شأنها. بالعكس: لقد صدقت هي نفسها كل ما تخيلته، وما كان أعظم تلذذها به... قسماً بالرب! وأنا لا ألومها... لا... أنا لا ألومها على هذا... وحين أتيتها براتبي الأول كاملاً منذ ستة أيام - ثلاثة وعشرين روبلًا وأربعين كوبيناً - نادتني بقولها: يا حبيبي... خاطبني قائلة «ما أجملك يا حبيبي!» قالت لي هذا وكنا في خلوة، هل تفهم؟ وهل أنا جميل وهل أنا زوج على كل حال؟ ولكنها فرحت خدي وقالت لي: «ما أجملك يا حبيبي!».

انقطع مارميلادول عن الكلام، وأراد أن يبتسم، ولكن ذقنه ارتجفت فجأة. ومع ذلك كبح جماح نفسه.وها هي ذي الخمارة، وسقوط هذا الرجل، وحبه المريض لامرأته وأسرته كلها، والليالي الخمس التي قضتها على العوامات ناقلات العلف، ومنظر الزجاجة، ها هي تلك الأمور كلها تفرق راسكونيكوف في ذهول. كان يصغي بأكبر انتباه ممكن، ولكنه أحسّ بضيق وانزعاج. ولم نفسه على أنه جاء إلى هذا المكان.

صاحب مارميلادول يقول وهو يتمالك نفسه:

- أيها السيد الكريم، أيها السيد الكريم، ربما كانت هذه القصة تضحكك كما تضحك الآخرين، ولعلني لا أزيد من تفاصيل حياتي المنزلية. ولكن هذا كله لا يضحكني أنا، لأن هذا كله إنما أحسه أنا بكل جوارحي. لقد قضيت ذلك النهار كله وتلك السهرة كلها وأنا في مثل الجنة أطير على أجنحة أحلامي. كنت أفكّر في الطريقة التي سأدبر بها الأمور: كيف سأكسو هؤلاء الأولاد، كيف سأهيئ لها هي الهدوء والسكينة والطمأنينة، كيف سأنتزع ابتي الوحيدة من وهذه العار وأردها إلى أحضان الأسرة... . وكانت أحلم بأشياء أخرى أيضاً، بأشياء كثيرة جداً. ذلك مسموح به لي يا سيدي. وبعد ذلك أيها السيد. (هنا ارتعش مارميلادول فجأة، ونصب رأسه وحدق إلى محدثه) بعد جميع تلك

الأحلام الجميلة (أي منذ خمسة أيام على وجه الدقة) أي في مساء اليوم التالي عمدت إلى أنواع الحيل والأكاذيب، فسرقت من كاترينا إيفانوفنا مفتاح صندوقها، كلص الليل⁽¹⁹⁾، فأخذت ما كان قد بقى من أجرى الذي أعطيتها أيام... لا أدرىكم كان المبلغ تماماً... نعم، ذلك ما حدث... انظر أين أنا الآن... انظروا جميعاً... لقد تركت البيت منذ خمسة أيام. وهم هناك يبحثون عنـي. ولقد فقدت وظيفتي، وبقيت بزتي الرسمية مرهونة في خمارـة، على مقربة من «الجسر المصري»⁽²⁰⁾ فحصلت على هذه الثياب... كل شيء انتهى!

لطم مارميلاروف جبهته بقبضة يده، وكـرـأ أسنانه، ثم أغمض عينيه واستند بكتـوعـه إلى المائدة استنادـاً قويـاً. ولكن وجهـه تغير بعد دقيقة تغيـراً مفاجـئـاً مباغـتاً، فإذا هو بنـوعـ منـ المـكـرـ والـوـقـاهـةـ الـمـتـظـاهـرـةـ إنـماـ يـنـظـرـ الـآنـ إلى راسـكـولـنيـكـوفـ. ثم أخذ يضـحـكـ وـقـالـ:

ـ والـيـوـمـ ذـهـبـتـ إـلـىـ صـوـنـيـاـ أـطـلـبـ مـنـهـاـ مـالـاـ...ـ لـأـشـرـبـ قـلـيلاـ مـنـ أـجـلـ تـخـفـيفـ وـجـعـ رـأـسـيـ...ـ هـاـ هـاـ!ـ

صـاحـ يـسـأـلـهـ أـحـدـ الـقـادـمـينـ الـجـدـدـ وـهـوـ يـضـحـكـ مـلـءـ حـلـقـهـ:

ـ وـهـلـ أـعـطـتـكـ مـالـاـ؟ـ

قال مارميلاروف متـجـهـاـ بـكـلامـهـ إـلـىـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ وـحـدـهـ: لقد جاءـتـيـ صـوـنـيـاـ بـثـلـاثـيـنـ كـوـبـيـكـاـ قـدـمـتـهـاـ إـلـىـ بـيـدـهـاـ نـفـسـهـاـ. وـكـانـ هـذـاـ مـبـلـغـ كـلـ ماـ بـقـيـ لـهـاـ...ـ رـأـيـتـ ذـلـكـ بـنـفـسـيـ. لمـ تـقـلـ شـيـئـاـ، اـكـتـفـتـ بـأـنـ نـظـرـتـ إـلـىـ صـامـتـةـ...ـ نـظـرـتـ إـلـىـ لـاـ كـمـاـ يـكـونـ النـظـرـ فـيـ هـذـهـ الـحـيـاةـ الـدـنـيـاـ، بلـ فـيـ الـحـيـاةـ الـآـخـرـةـ، فـيـ السـمـاءـ، حـيـثـ لـاـ يـوـقـظـ الـأـشـقـيـاءـ فـيـ الـقـلـوبـ إـلـاـ عـاطـفـةـ الشـفـقـةـ، حـيـثـ يـبـكـيـ النـاسـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ الـأـشـقـيـاءـ دـوـنـ أـنـ يـوـجـهـوـاـ إـلـيـهـمـ كـلـمـةـ تـقـرـيـعـ وـحـيـنـ لـاـ يـقـرـعـكـ أـحـدـ، فـإـنـكـ تـشـعـرـ بـأـلـمـ أـشـدـ وـعـذـابـ أـقـوىـ!ـ نـعـمـ!ـ تـشـعـرـ بـأـلـمـ أـشـدـ وـعـذـابـ أـقـوىـ!ـ ثـلـاثـيـنـ كـوـبـيـكـاـ...ـ نـعـمـ...ـ وـلـكـنـهـاـ كـانـتـ فـيـ حـاجـةـ إـلـىـ هـذـهـ الـثـلـاثـيـنـ كـوـبـيـكـاـ. هـاـ؟ـ أـلـيـسـ كـذـلـكـ يـاـ

سيدي الكريم؟ عليها الآن أن تعتني بنفسها، وأن تهتم بنظافتها. والنظافة، تلك النظافة، تكلف نفقات كبيرة، هل تفهم؟ هل تفهم؟ هناك دهون يجب أن تشتريها لتطهير بها... يستحيل عليها أن لا تفعل ذلك! وهناك التنورات المتصلبة، والأحذية الأنثوية التي تسمع باظهار القدم الصغيرة عند تجاوز بركة ماء بخطوة كبيرة! هل تفهم يا سيدي ماذا تعني نظافة كتلك النظافة؟ وهأنذا، أنا أبوها، اختلس الثلاثين كوبيكاً التي تملكها لأشرب بها خمراً. ولقد أنفقت ذلك المبلغ فعلاً في الشراب!... فمن ذا الذي يستطيع أن يرثي لحال رجل مثلـي؟ هل ترثي لحالـي أنت الآن يا سيدي؟ هل ترثي لحالـي؟ تكلـم يا سيدي، تكلـم: أترثي لحالـي أم لا؟ هي هي هي!...

قال مارميلادولف ذلك وأراد أن يصب في كأسه خمراً، ولكن الخمر كان قد نفذ... . كانت الزجاجة فارغة!

وكان صاحب الخمارـة قد اقترب مرة أخرى، فهتف يسأله:

- فيم عسى يرثي الناس لحالـك؟

وسمعت ضحكـات وشتائمـ. كان يطلق الضحكـات والشتائمـ أولئـك الذين سمعوا القصـة كلـها وأولئـك الذين لم يسمعوا شيئاًـ الـبـة ولكنـهم ينظـرون إلىـ الرجلـ الذيـ كانـ موظـفاًـ.

زار مارميلادولف فجـأةـ، وهو ينهـضـ، مـادـاـ ذـراعـيهـ إـلـىـ أـمـامـ، وـقـدـ وـافـاهـ إـلـهـامـ حـقـيقـيـ، كـأـنـهـ لمـ يـسـمـعـ إـلـاـ تـلـكـ الـكـلـمـاتـ، زـارـ يـقـولـ:

- لماذا عـسىـ يـرـثـيـ لـحالـيـ؟ أـهـذـاـ ماـ تـقولـهـ؟ نـعـمـ، لـيـسـ هـنـاكـ مـاـ يـدـعـوـ إـلـىـ الرـثـاءـ لـحالـيـ؟ وإنـماـ يـنـبـغيـ أنـ أـصـلـبـ، أـنـ أـصـلـبـ عـلـىـ صـلـيبـ، لـاـ أـنـ يـرـثـيـ لـحالـيـ؟ وـلـكـنـ أـصـلـبـهـ، أـيـهـاـ القـاضـيـ، ثـمـ اـرـثـ لـحالـهـ بـعـدـ أـنـ تـصـلـبـهـ. وـعـنـدـئـذـ سـأـمـضـيـ إـلـيـكـ بـنـفـسـيـ، أـوـاجـهـ العـذـابـ مـوـاجـهـةـ، لـأـنـ ظـمـئـيـ لـيـسـ إـلـىـ فـرـحـ، بلـ إـلـىـ حـزـنـ وـدـمـوعـ! أـتـرـاكـ تـظـنـ أـيـهـاـ الـبـائـعـ أـنـ هـذـهـ الزـجاجـةـ الـتـيـ اـشـتـرـيـتـهـاـ مـنـكـ قـدـ جـاءـتـنـيـ بـالـفـرـحـ وـحـمـلـتـ إـلـىـ الـمـسـرـةـ؟ أـلـاـ إـنـ

الألم، ألا إن الألم هو ما كنت أنشده في قرارة تلك الزجاجة...
 نعم... الألم والدموع!.. ولقد ذقت فيها الألم، لقد وجدت فيها ما
 كنت أنشده! ولكن ذلك الذي يشفق على جميع الناس ويرأف بجميع
 الناس، سيشفق علينا، وسيرأف بنا... لأنه يدرك كل شيء. إنه هو
 الواحد الأحد. إنه هو القاضي الأعلى. سيظهر في يوم الحساب
 فيسأل: «أين هي تلك الفتاة المسكينة التي ضحت بنفسها في سبيل أمراة
 أبيها الشريرة المصدورة»، في سبيل صغار امرأة أخرى؟ أين هي تلك
 الفتاة المسكينة التي أشفقت على أبيها الدنيوي، السكير الذي لا براء له،
 دون أن تدع لنفسها أن تشمئز من حيوانيته؟» وسوف يقول لها: «تعالي!
 لقد سبق أن غفرت لك مرة... سبق أن غفرت لك مرة... والآن
 أعفو عن جميع خططياك، لأنك أحببت كثيراً... وسيغفر لها، سيغفر
 لابنتي العزيزة صونيا... أنا أعلم أنه سيغفر لها... شعر قلبي بهذا
 حين كنت عندها منذ قليل... وسوف يحكم عليهم جميعاً. سيغفر
 للأخيار والأشرار، سيغفر للحكماء والبسطاء على السواء. حتى إذا فرغ
 من الجميع، خاطبنا نحن أيضاً فقال: «تعالوا، تعالوا أنتم أيضاً أيها
 السكيرون، تعالوا أيها الضعفاء، تعالوا أيها الفاسقون!» وستقترب منه
 جميعاً، دون شعور بالخزي والعار وستقف أمامه، وسيقول لنا: «أنتم
 خنازير! قد خلقتكم على صورة الوحش، ودمغتم بخاتمه! ومع ذلك
 تعالوا!» وسيقول الحكماء عندئذ، سيقول العقلاء: كيف يا رب؟ كيف
 تستقبلهم هم أيضاً؟ فيجيبهم: «أنا مستقبلهم أيها الحكماء، أنا مستقبلهم
 أيها العقلاء، لأن أحداً منهم لم يحسب أنه جدير بأن يستقبل!» وسوف
 يفتح لنا ذراعيه، وسوف نرمي بين ذراعيه... وسوف نبكي...
 وسوف ندرك كل شيء... سوف ندرك عندئذ كل شيء!... وسوف
 يدرك جميع الناس عندئذ كل شيء... وسوف تفهم كاترينا ايفانوفنا
 هي نفسها... فليأت ملوكتك أيها رب!

انهارت قوى مارميلا دوف، فتهاوى على الدكة، دون أن ينظر إلى

أحد، كأنه قد غرق في أحلام عميقه فنسي كل ما كان يحيط به. وأحدثت كلماته أثراً. فساد الصمت خلال دقيقة. ولكن القهقات والشتائم لم تلبث أن عادت تدوى.

- هكذا يكون الكلام!

- هو يثرث!

- موظف!

الخ، الخ...

وقال مارميلادولف فجأة وهو يرفع رأسه مخاطبًا راسكولنيكوف:

- هيا بنا يا سيدى. رافقني إلى عمارة كوزيل... إلى الفناء... لقد آن الأوان... خذني إلى كاترينا ايفانوفنا!

كان راسكولنيكوف يتمنى منذ مدة طويلة أن ينصرف. وخطر بباله من تلقاء نفسه أن يساعد مارميلادولف. وقد ظهر مارميلادولف أشد وهنًا وأضعف قدرة على القيام على ساقيه مما كان في خطابه. اتكأ مارميلادولف اتكاء ثقيلاً على الشاب. وكان ينبغي قطع مسافة مائتي خطوة أو ثلاثة خطوة. إن القلق والخوف يجتathan السكير بمزيد من القوة والعنف على قدر اقترابه من منزله.

ودمدم يقول منفعلًا:

- ليس خوفي من كاترينا ايفانوفنا. لست خائفاً لأنها ست Sheldon من شعري. ما قيمة شعري؟... شعري لا يهمني. أنا أقول لك ذلك... والأفضل أن تشدني من شعري... لا... ليس هذا ما يخفيني... إنما أنا أخاف عينيها... نعم... أنا أخاف عينيها... والبقع الحمراء في خديها... أخاف منها أيضًا... وأخاف أيضًا نفسها... هل لاحظت كيف يتنفس المصابون بذلك المرض حين تثور ثائرتهم؟ وأنا أخاف كذلك من الأولاد، حين يبكون. ذلك أن من العائز أن لا تكون صوبيا قد أعطتهم ما يأكلون... لست أدرى... لست أدرى الآن...

أما الضربات فلا أخافها... اعلم أيها السيد أن هذه الضربات لا تقتصر على أنها لا تؤلمني، وإنما هي تهيء لي لذة في بعض الأحيان... لأنني لا أستطيع الاستغناء عنها. ذلك أفضل! ألا فلتضربني!... ألا فلتخفف عن نفسها!... ذلك أفضل... هذه هي العمارة، عمارة كوزيل... هو قفال، قفال ألماني غني جداً. ادخل معي!

اجتازا الفناء، وصعدا إلى الطابق الرابع. وكان ظلام السلم يزداد حلكة كلما تقدما في الصعود. الساعة أوشكـت على العادية عشرة، ورغم أن مدينة بطرسبرـج ليس لها لـيل حـقيقي في مثل هذه الفترة من العام، فقد كانت الظلمـة حـالـكة في آخر السـلم.

في أعلى السـلم كان بـاب صـغير مـدـخـن مـفـتوـحاً. وكان هـنـالـك بـقـية شـمـعة تـضـيء أـفـقـر غـرـفة في المـسـكـن، طـولـها عـشـر أـقـدـام. إنـالـمرـء يـرى الغـرـفة كـلـها مـن فـسـحة السـلم. إنـفـوـضـى قـصـوى تـسـودـها، وإنـأـشـيـاء لا حـصـر لـأـنوـاعـها مـلـقاـة عـلـى أـرـضـها، ولا سيـما أـسـمـال أـطـفال. وفي رـكـنـهـا الغـرـفة هو آخرـها، قد شـدـدت ستـارـة رـثـة لـعل وـرـاءـها سـرـيرـاً، ولمـيـكـنـ في الغـرـفة نـفـسـها إـلـا كـرـسيـان، وأـرـيـكـة منـجـدة بـقـمـاش مشـمـع بـالـرـثـ، أـمـامـها مـائـدة مـطـبـخـ عـتـيقـة مـن خـشـب الصـنـوبـرـ لـيـسـ مـدـهـونـةـ، لاـ وـلـيـسـ عـلـيـها غـطـاءـ. وفي آخرـ المـائـدةـ كـانـ بـقـية شـمـعة توـشكـ أنـ تـذـوبـ كـلـهاـ، قد غـرـستـ في شـمـعدـانـ منـ حـدـيدـ. إنـ جـمـيعـ المـظـاهـرـ تـشـيرـ إـلـىـ أنـ مـارـمـيلـادـوفـ لـاـ يـحـتلـ فيـ هـذـاـ المـسـكـنـ رـكـنـاـ مـنـ أـرـكـانـهـ، بلـ غـرـفةـ مـسـتـقلـةـ هيـ فيـ الـوـاقـعـ مـمـرـ أوـ دـهـليـزـ. وـكـانـ الـبـابـ الـذـيـ يـفـضـيـ إـلـىـ الغـرـفـ الـأـخـرـىـ، أوـ قـلـ إـلـىـ الـعـلـبـ الـأـخـرـىـ التـيـ يـتـأـلـفـ مـنـهـ بـيـتـ آـمـالـياـ لـيـبـيفـكـسـلـ، كـانـ الـبـابـ مـشـقـوقـاـ، وـكـانـتـ تـصـلـ مـنـهـ جـلـبـةـ وـصـيـحـاتـ. كـانـ الـمـوـجـوـدـوـنـ هـنـاكـ يـضـحـكـوـنـ مـقـهـقـهـيـنـ. يـبـدوـ أـنـهـمـ يـلـعـبـوـنـ بـالـوـرـقـ وـهـمـ يـحـتـسـوـنـ الشـايـ. وـكـانـ يـسـتـطـعـ الـمـرـءـ أـحـيـاـنـاـ أـنـ يـلـتـقطـ وـسـطـ الصـخـبـ الـفـاظـاـ لـيـسـ فـيـهاـ كـثـيرـ تـأـدبـ.

لم يلبت راسكولنيكوف أن تعرف كاترينا إيفانوفنا . هي امرأة نحيلة نحو لا رهيبة ، طويلة القامة ، حسنة الهيئة . وما يزال لها شعر كستناوي اللون رائع ، وكان على خديها بقعتان حمراوان فعلاً . إنها تسير في الغرفة الصغيرة ذهاباً واياباً ، وقد شدت يديها إلى صدرها تضغطه بهما ، وكانت شفتاها يابستين وأنفاسها قصيرة مقطعة ، وكانت عيناهما تستطعان ببريق محموم ، ولكن نظرتها حادة ثابتة . إن هذا الوجه المنفعل الذي التهمه مرض السل يحدث مرآه على ضوء الشمعة الصغيرة الذائبة المترافق أثراً في النفس أليماً . قدر راسكولنيكوف أنها في الثلاثين من العمر . ما هي في الحق بالمرأة التي تصلح زوجة لمارميلادوف . لم تتبه إلى وصولهما ، ولا سمعت وقع خطواتهما . كانت غارقة في نوع من الخيال . فهي لا ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً . إن حراً خانقاً يسود جو الغرفة ، ومن أدنى السلم كانت تصاعد رائحة كريهة . ومع ذلك لم تغلق الباب المطل على السلم . ومن خلال الباب الآخر كانت تصعد سحب من دخان التبغ ، فكانت تسعى ومع ذلك لم تغلق هذا الباب الثاني أيضاً . وكانت صغرى البنات ، وهي طفلة في السادسة من عمرها ، نائمة على الأرض قعوداً ، وقد تكببت على نفسها وأسندت رأسها إلى الأريكة . وكان الصبي الصغير ، وهو أكبر منها بسنة واحدة ، يرتعش ويبكي في ركن من الأركان : لا شك أنه قد ضرب منذ قليل . أما البنت الكبرى ، وهي طفلة في نحو التاسعة من العمر ، طويلة نحيلة كعود ثقاب ، فكان كل ما يكسوها قميصاً رديئاً قد تمزق وتخرق في كل ناحية ، ورداء عتيقاً من صوف خفيف قد ألقى على كتفيها العاريتين ، ولعله كان يناسب حجم جسمها منذ ستين ، أما الآن فهو لا يكاد يصل من قامتها إلى الركبتين . وكانت البنت واقفة في الركن تضم إليها أحدها الصغير ، وتحيط عنقه بذراعها الطويلة النحيلة . يبدو أنها كانت تحاول أن تسرّي عنه ، فهي تكلمه بصوت خافت جداً ، رجاء أن لا يستأنف بكاءه ، ولكنها كانت في الوقت نفسه تتبع أمها وقد امتلأت رعباً ،

تابعها بعينيهما الواسعتين القاتمتين اللتين تبدوان واسعتين مزيداً من السعة في هذا الوجه الهزيل المرتاع. لم يدخل مارميلادول الغرفة، بل ركع على العتبة، ودفع راسكولنيكوف إلى أمام. فلما رأت المرأة هذا الشاب المجهول، وقفت أمامه ذاهلة، ثم خرجت من تأملاتها لحظة، ربما لتحاول أن تفسر لنفسها سبب مجئه. ولكن لا بد أنها لم تلبث أن اعتقدت أنه ذا هب إلى سكان آخرين من سكان البيت، لأن الغرفة ممر إلى الغرف الأخرى. فلما وصلت إلى هذه النتيجة، اتجهت نحو باب الدهليز ت يريد أن تغلقه دون أن تهتم بالقادم، فإذا هي تصرخ على حين فجأة، لأنها اكتشفت زوجها الرا�� على الأرض.

صاحت تقول وقد بلغت ذروة الغضب:

- آ... هاؤنت ذا عدت! يا لص، يا شيطان، يا مسخ! أين المال؟
ماذا في جيبك؟ أرنبي! .. وهذا اللباس الذي ترتديه ليس لباسك، فأين
رداوك إذن؟ أين المال؟ تكلم!

قالت ذلك وهجمت عليه لتنبش جيوبه. فسرعان ما باعد مارميلادول ذراعيه خاضعاً طبعاً بغية أن يسهل عليها تفتيش جيوبه. ولم يكن في جيوب مارميلادول كوييكاً واحداً.

هتفت تقول:

- أين المال؟ آه... يا رب! .. هل يمكن أن يكون قد شرب خمراً
بالمال كله؟ كان ما يزال في الصندوق اثنا عشر روبلأ مع ذلك...

وألمت بها ثورة مسحورة من الغضب على حين فجأة، فأمسكت بشعره، وجرّته إلى الغرفة. وسهل هو عليها هذه المهمة، فكان يزحف على ركبتيه وراءها طائعاً ذليلأ.

صاحب يقول بينما كان يُجرّ من شعره حتى لتصطدم جبهته مرة بأرض الغرفة:

- هذه لذة بالنسبة إليّ! ليس هذا ألمًا يا سيدي الكريم بل لذة!

واستيقظت البنية التي كانت نائمة على الأرض، وأجهشت تبكي.
ولم يتمالك الصبي الصغير نفسه فأخذ يرتعش ويصرخ وهرع نحو أخيه
مرؤعاً تقاد تجاهه نوبة عصبية. وكانت البنت الكبرى ترتجف بعد
النوم كورقة في مهب الريح.

صاحت المرأة المسكينة قائلة:

- شرب بالمال كله، شرب بالمال كله. حتى رداوه ليس رداوه! إنهم
يتضورون جوعاً، يتضورون جوعاً.

قالت ذلك وهي تلوي يديها وتشير إلى الأولاد، ثم أردفت:

- لعن الله هذه الحياة، لعن الله هذه الحياة!

وزارت تخطاب راسكولنيكوف وهي ترمي عليه فجأة:

- وأنت أيضاً خارج من الخمارة! عليك أن تخجل! شربت معه،
أليس كذلك؟ أنت أيضاً... شربت معه... اخرج من هنا!...

فأسرع الشاب يخرج دون أن يقول كلمة واحدة. وفي أثناء ذلك كان
الباب قد فتح على كل سعته، وظهر في فرجته عدد من المستطلعين.
كانوا يمدون رؤوسهم الوقحة الضاحكة، وقد وضعوا عليها طاقياتهم،
وهم يدخلون سجايا أو غلايين. وكانت ثرى قامات ترتدي معاطف
المنازل مفتوحة أو ملابس صيفية ليس فيها شيء من احتشام. وكان بين
المستطلعين أناس يحملون بأيديهم ورقاً من ورق اللعب، وقد ضحكوا
خاصة حين جرّ مارميلاروف من شعره، فصرخ يقول إن هذه لذة له.
حتى لقد دخلوا الغرفة وسمعت أخيراً وعوهة غاضبة حانقة: إنها آماليا
ليفكسل بنفسها قد شقت ممراً بين الجمهور لتعيد الهدوء، بطريقتها
الخاصة، ولترهب المرأة المسكينة بإبلاغها، للمرة المائة، بأن عليها
إخلاء المسكن منذ الغد. اتسع وقت راسكولنيكوف، قبل أن ينصرف،
لأن يدس يده في جيبه فيخرج منه جميع النقود النحاسية التي بقيت له
من الروبل الذي صرفه في الخمارة، وأن يضع هذه النقود خفيةً على

حافة النافذة. فلما صار في السلم، عدل عن رأيه، وأراد أن يرجع أدراجه.

قال يحدث نفسه: «حمامة ما فعلت!.. هم لهم صونيا، وأنا في حاجة إلى مال». ولكنه رأى أن من المستحيل عليه أن يسترد الصدقة التي أعطاها، وأنه لن يستردها ولو لم يكن استردادها مستحيلاً، فأشاح بيده واتجه نحو مسكنه. وتتابع حديثه مع نفسه أثناء سيره في الشارع وهو يبتسم ابتسامة ساخرة: «حقاً إن على صونيا أن تشتري أطیاباً تتدهن بها... إنها تكلف ثمناً باهظاً، تلك النظافة... هم... ولكن من الجائز جداً أن يصيّبها اليوم إفلاس... إن هذه المهنة معرضة لمخاطر كثيرة، كصيد الورحوش ذات الفراء الثمين والبحث عن مناجم الذهب سواء بسواء... فيبدون هذا المال الذي نفتح لهم إياه يمكن أن يتضوروا جوعاً في الغد بلا كوبيك واحد. آه... يا لك من صونيا!.. يا لك من منجم اكتشفوه! ويا لها من فوائد يجنونها منه!.. ذلك أنهم يجنون من هذا المنجم فوائد! لقد اعتادوا أن يستفيدوا منه وان ينتفعوا به! بدوا في أول الأمر، ثم ألفوا وتعودوا. إن الإنسان يعتاد كل شيء. يا له من حقير!»

ثم فكر. فإذا هو يصبح قائلاً رغم إرادته على حين فجأة:

- ماذا لو كنت على ضلال! ماذا لو لم يكن الإنسان في حقيقة الأمر حقيراً... أعني الإنسان عامة، أعني النوع الإنساني... سيكون معنى ذلك أن الباقي كله ليس إلا أوهاماً، ليس إلا مخاوف خيالية باطلة، وأنه ليس هنالك أي حد ينبغي الوقوف عنده. نعم، ذلك ما يجب.

الفصل الثالث

الستيقظ

في الغداة متأخراً، بعد نوم مضطرب لم يجلب له أية راحة. وشعر حين استيقظ بأنه معتكر المزاج سريع الاهتياج خبيث النفس، ونظر إلى غرفته نظرة كره ومقت. إن هذه الغرفة أشبه بقفص صغير طوله ست خطوات، يدل مظهرها على أشد الفقر والفاقة، قد غطيت جدرانها بورق مصفر تراكم عليه الغبار وانتزع في جميع الجهات. وهي تبلغ من انخفاض سقفها أن رجلاً له قامة تكاد تفوق متوسط القامات، لا بد أن يشعر فيها بأنه مكبوس، ولا بد أن يخشى اصطدام رأسه بالسقف. وأثاث الغرفة يناسبها حقاره ورثاثة: كان فيها ثلاثة كراسى عتيقة تعرج قليلاً، وكان في ركن من أركانها مائدة مدهونة عليها دفاتر وبضعة كتب (يكفي المرء أن يرى طبقة الغبار التي تغطي هذه الكتب حتى يدرك أنها منذ مدة طويلة لم تمتد إليها يد)، وكان فيها أخيراً ديوان كبير يشغّل كل طول الحجرة ويشغل نصف عرضها تقريباً، ديوان كان في الماضي منجداً بقمash هندي ولكن القماش قد أصبح الآن خرقاً رثة ومزقاً بالية. إن هذا الديوان هو سرير راسكولنيكوف. وكثيراً ما كان يتفق لراسكولنيكوف أن يرقد عليه مرتدياً جميع ثيابه بلا ملايات، غير ملتحف إلا معطفه العتيق الرث، معطف الطالب، واضعاً رأسه على مخدة صغيرة كان يعليهما بأن يدس تحتها جميع ما عنده من ملابس

نظيفة ومتسخة. وأمام الديوان توجد منضدة صغيرة.

إنه لمن الصعب أن يهمل المرء نفسه إهمالاً أشد من هذا الإهمال. ولكن منظر مسكنه هذا، وهو فيما هو فيه من حالة نفسية خاصة، كان يمضي إلى حد أن يولده شيئاً من لذة. كان قد انفصل عن العالم انصالاً حاسماً، وكان يعيش كالسلحفاة المحبوسة في قواعتها. وحتى منظر الخادمة، التي كان عليها أن تخدمه والتي كانت تظهر أحياناً لترى ماذا يجري، كان يبعث في نفسه كرهًا محموماً. هكذا شأن بعض الموسوين الذين تحاصرهم فكرة واحدة، ويصرف ذهنهم في التركز على نقطة بعينها. لقد كفت صاحبة البيت منذ أسبوعين عن أن تبعث إليه بوجبات طعامه، ورغم أنه أصبح مضطراً للصيام عن الطعام، فإنه لما يخطر بباله بعد أن يذهب إليها ليناقشها في الأمر. وكانت ناستاسيا، الطباخة، وهي الخادمة الوحيدة لدى صاحبة البيت، كانت، بمعنى من المعاني، غير مستاءة من الحالة النفسية التي كان عليها المستأجر، وكانت قد انقطعت عن خدمة غرفته انقطاعاً كاملاً، اللهم إلا من حين إلى حين، مرة في الأسبوع، وكانت في هذه المرة تكتفي بأن تكنس الغرفة كنساً سريعاً كيفما اتفق. وهي التي أيقظته الآن. صرخت تقول له وهي تميل عليه:

- انهض. ما بك حتى تنام هذا النوم؟ لقد دقت الساعة التاسعة. هأنا ذا آتيك بشيء من الشاي، هل تريدين؟ اعتقد أنك جائع. ستموت جوعاً أليس كذلك؟

فتح الشاب عينيه، وارت杰ف، وتعرف ناستاسيا، سألها وهو ينهض ببطء عن ديوانه وقد بدا عليه الألم:

- هل صاحبة البيت هي التي أرسلت إليّ هذا الشاي؟

قالت له الخادمة:

- صاحبة البيت؟ هه! ..

ووضعت أمامه إبريقها الخاص بها، إبريقها المتندع الذي يضم بقية قديمة من شاي، ووضعت قطعتين صغيرتين من سكر مصفر كل الأصفار.

قال لها بعد أن نبش جيده (كان قد نام لابساً ثيابه)، فأخرج منه عدة قطع نقدية نحاسية:

- خذ يا ناستاسيا، خذ هذا، أرجوك... وادهبي فاشترى لي رغيفاً صغيراً من الخبز، واشتري لي كذلك من عند البقال سجقاً، سجقاً بخس الشمن...

- سأريك بالرغيف حالاً. ولكن ألا تريد، بدلاً من السجق، أن تصيب شيئاً من حساء بالكرنب؟ هو حساء بالكرنب صنعناه أمس، وادرته لك مساء، لكنك رجعت إلى البيت متأخراً. هو حساء بالكرنب طيب.

وحين جاءته ناستاسيا بحساء الكرنب، فأخذ يأكل، جلست إلى جانبه على الديوان، وأخذت تشرث. إنها امرأة قروية مكتارة مهذارة. قالت له:

- إن براسكوفيا بافلوفنا تريد أن تشكوني إلى الشرطة.

فأربد وجهه وسألها:

- تشكوني إلى الشرطة؟ ماذا تريد مني؟

- أنت لا تدفع أجر الغرفة، لا ولا تركها! ذلك ما تريده منك!

جمجم يقول وهو يكز على أسنانه:

- لم يكن ينقصني إلا هذا! حقاً إن ذلك أسوأ أوان...

ثم أضاف يقول بصوت عال:

- يا للحمقاء! سأمرّ بها اليوم فأكلّمها.

قالت:

- أنها حمقاء فهي حقاً، مثلـي أنا تماماً... ولكن... ما بالك أنت، وأنت ذكي هذا الذكاء كله، تبقى راقداً طول الوقت كصـرة؟ لا يستطيع أحد أن يحملك على شيء! تقول إنـك كنت في الماضي تعطي الأولاد دروساً خاصة، فلماذا أصبحـت لا تقوم الآن بأي عمل؟...

- بل أقوم...

كذلك نطق راسـكونيكوف رغم إرادته، بلـهـجـةـ جـافـةـ.

سـأـلـتـهـ:

- ما الذي تقوم به؟

- أقوم بـعـمـلـ..

- أي عمل؟

أجابـهاـ جـادـاـ بـعـدـ صـمـتـ:

- أـفـكـرـ...

انتابت ناستـاسـياـ نـوـبةـ ضـحـكـ. إنـهاـ مـتـأـبـةـ دـائـماـ لـأنـ تنـفـجـرـ ضـاحـكةـ. وـيـكـفيـ أنـ تـمـازـحـ أـقـلـ مـمـازـحةـ حتـىـ تـأـخـذـ فيـ الضـحـكـ، ولـكـنـ ضـحـكـهاـ صـامـتـ، فـهـيـ لاـ تـزـيدـ عـلـىـ أنـ تـحـركـ وـتـرـجـعـ جـسـمـهـاـ كـلـهـ، إـلـىـ أنـ يـصـيبـهاـ مـنـ ذـلـكـ ضـجـرـ!..

وـأـفـلـحتـ فـيـ أـنـ تـنـطـقـ أـخـيرـاـ فـقـالـتـ لـهـ:

- وهـلـ جـنـيـتـ مـنـ التـفـكـيرـ مـاـلـأـ كـثـيرـاـ؟

قالـ:

- كـيـفـ يـسـتـطـعـ المـرـءـ أـنـ يـمـضـيـ لـإـعـطـاءـ درـوسـ فـيـ حـينـ لـاـ يـمـلـكـ حـذـاءـيـنـ؟ عـلـىـ أـنـيـ أـبـصـقـ عـلـىـ هـذـاـ.

- لـاـ تـبـصـقـ عـلـىـ مـاـ يـنـفعـكـ.

- يـجـنـيـ المـرـءـ مـنـ تـعـلـيمـ الـأـطـفـالـ كـوـبـيـكـاتـ، مـاـذـاـ يـسـتـطـعـ المـرـءـ أـنـ

ي فعل ببعضه كوبكبات؟

كذلك تابع يقول بغير إرادة، كأنه يجب عما يدور في رأسه هو من خواطر وأفكار.

سألته قائلة :

- أتراءك ت يريد الحصول على ثروة طائلة دفعه واحدة؟

نظر إليها نظرة غريبة ثم أجابها بصوت جازم بعد صمت قصير :

- نعم ثروة طائلة . . .

- هيه . . . رفقاً! إنك تخيفني . أمضى لشراء الرغيف؟

- افعل ما تشائين .

- ها . . . نسيت . . . معى رسالة لك وصلت أمس أثناء غيابك .

- رسالة؟ لي؟ من؟

- لا أدرى ممن . وقد نقدت ساعي البريد ثلاثة كوبكبات من جيبي .
ستردها إلى ، أليس كذلك؟

صرخ راسكولنيكوف يقول وقد بلغ ذروة الاضطراب :

- هاتي الرسالة! هاتيها ناشدتك الله . . . آه . . . يا رب ! . .

بعد دقيقة جاءت الرسالة . صدق ما كان يقدره :

إن الرسالة آتية من أمه التي تقيم في إقليم ر . . . اصفر وجهه وهو يتناول الرسالة . لقد أصبح لا يتلقى أي رسالة منذ مدة طويلة . ولكن شيئاً آخر يقبض الآن قلبه ويحطم على صدره .

قال :

- ناستاسيا ، اذهبـي . . . ناشدتك الله . . . انصرـفي . . . إليـك
كوبـكـاتـكـ الـثـلـاثـة . . . اـخـرـجـيـ بـسـرـعـة . . . نـاشـدـتـكـ اللهـ ! . .

كانت الرسالة ترتعش بين يديه . لم يشا أن يفضها أمام الخادمة . كان

يحرص على أن يبقى وحيداً مع هذه الرسالة. فما أن خرجت ناستاسيا حتى رفع الرسالة إلى شفتيه بحركة سريعة، وقبلها، ثم لبست مدة يُنعم النظر في خط العنوان، في الخط العزيز الغالي الذي يعرفه حق المعرفة، الخط الصغير المائل بعض الميل، خط أمه التي علمته القراءة والكتابة في الماضي منذ زمن بعيد. أحجم عن فض الرسالة بعض الوقت، حتى لكانه يخشى شيئاً ما. ثم فضها أخيراً. الرسالة طويلة كثيفة ثقيلة الوزن هي تزن لوتين⁽²¹⁾: صحفتان كبيرتان من ورق تغطيهما كتابة مرصوصة وجهاً وقفا. وهذا ما كتبته أمه:

«عزيزي روديا⁽²²⁾! أنقضى أكثر من شهرين دون أن أتحدث إليك كتابة، وذلك أمر عذبني كثيراً، حتى لقد حرمني من النوم ذات ليلة من فرط تفكيري فيه. ولكنني على يقين من أنك لن تؤاخذني على هذا الصمت الطويل الذي لست مسؤولة عنه. أنت تعلم كم أحبك! ليس لنا في هذه الحياة، أنا ودونيا⁽²³⁾، سواك. أنت عندنا كل شيء. أنت كل أملنا. أنت كل إيماننا بالمستقبل! ليتك تعلم الحالة التي صرت إليها حين علمت أنك تركت الجامعة منذ بضعة أشهر لعجزك عن الوفاء بسد حاجاتك، وأنك فقدت الدروس التي كنت تعطيها، وقدت سائر الموارد الأخرى! كيف كان يمكنني أن أساعدك وأنا لا أقبض إلا مائة وعشرين روبلأً في السنة هي معاش التقاعد! أنت تعلم أن الخمسة عشر روبلأً التي أرسلتها إليك منذ أربعة أشهر، إنما كنت قد اقترضتها سلفة على معاشي من تاجر في بلدنا هو فاسيلي إيفانوفتش فاخروشين. إنه رجل طيب شهم كان صديق أبيك. ولكنني وقد خولته حق قبض المعاش نيابةً عنِّي، قد اضطررت أن أنتظر إلى أن ينتهي سداد الدين كاملاً، وذلك ما لم يتم إلا منذ برهة قصيرة. هذا هو السبب في أنني لم أستطع أن أرسل إليك شيئاً طوال ذلك الوقت. أما الآن فأعتقد أنني سأستطيع، والله الحمد، أن أستأنف إرسال شيء من المال إليك. ثم إننا في وسعنا، على وجه أعم، أن نغيط أنفسنا على أن الحظ قد وافانا

قليلًا، وذلك ما أسارع إلى ذكره لك. هل يمكنك، أولاً، يا عزيزي روديا، أن تحذر أن أختك تقيم معي منذ شهر ونصف شهر، وأنا لن نفصل بعد اليوم أبداً؟ لقد انتهت الآن جميع آلامها بفضل الله، ولكن ينبغي أن أقص عليك كل شيء مرتبًا متسللاً، حتى تعرف كيف جرت الأمور، وماذا كتمنا عنك إلى الآن! لقد كتبت إلىي منذ شهرين قائلاً إنك علمت من أحد الناس أن أختك دونيا تتألم كثيراً من قسوة المعاملة في منزل الأسرة التي تعمل عندها، وهي أسرة السادة سفيديرجايلوف، وسألتني أن أبعث إليك بشرح دقيق وتفاصيل وافية عن هذا الأمر. فماذا كان في وعيي أن أجيبك في ذلك الأوّان؟ فلو قلت الحقيقة كاملة لكن من الجائز أن تترك كل شيء وأن تجيء إلينا سيراً على الأقدام، لأنني أعرف طبعك وأعرف عواطفك، فما كان لك أن تدع لأحد أن يسيء إلى أختك وأن يهين كرامتها.

ولقد بلغت أنا نفسي عندئذ غاية الكرب واليأس. ولكن ما الذي كان يجب أن أفعله؟ ثم إنني لم أكن أعرف الحقيقة كلها حينذاك. ولقد جاء البلاء أساساً من أختك دونيتشكا، حين أخذت تعمل مربية عند آل سفيديرجايلوف⁽²⁴⁾، في السنة الماضية، قد قبضت منهم سلفة مقدارها مائة روبل بقتطعونها من أجورها شهراً شهراً. لذلك كان من المستحيل عليها أن تترك وظيفتها قبل أن تكون قد سددت ما لهم عليها من دين. وذلك المبلغ الذي قبضته (أستطيع الآن أن اعترف لك بذلك يابني العزيز) إنما أخذته خاصة لترسل إليك الستين روبراً التي كنت حينئذ في حاجة ماسة إليها والتي تلقيتها منا في السنة الماضية. لقد خدعناك كلتنا حين كتبنا إليك عندئذ أن ذلك المال هو حصيلة مدخرات قديمة جمعتها دونيتشكا، ولم يكن الأمر كذلك. وإنما أنا أقول الحقيقة كلها الآن لأن الله قد أراد أن يبدل كل شيء وأن نصير إلى حال أفضل، ولأن من الواجب أن تعلم مدى ما تخمله لك دونيا من حب، وأن تعرف ما يتصف به قلبها من نبل لا يضارع بالفعل إن السيد سفيديرجايلوف كان

في أول الأمر يعاملها معاملة شديدة الغلطة والفظاظة وكان يوجه إليها أثناء الجلوس إلى المائدة أنواعاً شتى من الكلمات القارصة والأقوال الساخرة.. على أنني لا أريد أن أفيض في الكلام على هذه التفاصيل الأليمة، حتى لا أعذبك في غير طائل، بعد أن انتهى هذا كله الآن! المهم أن وضع دونيتشكا كان شاقاً جداً رغم أن مارفا بتروفنا، زوجة السيد سفيديريجايلوف وسائر أهل المنزل قد عاملوها معاملة فيها كثير من الرعاية واللطف. وكان وضعها يزداد مشقة حين يصبح السيد سفيديريجايلوف تحت سيطرة باخوس⁽²⁵⁾ على ما ألف من عادة ترسخت فيه منذ كان في الجيش. ولكن ما الذي حدث بعد ذلك؟ تصور أن هذا الرجل المأفون كان منذ مدة طويلة يهيم بأختك دونيا هياماً يخفيه تحت ستار موقف من الفظاظة والاحتقار يصطنعه اصطناعاً. ولعله كان يشعر بالخزي والعار في نفسه، أو لعله كان يحس بارتياح حين يرى أنه في هذه السن، هو رب الأسرة، تراوده آمال تبلغ هذا المبلغ من الطيش، فإذا هو يحقد على دونيا رغم إرادته، أو لعله بفظاظة موقفه وغلظة سخرياته أنما كان يريد أن يخفي الحقيقة عن الآخرين لا أكثر. المهم أنه أصبح في نهاية الأمر لا يطيق صبراً، فإذا هو يتجرأ ويتجاسر فيعرض على دونيا عروضاً صريحة حقيرة، بادلاً لها وعوداً بفوائد شتى ومنافع كثيرة، مقترباً عليها فوق ذلك كله أن يترك كل شيء ليسافر معها إلى قرية أخرى من القرى التي يملكونها أو إلى الخارج.. في وسعك أن تخيل الآلام التي قاستها أختك! كان عليها أن لا تفكر في ترك وظيفتها فوراً، لا بسبب ما عليها من دين فحسب، بل أيضاً من باب المراءاة والمداراة لمارفا بتروفنا التي كان يمكن أن تساورها شكوك كثيرة على حين فجأة فيحدث في الأسرة شقاق يمزقها شرّ ممزق. ذلك عدا أن تركها وظيفتها فوراً يمكن أن يكون لها فضيحة كبرى لا يمكن تحاشيها. وهناك أسباب كثيرة كانت تجعل دونيا عاجزة عجزاً مطلقاً عن ترك ذلك البيت الفظيع قبل انقضاء ستة أسابيع. لا شك في أنك تعرف دونيا

وتعرف ما تتصف به من تعقل ومن إرادة قوية. أن دونيتشكا تستطيع أن تتحمل أشياء كثيرة، وأن تجد في نفسها، مهما تكن الظروف حرجة، قدرًا كافياً من رفعة الروح ونبيل القلب حتى لا تفقد رباطة جأشها وثبات جنانها، لذلك لم تكتب إلى أنا نفسي شيئاً عن هذا كله، حتى لا تؤلمني وتعذبني، مع أنها كانت نراسل كثيراً. وقد حدثت خاتمة القصة على نحو لم يكن في الحسبان: إن مارفا بتروفنا سمعت زوجها في الحديقة، مصادفةً، يتسلل إلى دونيتشكا ضارعاً مبتهالاً، ففهمت الأمر فهماً لا يتفق مع الحقيقة واتهمت دونيتشكا إذ أنها ظنت أن دونيتشكا سبب كل شيء، فإذا بمشهد رهيب يحدث عندئذ في الحديقة نفسها: لم تشاء مارفا بتروفنا أن تسمع أي قول، حتى لقد ضربت دونيا، وظللت تصرخ ساعة بكمالها، ثم أصدرت أمرها بنقلها إلى في المدينة على عربة حقيبة من عربات الفلاحين، رُميت فيها جميع أشياء دونيا من ملابس وأثواب، رُميت فوضى بغير نظام، حتى دون أن تُربط أو تُحزن. وقد أخذ المطر يهطل عندئذ هطولاً غزيراً، فاضطررت أختك دونيا أن تقطع مع الفلاح في عربته المكسوقة مسافة سبعة عشر فرسخاً على تلك الحال من المذلة والهوان. أنك لترى الآن أنني لم أكن استطيع أن أجيبك بشيء على الرسالة التي بعثت بها إلى منذ شهرين: عم كان يمكنني أن أحدثك وفيما كنت أستطيع أن أكلمك؟ لقد كنت أنا نفسي في غاية الكرب وذروة الكمد. لم أكن أجرؤ أن أكتب لك الحقيقة. فلو فعلت ذلك لشقيت أنت شقاء كبيراً ولشعرت بغضب شديد واضطراب كبير. وما الذي كان في وسعك أن تفعل؟ لا شيء إلا أن تفاقم آلامك ثم إن دونيا قد حظرت علي أن أفعل. وأما أن أملا رسالتي إليك بترهات وسفاسف، بينما أنا مثقلة القلب بالحزن والكمد، فذلك ما شعرت أنني لا أقوى عليه. وفي أثناء شهر كامل جرت في المدينة عن تلك القصة شائعات وأقاويل ونمائم، حتى لقد بلغت الأمور حداً أصبحت لا أستطيع معه أن أصحب دونيا إلى الكنيسة بسبب نظرات الاحتقار والازدراء التي يلقاها علينا

الناس وبسبب الهمسات الكثيرة التي يتداولونها عند مرورنا، حتى إنهم كانوا لا يتحرجون من إبداء ملاحظات خبيثة بصوت عالي في حضورنا. وأصبح جميع من يعرفوننا يديرون لنا ظهورهم ويشيرون علينا بوجوههم، بل لقد كفوا عن تحيتنا. وعرفت من مصدر مطلع أن عدداً من مستخدمي الدكاكين وصغار موظفي المكاتب أرادوا أن يرتكبوا في حقنا وقاحة سافلة، هي أن يلطخوا باب منزلنا بالقطران، فأخذ أصحاب البيت الذي نسكنه يطالبوننا بإخلائه. وكانت مارفا بتروفنا سبب ذلك كله، فقد اتسع وقتها لأن تذهب إلى جميع البيوت تتهم دونيا وتوسخ سمعتها. أنها تعرف جميع الناس في بلدتنا. وقضت هذا الشهر في زيارات مستمرة. وإذا أنها أميل إلى الشريرة، وإذا أنها تحب أن تقصر شؤونها المنزلية على كل قادم، وأن تشكو زوجها خاصةً، وذلك أمر ليس بالجميل كثيراً، فقد نشرت القصة خلال برهة وجيبة من الزمن، لا في المدينة وحدها، بل في المقاطعة كلها. وقد مرضت أنا من ذلك. ولكن دونيتشكا كانت أقوى مني عوداً، وأصلب شكيمة، وأشد بأساً. ليتك رأيت كيف استطاعت أن تحتمل هذا كله بجأش رابط وجنان ثابت حتى لقد كانت هي التي تعزيني وتواسيني، وتقوي عزيمتي، وتشد أزرني! إنها ملاك! ولكن رحمة الله اختصرت عذابنا. فإن السيد سفيديريجايلوف قد عدل عن رأيه، وندم على ما بدر منه، ولعله شعر بشفقة نحو دونيا، فقدم لامرأته مارفا بتروفنا الدليل القاطع والحججة الدامغة على براءة دونيا: كان هذا الدليل القاطع رسالة كانت دونيا، قبل أن تفاجئهما مارفا بتروفنا في الحديقة بزمن طويل، قد اضطرت أن تكتبه وأن تعطيها للسيد سفيديريجايلوف لترفض جميع شروطه وعروضه، ولترفض جميع الموعيد السريعة التي كان يصرع إليها أن تضر بها له. وقد بقيت هذه الرسالة بين يدي السيد سفيديريجايلوف بعد رحيل دونيا. وفي هذه الرسالة كانت دونيا تعيب عليه بلهجة عنيفة ثائرة عارمة ما يتصف به سلوكه نحو مارفا بتروفنا من جور وظلم وعسف،

وتذكره بأنه زوج، وبأنه أب لأسرة، وتصور له في آخر الأمر مدى ما يشتمل عليه سلوكه من خسنة إذ هو يعذب ويُشقي فتاة فقيرة عزلاء لا تحتاج إلى مزيد من العذاب والشقاء. الخلاصة يا بني العزيز روديا، أن تلك الرسالة تبلغ من رفعة النبل وشدة التأثير أنني أجهشت باكية متتجبة حين قرأتها، وما أزال حتى الآن لا أعيد قراءتها إلا وتترافق في عيني الدموع. وجاءت شهادات الخدم تبرئ دونيا مزيداً من التبرئة! والخدم كما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات قد عرفوا من الأمر ورأوا من المشاهد أكثر كثيراً مما ظن السيد سفيديريجايروف. ذهلت مارفا بتروفنا أشدّ الذهول، بل «صعقت من جديد» كما اعترفت لنا هي نفسها بذلك. ولكن لم يبق في نفسها أي شك في أن دونيتشكـا بريئة كل البراءة. لهذا بادرت مباشرة، وكان يوم أحد، فذهبت رأساً إلى الكنيسة حيث جثت على ركبتيها باكية وتضرعت إلى السيدة العذراء أن تهب لها من القوة ما يكفيها لاحتمال هذا الامتحان الجديد وما يمكنها من القيام بواجبها على خير وجه. ثم جاءت من الكنيسة قُدْماً إلى منزلنا، دون أن تعرج على أحد، فقصت علينا كل شيء، وسكتت دموعاً حارة، وعانت دونيا زاخرة النفس بالندم، مبتلة إليها أن تغفر لها وأن تعفو عنها. ومن منزلنا ذهبت رأساً دون أن تضيع لحظة واحدة، ذهبت إلى جميع بيوت المدينة، فكانت تسكب سيولاً من الدموع، وتکيل الثناء لابنتي، دونيا، وتشهد ببراءتها، وتطري نبل عواطفها، وتشيد بحسن سلوکها. وأرادت أن تفعل ما هو خير من ذلك أيضاً، فأظهرت جميع الناس على الرسالة التي كتبتها دونيا إلى السيد سفيديريجايروف بصوت عال، بل وأذنت لهم بأن ينسخوها (وذلك أمر يبدو لي أن فيه شيئاً من الغلو). وقد اضطررت أن تقضي عدة أيام متتالية تزور جميع من تعرفهم من الناس في المدينة، لأن بعضهم شكوا من إهمالها زيارتهم، وساءهم أن تؤثر عليهم غيرهم. على هذا النحو تتالت زياراتها متعاقبة متلاحقة، حتى أصبح الناس ينتظرونها في كل منزل، وحتى أصبح يُعرف أن مارفا بتروفنا ستقرأ

الرسالة يوم كذا في مكان كذا، فكان يحضر قراءة الرسالة في كل مرة حتى أولئك الذين سبق لهم أن سمعوها مراراً سواء في بيوتهم هم أو في بيوت آناس آخرين يعرفونهم. في رأيي أن ذلك كان فيه مغalaة، كان فيه كثير من المغalaة، ولكن هذا طبع مارفا بتروفنا! مهما يكن من أمر، فإن مارفا بتروفنا قد ردت إلى دونيتشكا اعتبارها كاملاً، فإذا بعار هذه القضية يرتد إلى زوجها بخزي لا يمحى ولا يندثر، ويجعله المجرم الأول حتى أخذته شفقة. لقد أسرفوا في القسوة على ذلك المأفون المسكين. بعد ذلك أسرعت أسر كثيرة تعرض على دنيا أن تعطي أولادها دروساً، ولكن دنيا رفضت جميع هذه العروض. ونستطيع أن نقول بوجه عام إن جميع الناس صاروا يولونها احتراماً خاصاً على حين فجأة. وذلك كله قد سهل تسهيلآ كبيرآ حدوث الحادث الذي لم يكن في الحسبان، والذي أستطيع أن أقول إن مصيرنا قد تبدل بفضله تبدلاً تاماً وتغيراً كاملاً. أعلم يا بني العزيز روديا أن خطيباً قد تقدم لأختك دنيا، وأنها قد أعلنت له موافقتها، وذلك ما أسارع فأقله إليك الآن. أغلب الفتن أنك لن تؤاخذنا، لا أنا ولا أختك، على أن الأمر قد تم دون الحصول على موافقتك، فلسوف ترى بنفسك أنه كان يستحيل علينا أن ننتظر، وأن نرجي اتخاذ القرار إلى حين وصول رذك إلينا. هذا عدا أنه ما كان لك أن تستطع، من بعده، أن تحكم في الأمر حكم العارف المطلع. وإليك تفصيل ما حصل:

الرجل مستشار قضائي⁽²⁶⁾، اسمه بيوتر بتروفتش لوجين. وهو يمت بقربى بعيدة إلى مارفا بتروفنا التي شاركت في الأمر مشاركة كبيرة. لقد بدأ الرجل بأن أظهر لمارفا بتروفنا رغبته في التعرف إلينا، فاستقبلناه كما ينبغي أن يستقبل، فشرب عندنا القهوة، فما أن جاء الغد حتى بعث إلينا برسالة يعرض فيها طلبه بكثير من الكياسة، ويلتمس رداً سريعاً قاطعاً. إنه رجل من رجال الأعمال، مشغول جداً، ولما كان عليه أن يسافر إلى بطرسبرج قريباً، فإن لكل دقيقة قيمتها عنده. طبيعى أننا ذهلنا في أول

الأمر: لقد حدث ذلك كله بسرعة مسرفة وعلى نحو مباغت مفاجئ، بطريقة لم تكن في الحسبان! بعد ذلك لبثنا معاً طوال النهار نفكر في الأمر ونزن الأشياء. هو رجل يحتل مركزاً مرموقاً: يشغل وظيفتين في آن واحد ويمتلك منذ الآن رأس مال له. الحق أنه يبلغ الخامسة والأربعين من العمر، لكن مظهره لطيف، وما يزال يستطيع أن يرضي النساء. وهو عدا ذلك رجل رصين لائق جداً. كل ما هنالك أنه متوجه المزاج قليلاً، متعالٌ بعض التعالي، ولكن قد لا يكون ذلك إلا شعوراً أول ساورنا حين رأيناها، ولهذا أحذر يابني العزيز روديا من أن تحكم عليه بسرعة مسرفة واندفاع عنيف حين ستلقاه في بطرسبرج قريباً (على عادتك في سرعة الحكم وعنف الاندفاع) إذا أنت رأيت فيه عند الوهلة الأولى شيئاً يصدم شعورك. أقول لك هذا من باب الاحتياط لكل مصادفة، رغم يقيني من أنه سيحدث في نفسك أجمل الأثر. أضف إلى ذلك أن على المرء، إذا هو أراد أن يصل إلى معرفة إنسان من الناس، أيّاً كان هذا الإنسان، أن يتصرف إزاءه تصرفًا فيه كثير من التروي والتعقل والحكمة والحدر، وإلا فقد يقع في الخطأ، وقد ينجرف إلى التحيز، فيصعب عليه كثيراً بعد ذلك أن يصحح ذاك الخطأ وأن يزيل ذلك التحيز. ومهما يكن من أمر فإن قرائن كثيرة تحمل على الاعتقاد بأن بيوتر بتروفتش رجل جدير بالاحترام. لقد أعلن لنا منذ أول زيارة أنه رجل وضعى عملى، ولكنه في كثير من الأمور يشارك «أجيالنا الجديدة آراءها» على حد تعبيره، وأنه عدو لجميع أنواع التحيز المسبق، ولقد قال أموراً أخرى كثيرة، فهو رجل لا يخلو من شيء من الغرور، وهو يحب كثيراً أن يصغي الناس إلى كلامه وأن يسمعوا الحديثه. ولكن ذلك ليس آفة كبيرة، أنا لم أفهم من حديثه أشياء كثيرة بطبعية الحال، ولكن دونيا شرحت لي أنه على نقص ثقافته إنسان ذكي، وأنه طيب فيما يبدو. إنك تعرف طبع أختك، يابني العزيز روديا. هي فتاة ثابتة صلبة عاقلة صابرة كريمة، رغم أن لها قلباً حاراً وشعوراً متقداً، وذلك أمر استطعت

أن أدركه فيها. طبعاً، لا مجال للحديث عن حب حقيقي، لا من جانبها هي ولا من جانبها هو. ولكن دونيا، عدا أنها فتاة ذكية، هي في الوقت نفسه نبيلة كملائكة. ولا بد أن تلزم نفسها بإسعاد زوجها الذي لن يسعه إلا أن يسعدها هو أيضاً. فحول هذه النقطة الأخيرة ليس لدينا حتى الآن أي سبب جدي يدعو إلى الشك، رغم أن الأمر قد تم بشيء من السرعة، كما ينبغي أن نعترف بذلك. يضاف إلى هذا أن الرجل إنسان حصيف الفكر سديد الرأي، فلا شك في أنه سيرى بنفسه أن سعادته الزوجية نفسها ستكون مضمونة مزيداً من الضمان إذا سعدت دونيا بفضلها مزيداً من السعادة. أما عما هنالك من بعض الاختلافات في المزاج والعادات القديمة وحتى من بعض الاختلافات في الآراء (وذلك ما لا يمكن تحاشيه حتى في أكثر حالات الزواج توفيقاً) فإن دونيا كما قالت لي ذلك سوف تأخذ على عاتقها هذا الأمر. إنها تؤكد أنه لا داعي إلى القلق، وإنها تستطيع احتمال أشياء كثيرة شريطة أن تبقى علاقاتها على الدوام شريفة صادقة عادلة قائمة على المساواة والإنصاف. يجب أن أقول لك إن الرجل بدا لي أنها أيضاً مسرفاً في الصرامة بعض الإسراف. ولكن ذلك قد يكون ناشئاً عن أنه أمرؤ صريح، بل إن الأمر ل كذلك حتماً. مثال: أنه أثناء زيارته الثانية، بعد حصوله على الموافقة، قد أعلن أثناء الحديث أنه حتى قبل أن يعرف دونيا كان قد قرر أن لا يتزوج إلا فتاة شريفة لا تملك مهرأ، فتاة سبق أن عرفت تجربة الفقر وعانت مرارة البؤس، لأن الزوج يجب أن لا يشعر بأن لزوجته عليه فضلاً، وإنما يجب أن تشعر المرأة أن زوجها هو المحسن إليها وصاحب الفضل عليها. يجب أن أذكر أنه قد عبر عن رأيه هذا تعبيراً أكثر رقةً ولطفاً، وأقرب إلى المودة والمحبة من الكلمات التي كتبتها أنا الآن، لأنني نسيت الألفاظ التي أستخدمها، وأصبحت لا أتذكر إلا الفكرة التي أفصح عنها. ثم إنه لم يكن قد هيا أقواله وحضر عباراته، فلا شك أن ذلك الكلام قد أفلت منه إفلاتاً. لذلك حاول بعدها أن

يتدارك الأمر، وأن يلطف الأثر الذي أحدثه كلماته. ومع ذلك استثقلت كلامه قليلاً ثم فاتحت دونيا في هذا، فأجابتي دونيا، وفي نفسها شيء من الغضب والحزن، بأن «الأقوال لا تطابق الأفعال دائمًا»، وواضح أن كلام دونيا صادق. يجدر أن أذكر أن دونيا، قبل اتخاذ قرارها، لم يغمض لها جفن طوال الليل، وأنها حين ظنت أنني غفوت قد نهضت عن فراشها وأخذت تمشي في الغرفة طولاً وعرضاً إلى أن طلع الصبح، ثم ركعت على ركبتيها، ولبست جائحةً أمام الأيقونة تصلي مدة طويلة بكثير من الحرارة والخشوع، حتى إذا طلع النهار أعلنت أنها قد اتخذت قرارها.

سبق أن قلت أن بيوتر بتروفتش سيسافر الآن إلى بطرسبرغ. أن له هنالك أعمالاً كبيرة: أنه يريد أن يفتح مكتباً للمحاماة. هو يعني بهذا النوع من الأعمال منذ زمن طويل. وقد ربح دعوى هامة في الآونة الأخيرة. وينبغي له أن يسافر إلى بطرسبرغ حتماً لسبب آخر هو أنه سيترافق هنالك أمام مجلس الشيوخ⁽²⁷⁾ في قضية خطيرة. وهكذا ترى يا بني العزيز روديا، أنه سيكون في وسعه أن يفيدك كثيراً. لقد رأينا أنها ودونيا أنك تستطيعي منذ اليوم أن تبدأ مهنتك، وأن تعد مستقبلك مضموناً ضماناً نهائياً. آه! ما أجمل أن يتحقق ذلك! سيكون علينا عندئذ أن نعد هذا أثراً من آثار نعمة الله علينا. إن دونيا أصبحت لا تفكّر إلا في هذا. ولقد جازفنا أنا ودونيا، فأسمعنا بيوتر بتروفتش كلمة حول هذا الموضوع، فتكلم عندئذ بشيء من التروي والتعقل فأعلن أنه، بطبيعة الحال، ما دام لا يستطيع أن يستغني عن سكرتير، سيفضل أن يدفع أجوراً لبعض من أعضاء الأسرة على أن يدفع هذه الأجور لشخص غريب، شريطة أن يبرهن القريب على أنه قادر على القيام بهذه الوظيفة وعلى أداء هذه المهمة (كأنك أنت عاجز عن ذلك!). ولكنه لم يلبث أن ساوره شك أفحى عنه فقال إنه يخشى أن لا تدع دراستك في الجامعة متسعأً من الوقت للعمل معه. وقد وقف حديثنا عند هذا الحد ولكن دونيا لا يشغل بالها الآن أمر غير هذا الأمر، وهي منذ بضعة أيام فريسة

حمى حقيقة، حتى لقد بنت لمستقبلك في خيالها مشروعًا ضخماً: إنها تقدر أنك ستستطيع في المستقبل أن تصبح مساعدًا بل وشريكًا لبيوتر بتروفتش في أعمال المرافعات التي يقوم بها، لا سيما وأنك تدرس القانون. أما أنا، يا روديا، فإني متفقة معها كل الاتفاق، أشاركها آراءها وأساطيرها آمالها، وأرى أن ذلك ليس بالمستحيل قط. ورغم ما يظهر الآن على بيوتر بتروفتش من تحفظ، وهو تحفظ يمكن فهمه جداً (لأنه لا يعرفك حتى الآن)، فإن دونيا مقتنة اقتناعاً جازماً بأنها ستصل إلى تحقيق أهدافها بفضل التأثير الطيب الذي تعرف كيف تستطيع أن تحدثه في نفس زوجها المقبل. إنها من ذلك على اقتناع كامل. لقد تحاشينا طبعاً أن نكشف أمام بيوتر بتروفتش، ولو بكلمة واحدة، عن أحلامنا البعيدة، ولا سيما عن حلم أن نراك شريكاً له في المستقبل. أنه رجل وضعى عملي، فقد يسيء النظرة إلى هذا الأمر، لأنه لن يرى فيه إلا أحلاماً. كذلك لم نشر، لا أنا ولا دونيا، أية إشارة إلى أن نراه يساعدنا في أن نرسل إليك ما أنت في حاجة إليه من مال أثناء دراستك بالجامعة. أنها لم نتكلم في هذا الأمر، أولاً لأنه سيتحقق من تلقاء نفسه في المستقبل، ولأن بيوتر بتروفتش سيعرض عليك هذه المساعدة حتماً بدون أقوال زائدة (لن ينقصنا إلا أن يأبى هذا على دونيا!) لا سيما وأنك تستطيع أن تصبح سعاده الأيمن في المكتب، وأن الأمر لن يكون إذن أمر نجدة أو هبة بل أمر أجر تحصل عليه بجهدك. على هذا النحو إنما ت يريد دونيتشك أن ترتب الأمور. وأنا متفقة معها في هذا كل الاتفاق.

وثانياً: نحن لم نتكلم في ذلك لأنني حرست خاصة على أن أضعك في موقف المساواة معه منذ لقائكمما القادم. فحين كلمته دونيا عنك بحماسة أجاب بأن على المرء إذا هو أراد أن يحكم على رجل من الرجال أن يراه عن قرب، وقال إنه يحتفظ لنفسه بحق تكوين رأي عنك بعد أن يتعرف إليك. هل تعرف يا روديا، يا كنزي، ما هو شعوري الآن؟ يخيل اليَّ، استناداً إلى بعض الخواطر التي تساورني (وهي لا تتعلق ببيوتر

بتروفتش، ولا تزيد على أن تكون أهواه امرأة عجوز)، يخيل اليّ أنني سوف أحسن صنعاً إذا أنا لم أعش معهما بعد زواجهما بل أعيش منفصلة عنهما مثلما أعيش الآن. أنني واثقة ثقة مطلقة بأنه يملك من الكرم واللطف ما يكفي لأن يدعوني من تلقاء نفسه، ولأن يقترح عليّ أن لا أنفصل عن ابنتي. وإذا كان قد سكت عن هذا الأمر حتى الآن، فلأنه أمر بديهي لا حاجة إلى الكلام فيه. ولكنني سأرفض. لقد أمكنني أن ألاحظ أكثر من مرة خلال حياتي أن الاصرهار لا يحبون حمواتهم كثيراً. وأنا لا أكره أن أحدث أي إزعاج لأي إنسان فحسب، وإنما أريد كذلك أن أحافظ بحربي كاملة ما ملكت ولو لقمة من خبز، و ما باقي لي أولاد مثل دونيتشكا. سأسكن غير بعيد عنكم إذا أمكن ذلك. هاؤنذا احتفظت لنهاية رسالتي بأجمل شيء يمكن أن أزفه إليك يا روديا. اعلم يابني الحبيب أننا ربما اجتمع شملنا كلنا ثانية في القريب، وأننا قد نتعانق نحن الثلاثة بعد هذا الفراق الذي دام قرابة ثلاثة أعوام. نعم لقد أصبح يقيناً منذ الآن أننا سننافر أنا ودونيا إلى بطرسبرج. أما متى ننافر فلست أدرى، ولكننا سننافر قريباً جداً، ربما بعد أسبوع. أن كل شيء رهن بالاستعدادات التي سيتخذها بيوتر بتروفتش، وسوف يبلغنا هذه الاستعدادات فور استقراره ببطرسبرج. إنه يحرص لأسباب معينة أن يتم الزفاف بأقصى سرعة ويتمنى لو يتم الاحتفال به في غضون شهر إذا أمكن، أو بعد عيد رفع العذراء فوراً إذا كان مضطراً إلى تأجيل الزفاف بسبب قصر الوقت. آه! ما أعظم الفرح الذي سأشعر به حين سأشدك إلى قلبي! إن دونيا تضطرب أشد الأضطراب حين تتصور أنها ستسعد بلقائك. حتى لقد قالت مرة من باب المزاح أنها مستعدة لأن تتزوج بيوتر بتروفتش لا لشيء إلا هذا! إنها ملاك، ملاك حقاً! لن تضيف دونيا إلى رسالتي هذه شيئاً، ولكنها ترجوني أن أقول لك أن هناك أموراً كثيرة تريد أن تحدثك فيها، أشياء تبلغ من الكثرة أنها لا تستطيع أن تتناول الكلم، لأن المرأة لا يمكنها أن يقول ببضعة أسطر شيئاً، فلو حاول أن

يكتب لما زاد على أن يشير أعصابه . وهي تكليري كذلك بأن أعاشقك عناقاً شديداً، وأن أبعث إليك بقبلات لا حصر لها ولا عد . ولكن رغم أنها سنتين قريباً فإن ذلك لن يمنعني من أن أرسل إليك بعض المال في الأيام القريبة . سوف أرسل إليك ما أستطيع إرساله . فالآن وقد علم جميع الناس أن دونيتشكا ستتزوج بيوتر بتروفيتش قريباً أصبح في وسعه فجأة أن استدين مبالغ أكبر من المبالغ التي كنت أستطيع أن استدينها من قبل ، ولقد علمت علم اليقين أن آفاناسي ايفانوفيتش سوف يشق بي فيقرضني سلفة على معاشى تبلغ ستين روبلأ، فقد أستطيع أن أرسل إليك إذن خمسة وعشرين روبلأ بل ثلاثين . كان يمكن أن أبعث إليك بمبلغ أكبر لو لا أخشى نفقات الطريق بعض الخشية . فرغم أن بيوتر بتروفيتش رجل طيب وأنه يتحمل جزءاً من النفقات التي سيقتضيها سفرنا إلى العاصمة ، أي رغم أنه عرض علينا أن يتولى الإنفاق على شحن أمتعتنا وصندوقنا الكبير (بفضل ما له من علاقات) فإن علينا أن نحسب حساب وصولنا إلى بطرسبرج ، فليس يستطيع المرء أن يجيء إلى هذه المدينة بلا قرش في جيبيه ، ولا سيما في الأيام الأولى . على كل حال ، لقد أجرينا أنا ودونيا حساباتنا بأكبر دقة ممكنة ، فظهر لنا أن رحلتنا لن تكلف نفقات باهظة . إن المسافة بين بلدتنا وبين محطة السكة الحديدية لا تزيد على تسعين فرسخاً ، وقد اتفقنا منذ الآن مع فلاح نعرفه على أن نقطع هذه المسافة بعربته كراء . ومن هناك ، سننافر سفراً مريحاً جداً في الدرجة الثالثة من القطار . هكذا ترى أنني قد أستطيع أن أرسل إليك لا خمسة وعشرين روبلأ بل ثلاثين ثلثين حتماً . ولكن حسبي هذا الآن ! لقد سودت ورقتين كبيرتين وجهما وقفاً ، ولم يبق فيهما متسع لمزيد من الكلام . ثم إنك قد عرفت الآن قصتنا كلها . . . الله يعلم كم جرى لنا من أحداث ! والآن يا روديا ، يا كنزي الحبيب . . . أقبلك بانتظار لقائنا القريب ، وأبعث إليك ببركات الأم ! أحبب أختك دونيا ، يا روديا . . . أحببها كما تحبك . . . واعلم علم اليقين أنها تحبك حباً لا

نهاية له، أنها تحبك أكثر كثيراً مما تحب نفسها! هي ملاك يا روديا! ..
وأنت كل شيء عندنا يا روديا... أنت أملنا كله، وأنت مستقبلنا كله!
حسبنا أن تسعد أنت حتى نسعد نحن أيضاً! هل تصلي الله دائماً كما كنت
تصلي له يا روديا؟ أما زلت تؤمن برحمه خالقنا وفادينا؟ إني أخشى في
قرارة قلبي أن تكون الزندقة الرائجة في هذا الزمان قد سرت عدواها
إليك! فإذا كان الأمر كذلك، فإنني أصلي من أجلك، واستغفر الله لك.
تذكرة يا بني الحبيب كيف كنت في طفولتك أثناء حياة أبيك، تذكر كيف
كنت تتممم صلواتك جالساً على ركبتي، وتذكر كم كنا سعداء في تلك
الأيام! .. استودعك الله يا روديا، بل إلى اللقاء! إني أشدك التي شدأ
قوياً، أعانقك، وأطبع على وجهك قبلات لا حصر لها... .

لك حتى الممات

بولخيريا راسكولنيكوفا»

منذ بدأ راسكولنيكوف قراءة الرسالة إلى أن أتمها، لم تنقطع الدموع
عن الجريان على خديه. ولكن حين فرغ من قراءتها ارتعش وجهه الذي
اصفر على حين فجأة، وطافت به ابتسامة أليمة حانقة شتجمت شفتيه.
وتهاوى برأسه على وسادته الهزيلة القدرة، وراح يفكر... راح يفكر
 ملياً... كان قلبه يخفق خفقاتاً قوية. وكانت أفكاره مضطربة أشد
الاضطراب. وأحس أخيراً باختناق في هذه الحجرة الصفراء التي تشبه أن
تكون خزانة أو صندوقاً. إن نظراته وأفكاره تحتاج إلى فضاء واسع.
فتناول قبعته وخرج... خرج دون أن يخشى في هذه المرة أن يلتقي بأحد
على السلم... أصبح لا يفك في هذا الأمر. ومضى في اتجاه جزيرة
فاسيلفسكي سالكا شارع ف... ، كان أمراً ملحاً مستعجلأً كان يناديه إلى
هناك. ولكنه كان، على عادته، يسير دون أن يلاحظ أي شيء أثناء
الطريق، وكان يدمدم بكلام بينه وبين نفسه، بل كان يتكلم أيضاً بصوت
عال، فيشير بذلك دهشة المارة، حتى لقد حسبه الكثير من الناس سكران.

الحقيقة

رسالة أمه ارهاقاً شديداً. ولكنه فيما يتعلق بالنقطة الجوهرية الأساسية لم يساوره الشك لحظةً حتى عند القراءة الأولى. كان قد اتخذ في جوهر القضية قراراً لا رجعة عنه «لن يتم هذا الزواج ما حيت. فليذهب السيد لوجين إلى الشيطان!»

كان يجمجم قليلاً بينه وبين نفسه وهو يتسم بابتسامة ساخرة ويتلذذ منذ الآن تلذذاً خبيثاً بانتصار قراره: «الأمر واضح لا لبس فيه. لا يا أماه، لا يا دونيا، لن تستطعوا أن تخدعناني... وهي تعذر أيضاً عن أنها لم تستشرني وعن أنها ربت الأمر دون علمي ودون إرادتي! ذلك طبيعي! هما تخيلان إذن أنه لم يبق سبيل إلى فسخ الخطوبة. طيب! سوف نرى أهناك سبيل إلى ذلك أم لا؟ وبالها من حجة: «إنه رجل مشغول جداً، بيوتر بتروفتش هذا... يبلغ وقته من الازدحام بالأعمال إنه لا يستطيع أن يتزوج إلا على جناح السرعة، حتى لكانه يتمنى أن يتم الزواج في عربة سريعة العدو إن لم يكن في القطار!» لا، لا، يا دونيتشكا... وإنني لأعلم ما هي الأشياء الكثيرة التي تريدين أن تحدثيني عنها... وإنني لأعلم أيضاً ما الذي فكرت فيه طوال الليل وأنت تذرين العين الغرفة جيئه وذهاباً، وما الذي طلبته في صلواتك أمام «عذراء قازان» التي توجد أيقونتها في غرفة نوم أمنا. ما أشد وعورة

طريق الجلجة... هم... هكذا إذن... كل شيء قد تقرر نهائياً...
تريدين يا أفادوتيا رومانوفنا أن تتزوجي رجلاً من رجال الأعمال، رجالاً
وشعراً عملياً، يملك رأس مال له (أو فلنقل يملك منذ الآن رأس مال
له، فذلك أقرب إلى فرض المهابة والاحترام) يشغل وظيفتين في أن
واحد ويشارك أجيالنا الجديدة آراءها (كما كتبت الأم) رجلاً هو «فيما
يبدو طيب» (كما تلاحظ دونيا نفسها). ما أبلغ هذا التعبير: فيما يبدو!
أن دونيتشكا هذه نفسها هي التي ستتزوج ذلك الرجل، الطيب فيما
يبدو! رائع! رائع!

... على أني يهمني أن أعرف لماذا حدثني أمي في رسالتها عن
«الأجيال الجديدة»؟ ترى أهي فعلت ذلك من أجل أن تصف لي طبع
الرجل فحسب أم فعلته لغاية أبعد من ذلك هي أن تهيني لأن أحكم
على السيد لوجين حكماً حسناً وأن أرى فيه رأياً جيداً؟ آه... يا
للماكرين! وانه ليهمني أيضاً أن أعرف الحقيقة فيما يتعلق بالنقطة
التالية: إلى أي حد كانت كل منهما صريحةً مع الأخرى في ذلك اليوم
وفي تلك الليلة وفي سائر الوقت؟ هل نُطقت جميع الكلمات حقاً، أم
أن كلاً منها قد فهمت ما يدور في قلب الأخرى وما يجري في فكرها،
فكان كل كلام زيادة لا طائل تحتها ولا داعي إليها؟ لعل الأمر كان
كذلك، في جله على الأقل... هذا ما يدركه المرء حق الادراك من
الرسالة نفسها: فالرجل قد بدا لأمي مسرفاً في الصراوة بعض الاسراف،
ولا بد أن تكون أمي بسذاجتها المعهودة فيها قد أسمعت دونيا ملاحظتها
المعاً وتلميحاً، ولا بد أن تكون الأخرى قد اغتاظت طبعاً فكان في
جوابها شيء من «الغضب والحزن». ذلك طبيعي! من ذا الذي يمكن أن
لا يغضب حين يكون الأمر واضحاً يفقاً العينين، وحين لا يكون ثمة
حاجة إلى أية ملاحظة تقال، وحين يكون كل شيء قد تقرر فلا داعي
إلى كلام؟ ولماذا تكتب لي أمي قائلة: «أحبب دونيا يا روديا. إنها
تحبك أكثر كثيراً مما تحب نفسها؟» أليس مرد هذا إلى عذاب الضمير

الذى يبرّحها خفية، أنها صحت في سبيل ابنها بابتها؟ «أنت أملنا كله. أنت كل شيء عندنا» آه يا أماه! إن غضباً ما ينفك يشتد ويقوى كان يتجمع في نفسه ويتراكم، فلو لقي السيد لوجين في تلك اللحظة، إذن لقتله في أغلبظن!

وأصل يقول متابعاً إعصار أفكاره الذي كان يعصف في رأسه: «هم... هذا حق... هذا حق... من أراد أن يعرف أحداً فعليه «أن يتصرف أزاءه تصرفاً فيه كثير من التروي والتعقل والحكمة والحذر». ولكن السيد لوجين واضح شفاف. هو قبل كل شيء «رجل من رجال الأعمال» وهو «طيب فيما يبدو». إلا نرى أنه يتولى شحن أمتاعهما وصندوقهما الكبير على نفقة؟ فكيف لا يكون إذن طيباً؟ والخطيبة والأم كلتا هما تستأجران فلاحاً يملك عربة ذات غطاء من قماش خشن (أنا أعرف ما هذا، فقد بلوته)، وقطعت هذه المسافة بتلك الطريقة). أي ضير؟ إن المسافة لا تزيد على 90 فرسخاً⁽²⁸⁾، «ومن هنا نسافر سفراً مريحاً جداً في الدرجة الثالثة من القطار». ألف فرسخ في الدرجة الثالثة! معقول جداً: إن كل إنسان ينفق ما تسمح له موارده باتفاقه! ولكن ما رأيك أنت يا سيد لوجين؟ ما رأيك أنت؟ الفتاة خطيبتك... ولا بد أنك تعلم أن الأم ستفترض سلفة على معاشها لتستطيع سداد نفقات الرحلة! عقلك عقل تجاري محض طبعاً... أنت تنظر إلى الأمر نظرك إلى مشروع تجاري يشترك فيه طرفان يقتسمان أرباحه نصيبيين متساوين، فلا بد أن يسهم كل منهما في نفقاته بنصيبيه كاملاً. لسان حالك يقول ما يقوله المثل السائر «الخبز والملح لي ولك، أما التبغ فلكل تبغه الخاص به». ولكن رجل الأعمال قد غشهما وغبنهما في هذه النقطة أيضاً: نفقات شحن الأمتاع أقل من نفقات السفر، وقد يستطيع رجل الأعمال هذا أن يشحن الأمتاع بالمجان. أهما لا تريان هذا أم هما لا تريان أن ترياه؟ والعجيب أنهما راضيتان، راضيتان! وما هذه إلا الأزهار أما الشمار فستأتي بعد ذلك! وأخطر ما في الأمر ليس هو

البخل، ليس هو الشعّ، وإنما هو هذا الطابع العام الذي يطبع الأمر كله مؤذنا بما ستصير إليه الأحوال بعد الزواج... وأمي: ما بالها تريد ارتكاب حماقات؟ بماذا ستصل إلى بطرسبرج؟ بثلاثة روبلات في جيبيها، أو «بورقتين صغيرتين»⁽²⁹⁾ كما قالت تلك العجوز المرا比ة. هم... وعلى أي شيء تعول من أجل أن تعيش بعد ذلك في بطرسبرج؟ بناء على بعض القرائن لقد استطاعت مع ذلك أن تدرك أنه ستحيل عليها أن تعيش مع دونيا حتى أثناء الآونة الأولى من الزواج. لا شك أن الرجل العزيز قد كشف القناع عن نفسه بطريقة أو أخرى، لا شك أن هذا قد أفلت من لسانه، رغم أن أمي تستبعد هذا الافتراض بكلتا يديها قائلة: «أنا سأرفض». فعلى أي شيء تعول إذن؟ أهي تعول على معاشها الذي يبلغ مائة وعشرين روبلًا سيقطع منها الدين المقترض من آفاناسي إيفانوفتش؟ إنها تقضي الوقت كله في حياكة مناديل شتوية وتطرير أكمام، فترهق بذلك عينيها المتعبتين. ولكن حياكة المناديل وتطرير الأكمام لا يضيفان إلى المائة وعشرين روبلًا في السنة إلا عشرين أخرى. أنا أعلم ذلك! هي إذن تعتمد رغم كل شيء على كرم القلب ونبل النفس لدى السيد لوجين: «سيعرض عليّ من تلقاء نفسه أن يساعدني، وسيلخ...». لقد أخطأ ظنها فلن تناول ما تمناه! هكذا حال نفوس شيللر⁽³⁰⁾ الطيبة دائمًا: تظل حتى آخر لحظة تزيّن الناس بريش الطاووس، تظل حتى آخر لحظة تفترض الخير لا الشر، ورغم تصورها وجود الشر فإنها لا يمكن أن تعرف لذلك لنفسها بحال من الأحوال: إن تصور هذا وحده يصدّمها ويهزّها هزاً قوياً. فهي بيديها تحجب وجهها حتى لا ترى الحقيقة، إلى أن يأتي الإنسان الذي زينته بريش ملون من خيالها فيصفع وجهها ويدمي أنفها بيده نفسها. ليتبيني أعرف هل يملك السيد لوجين أو سبعة. إنني أراهن على أنه يملك وسام القدسية حتى⁽³¹⁾ وأنه يزين به سترته حين يذهب إلى حفلة عشاء يقيمها أحد من المقاولين أو التجار. ولن ينسى أن يفعل ذلك أيضاً يوم زفافه!

على كل حال... شيطان يأخذه! ..

والله... إني لأسامح أمي، فهي كما هي، كان الله في عونها! .. ولكن ماذا أقول عن دونيا؟ إني أعرفك يا عزيزتي دونتشيكا! كنت قد بلغت العشرين من عمرك حين التقينا آخر مرة. وقد أدركت طبعك وفهمت خصالك منذ تلك اللحظة. أمي تقول «إن دونتشيكا تستطيع احتمال أشياء كثيرة»... نعم... هذا أمر أعرفه، أعرفه منذ سنتين ونصف سنة... وأنا منذ سنتين ونصف سنة، لا أفكِر إلا في هذا، لا أفكِر إلا في هذا نفسه... وهو أن «دونتشيكا تستطيع احتمال أشياء كثيرة». لئن استطاعت أن تحتمل السيد سفیدریجايلوف، وأن تحتمل كل العواقب التي ترتب على سلوكه، فهذا دليل على أنها تستطيع فعلًا أن تحتمل أشياء كثيرة! .. وها هما الآن، هي وأمي، قد تخيلتا أن في الإمكان احتمال رجل مثل السيد لوجين، لا يتحرج من شرح مزايا زواج الرجل بامرأة فقيرة كي لا تشعر بفضلها عليه، ولا يتحرج من شرح هذه النظرية منذ أول لقاء! طيب... لنسلم بأن ذلك قد «أفلت» من لسانه على غير إرادة منه، رغم أنه رجل وضعى عملي (فمن الجائز أن شيئاً لم يفلت من لسانه أفلاتاً وإنما هو أراد عمدًا أن يوضح الأمور دون أن يضيع وقتاً). ولكن ماذا أقول في دونيا؟ ماذا أقول في دونيا؟ لا شك أنها قد كشفت الرجل وأزاحت القناع عن وجهه وعرفته على حقيقته، ثم هي تقبل أن تعيش معه! إنها تؤثر أن لا تأكل إلا خبزًا وأن لا تشرب إلا ماء، على أن تبيع روحها! .. إنها لا يمكن في سبيل الحصول على الرخاء أن تفقد حريتها! أنها تأبى أن تتنازل عن هذه الحرية في سبيل دوقيتي شفلفسيج وهولشتاين⁽³²⁾، فكيف تتنازل عنها في سبيل السيد لوجين؟.. لا! إن دونيا التي أعرفها لم تكن هكذا... من المؤكد أن طبعها لم يتغير حتى الآن... فماذا أقول؟ صحيح أنه أمر شاق عليها أن تحتمل آل سفیدریجايلوف، وأن تظل طوال حياتها تمضي من إقليم إلى إقليم لتعمل مربية في سبيل أن تجني ماتي روبل. ولكن أعلم أن اختي

تؤثر أن تساء معاملتها كما يسيء مزارع معاملة زنجي أو كما يسيء الماني من مقاطعات البلطيق معاملة رجل لاتفى⁽³³⁾، على أن تدنس روحها وأن تفسد حسها الأخلاقي بالارتباط إلى الأبد ومن أجل مصلحتها الشخصية فحسب برجل لا تحبه ولا يجمعها به شيء! ولا بد أن ترفض أن تصبح خليلة شرعية للسيد لوجين ولو كان السيد لوجين ذهباً كله أو ماساً كله! فلماذا تقبل هذا الزواج الآن؟ ما سبب هذا؟ ما هو مفتاح السر؟ الأمر واضح! لو كانت تنشد مصلحتها هي ورخاءها هي، لرفضت أن تبيع نفسها ولو لتجنب الموت. أما في سبيل شخص آخر فإنها مستعدة أن تبيع نفسها! نعم إنها في سبيل شخص محظوظ، في سبيل شخص معبد، مستعدة لأن تبيع نفسها! ذلك هو مفتاح اللغز: إنها في سبيل أخيها وفي سبيل أمها قادرة على أن تبيع نفسها، على أن تبيع كل شيء! آه... نعم إننا نستطيع عند اللزوم أن نخنق حتى إحساسنا الأخلاقي! إننا نستطيع عند اللزوم أن نحمل إلى السوق كل شيء فنيعه فيها: الحرية، الطمأنينة، وحتى راحة الضمير! ألا فلتتحطم حياتنا إذا كان في ذلك سعادة لأولئك الذين نحبهم! وأكثر من ذلك إننا لنلق لأنفسنا عندئذ سفسطة خاصة نتعلمها من اليسوعيين فنريح ضمائernا إلى حين، مسوغين أعمالنا قائلين لأنفسنا: إن ما فعلناه هو ما كان ينبغي لنا أن نفعله ما دمنا نعمل في سبيل هدف نبيل وغاية شريفة! نحن جميعاً هكذا. كل شيء واضح الآن وضوح النهار. لا شك أن روبيون رومانوفتش راسكولنيكوف، ولا أحد سواه، قد احتل المقام الأول من الاعتبار في هذه القصة. كيف لا؟ أن من الواجب أن نعمل لتوفير السعادة له، وأن نعيشه ما ظلل في الجامعة، وأن نجعله في المستقبل شريكاً لرجل من رجال الأعمال، أي أن نضمن له مستقبلاً، فيصبح غنياً محترماً مرموقاً، حتى لقد يصل في أواخر أيامه إلى المجد. والأم؟ ما قولنا في الأم؟ ولكن الأمر هنا أمر ولدها الأول، أمر ابنها روبيا، أمر ابنها الغالي روبيا! فكيف لا تضحي في سبيل مثل هذا الولد الأول بمثل

هذه البنت؟ يا لظلمك أيتها القلوب العزيزة! أتجهلين إذن أن المرء قد تدفعه نية كهذه النية أن يشاطر صونيا مصيرها؟ نعم صونيا، صونيتتشكا مارميلادوا، صونيتتشكا الخالدة، الخالدة خلود العالم! ولكن هل تصورتما كلتاكم ما مدى هذه التضحية؟ هل هذه التضحية هي حقاً ما تفكرون فيه؟ هل تملكان القدرة على القيام بهذه التضحية؟ وهل هذه التضحية مفيدة حقاً؟ وهل هي معقوله؟ هل تعلمين يا دونيتتشكا أن مصير صونيا ليس أفعى من مصير امرأة قضى عليها أن تعيش مع السيد لوجين؟ أن أمي تقول: «لا مجال للكلام عن حب حقيقي» ولكن ما عسى يحدث، بصرف النظر عن قضية الحب هذه كلها، إذا لم يكن هنالك أيضاً شيء من الاعتبار والاحترام، بل كان هنالك منذ الآن نفور واحتقار واشمئاز؟ ما عسى يحدث حينذاك؟ سيكون من الواجب عندئذ مرة أخرى... «مراجعة النظافة». أليس الأمر كذلك؟ هل تفهمان، هل تفهمان حق الفهم ماذا تعنيه هذه النظافة؟ هل تدركان أن هذه النظافة لا تختلف عن نظافة صونيتتشكا، بل من الممكن أن تكون أحقر منها وأدنى وأسفل، لأنك يا دونيتتشكا تستهدفين مزيداً من الرخاء، أما هنالك فالامر لا يزيد على الرغبة في تحاشي الموت جوعاً. «إنها تكلف ثمناً باهظاً، باهظاً جداً يا دونيتتشكا، تلك النظافة»! وماذا إذا أصبح الحمل في المستقبل أثقل من أن تطيقيه، فاستبدت بك الندامة؟ ما أشد ما ستشعرين به عندئذ من حزن ومن كرب، وما أكثر ما سيلاحق ضميرك عندئذ من لعن، وما أغزر ما ستذرفين عندئذ من دموع تخفيتها عن أعين الناس، لأنك لست امرأة مثل مارفا بتروفنا على كل حال؟ وما عسى تشير إليه أمنا حينذاك؟ إنها منذ الآن قلقة معدبة، فكيف تكون حالها في المستقبل حين ترى كل شيء رؤية واضحة؟ وأنا؟.. ما الذي تظنبنه في إذن؟ إبني لا أريد هذه التضحية يا دونيتتشكا! إبني لا أريدها يا أماه! لا، لن يتم هذا الأمر ما حriet، لن يتم، لن يتم! إبني أرفضه!»

هنا ثاب راسكونيكوف إلى رشده فجأة، فتوقف عن السير، ثم

وأصل يخاطب نفسه:

«لن يتم هذا الزواج؟ ولكن ما عساك تفعل حتى تحول دونه؟ أتمنعها؟ ولكن بأي حق تمنعها؟ ما الذي تستطيع أن تدعهما به في مقابل ممارسة مثل هذا الحق؟ أن تقف عليهما حياتك كلها ومستقبلك كله متى أنهيت دراستك ووجدت عملاً؟ أغنية معروفة!.. ذلك كله في المستقبل، فماذا في الحاضر؟ يجب عليك إذن أن تعمل شيئاً منذ الآن، هل تفهم؟ فماذا تفعل أنت الآن؟ إنك تعيش عالة عليهمـاـ . والمال الذي تنفقـانـهـ عليكـ إنـماـ تـقـرـضـانـهـ سـلـفـةـ علىـ مـعـاشـ التـقـاعـدـ وـعـلـىـ أـجـورـ منـ أمـثـالـ السيدـ سـفـيدـ رـيـجاـيلـوفـ!ـ وكـيفـ عـسـاكـ تـحـمـيـهـمـاـ منـ أمـثـالـ سـفـيدـ رـيـجاـيلـوفـ وأـمـثـالـ آـفـانـاسـيـ إـيـفـانـوـفـيـشـ فـاخـرـوـشـينـ؟ـ أـنـتـ ياـ مـلـيـونـيرـ المـسـتـقـبـلـ،ـ أـنـتـ ياـ إـلـهـ الـأـوـلـمـبـ الـذـيـ تـتـحـكـمـ بـمـصـيرـهـمـاـ،ـ أـبـعـدـ عـشـرـ سـنـينـ تـفـعـلـ لـهـمـاـ شـيـئـاـ؟ـ وـلـكـ أـمـكـ سـتـكـونـ بـعـدـ عـشـرـ سـنـينـ قـدـ فـقـدـتـ بـصـرـهـاـ مـنـ فـرـطـ اـنـكـابـهـاـ عـلـىـ حـيـاـكـةـ الـمـنـادـيلـ،ـ وـرـبـمـاـ مـنـ فـرـطـ ذـرـفـهـاـ الدـمـوعـ،ـ وـسـيـكـونـ تـكـرـرـ الصـيـامـ عـنـ الطـعـامـ وـالـحرـمانـ مـنـ الـغـذـاءـ قـدـ اـنـتـصـرـ عـلـيـهـاـ فـهـدـمـ جـسـمـهـاـ!ـ..ـ أـمـاـ أـخـتـكـ..ـ فـهـيـاـ تـخـيـلـ قـلـيلـاـ مـاـ سـتـصـيرـ إـلـيـهـ بـعـدـ عـشـرـ سـنـينـ،ـ هـيـاـ تـخـيـلـ قـلـيلـاـ مـاـ سـتـؤـولـ إـلـيـهـ حـالـهـاـ بـعـدـ عـشـرـ سـنـينـ،ـ هـلـ تـخـيـلـ؟ـ»

هـكـذاـ،ـ بـهـذـهـ الـأـسـتـلـةـ،ـ إـنـماـ كـانـ رـاـسـكـوـلـنـيـكـوـفـ يـعـذـبـ نـفـسـهـ،ـ فـكـانـ الـاـهـتـيـاجـ الـذـيـ يـحـسـهـ مـنـ ذـلـكـ يـسـتـحـيـلـ إـلـىـ نـوـعـ مـنـ تـلـذـذـ.ـ عـلـىـ أـنـ هـذـهـ الـأـسـتـلـةـ لـيـسـ فـيـهـاـ شـيـءـ غـيرـ مـتـوـقـعـ.ـ إـنـهـاـ غـيرـ جـدـيـدةـ عـلـيـهـ،ـ بـلـ هـيـ قـدـيمـةـ جـداـ،ـ وـهـيـ تـعـذـبـهـ مـنـذـ زـمـنـ طـوـيلـ.ـ نـعـمـ،ـ لـقـدـ كـانـتـ هـذـهـ الـأـسـتـلـةـ تـعـذـبـهـ وـتـرـهـقـهـ وـتـمـزـقـ قـلـبـهـ مـنـذـ زـمـنـ طـوـيلـ.ـ لـقـدـ كـانـ هـذـاـ الـقـلـقـ يـشـبـ فـيـ نـفـسـهـ وـيـنـمـوـ وـيـتـراـكـمـ مـنـذـ زـمـنـ طـوـيلـ.ـ وـنـضـجـ هـذـاـ الـقـلـقـ فـيـ الـأـوـنـةـ الـأـخـيـرـةـ،ـ وـتـرـكـزـ وـتـكـثـفـ،ـ فـإـذـاـ هـوـ يـتـخـذـ صـورـةـ سـؤـالـ رـهـيـبـ،ـ سـؤـالـ وـحـشـيـ عـجـيـبـ،ـ يـضـنـيـ قـلـبـهـ وـفـكـرـهـ،ـ وـيـطـلـبـ جـوابـاـ لـاـ سـبـيلـ إـلـىـ تـحـاشـيـهـ.ـ وـهـاـ هـيـ ذـىـ رـسـالـةـ أـمـهـ تـنـقـضـ عـلـيـهـ فـجـأـةـ كـمـاـ تـنـقـضـ الصـاعـقةـ.ـ أـصـبـحـ وـاـضـحـاـ أـنـ الـوـاجـبـ الـذـيـ يـقـعـ عـلـىـ عـاتـقـهـ الـآنـ لـيـسـ هـوـ أـنـ يـقـلـقـ وـأـنـ يـتـأـلمـ قـاعـدـاـ لـاـ

يعلم معتقداً أن المسألة لا حل لها، وإنما ينبغي له الآن أن يفعل شيئاً بأقصى سرعة ممكنته، بل وينبغي له الآن أن يفعل شيئاً على الفور. إن من واجبه أن يتخذ قراراً مهما كلف الأمر، أياً كان هذا القرار، أو أن . . .

ثم صاح يقول فجأة بصوت عال وقد خرج عن طوره:

« . . . أو أن أستغني عن الحياة، فأقبل مصيري صاغراً إلى الأبد، وأختنق في نفسي كل شيء، وأننازل عن حقي في أن أعمل، وأن أحيا، وأن أحب! »

وتذكر السؤال الذي ألقاه عليه بالأمس مارميلادوف: وهل تدرك يا سيدي الكريم ما معنى أن لا يكون للإنسان مكان يذهب إليه؟ ذلك أنه لا بد لكل إنسان من أن يجد ولو مكاناً يذهب إليه . . .

وارتعش راسكولنيكوف على حين فجأة. إن فكرة آتية من البارحة هي أيضاً قد ومضت في ذهنه مرة أخرى. ولكن لئن ارتعش، فإنه لم يرتعش لأن هذه الفكرة قد ومضت في ذهنه. لقد كان يعلم، كان يوjsn أن هذه الفكرة لا بد أن تعاوده، فكان يتوقعها وينتظرها. غير أن هذه الفكرة ليست الآن ما كانت في البارحة، والفرق بينها وبين فكرة البارحة أنها لم تكن منذ شهر، ولا في البارحة، إلا حلماً، أما الآن . . . أما الآن فهي لا ت تعرض لفكره في صورة حلم، بل هي تعرض له في صورة جديدة، في صورة رهيبة مخيفة، لا عهد له بها من قبل . . . لقد أدرك ذلك على حين بغتة . . . فأخذ الدم يدق في صدغيه، واسود كل شيء أمام عينيه.

ألقى على ما حوله نظرة سريعة. كان يبحث عن شيء ما. كان يريد أن يجلس، فهو يبحث عن دكة يقعد عليها. إنه الآن في بولفار ك . . . وعلى مسافة مائة خطوة في الأمام توجد دكة. اتجه راسكولنيكوف نحو الدكة بأقصى سرعة يستطيعها، غير أن حادثاً صغيراً وقع له أثناء الطريق، فشدَّ انتباذه كله خلال بعض دقائق.

لقد لمع، وهو يبحث بنظره عن الدكة، لمح امرأة كانت تسير أمامه، على بعد عشرين خطوة تقريباً. غير أنه في أول الأمر لم يولها أي انتباه، كما لم ينتبه إلى كل ما كان قد صادفه حتى الآن. لقد اتفق له، مراراً كثيرة، أن رجع إلى منزله دون أن يتذكر الطريق الذي سلكه. تلك عادة أصبحت راسخة فيه. ولكن المرأة التي تسير أمامه الآن فيها شيء يبلغ من الغرابة والشذوذ ومن القدرة على لفت النظر وخطف البصر، إن انتباهه قد تركز عليها شيئاً بعد شيء، رغم إرادته وعلى ما يشبه المضمض في أول الأمر، ثم بقوة ما تنفك تزداد بعد ذلك. واستبدت به رغبة مفاجئة في أن يعرف ما هو الشيء الذي يبلغ في هذه المرأة ذلك المبلغ كله من الغرابة. وسرعان ما أدرك أنها لا بد أن تكون فتاة في ريعان الشباب. كانت الفتاة، رغم الحر الشديد، تسير حاسرة الرأس بلا مظلة ولا قفازين، مرجحة يديها بحركات غريبة مضحكة. وكانت ترتدي ثوباً صغيراً من حرير خفيف، ليس بشكل غريب أيضاً، غير مزرر تقريباً، وقد انشق من الخلف عند الخصر، وتمزق جزء كبير منه فتهدل. وكانت تضع حول عنقها العاري منديلأً صغيراً قد لفَّ مقلوباً. وكانت الفتاة، فوق ذلك، تمشي مشية مضطربة، فهي تتعرّى وتترنح ذات اليمين وذات الشمال. إن هذا اللقاء أثار كل اهتمام راسكولنيكوف آخر الأمر. وقد أدركها لحظة كانت تقترب من الدكة، ولكن الفتاة ما إن وصلت إلى الدكة حتى تھالكت تجلس على أحد طرفيها، وتقلب رأسها إلى وراء فتسنده إلى ظهرها، وتغمض عينيها وقد ظهر عليها أنها محطمة من فرط التعب. فلما تأملها لم يلبث أن لاحظ أنها ثملة قد أخذ السكر منها كل مأخذ. وكان ظهورها على هذا النحو يبلغ من الغرابة والشذوذ أن راسكولنيكوف تسأله هل تصدقه عيناه. كان أمامه وجه باهٍ في ميزة الصبا، وجه لا يزيد عمره على ستة عشر عاماً، وقد لا يزيد على خمسة عشر عاماً، دقيق نحيل يحف به شعر أشقر، جميل ولكنه محظى حتى لكانه منتفخ متورّم. وكان يبدو أن الفتاة لا تعي شيئاً. لقد وضعت ساقاً

فوق ساق، فانكشف من ساقيهما ما لا يليق أن ينكشف، وأغلب الظن أنها كانت لا تقاد تدرك أنها في الشارع.

لم يجلس راسكولنيكوف، ولكنه لم يشاً أيضاً أن ينصرف، فبقى واقفاً أمامها وقد استولت عليه الحيرة واستبد به الاضطراب. كان البولفار دائماً خالياً، أما الآن بعد الساعة الواحدة بعد الظهر من ذلك اليوم، أثناء ذلك الحر الشديد، فلم يكدر يمر فيه أحد. ومع ذلك فعلى بعد خمس عشرة خطوة، كان قد وقف سيد عند حافة البوليفار يبدو واضحاً أنه يريد هو أيضاً أن يقترب من الفتاة لغاية واضحة. لا شك أنه كان هو أيضاً قد لمحها من بعيد فتبعها. ولكن راسكولنيكوف يضايقه الآن وزعجه. ألقى السيد على راسكولنيكوف نظرات فيها كره وبغض، محاولاً مع ذلك أن لا يلمحها راسكولنيكوف، وأخذ ينتظر، بفارغ صبر، انصراف هذا المتشدد الذي جاء في غير أوانه ليحتل مكانه.

كان الأمر إذن واضحاً. والسيد رجل في نحو الثلاثين من عمره، بدین الجسم، سمين، نضر الوجه، يعلو شفتيه الحمراوين شاربان صغيران، ويرتدی ثياباً أنيقة كل الأناقة.

غضب راسكولنيكوف غضباً رهيباً، واستبدت به على حين فجأة رغبة جامحة في أن يهين هذا السيد السمين المتألق بطريقة أو بأخرى، فترك الفتاة لحظةً، واقترب من السيد، وصاح يقول وهو يشد قبضتي يديه ضاحكاً مُزبداً، ناقماً عليه:

- هيه ! أنت ! سفيدير يجالوف ! ماذا تريد هنا؟

فأسأله الرجل بلهجة قاسية متعالية متكبرة وقد قطب حاجبيه وظهرت الدهشة في وجهه:

- ما معنى هذا الذي تقول؟

- معناه أغرب عن وجهي ! هذا معناه ! ..

- كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام أيها الوغد الحقير؟ قال الرجل ذلك

وشهر سوطه يلوح به . فما كان من راسكولنيكوف إلا أن هجم عليه قابضاً كفيه ، حتى دون أن يقول لنفسه إن هذا السيد السمين يستطيع بسهولة أن يجهز على شخصين مثله . ولكن أحداً قد أمسكه من خلف في تلك اللحظة نفسها إمساكاً قوياً : إنه رجل من رجال الشرطة يتدخل في المشاجرة .

- هيء ! ما بالكما أيها السيدان ؟ هلاً امتنعتما عن الاقتتال في الطريق العام ؟

ثم قال يسأل راسكولنيكوف بلهجة قاسية بعد أن تفحص أسمائه البالية :

- مَاذَا ترِيدُ؟ مَنْ أَنْتَ؟

تفرس فيه راسكولنيكوف بانتباه . إن للرجل وجه جندي شجاع طيب ، مع شاربين وسالفين قد وخط شعرهما الشيب ، وان له نظرة تقىض تعبيراً عن الحس السليم والعقل الراوح .

صرخ راسكولنيكوف يقول وهو يمسك ذراع الشرطي :

- أنت أنت من أحتاج اليه ! اسمي راسكولنيكوف . . . إذا كنت ترید أن تعرف اسمي . أنا طالب سابق . . .

والتفت يخاطب السيد بقوله :

- هذا ما يمكن أن تعرفه أنت ! . .

ثم عاد يخاطب الشرطي فقال :

- تعال معي ! سأريك شيئاً !

وقاد الشرطي من يده إلى الدكة ، وأخذ يتدفق في الكلام قائلاً له :

- انظر ! إنها سكري تماماً . . . كانت مازأة في البولفار منذ قليل . . . لا يدرى أحد من أين خرجت . . . ولكن لا يبدو عليها أنها محترفة . . . أغلبظن أنهم أسקרוها في مكان ما ، ثم عبثوا بها ، لأول مرة في حياتها . . . هل تفهم ؟ ثم رموها في الشارع . . . انظر إلى ثوبها كيف

تمزق... انظر كيف لبس... أنها لم تلبس ثيابها بنفسها، بل ألبسها أحد ثيابها... ألبستها ثيابها أيدٍ غير خبيرة، ألبستها ثيابها أيدي رجال... ذلك واضح! ثم انظر الآن هناك: انظر إلى ذلك الرجل المتألق الذي أردت أنا أن أضرره منذ لحظة... إبني لا أعرفه... ما رأيته في حياتي قبل اليوم! لكنه لاحظها هو أيضاً في الطريق، فأدرك أنها سكرى، وأنها فاقدة شعورها كله. وهو الآن تحرقه رغبة رهيبة في أن يقترب منها وأن يقودها إلى مكان ما وهي على هذه الحالة... ذلك هو ما يريد حتماً... صدق إبني غير مخطئ... لقد رأيت بنفسي كيف رصدها وتبعها... ولكن وصولي أفسد عليه خطته، فكان يتذكر أن أنصرف، وما يزال يتذكر أن أنصرف... انظر إليه... لقد ابتعد قليلاً...وها هوذا يقف متظاهراً بأنه يلف سيجارة... كيف فعل حتى لا ندع له أن يستولي عليها؟ ليتنا نستطيع أن نقودها إلى منزلها... ما رأيك؟

سرعان ما أدرك الشرطي الموقف. إن حالة السيد السمين واضحة لا سبيل إلى الشك فيها. بقي أن تُعرف حالة الفتاة. مال الشرطي عليها ليراها من قرب، فارتسمت على قسمات وجهه عاطفة شفقة صادقة.

قال وهو يهز رأسه:

- آه! يا للمسكينة! ما تزال طفلة حقاً لا شك أنهم عبثوا بها!

ثم أضاف يناديها:

- اسمعي يا آنسة! أين تسكنين؟

فتحت الفتاة عينيها المكدودتين الناعستين، وألقت نظرة مشدوهة على الرجلين المزعجين، وأجرت يدها بحركة كأنها تريد أن تطردهما. قال راسكولنيكوف وهو ينش جيه فيخرج منه عشرين كوبيكاً كانت ما تزال فيه:

- اسمع! خذ هذه النقود، وناد حوذياً، ومره أن يقودها إلى بيتها. ليتنا نستطيع أن نعرف عنوانها!..

عاد الشرطي يقول وهو يتناول النقود:

- يا آنسة! هيء! يا آنسة! سأنادي عربة على الفور فأعود بك إلى متزلك بنفسك! إلى أين يجب أن أقودك؟ قولي! أين تسكنين؟

فجمجمت الفتاة تقول وهي تُجري يدها بتلك الحركة نفسها:

- دعوني وشأني! لا تشبووا بي!

- آه! ليس هذا بالمستحسن يا آنسة! هذا عيب. هذا عيب حقاً.

وهز رأسه من جديد، معتبراً عن العتاب والشفقة والاستنكار في آن واحد، ثم تابع كلامه يخاطب راسكولنيكوف وهو ينظر إليه مرة أخرى من أخمص القدمين إلى قمة الرأس. أغلب الظن أنه بدا له غريباً أيضاً: يهب الماء نقوداً ثم هو يرتدي مثل هذه الأسمال الرثة البالية:

- نعم... العنوان... تلك هي المسألة!

وأضاف يسأله:

- هل التقيت بها في مكان بعيد عن هنا؟

- سبق أن قلت لك: كانت تسير أمامي متزنة، هناك، في البوليفار
فما إن وصلت إلى الدكة حتى تهاوت عليها!

- آه! ما أكثر العار الذي سقط على العالم يا رب! أطفاله وسكري؟ لا شك أنهم قد عبيروا بها! ذلك واضح... انظر إلى ثوبها كيف تمزق كل التمزق... هه... إن الدعاارة تحقق تقدماً كبيراً في هذا الزمان!... ومن يدري؟ لعلها من أسرة طيبة جار عليها الدهر فأصابها بالدمار... أمثال هذه الحالات كثيرة في هذه الأيام... إن الماء حين يراها لطيفة هذا اللطف كله مرهفة هذه الرهافة كلها، يمكن أن يحسبها آنسة من أسرة راقية نبيلة.

قال الشرطي ذلك وما لعلها من جديد. لعل له هو أيضاً بنات «تلغ» من اللطف والرهافة أن الماء يمكن أن يحسبهن آنسات من أسرة نبيلة»،

يصطعن آداب الفتيات الراقيات ويقلدنهن فيما يخص الموضة.

قال راسكولنيكوف:

- الأمر الأساسي هو ألا تتركها لهذا الوغد الدني! إن من الممكن أن يلحق بها إيزاءات جديدة. نياته واضحة وضوح النهار! يا للوغد القذر! إنه لا ينصرف.

كان راسكولنيكوف يتكلم بقوة وهو يومئ إلى السيد بإصرار عنيد. سمعه الرجل فأوشك أن يغضب من جديد، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك واكتفى بأن ألقى عليه نظرة احتقار، ثم ابتعد ببطء مسافة عشر خطوات، وتوقف مرة أخرى.

أجاب الشرطي واجماً مفكراً يقول:

- أن لا ندعها له فذلك أمر سهل إذا نحن عرفنا المكان الذي ينبغي أن نقودها إليه، ولكن . . .

قال الشرطي ذلك وماל على الفتاة مرة أخرى وأخذ يناديها:

- يا آنسة! هيء يا آنسة!

فتحت الفتاة عندئذ عينيها محمولة، ونظرت بانتباه كأنما هي فهمت شيئاً ما، ثم نهضت عن الدكة واستأنفت سيرها في الاتجاه الذي كانت آتية منه. وجمجمت تقول وهي تجري يدها بتلك الحركة نفسها كأنما لتخلص من الرجلين:

- آه! إنهم لا يتحرجون ولا ينكرون يتسبون.

كانت تمشي بسرعة، ولكنها تترنح في مشيتها كترنحها منذ قليل. تبعها السيد الأنيد دون أن يحول بصره عنها، سائراً في الممر الآخر.

وأسرع الشرطي ذو الشاربين الكبيرين يمشي وراءها قائلاً لراسكولنيكوف بلهجة جازمة:

- لا تخف، لن أتركها!

وكرر يقول متنهداً:

- رياه! ما هذا الفسق الذي نراه في هذا الزمان!

في تلك اللحظة نفسها أحس راسكولنيكوف في داخله بما يشبه أن يكون وخزة، فإذا بكل شيء في نفسه ينقلب رأساً على عقب، وإذا هو ينادي الشرطي صائحاً:

- هيه! اسمع!

التفت الشرطي فقال له راسكولنيكوف:

- دعهما! ما شانك أنت! دع الأمور تجري على أعتتها! دع الرجل يتسلى! (وقال ذلك وهو يشير بيده إلى السيد الأنثيق). ما شانك أنت وهذا كله؟

لم يفهم الشرطي شيئاً وحملق متعجباً. وأخذ راسكولنيكوف يضحك. قال الشرطي وهو يحرك يده:

- ايه! ايه!

وعاد يلاحق السيد الأنثيق والفتاة الصغيرة. أغلب الظن أنه كان يعد راسكولنيكوف مجنوناً أو شرّاً من ذلك.

فلما أصبح راسكولنيكوف وحيداً، دمم يقول في خبث: «أخذ مني أنا عشرين كوبيناً، وسوف يأخذ من السيد الأنثيق مبلغاً آخر فيترك له البنية. هكذا ستنتهي الأمور... لماذا أقحمت نفسى فيما لا يعنينى؟ لماذا تدخلت في سبيل أن أحميها؟ هل على أنا أن أفرض نفسى حامياً؟ هل من حقى أن أحمى أحداً أياً كان؟ إلا فليلتهم بعضهم بعضاً أحياء... ما شأنى أنا وهذا؟ وكيف تجرأت أن أهب تلك الكوبيكات العشرين؟ أهي ملكي؟»

ورغم هذه الأقوال الغريبة، كان راسكولنيكوف يحس بقلبه ثقيلاً ثقيلاً. جلس على الدكة المهجورة وشردت أفكاره... كان يصعب عليه

في تلك اللحظة أن يفكر في أي شيء.

وَدَ لَوْ يَغِيبُ عَنْهُ وَعِيهِ... وَدَ لَوْ يَنْسِى كُلَّ شَيْءٍ فَمَا يَشْعُرُ بِشَيْءٍ...
ثُمَّ يَسْتِيقْظُ بَعْدَ ذَلِكَ فَيَسْتَأْنِفُ حَيَاةً جَدِيدَةً... .

قال وهو ينظر إلى طرف الدكة الذي أصبح الآن خالياً:

- يا للصغيرة المسكينة! سوف تصحو فتبكي، وسوف تعلم أنها بكل شيء... فتضربها أولاً، ثم تجلدها جلدًا أليماً فيه أبلغ الإذلال وأعمق الإهانة... وقد تطردتها من البيت... وهبها لم تطردتها، فلا بد أن تعلم بالأمر امرأة من أمثال داريا فارنتسوفنا... . وستأخذ الفتاة تجري هنا وهناك، ستأخذ تتدحرج من هنا إلى هناك... . ثم سرعان ما تُنقل إلى المستشفى (تلك دائمًا حال البنات اللواتي يعشن مع أمهات شريفات جداً ويتعاطين الفحش خفية)... . ثم تُنقل إلى المستشفى من جديد... شراب وحانات ثم المستشفى دائمًا... وما أن تنقضي سنتان أو ثلاثة حتى تصبح حطاماً... ما أن تبلغ الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة حتى تنتهي!... ألم أرأفتيات كثيرات في مثل حالتها؟ كيف كن يصلن إلى ذلك المصير؟ بهذه الطريقة نفسها! آه... لا ضير! يقال إن الأمور يجب أن تجري هذا المجرى... . يقال إن هناك نسبة مئوية لا بد أن يُضخى بها كل عام⁽³⁴⁾... للشيطان في أغلب الظن... . وذلك في سبيل ضمانة راحة الآخريات... . نسبة مئوية! إن لهم تعبيرات فيها كثير من الجمال حقاً... وهي فوق ذلك تعبيرات مطمئنة جداً، علمية جداً! ما داموا يتحدثون عن نسبة مئوية، فلا داعي إلى أن يصدع المرء رأسه... آه... لو قد استعملوا كلمة أخرى، فمن الجائز... . عندئذ... . أن يكون الأمر أدعى إلى القلق... . هكذا!... وماذا لو كان على دونيا أن تدخل في النسبة المئوية، بطريقة أو بأخرى... . فإن لم تدخل في هذه النسبة دخلت في تلك على الأقل؟

وتساءل راسكولنيكوف فجأة: «ولكن إلى أين أنا ذاهب؟ ألا إنه لأمر

غريب! لقد كان لي هدف حين خرجت إلى الشارع... . فما أن فرغت من قراءة الرسالة حتى خرجت إلى الشارع... . نزلت أريد الذهاب إلى عند رازوميخين، في جزيرة فاسيلفسكي... . نعم، ذلك هو المكان الذي كنت ذاهباً إليه... . الآن تذكرت. ولكن لماذا أذهب إلى رازوميخين؟ لماذا خطر ببالي أن أذهب إلى رازوميخين لا إلى غيره، في تلك اللحظة لا في غيرها؟ شيء عجيب!»

دهش هو نفسه من قراراته. إن رازوميخين هو أحد رفاقه القدامي في الجامعة. الغريب أن راسكولنيكوف، في أيام الدراسة بالجامعة، لم يكن له أصدقاء تقريباً، وكان لا يعاشر أحداً من زملائه، لا يزور أحداً منهم ولا يستقبل أحداً. ثم إن جميع رفاقه كانوا قد تحولوا عنه بسرعة. كان لا يشارك لا في الاجتماعات، ولا في المناقشات، ولا في المتع والمباهج، ولا في أي شيء آخر. وكان يعمل بجد واجتهاد، دون أن يراعي نفسه، وبذلك استطاع أن يحصل على احترام جميع رفاقه. ومع ذلك لم يكن يحبه أحد منهم. وكان راسكولنيكوف فقيراً كل الفقر وأبياً، ولكن في إبائه شيء من التغطرس، وكان مبتعداً قليلاً الكلام، حتى لكانه كان يريد أن يخفي شيئاً في نفسه. وقد رأى بعض رفاقه أنه ينظر إليهم من علو، كما ينظر المرء إلى الأطفال تقريباً، وكما لو كان يفوقهم ذكاء ونضجاً وفكراً وثقافة ورأياً أو أنه يعتقد أن اهتماماتهم واهتماماتهم دون مستوى كثيراً.

ومع ذلك ربطته صداقه برفيقه رازوميخين، مهما يكن سبب هذه الصداقه. على الأقل، كان مع رازوميخين أقل امتناعاً عن الكلام، وأكثر صراحةً مما كان كذلك مع أي رفيق آخر. وكان من المستحيل على كل حال أن يتصرف المرء مع رازوميخين غير هذا التصرف. كان رازوميخين فتى شديد المرح حلو المعاشرة، وكان عدا ذلك طيب القلب إلى حد السذاجة، ولكنها سذاجة تخفي وراءها عمقاً صادقاً وكرامة لاسبيل إلى جحودها، وكان خير رفaque يعترفون له بذلك

ويحبونه. ولم يكن رازوميixin بالغبي، رغم أنه كان يبدو في بعض الأحيان بسيطاً بعض البساطة. وكان مظهره يخطف الانتباه: كان طويلاً، نحيلًا، أسود الشعر، قليل العناية بحلاقته دائمًا. وكان يتافق له أن يحدث شغباً، وكان يُعد أشبه بهرقل، بعض الشيء. ففي ذات ليلة، أثناء جولة مع رفقاء، جندل بضربة واحدة رجلاً من رجال الشرطة طوله مترين تقريرًا. وكان يستطيع أن يشرب من دون اعتدال، ولكنه كان يستطيع كذلك أن لا يشرب البتة. وكان في بعض الأحيان يدبر لغيره المكائد التي تتجاوز كل الحدود، ولكنه كان يعرف كيف يحمي نفسه. وكان رازوميixin يتصرف أيضًا بهذه الصفة البارزة: ما من خيبة يمكن أن تشطب عزيمته وتفلّ شجاعته قط، وما من ظرف سيء من الظروف يمكن أن يحمله على الانهيار. وكان يستطيع أن يسكن في أي مكان، ولو تحت السقوف، وأن يتحمل آلام الجوع وأهوال البرد. كان فقيراً جداً، فكان ينفق على نفسه بنفسه، حاصلاً على المال من تعاطي شتى أنواع الأعمال الصغيرة. كان يعرف كيف يدبر أمره ويفي بحاجاته، على شرط أن يعمل طبعاً... وقد اتفق له أن قضى شتاء بكامله دون أن يدفع غرفته، حتى لقد أكّد أن لعدم التدفئة فوائد ومزايا، لأن المرء ينام في الجو البارد نوماً أفضل. وقد اضطر رازوميixin، في ذلك الأوّان، أن يترك الجامعة هو أيضاً... ولكن إلى حين، فيما كان يعتقد. فكان يحاول، بكل ما يملك من قوة، أن يصلح الحال بغية أن يستطيعمواصلة دراسته. إن راسكولنيكوف لم يذهب إليه منذ أربعة أشهر. وكان رازوميixin يجهل حتى عنوان راسكولنيكوف. مرّة واحدة، منذ شهرين، التقى في الشارعصادفةً، ولكن راسكولنيكوف أشاح بوجهه، حتى لقد انتقل إلى الرصيف المقابل من أجل أن لا يُرى. أما رازوميixin فإنه مضى في طريقه رغم أنه لمع راسكولنيكوف، وذلك لأنّه لا يريد أن يزعج صديقه.

الفصل الخامس

قال

راسكولنيكوف يحدث نفسه: «فعلاً، لقد كنت منذ مدة وجيزة أريد أن أطلب من رازوميixin أن يجد لي عملاً، أن أعطي دروساً، أو أي شيء آخر... ولكن فيم يمكن أن يفيدني الآن؟» هبه وجد لي دروساً، بل هبه قاسمني آخر كوبيك معه، إذا كان ما يزال يملك كوبيكاً، بحيث أستطيع أنأشتري حذاء، وأن أصلاح ملابسي، فأتتمكن من إعطاء دروس... هم... عظيم... ولكن ماذا بعد ذلك؟ ما عسانـي صانعاً بقروش قليلة؟ لهذا ما أنا في حاجة إليه الآن؟ حقاً إنها لفكرة سخيفة مضحكة أن أذهب إلى رازوميixin...»

لماذا يذهب الآن إلى رازوميixin؟ ذلك سؤال أصبح يقلقـه كثيراً. كان يتـسأـل بكثير من الهم والغم ومن الخوف والقلق ما هو المعنى الغيبيـ الشـرـيرـ الذي يـكـمـنـ وراءـ هـذـهـ الخطـوـةـ التي أـرـادـ الـقـيـامـ بـهـاـ،ـ والتـيـ تـبـدوـ معـ ذـلـكـ بـسـيـطـةـ عـادـيـةـ تـافـهـةـ!..

«هل يمكن حقاً أن لا أكون قد أردت إلا أن أدبـرـ جميعـ الأمـورـ وأـرـتبـ جميعـ الأـشـيـاءـ بـفـضـلـ رـازـومـيـخـينـ وـحـدـهـ،ـ وـأـنـ لـاـ أـكـونـ قدـ اـهـتـدـيـتـ إـلـىـ حلـ إـلـاـ الـاسـتعـانـةـ بـرـازـومـيـخـينـ؟» كذلك كان يتـسـأـلـ مـدـهـوـشاـ.

وكان يـفـكـرـ،ـ وـيـحـكـ جـبـيـنـهـ،ـ فـإـذـاـ بـفـكـرـةـ غـرـيـبـةـ توـمـضـ فيـ ذـهـنـهـ فـجـأـةـ،ـ بـمـاـ يـشـبـهـ الـمـصـادـفـةـ.ـ أمرـ عـجـيبـ!ـ قالـ بـغـتـةـ بـلـهـجـةـ هـادـئـةـ كـلـ

الهدوء، كأنما هو قد اتخذ في تلك اللحظة قراراً حاسماً: «هم... إلى رازوميخين! نعم، سأذهب إلى رازوميخين حتماً... ولتكن لن أذهب إليه الآن... وإنما أذهب في يوم آخر، بعد أن أكون قد أتممت القيام بذلك الأمر، بعد أن يكون ذلك الأمر، قد انتهى، بعد أن يبدأ كل شيء على أساس جديدة...»

ثم ثاب إلى رشده على حين فجأة، فقال صائحاً: «بعد أن يكون ذلك الأمر قد انتهى؟ ولكن هل سيتحقق ذلك الأمر؟ هل من الممكن أن يتحقق ذلك الأمر؟»

وانصرف مسرعاً كأنه يركض ركضاً. وذلو يعود أدراجه، ويرجع إلى مسكنه، ولكنه حين تصور نفسه راجعاً إلى البيت، شعر بنفور شديد: فهناك، في ذلك المكان نفسه، في ركنه ذاك، في تلك الحجرة الكريهة الرهيبة، إنما نضجت فكرة ذلك الأمر، منذ أكثر من شهر. ومضى راسكولنيكوف يمشي قدمًا على غير هدى.

لقد تحول اضطرابه العصبي إلى ارتعاشات حمى، حتى لقد أحس أنه يرتجف من البرد. أنه يشعر ببرد أثناء ذلك القيظ الشديد. وأخذ يتفحص جميع الأشياء التي يلقاها في طريقه، باذلاً في ذلك جهداً كبيراً، ولكن على غير شعور منه تقريباً، مدفوعاً إلى هذا بضرورة داخلية. لكانه يحاول بأية وسيلة من الوسائل أن يسلو، ولكن سعيه هذا إلى السلوى لم ينجح كثيراً، فهو ما يلبث في كل لحظة أن يعود إلى الاسترسال في أحلامه، فإذا هزته رعشة جديدة فرفع رأسه ونظر فيما حوله، نسي على الفور ما كان يفكر فيه، بل ونسي الطريق الذي كان قد سلكه. على هذا النحو إنما قطع جزيرة فاسيليفسكي كلها، ووصل إلى نهر «نيفا الصغير»، فعبر الجسر واستدار إلى جهة الجُزر⁽³⁵⁾. إن الخضراء وطراوة الهواء قد أراحتا في أول الأمر عينيه المكدودتين اللتين ألفتا غبار المدينة، والكلس، والمباني الضخمة المرهقة. هنا لا

اختناق، ولا عفونة، ولا خمارات. ولكن هذه الإحساسات الجديدة الممتعة سرعان ما صارت هي أيضاً مرضية تشير الأعصاب. كان في بعض الأحيان يقف أمام دار صيفية غارقة في الخضراء فينظر من خلال السياج، فيرى من بعيد، على الشرفات، نساء ترتدي أجمل الحلل، ويرى أولاداً تركض. وكانت الأزهار تجذبه خاصة، فكان يتلمس أمامها ويأخذ يتأملها. وكان يلتقي بين الفينة والفينية بعربات أنيقة ويبصر رجالاً يمتطون صهوات الخيول ونساء على ظهور الأفراس، فكان يتبعهم بنظراته، ولكنه ما يلبث أن ينساهم حتى قبل أن يغيبوا. وفي ذات مرة توقف ليعد نقوده، فعرف أنه لم يكن قد بقي معه إلا نحو ثلاثة كوبىكاً. قال لنفسه: «أعطيت الشرطي عشرين كوبىكاً، وأعطيت ناستاسيا ثلاثة كوبىكatas مكافأة لها على أنها جاءتني بر رسالة أمي، معنى ذلك إذن أنني أعطيت بالأمس أسرة مارميلادوف سبعة وأربعين أو خمسين». لا شك أن هناك سبباً يدفعه إلى أن يحصي ما معه من نقود على هذا النحو، ولكنه سرعان ما نسي هذا الأمر، حتى لقد نسي لماذا ولأي سبب أخرج النقود وعدّها. ثم تذكر النقود حين مرّ أمام مطعم رخيص. لقد أحسن عندئذ أنه جائع. دخل المطعم، فشرب قدحاً من الفودكا، وأخذ فطيرة محسوسة، فبدأ أكلها في المطعم ثم أنهى في الشارع. إنه لم يشرب فودكا منذ زمن بعيد جداً. لذلك أثرت فيه الفودكا فوراً رغم أنه لم يشرب إلا كأساً صغيرة. تراحت ساقاه وثقلتا على حين فجأة، وأحس برغبة قوية في النوم. فعاد يتوجه نحو بيته، ولكنه ما إن وصل إلى جزيرة بتروفسكي حتى توقف خائر القوى تماماً، فترك الطريق، ودخل في الأدغال وتهاوى على العشب، وسرعان ما نام.

في حالات المرض، تتميز الأحلام في أحيان كثيرة ببروز قوي وشدة خارقة، وتتميز كذلك بتشابه كبير مع الواقع. قد يكون مجموع اللوحة عجيبة شادّاً، ولكن الجو ومجمل تسلسل التصور يكونان في الوقت نفسه على درجة عالية من المعقولية، ويستملان على تفاصيل مرهفة

جداً، تفاصيل غير متوقعة، تبلغ من حسن المساهمة في كمال المجموع أن العالم لا يستطيع أن يتذكرها في حالة اليقظة ولو كان فناناً كبيراً مثل بوشكين أو تورجنيف. وهذه الأحلام، أعني الأحلام المرضية، تخلف دائماً باقية، وتحدث أثراً قوياً في الجسم المضعف المهتز المختل.

كان حلماً مرعباً، ذلك الحلم الذي رأه راسكولنيكوف. لقد حلم بطفولته، هناك، في مدینتهم الصغيرة. ان عمره سبع سنين. وها هو ذا، في يوم عيد، يتذكره في المساء مع أبيه في ظاهر المدينة. الجو داكن، والهواء خانق، والمکان هو المکان الذي انطبع ذكراه في خياله تماماً، ولكنه يبدو في الحلم أشد وضوحاً وأكثر تميزاً مما هو في الذاكرة. المدينة الصغيرة تمتد مکشوفة كأنها مبسوطة على راحة الكف، فليست ثری حوليها حتى صفصافة بيضاء واحدة، وفي مكان ما، مكان بعيد جداً، عند آخر الأفق، تلوح بقعة سوداء هي غابة صغيرة. وعلى مسافة بضع خطوات من آخر بستان من بساتين الخضار التي تحيط بالمدينة، توجد حانة كبيرة كانت دائماً تحدث في نفسه أثراً أليماً، حتى لتخيفه حين يمر بها متزهاً مع أبيه. كان في هذه الحانة دائماً جمهور كبير، وصيحات وضحك مجلجل، والناس يتشارمون هنالك، ويغنوون بأصوات جشاء أغاني قبيحة بدئية، وهم خاصة يتشارجون ويقتلون في كثير من الأحيان، وحول الحانة يتتجول دائماً أفراد مخمورون لهم وجوه مرعبة، ما إن يصادفهم الطفل في طريقه حتى يلتتصق بأبيه ويشد جسمه إليه وقد أخذت أعضاؤه كلها ترتعش... وفي مكان غير بعيد عن الحانة توجد طريق ترابية كثيرة الغبار الأسود، تستمر متعرجة متلوية، وتنعطف يمنة بعد ثلاثة متر فتحيط بمقبرة المدينة. وفي وسط المقبرة تنتصب كنيسة مبنية بالحجر، لها قبة خضراء، كان الطفل يذهب إليها للصلوة مع أبيه وأمه مرة أو مرتين في السنة، وذلك حين إقامة قداس على روح جدته التي ماتت منذ مدة بعيدة ولم يعرفها في يوم من الأيام. وكانوا في تلك المناسبة يحملون الحلوي التقليدية على طبق أبيض ملفوف

بمنشفة: إنها حلوى من الرز والزبيب المجفف المعروض في الرز على شكل صليب. كان الصبي يحب تلك الكنيسة، ويحب أيقوناتها التي يخلو أكثرها من الأطر، ويحب أيضاً ذلك الكاهن الشيخ الذي كان يرتعش رأسه. وإلى جانب قبر جدته الذي تغطيه بلاطة كبيرة، كان يوجد قبر أخيه الأصغر الذي مات في الشهر السادس من عمره والذي لم يعرفه أيضاً فلا يستطيع إذن أن يتذكره، غير أن أهله قد ذكروا له أنه كان له أخ صغير، فكان كلما زار المقبرة يرسم على نفسه إشارة الصليب في كثير من التقى والخشوع، وينحنى أمام القبر ويقبّله. وإليكم الآن الحلم الذي رأه: رأى نفسه يسير مع أبيه في الطريق المؤدية إلى المقبرة، فيمران أمام الحانة. إنه ممسك بأباه من يده، ينظر إلى الحانة مذعوراً. إن هنالك أمراً خاصاً يجذب انتباهه! لكان ثمة عيداً شعبياً كبيراً يحتفل به الناس: إنهم عدد كبير من أهل المدينة بملابس العيد، وفلاحات مع أزواجهن، وخليط كبير من البشر. هم جميعاً سكارى وهم جميعاً يغنوون، وأمام باب الحانة تُرابط عربة، ولكنها عربة عجيبة غريبة هي عربة من تلك العربات الكبيرة التي تجرها في العادة خيول ضخمة قوية، والتي تنقل أنواعاً كثيرة من البضائع وبراميل الخمرة. كان الصبي دائماً ينظر بكثير من اللذة والمسرة إلى تلك الخيول الضخمة ذات الأعراف الطويلة والسيقان القوية، التي تسير بخطى هادئة موزونة جارة وراءها حملأً كأنه الجبل ضخامة، دون أن يبدو عليها أنها تشعر بوجود هذا الحمل، حتى لكان الحمل يجعل سيرها أسهل وأيسر. أما الآن فإن الشيء الغريب هو أن هذه العربة الكبيرة قد ُقرنَت بها فرس ضعيفة واهنة هزيلة شبيهة بتلك الأفراس التي كثيراً ما رآها تضنى بجر حمل كبير من الخشب أو العلف على طرق متحفزة موحلة تغوص فيها عجلاتها إلى المحاور، ويضربها الفلاحون بسياطهم على وجهها ضرباً قوياً مبرحاً. لقد كان قلبه ينقبض انقباضاً شديداً حين يرى تلك الأفراس على تلك الحال من الشقاء، حتى ليكاد يبكي حزناً وألماً. وكانت أمه

تضطر عندي إلى إقصائه عن النافذة. وها هي ذى جلبة كبيرة تعلو: إن عدداً من الفلاحين الأقواء السكارى يخرجون من الحانة صارخين، مغثيين، عازفين على الباللايكا، مرتدين قمصاناً حمراء وزرقاء، واضعين أرديتهم على أكتافهم. وهذا واحد منهم، وهو رجل ما يزال في شرخ الشباب سميك الرقيقة، سمين الوجه، أحمر اللون كجزرة، يصرخ قائلاً لهم: «اركبوا، اركبوا جميعاً! سأنقل الجميع، هيا اصعدوا!» فسرعان ما تجيئه قهقهات وصيحات تقول:

- أبفرس ضعيفة كهذه الفرس تقودنا جميعاً؟

- هه! ماذا دهاك يا ميكولكا؟⁽³⁶⁾ أتقرن دابة صغيرة هذا الصغر بعربة ضخمة هذه الضخامة؟

- يميناً إن الدابة تبلغ من العمر عشرين عاماً يا أخي!

- اجلسوا! سأنقل جميع الناس!

كذلك صرخ يقول ميكولكا من جديد، وهو يشب إلى العربية أول الواثبين، فيمسك بزمام الفرس، وينتصب في الأمام بقامته كلها، ثم يردد قائلاً وهو في العربية:

- لقد سافر الكميتو منذ هنيهة مع ماتفي. وهذه الفرس يا إخوتي تغيبني كثيراً، وتحطم قلبي تحطيمأ. إنني مستعد لأن أقتلها. إنها لا تستحق ما تأكله من العلف. أقول لكم: اركبوا! اجلسوا! سأجعلها تعود ولسوف تعود!

وأمسك بسوطه وهو يتلذذ سلفاً بالمتعة التي سيذوقها حين يأخذ يضربها.

قال بعضهم ضاحكاً:

- طيب! اصعدوا ألم تسمعوا؟ سوف تعود الفرس.

- إنها لم تعرف العدو منذ عشر سنين!

- لسوف تعودوا!

- لا تأخذنكم شفقة أيها الأخوة! فليتناول كل منكم سوطاً وليتها!

- هيا بنا! هلموا! اضرروا!

ركب الجميع عربة ميكولكا مقهقحين مازحين. ركب ستة رجال وما يزال في المكان متسع. أزكّبوا معهم امرأة سمينة حمراء الوجه. إنها ترتدي فستانًا من قماش أحمر، وتنتعل حذاءين ساقاهما طويتان، وتضع على رأسها قلنسوة مزدانة بخرزات زجاجية، والجمهور من حولها يضحك كذلك. وكيف لا يضحكون؟ كيف تستطيع فرس ضعيفة ضامرة هزيلة أن تجر مثل هذا الحمل عدواً؟ وسرعان ما تناول صبيان في العربية سوطين لمساعدة ميكولكا. ودؤت في الجو صيحات تهيب بالفرس أن تسير. أخذت الفرس تبذل كل ما تستطيع من جهد لتسير. ولكن أتى لها أن تundo. إنها لا تكاد تقوى على التحرك من مكانها. فهي تراوح وتنوء تحت ضربات سياط ثلاثة تهوي عليها. تضاعفت الضحكات في العربية وفي الجمهور. ولكن ميكولكا غضب. وهذا هو ذا من شدة حنقه وغيظه يجلد الفرس بمزيد من القوة كأنما هو يعتقد حقاً بأن في وسع دابته أن تجري عدواً.

صاحب شاب من بين الجمهور وقد فتنه هذا المشهد:

- هل تسمحون لي بأن أجيء معكم؟

فصرخ ميكولكا يجيئه بقوله:

- اركب! اركبوا جميعاً! سوف تحملنا جميعاً. سوف أجعل الفرس تundo!

وأخذ يضرب ويضرب وقد استبد به حنق بلغ من الشدة أنه لم يلبث أن أصبح لا يعرف بماذا يضرب.

صاحب الطفل يسأل أباه:

- أبٍ! أبٍ! ماذا يفعلون؟ أبٍ! لماذا يضربون الفرس المسكينة؟

قال الأب:

- تعال، تعال، إنهم سكارى يرتكبون حماقات. تعال! لا تنظر إليهم.

وأراد الأب أن يقتاد الابن، ولكن الطفل أفلت من يديه، ثم لم يطق صبراً فركض نحو الفرس الشقية. كانت الفرس المسكينة قد ساءت حالها وخارت قواها. إنها تلهث وتتوقف لحظة ثم تستأنف بذل ما تستطيع بذله من جهد لتجز العربة، فترنج وتكاد تسقط.

صرخ ميكولكا يقول:

- اجلدوها إلى أن تفطس ما دام الأمر هكذا. سأضربها حتى الموت.

هتف شيخ من بين الجمهر يسأل:

- ما هذا؟ أنت مسيحي؟ يا لك من متوهش!

وأضاف آخر يقول:

- هل رأى أحد في حياته دابة هزيلة كهذه الدابة تجز حملًا ثقيلاً كهذا الحمل؟

وصاح ثالث يقول:

- سوف تقتل الدابة أخيراً!

قال ميكولكا:

- ما دخلك أنت؟ الدابة دابتني! ما أريده أفعله! اركبوا جميعاً! أريد حتماً أن تجري الفرس عدواً.

وفجأة، انفجر ضحك عريض غطى كل شيء. لم تستطع الفرس أن تحتمل الضربات المتكررة، فإذا هي تأخذ ترفس وتلبط. حتى الشيخ نفسه لم يستطع أن يمتنع عن التبسم. حقاً إن هنالك ما يبعث على

الضحك: كيف ترفس وتلبط فرس ضعيفة هزيلة، لا تكاد تقوى على الوقوف، كهذه الفرس!

خرج من الجمهور شابان فتناول سوطين، وركضا نحو الفرس ليجلداها من الجهتين.

صاح ميكولكا:

- على الخطم، على العينين، على العينين!

وهتف أحد ركاب العربة:

- أغنية أيها الأخوة!

فأخذ الجميع في العربية يغنوون بصوت واحد. هي أغنية مسورة تصدق بها الحناجر، وتصاحبها قرعات طبل، ويتخللها صفير عند تكرر اللازمة. والمرأة السمينة تقضم البندق وتنفجر ضاحكة.

.... ركض الطفل إلى جانب الحصان، وأسرع إلى أمام. رأى كيف كانت الدابة تُجلد على عينيها، على عينيها تماماً! .. فأخذ يبكي. انقبض قلبه وسالت دموعه. لامس واحد من الضاربين وجهه بسوط. ولكنه لم يشعر بشيء. لوى يديه ألمًا. صرخ. اندفع نحو الشيخ ذي اللحية الشيبة الذي كان يهز رأسه مستنكراً هذا كله. امسكت يده فلاحة، وأرادت أن تبعده. لكنه تملص منها، وركض نحو الفرس من جديد. لقد أنهارت قوى الفرس، ومع ذلك حاولت أن ترفس وأن تلبط مرة أخرى.

صاح ميكولكا يقول وقد استولى عليه حنق شديد:

- شيطان يأخذك!

ورمى سوطه، وانحنى إلى تحت، فتناول من قاع العربية خشبة طويلة ثقيلة، فقبض على طرفها بيديه، وأشهرها فوق ظهر الفرس بجهد.

صاح بعضهم:

- سوف يقتل الفرس!

- سوف يهشمها!

صرخ ميكولكا:

- هي ملكي، ولا شأن لأحد بها!

وهوى بالخشبة على الفرس بكل ما أوتى من قوة، فدوى في الجو صوت أصم.

صرخ بعضهم:

- اجلدوا الفرس! اجلدواها! مالكم توقفتم عن جلدتها؟ فاشتعلت حماسة ميكولكا مزيداً من الاشتعال، وهوى على ظهر الفرس المسكينة بضربة قوية جديدة. تهافت الفرس عند مؤخرتها، ولكنها ما لبست أن انتصبت، وحاولت أن تجر بكل ما تملك من قوة. أخذت تجر في كل اتجاه من الاتجاهات عسى أن تتحرك العربة. غير أن ستة سياط هاجمتها من جميع الجهات، وارتفعت الخشبة من جديد فهوت عليها بضربة ثالثة ثم بضربة رابعة، وتالت الضربات قوية مطردة. لقد اشتد حنق ميكولكا لأنه لم يقتل الفرس بضربة واحدة.

صرخ بعضهم:

- عمرها طويلاً!

فصاح واحد في الجمّور:

- لم يعد عمرها طويلاً أيها الأخوة! نهايتها قريبة!

وصرخ ثالث:

- فلتُضرب بفأس! فلتنته منها دفعه واحدة!

صرخ ميكولكا مهتاباً:

- فلتذهبوا إلى الشيطان! أبعدوا!

ورمى الخشبة، ثم انحنى مرة أخرى إلى تحت، فتناول من قاع العربة قضيباً من حديد، وصرخ يقول مخاطباً الناس:

- احترسوا! ثم هوى بقضيب الحديد على الفرس المسكينة بكل ما أوتى من قوة، فترنحت الدابة من شدة الضربة، وتهالكت، وحاولت أن تجر العربة مرة أخرى، ولكن قضيب الحديد هوى على ظهرها من جديد، فسقطت على الأرض كأن قوائهما الأربع قد قُطعت قطعاً!

صاحب ميكولكا يقول:

- اجهزوا عليها!

ووُثب من العربة إلى الأرض كمن فقد السيطرة على نفسه.وها هم هؤلاء فتيان حمر سكارى يمسكون بكل ما يقع تحت أيديهم من سياط أو عصى أو أخشاب، ويهرعون نحو الفرس المحتضر. وقف ميكولكا إلى جانب الدابة، وأخذ يضربها بقضيب الحديد على ظهرها. فمذلت الفرس خطمها، وزفرت زفراً عميقاً، ومات.

صاحب الجمهور يقول:

- لقد أجهز عليها!

- لماذا لم تشاً أن تعدو؟

قال ميكولكا صارخاً محتقن العينين بالدم، ممسكاً بقضيب الحديد بيديه:

- هي ملكي!

وكان واقفاً منتصب القامة كأنه يأسف على أنه أصبح لا يعرف من يضرب!

هتفت عدة أصوات في الجمهور تقول:

- يبدو أنك لست مسيحياً!

ولكن الطفل المسكين أصبح لا يسيطر على نفسه، وها هو ذا يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور وهو يصرخ صراخاً شديداً، حتى إذا وصل إلى الدابة أحاط بذراعيه خطمها الدامي، وأخذ يقبلها على عينيها وعلى

شفتيها . . . ثم اجتازه حنق قوي، فنهض واثباً وهجم على ميكولكا شاداً على قبضته الصغيرتين . ولكن أباه الذي كان يلاحقه منذ مدة، أدركه في تلك اللحظة، فأمسك به، وحمله بين ذراعيه إلى خارج دائرة الجمهور قائلاً له:

- هيا! فلنعد إلى البيت.

دمدم الطفل يقول بين شهقتين سائلاً أباه:

- أبٍت . . . لماذا . . . الحصان المسكين . . . فعلوا به؟ . .

ولكن أنفاسه تقطعت، وكانت الكلمات تتدفق من صدره المختنق مع صرخات!

قال الأب:

- هم سكارى يرتكبون حماقات. ليس هذا شأننا. لنذهب!

أحاط الطفل أباه بذراعيه، ولكن كان صدره ما يزال مختنقاً . . . ما يزال مختنقاً اختناقًا شديداً . . . وحاول الطفل أن يسترد أنفاسه، ويطلق صرخة قوية . . . واستيقظ راسكولنيكوف من النوم . . .

استيقظ من النوم مبتلاً بالعرق مخضل الشعر لاهثاً. ونهض مذعوراً.

قال وهو يجلس تحت الشجرة ويتنفس مليء رئتيه:

- الحمد لله على أن هذا لم يكن إلا حلمًا! ولكن ماذا حدث؟ أيكون هذا بداية حمى؟ يا للحلم الرهيب! كان جسمه كالمحطم، وفي نفسه ظلمات واضطراب وابهام. وضع كوعيه على ركبتيه وتناول رأسه بيديه، وهتف يقول مخاطباً نفسه:

- رباه! هل من الممكن، هل من الممكن حقاً أن أتناول فأسا فأضرب بها رأسها وأحطم جمجمتها؟ . . . أغرق في الدم اللزج الدافئ . . . اكسر القفل . . . أسرق . . . أرتعش . . . اختبئ ملطخاً بالدم . . . حاملاً فأساً بيدي! . . . رباه، وهذا ممكناً؟

وكان راسكولنيكوف يرتعش كورقة في مهب الريح حين كان يخاطب نفسه بهذا الكلام. لكنه تابع يقول محدثاً نفسه كأنما قد استبد به خور عميق وهو مطرق الرأس :

ولكن ماذا دهاني؟ لقد كنت أعلم حق العلم أنني لن أطيق ذلك، فلماذا عذبت نفسي هذا التعذيب كله حتى الآن؟ بالأمس، بالأمس... حين مضيت إليها، لأتمرّن على فعلتي، أدركت حق الأدراك أنني لن أطيق ذلك... فلماذا أعود إلى الأمر الآن؟ بالأمس، حين كنت أهبط السلم، قلت لنفسي إنها فعلة حقيرة، دنيئة، خسيسة، خسيسة جداً... كان يكفي أن تصاورني تلك الفكرة حتى ينقبض صدري وحتى أشعر بذعر شديد...

لا، لن أطيق هذا الفعل، لن أطيقه، ولو كانت حساباتي كلها صحيحة، ولو كان ما عزّمت عليه في هذا الشهر واضحاً وضوح النهار دقيقاً دقة الرياضيات... رباه! فإنني لن أقدم عليه مع ذلك، لن أطيقه، لن أطيقه... فما بالي حتى الآن...

نهض راسكولنيكوف، ونظر حواليه ذاهلاً. كان يبدو عليه أنه مندهش من وجوده في هذا المكان. واتجه نحو جسر «ت...». كان شاحب الوجه، وكانت عيناه تحرقان، وكان يشعر بالتعب في جميع أعضائه، ولكنه لم يلبث أن أخذ يتنفس تنفساً حراً طليقاً على حين فجأة. شعر أنه أزاح الحمل الرهيب الذي كان يسحقه منذ مدة طويلة، فتخففت نفسه واطمأنّت روحه، وعادت إليه السكينة بغتة. قال يدعوه الله مبتهلاً: «أرني طريقي يا رب فأعدل عن تلك... الفكرة اللعينة!»

وفيما كان يعبر الجسر، نظر هادئاً إلى نهر نيفا، والى حمرة الشمس الغاربة. فإذا هو، رغم ضعفه، قد أصبح لا يحس بالتعب. فكأن الدمل الذي نضج في قلبه خلال شهر بأكمله قد انفقاً الآن على حين فجأة. الحرية! الحرية! لقد تخلص الآن من السحر، تحرر من الرقية، انعتق من الفتنة.

في المستقبل، حين سيتذكر راسكولنيكوف هذه الفترة، وحين سيستعرض كل ما وقع له في تلك الأيام دقيقة دقيقة نقطة نقطة، فإن ظرفاً معيناً سيظل يجذب انتباهه، ويأسر اهتمامه، ويكتسب في نظره معنى خرافياً. أن ذلك الظرف رغم أنه لا يستعمل في ذاته على أي شيء خارق، سيصبح في نظر راسكولنيكوف في المستقبل نوعاً من نبوءة تصور مصيره وتحدد قدره. إليكم الأمر: لم يستطع راسكولنيكوف أن يعلل لنفسه قطّ لماذا عاد أدراجه إلى بيته في ذلك اليوم عبر «سوق العلف» دون أي سبب يحضره على الذهاب إلى هناك، ورغم أنه، هو المتعب المكدود المرهق المشعث، كان في حاجة إلى أن يسلك للعودة إلى بيته أقصر طريق بلا تعرج ولا التواء. صحيح أن الدورة التي دارها لم تكن طويلة، ولكن من الواضح أنه لا داعي إليها ولا فائدة منها البتة. وصحيح أنه اتفق له عشرات المرات أن رجع إلى مسكنه دون أن يتذكر الشوارع التي سلكها. ولكن راسكولنيكوف ظل يتساءل دائماً: لماذا وقع له ذلك اللقاء في ميدان «سوق العلف» (الذي لم يكن هناك أي داع يحضره على الذهاب إليه) لماذا وقع له ذلك اللقاء الذي يبلغ ذلك المبلغ كله من خطورة الشأن والذي كان له ذلك التأثير الحاسم كله في حياته، وكان في الوقت نفسه عرضاً طارئاً، لماذا وقع له ذلك اللقاء في تلك اللحظة نفسها، في تلك الدقيقة ذاتها من حياته، في تلك الدقيقة ذاتها التي كان لا يمكن، بسبب حالته النفسية وبسبب الظروف، إلا أن تؤثر في مصيره ذلك التأثير الحاسم الذي لا مناص منه ولا راد له؟ سوف يبدو له أن ذلك اللقاء الذي وقع له إنما كان كميناً يتربص به شرّاً.

كانت الساعة تقارب التاسعة حين اجتاز راسكولنيكوف «سوق العلف». كان جميع التجار والباعة المتجولين وأصحاب الدكاكين يغلقون محلاتهم، ويجمعون بضائعهم، ليعودوا إلى منازلهم، وكذلك كان يفعل زبائنهم. بالقرب من المطاعم الحقيرة الواقعة في الأقبية، وفي الأفنية القدرة المنتنة من منازل «سوق العلف» ولا سيما بالقرب من

الخمارات كانت تتکاثر أنواع شتى من فقراء الناس وصغار المتكسبين . كان راسكولنيکوف يحب ارتیاد هذه الأماكن كثيراً كما يحب ارتیاد جميع الأزقة المجاورة حين كان يخرج من بيته لغير هدف محدد . فهناك كانت أسماله البالية لا تلفت الانتباھ ولا تشير الاستھجان . إن المرء يستطيع أن يسير في هذه الأماكن مرتدياً ملابس على ما يشاء له هواء ، دون أن يتعرض لاستھزان أحد به . فلما وصل راسكولنيکوف إلى ناصية شارع ك... ، رأى بائعاً وامرأته يبيعان ، كلّ على بسطة خاصة به ، خيوطاً وأشرطة ومناديل من قطن وما إلى ذلك . كان الزوجان يستعدان هما أيضاً للعودة إلى منزلهما ، ولكنهما ما يزالان يترثران مع امرأة يعرفانها كانت قد اقتربت منهما . إن هذه المرأة هي اليزافيتا ايفانوفنا أو قل باختصار هي «اليزافيتا» كما كان يسميها جميع الناس . إنها الأخت الصغرى لتلك العجوز نفسها آليونا ايفانوفنا ، أرملة الموظف المرابي ، التي ذهب إليها راسكولنيکوف أمس ليرهن عندها ساعته ويتمرن على فعلته... . كان راسكولنيکوف يعرف منذ مدة طويلة أموراً كثيرة عن اليزافيتا هذه التي كانت تعرفه هي أيضاً بعض المعرفة . إنها بنت في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، طولها القامة خرقاء السلوك ، خجولة الطبع ، ومتواضعة ودية ، يعدها الناس شبه بلهاء ، قد استعبدتها اختها استعباداً كاملاً ، فهي تعمل لها ليلاً نهاراً ، وترتجف أمامها خوفاً ، حتى لتحمل منها أن تضربها أحياناً . كانت اليزافيتا في تلك اللحظة قد وقفت مفكراً أمام البائع وامرأته ، وفي يدها صرة ، وكانت تصغي إليهما بانتباھ شديد . إن الرجل وامرأته يقصان عليها أمراً من الأمور بكثير من الحرارة والحماسة . فلما لمحها راسكولنيکوف على حين فجأة اجتازه إحساس غريب هو نوع من الانشداد الشديد رغم أن اللقاء لا يشتمل في ذاته على أي شيء يدعو إلى الذهول .

قال لها البائع بصوت عال :

- ستعزمني أمرك بنفسك يا اليزافيتا ايفانوفنا . تعالى جداً ، في نحو

الساعة السابعة. سيحضرون هم أيضاً.

- غداً؟

كذلك قالت اليزافيتا بصوت بطيء، وكانت واجهة مفكرة، كأنها لا تستطيع أن تعزم أمرها.

قالت لها زوجة البائع وهي امرأة فطنة بلهجة طلقة صريحة:

- إنها لتخيفك كثيراً. آليونا إيفانوفنا هذه! حين يراك المرء ويسمعك، يحسبك طفلة صغيرة. هذا مع أنها ليست أختاً شقيقة وإنما من أم أخرى ولكنها مسيطرة عليك مستبدة بك... .

قاطع الرجل زوجته قائلاً لاليزافيتا:

- عليك أن لا تذكرني آليونا إيفانوفنا هذه المرة شيئاً. ذلك ما أنسنك به! تعالى إلينا دون أن تستأذنها! الصفقة رابحة. وستدرك أختك ذلك فيما بعد.

- حقاً... قد آتى؟

- نعم... غداً... في نحو الساعة السابعة. وسيحضر أحد من عندهم أيضاً. وستقررين أمرك بنفسك.

وأضافت زوجة الرجل تقول:

- وسنشعار السماور.

قالت اليزافيتا وهي ما تزال متربدة:

- طيب، سأاتي... .

وانصرفت بخطى بطيئة.

إن راسكونيكوف الذي مر في تلك اللحظة لم يسمع أكثر من ذلك. لقد مر صامتاً ساكناً دون أن يلفت إليه الانتباه، ولكنه حاول ألا يفوته من الحديث كلمة واحدة. وشيئاً فشيئاً، حل الذعر في نفسه محل الانشداد، وأحس بقشعريرة باردة تسري في ظهره. لقد علم فجأة، على نحو لم

يُكَنُ فِي الْحَسْبَانِ، أَنَّ الْيَزَافِيتَا، أَخْتَ الْعَجُوزَ وَرَفِيقَتِهَا الْوَحِيدَةِ فِي دَارِهَا، سَتَغِيبُ عَنِ الْبَيْتِ غَدًّا فِي السَّاعَةِ السَّابِعَةِ تَمَامًا، وَأَنَّ الْعَجُوزَ سَتَكُونُ إِذْنَ فِي السَّاعَةِ السَّابِعَةِ تَمَامًا وَحِيدَةً فِي مَسْكَنِهَا.

لَمْ يَكُنْ قَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَسِيرْ بَضْعَ خَطُوطَ حَتَّى يَبْلُغَ مَنْزَلَهُ . عَادَ كَإِنْسَانٍ حُكْمُهُ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ . لَقَدْ أَصْبَحَ لَا يَفْكُرُ، بَلْ أَصْبَحَ عَاجِزًا عَنِ التَّفْكِيرِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَحْسُسُ، بِكُلِّ كِيَانِهِ، أَنَّهُ أَصْبَحَ مَحْرُومًا مِنْ حُرْيَةِ الرَّأْيِ مُجْرِدًا مِنِ الْإِرَادَةِ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ تَقْرَرَ فَجَاءَ عَلَى نَحْوِ حَاسِمٍ لَا رَجْعَةَ عَنْهُ .

يَقِينًا، لَوْ كَانَ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ إِنْفَاذِ مَشْرُوعِهِ أَنْ يَنْتَظِرْ سَنِينَ طَوِيلَةَ، لَمَّا كَانَ فِي وَسْعِهِ أَنْ يَعْوَلَ عَلَى ظَرْفٍ يَنْسَابُ نِجَاحُ مَشْرُوعِهِ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا الظَّرْفِ الَّذِي يَعْرَضُ لَهُ الْآنَ، وَمَا كَانَ لِيَسْهُلَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ حَالٍ أَنْ يَعْلَمَ عِلْمَ الْيَقِينِ، بِمَثْلِ تَلْكَ الدَّقَّةِ، وَبِدُونِ مَخَاطِرٍ يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا اضْطِرَارُهُ إِلَى السُّؤَالِ وَالتَّقْصِيِّ، إِنَّ الْعَجُوزَ الَّتِي كَانَ قَدْ قَرَرَ أَنْ يَقْتَلُهَا سَتَكُونُ، فِي الْغَدَاءِ، وَحِيدَةً بِمَسْكَنِهَا، وَحِيدَةً تَمَامًا . . .

لقد

اتبع راسكولنيكوف فيما بعد أن يعرف السبب الذي حمل البائع وزوجته على أن يدعوا اليزافيتا إيفانوفنا إلى منزلهما. إن الأمر عادي بسيط تافه لا يشتمل على أي شيء خاص: هناك أسرة وفدت من الأقاليم منذ مدة قصيرة، فأصبحت في حالة عوز شديد، فأخذت تبيع بعض ما تملك من ملابس النساء. ولما كان عرض هذه الملابس للبيع في السوق يؤدي إلى خسارة كبيرة، فقد سُأله هؤلاء الناس عن امرأة تكون وسيطة بينهم وبين الراغبين في الشراء. وكانت اليزافيتا تقوم بمثل هذه الأعمال، وكان لها زبائن كثيرون لأنها امرأة مستقيمة، فهي تحدد السعر العادل دائماً، ولا تدع مجالاً للمساومة فيه مهما يكن، مما على المشتري إلا أن يأخذ أو أن يدفع. وهي قليلة الكلام عامةً، وكانت تبدو، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وجلة وديعة . . .

ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح في الآونة الأخيرة يؤمن بالخرافات ويتأثر بالأوهام، وقد خلف هذا الوهم في نفسه آثاراً لم تمح خلال مدة طويلة. ثم إنه ظل يميل دائماً إلى أن يرى في هذا الأمر كله شيئاً غريباً سرياً، وسلسلةً من المؤثرات والمصادفات العجيبة الخاصة. كان طالب من معارفه اسمه بوكوريف، قد أعطاه في الشتاء الماضي أثناء

حدث عارض جرى بينهما قبيل سفره في خاركيف، عنوان العجوز آليونا إيفانوفنا، ليلجأ إليها إذا هو احتاج إلى اقتراض مبلغ من المال على رهن. وخلال مدة طويلة لم يذهب راسكولنيكوف إلى العجوز، لأنه كان في ذلك الوقت يعطي دروساً، وكان يدبر أموره بطريقة أو بأخرى. ثم تذكر العنوان بعد شهر ونصف شهر. كان يملك شيئاً يمكن رهنهما لاقتراض مبلغ من المال: الساعة الفضية القديمة التي ورثها عن أبيه، وخاتماً ذهبياً صغيراً يزدان بثلاثة أحجار حمراء كانت أخته قد أعطته أيام تذكاراً حين افترقا. قرر راسكولنيكوف أن يرهن الخاتم، فما إن رأى العجوز حتى شعر نحوها من أول نظرة، ودون أن يعرف أي شيء خاص عنها، بكره لا سبيل إلى التغلب عليه. وتلقى منها «ورقتين صغيرتين». وبينما كان راجعاً إلى بيته دخل في الطريق حانة صغيرة حقيقة، فطلب شاياً، وجلس، واسترسل في أحلام عميقه. إن فكرة غريبة كانت تحاول أن تنقف في رأسه كما ينقف الفرخ في البيضة، وكانت تشغله كثيراً جداً... .

على مقربة منه، إلى جانبه تقرباً، كان يجلس حول مائدة أخرى، ضابط شاب وطالب لم يكن يعرفه ولا يتذكر أنه رأه في حياته. كان الشابان قد لعبا البلياردو قليلاً، فهما الآن يحتسيان الشاي. وها هوذا راسكولنيكوف يسمع الطالب محدثاً الضابط عن مرابية اسمها آليونا إيفانوفنا هي أرملة موظف، ثم يذكر له عنوانها آخر الأمر. إن هذه الحادثة وحدها قد بدت لراسكولنيكوف غريبة بعض الغرابة: لقد كان عند العجوز منذ هنيهة، وها هوذا يسمع شخصين يتحدثان عنها هي نفسها. لا شك أن الأمر مصادفة، ولكن فيما كان راسكولنيكوف لا يستطيع أن يتخلص من شعور خارق غير عادي، إذا بشخص يأخذ يعزز في نفسه هذا الشعور كأنما على عمد: لقد أخذ الطالب يذكر لرفيقه، فجأة، بعض التفاصيل عن آليونا إيفانوفنا. قال:

- هي عظيمة... . يستطيع المرء في كل لحظة أن يحصل منها على

مال . . . غنية كيهودي ! قادرة على أن تفرضك خمسة آلاف روبل دفعه واحدة ، ولكنها لا تحترر رهناً قيمته روبل واحد . كثيرون منا مروا بها . ولكنها سافلة .

وتفق الطالب يتكلم عن العجوز . وصفها بأنها شريرة خبيثة ، وقال إنها صاحبة نزوات : يكفي أن يتأخر المدين عن سداد الدين في الموعد المضروب يوماً واحداً حتى يفقد الرهن . لا تفرض من المال إلا مبلغاً يساوي ربع قيمة الرهن . تقاضى فائدة شهرية مقدارها خمسة في المائة بل وسبعة ، الخ الخ . . . كان الطالب يتذدق في الكلام على هذا الموضوع ويغوص فيه إفاضة لا ينضب معينها . وقد أضاف أن للعجزة أختاً اسمها اليزافيتا ، تضربها العجوز في كل مناسبة ، رغم أن العجوز ضئيلة هزيلة هي نفسها ، والعجزة تستعبد اليزافيتا استعباداً تاماً ، كطفلة صغيرة ، رغم أن اليزافيتا لا يقل طولها عن متر وثمانين سنتيمتراً بل يزيد . . .

وصاح الطالب يقول مقهقاً :

- وهذه أيضاً امرأة عجيبة !

جرى الحديث عندئذ على اليزافيتا . كان الطالب يشعر من الكلام عنها بلذة خاصة فهو لا يكف عن الضحك . أما الضابط فكان يصغي إلى رفيقه بكثير من الاهتمام ، حتى لقد طلب منه أن يرسل إليه اليزافيتا ، لترقّع له ملابسه . لم يفوت راسكولنيكوف كلمة واحدة من هذه المحادثة . عرف كل شيء دفعه واحدة : عرف أن اليزافيتا هي الأخت الصغرى لآلiona اي凡وفنا ، ولكنها ليست شقيقتها وإنما هي أختها من أم أخرى ، وعرف أنها قد بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها . عرف أنها تعمل في سبيل أختها نهاراً وليلًا ، تنهض من منزلها بأعباء الطبخ والغسيل ، وتقوم في الوقت نفسه بأعمال الخياطة للزبائن ، حتى لقد تتولى مسح الأرض في منازل مأجورة . وعرف أن كل ما تجنيه من مال

إنما يذهب إلى أختها، وأنها لا تجرؤ على قبول أي تكليف أو القيام بأي عمل ، دون استئذان العجوز . وكانت العجوز تنص نصاً صريحاً على أنها لن ترث شيئاً، اللهم إلا عدداً من قطع الأثاث والكراسي وما إلى ذلك . أما المال كله فموقوف على دير بمقاطعة ن . . . ، للصلوات الدائمة على روح آليونا إيفانوفنا . إن اليزافيتا تنتهي إلى طبقة التجار لا إلى طبقة الموظفين وهي غير متزوجة ، بشعة القوام جداً، يزيد طولها على متوسط الطول كثيراً، لها قدمان كبيرتان تبدوان معقوفتين وتنتعلان دائماً حذاءين باليي الكعبين . ولكنها تعنى بنظافتها أكبر العناية . والأمر الذي كان يدهش الطالب ويفجر ضحكه خاصّة هو أن اليزافيتا حبلى دائماً . . .

قال الضابط :

- ولكن ألم تقل إنها قبيحة؟

أجابه الطالب :

- نعم . . . إن لها بشرة مسودة دائماً، حتى لكونها جندي متذكر ، ولكنها ليست قبيحة البتة! . . . إن وجهها لطيف جداً، وإن عينيها خاصة طيبتان حلوتان! الدليل على ذلك أنها تعجب كثيراً من الناس ، وهي هادئة مسالمة ودية مستعدة لأن تقنع بأي شيء . وإن لها ابتسامة يمكن أن توصف حتى بأنها فاتنة!

سأل الضابط ضاحكاً :

- أهي إذن تعجبك أيضاً؟

قال الطالب :

- نعم ، لأن فيها غرابة! واسمع الآن ما سأقوله لك : يميناً إنني مستعد لأن أقتل أختها، تلك العجوز اللعينة ، وأن أسرق مالها طائعاً مختاراً، مرتاح البال هادئ الضمير! . .

ذلك ما أضافه الطالب متكلماً بحماسة وعنف.

انفجر الضابط يضحك ضحكاً ارتعش له راسكونيكوف . ما أغرب هذا !

قال الطالب وقد ازدادت حرارته :

- إذا أذنت فسألقي عليك سؤالاً جاداً: أنا إنما قلت ذلك كله من باب المزاح طبعاً ولكن فكر قليلاً: هناك من جهة أولى امرأة عجوز غبية سخيفة شريرة خبيثة مريضة لا قيمة لها ولا فائدة منها لأحد بل هي ضارة لجميع الناس ، لا تعرف حتى لماذا تعيش ، وستموت في القريب ميتتها الطبيعية . هل تفهم؟ هل تفهم؟

أجاب الضابط وهو يحدق بانتباه شديد إلى رفيقه الذي كانت حماسته ما تنفك تتأجج :
- طبعاً أفهم !

وواصل الطالب كلامه فقال :

- اسمع التسمة إذن: هناك تلك المرأة من جهة ، وهناك من جهة ثانية قوى فتية شابة نضرة ، تضييع لأنها محرومة من المساعدة ، وتُعد بالآلاف ، في كل مكان . إن ثمة مائة أو ألف عمل خير أو مبادرة رائعة يمكن التحريريض عليها أو اصلاح حالها بمال العجوز ، بهذا المال الموقوف على دير !! إن ثمة مئات وربما ألفاً من الأفراد الذين يمكن وضعهم بهذا المال على الطريق القوي . إن ثمة عشرات من الأسر يمكن إنقاذهما بهذا المال من الفقر المدقع ، والتحلل الأخلاقي ، والدمار والفساد ، ومستشفيات الأمراض التناسلية ! فماذا لو قُتلت هذه العجوز ، وأخذ مالها ثم وُقفَ على الخدمة الإنسانية بأسرها ، على خدمة قضية جميع البشر؟ ماذا؟ ألا تعتقد أن جريمة طفيفة كهذه الجريمة ستمحوها ألف الأعمال الخيرة؟ إننا بقتل فرد واحد نستطيع أن ننقذ حياة ألف غيره من العفن والفساد والتحلل ! يموت واحد ليعيش مئات . مسألة حسابية ! وأي وزن في ميزان الحياة العام يمكن أن يكون لتلك العجوز

الشقيقة المصدورة الغبية الشريرة؟ ألا إنها ليس لها من الوزن أكثر مما لقملة أو خنفساء. لا بل إن وزنها دون ذلك، لأن هذه العجوز ضارة. إنها تمتض حياة الآخرين. إنها شريرة. منذ مدة قصيرة عضت أختها اليزافيتا في إصبعها، وكادوا أن يقطعوا الإصبع!

قال الضابط :

- ما هي جديرة بالحياة طبعاً، ولكن هذا نظام الطبيعة . . .

قال الطالب :

- نظام الطبيعة، يا أخي، يمكن تقويمه وتوجيهه، وإلا غرقنا في الأوهام والأباطيل. ثم إنه بدون ذلك لا يكون ثمة إنسان عظيم واحد. يقولون : «الواجب، الضمير» - وأنا لا اعترض بشيء على الواجب والضمير، ولكن يجب أولاً أن نتفق على معاني الألفاظ. اسمع : سألهي
سؤال آخر، هل تصغي إلي؟

قال الضابط :

- بل أنا الذي سألهي عليك سؤالاً، أصحع إلي!

- هيه! . .

- أنت الآن تتكلم وتحدث، ولكن قل لي : أنت مستعد لأن تقتل العجوز بنفسك؟

- لا، طبعاً! . . فإنما أنا أتكلم من وجهة نظر العدالة، ولست أتحدث عن نفسي . . .

- في رأيي أنه ليس هناك ظل من عدالة، ما دمت غير مستعد لأن تقرر تنفيذ هذا الفعل بنفسك. والآن هلم بنا نلعب البلياردو! . .

كان راسكولنيكوف مضطرباً أشد الاضطراب. إن الأحاديث التي سمعها لم تكن إلا أحاديث عادية كثيراً ما سمع شباباً يتداولونها في صور مختلفة بعض الاختلاف بقصد موضوعات شتى. ولكن لماذا وقع له أن

يسمع هذه المناقشة وأن يسمع هذه الآراء في عين اللحظة التي كانت هذه الآراء نفسها تنبت في ذهنه هو؟ لماذا وقع له أن سمع، في نفس اللحظة التي تلبت فيها فكره على العجوز، حديثاً عن تلك العجوز نفسها؟ لقد ظلت هذه المصادفة تبدو له غريبة. وكان لهذه الشرارة العابرة التافهة التي جرت في الحانة، تأثير عميق فيه أثناء تتمة الأحداث، فكان ذلك كان نبوءة ونذيراً بقدر محظوم . . .

عاد راسكولنيكوف من «سوق العلف» إلى بيته، فارتدى على أريكته، ولبث ساعة بأكملها لا يتحرك. هبط الظلام أثناء ذلك. ولم يكن عنده شمعة ولا خطر بباله أن يشعل شمعة على كل حال. لم يستطع راسكولنيكوف في يوم من الأيام أن يعرف هل فتّر في شيء من الأشياء أثناء ذلك الوقت. وأخيراً أحس بقشعريرة الحمى نفسها التي أحسها في النهار، وسرّه أن يعرف أن في امكانه أن يرقد على الأريكة. وسرعان ما استبد به نعاس ثقيل كالرصاص، فنام.

نام راسكولنيكوف أكثر مما اعتاد أن ينام، نام بغير أحلام. وحين دخلت عليه ناستاسيا في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، بذلت كثيراً من الجهد ولقيت كثيراً من العناء في سبيل ايقاظه. كانت تحمل إليه شيئاً وخبزاً. وكان الشاي في هذه المرة أيضاً بقية شاي، وفي هذه المرة أيضاً كان الابريق ابريقها هي.

هتفت ناستاسيا تقول مغتاظة:

- ما أكثر ما يستطيع أن ينام! نعم إنه لا ينقطع عن النوم! . .

نهض راسكولنيكوف بجهد كبير. كان يشعر بصداع في رأسه. وقف منتسباً وسار بضع خطوات، ثم لم يلبث أن تهالك على الأريكة من جديد.

هتفت ناستاسيا:

- لماذا؟ أتريد أن تنام أيضاً؟ أتراك مريضاً؟

لم يجب راسكولنيكوف.

- هل تريده شيئاً؟

قال بجهد وهو يغمض عينيه من جديد ويستدير نحو الحائط:

- فيما بعد.

لبيت ناستاسيا مائلة عليه لحظة ثم قالت:

- ربما كان مريضاً!

واستدارت وخرجت.

وعادت إليه في الساعة الثانية تحمل حساء. كان ما يزال راقداً، حتى إنه لم يكن قد مسّ الشاي. اغتاظت ناستاسيا، فهزّته غاضبة قائلة له وهي تنظر إليه باشمئزاز:

- ما بالك تبقى غافياً على هذه الحال؟

فنهض وجلس، ولكنه لم يجب بشيء، وكان يحدّق إلى الأرض.

سألته ناستاسيا:

- أنت مريض؟

ولكنها في هذه المرة أيضاً لم تحصل على جواب. استأنفت تقول بعد صمت:

- حقاً إن عليك أن تخرج قليلاً إلى الشارع! سينفعك الهواء الطلق!
هل تأكل شيئاً من الطعام؟

قال لها بصوت ضعيف واهن:

- فيما بعد... اذهبي الآن...

قال لها ذلك وصرفها بحركة من يده.

بقيت لحظة قصيرة أخرى تتأمله في شفقة ثم خرجت.

وبعد دقائق، رفع عينيه، ونظر إلى الشاي والحساء ملياً، ثم تناول الخبز والملعقة وأخذ يأكل.

بلغ ثلات ملاعق أو أربعًا دون شهوة، بطريقة آلية تقريباً. قل صداع رأسه. حتى إذا فرغ من الطعام استلقى على الأريكة من جديد، لكنه لم يستطع أن ينام مرة أخرى. لبث جاماً، مضطجعاً على بطنه، دافنا وجهه في الوسادة. وبدأت تغزوه الأحلام. كانت جميع أحلامه غريبة جداً، ها هو ذا يرى نفسه في مكان ما بأفريقيا، في مكان ما بمصر، في واحة من والحات. القافلة تستريح. الجمال راقدة بهدوء وسكون. ومن حوله حلقة من أشجار النخيل. جميع الناس يأكلون. أما هو فلا يزيد على أن يشرب ماء من جدول يجري هناك على مقربة منه مصطخباً. ما أعظم الانتعاش الذي يشعر به المرء حين يشرب هذا الماء الأزرق البارد العجيب الذي يسيل بين الحصى المتعدد الألوان فوق الرمل الملتمع بلمعان الذهب!.. ولكنها هو ذا يسمع على حين فجأة دقات ساعة حائط، واضحةً متميزة. ارتعش راسكولنيكوف وثاب إلى نفسه، فلما رفع رأسه، ونظر من النافذة، عرف الساعة التي لعله فيها، فإذا هو يشب عن أريكته كما لو رفعته قوة مجهولة، صاحي الذهن كل الصحو، ثم يتوجه نحو الباب، سائراً على رؤوس أصابعه، فيفتح الباب قليلاً برفق، ويصيخ بسمعه إلى الضجيجات الآتية من السلم. كان قلبه يخفق خفقاناً شديداً. ولكن كل شيء بدا له عجيناً وشادياً في الوقت نفسه. أن يكون قد استطاع أن ينام على هذا النحو منذ البارحة، وأن يكون قد لبث على هذه الحال من الخدر، بينما هناك أشياء يجب عليه أن يعملها، أن يهئها. لعل الساعة التي سمع رنينها منذ هنيهة قد دقت السادسة... وهذا تعجلٌ خارقٌ محمومٌ مضطربٌ يستولي عليه بعد النوم والخدر والتواهي. على أن الاستعدادات ليست كثيرة. جهد راسكولنيكوف أن يتنبأ بكل شيء وأن لا ينسى شيئاً. إلا أن قلبه قد بلغ من شدة الخفقان أنه كان يتنفس في كثير من العناء. كان عليه قبل كل شيء أن يصنع علاقة وأن يحيط العلاقة إلى المعطف: ذلك عمل يستغرق دقيقة. نبش صرة الملابس التي توجد تحت وسادته، فسل منها قميصاً عتيقاً، قدرأ،

مهترئاً كل الاهتماء، غير صالح للاستعمال، فانتزع من خرقه عصابة عرضها خمس ستمترات وطولها أربعون سنتمراً. حتى إذا ثنى العصابة ثنتين، خلع معطفه الصيفي الواسع المصنوع من نسيج قطني سميك متين (وهو الرداء الوحيد الذي كان يرتديه فوق ثيابه) وأخذ يخيط إليه طرف العصابة من الداخل تحت الإبط الأيسر. كانت يداه ترتجفان وهو يخيط العصابة إلى المعطف. ولكنه قد أحسن القيام بهذه المهمة على خير وجه، فلما عاد يرتدي معطفه كانت العلاقة لا تظهر من الخارج. إن راسكولنيكوف قد أعد الإبرة والخيط منذ مدة طويلة: لفهمها بورق وأودعهما درج منضدته الصغيرة. أما العلاقة فكانت اختراعاً بارعاً جداً ابتكره خياله هو: كان على العلاقة أن تحمل الفأس. إن من المستحيل على راسكولنيكوف أن يتجلو في الشارع وهو يحمل بيده فأساً. ولو قد أخفى الفأس تحت المعطف لكان مضطراً مع ذلك إلى أن يستدتها، وهذا أمر لا بد أن يلفت إليه انتباه الناس. أما الآن فليس عليه إلا أن يدخل نصل الفأس في العلاقة، فتبقى الفأس طوال الطريق معلقة في داخل المعطف تحت الإبط بهدوء، عدا أن في وسع راسكولنيكوف، حين يغمد يده في جيب المعطف من خارج، أن يستند طرف المقبض ليمعن الفأس من التأرجح. ولما كان المعطف واسعاً جداً حتى لكانه كيس، فلن يستطيع الناظر أن يلاحظ من الخارج أن راسكولنيكوف يستند شيئاً من خلال جيبه. إن فكرة صنع هذه العلاقة قد وافت ذهن راسكولنيكوف منذ أسبوعين.

فلما انتهى راسكولنيكوف من عمله هذا دسّ أصابعه في الفراغ الضيق الذي يفصل الأريكة «التركية» عن أرض الحجرة، وأخذ يتلمس الزاوية اليسرى من هذا المكان، فأخرج الرهن الذي كان قد هياه وخباء هناك منذ مدة طويلة. الحق أن هذا الرهن لم يكن رهناً، وإنما هو شريحة ملساء من خشب، بحجم علبة فضية للسجائر. كان راسكولنيكوف قد عثر على هذه الشريحة الخشبية عَرَضاً أثناء إحدى جولاتِه، وذلك في

فناء منزل كانت تشغل أحد أجنحته ورثة ما . وقد خضمت إلى الشريحة فيما بعد صفيحة من حديد، رقيقة ملساء ، - أغلب الظن أن هذه الصفيحة كانت كسرة من شيء ما - التقطها من الشارع آنذاك أيضاً . حتى إذا شد هذين الشيئين المتفاوتين حجماً - وكانت صفيحة الحديد أصغر من الشريحة الخشبية - ، أحدهما إلى الآخر، يعني بربطهما بخيط متصالب ، ثم لفهما لفاً أنيقاً بورقة بيضاء نظيفة ، ثم عقد الخيط على اللفة عقداً محكماً يجعل فكها أمراً صعباً ، وذلك بغية أن يحول انتبه العجوز برهةً من الزمن - لأن العجوز ستنهمك في حل العقد - فيختار هو اللحظة المؤاتية . ولقد كان هدفه من إضافة الصفيحة الحديدية هو أن يزيد وزن اللفة فيمنع العجوز من أن تكتشف ، في الوهلة الأولى على الأقل ، أن «الشيء» ليس إلا قطعة من خشب . وكان الرهن مخبأ تحت الأرضية منذ مدة . مما أن أخرج راسكولنيكوف الرهن حتى سمع صياحاً في الفناء يقول :

- دقت الساعة السادسة منذ مدة طويلة !

فقال راسكولنيكوف يخاطب نفسه :

- منذ مدة طويلة ! رباء ! ..

واندفع نحو الباب ، وأصاخ بسمعه ، ثم تناول قبعته ، وأخذ يهبط درجات السلالم الثلاث عشرة ، كقطة ، محاذراً ، ولم يند صوت عن وقع قدميه . ما يزال عليه أن يفعل أهم شيء : أن يسرق الفأس من المطبخ . فاما أن عليه أن يستعمل فأساً فذلك أمر كان قد قرره منذ مدة طويلة . وكان راسكولنيكوف يملك كذلك مقصاً مطوية تُستعمل في الحدائق ولكنه كان غير واثق بالمقص ، وكان غير واثق بقواه خاصةً . لذلك وقع اختياره نهائياً على الفأس . ولنذكر في هذه المناسبة صفةً غريبةً تميزت بها جميع القرارات القاطعة التي اتخذها راسكولنيكوف لإنفاذ خطته : لقد كانت هذه القرارات تبدو له سخيفة مستحيلة بمقدار ما كانت تصبح

حاسمة قاطعة. إن راسكولنيكوف، رغم الصراع المضني الذي كان يجري في نفسه، لم يستطع قط أن يصدق أن مشاريعه يمكن أن توضع موضع التنفيذ في يوم من الأيام.

ولو قد اتفق له أن توصل يوماً إلى أن يجسم جميع تلك المسائل، فيبتدء جميع الشكوك ويهدم جميع العقبات لكان من المحتمل أن يعدل فوراً عن مشروعه ذاك، عدوله عن شيء مستحيل عجيب سخيف! ولكن الواقع أنه كان ما يزال هنالك عدد كبير من المسائل التي يجب حلها ومن الشكوك التي يجب تبديدها. أما طريقة الحصول على فأس، فذلك أمر تفصيلي تافه لا يشغل باله كثيراً، إذ لا شيء أسهل منه. ذلك أن ناستاسيا كانت تتغيب كثيراً عن البيت، ولا سيما في المساء: فهي تذهب إلى الجيران تارة وتمضي إلى الدكاكين تارة أخرى، وتترك الباب مفتوحاً أثناء ذلك، وهذا بعينه هو السبب فيما كان يقع بينها وبين مولاتها من تشاجر. كان يكفي إذن أن يدخل راسكولنيكوف المطبخ بهدوء ورفق، وأن يأخذ الفأس متى أزف الوقت، ثم إن يرجع بعد ساعة (متى أنهى كل شيء)، فيعيد الفأس إلى مكانها. غير أن شكوكاً كثيرة كانت تنبجس في ذهن راسكولنيكوف: ماذا لو رجع بعد ساعة ليروا الفأس إلى مكانها فكانت ناستاسيا قد عادت إلى البيت مصادفةً أثناء غيابه؟ سيكون عليه طبعاً أن يستمر في طريقه، وأن يتنتظر خروجها من جديد. فماذا لو احتاجت أثناء ذلك إلى الفأس فأخذت تبحث عنها، وأخذت تصيح وتصرخ؟ أن ذلك سيولد شبهة أو هو سيولد فرصةً لشبهة في أقل تقدير.

على أن هذه الأمور كلها تفاصيل لم يكن راسكولنيكوف قد فكر فيها فعلاً بعد. لقد كان راسكولنيكوف يفكر في الشيء الأساسي، ويرجع التفكير في التفاصيل إلى اللحظة التي يكتمل فيها اقتناعه. ولكن كان يلوح له أن هذه اللحظة لن تجيء قط، أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف في قراره نفسه. كان لا يتخيل مثلاً أنه في لحظة معينة

سوف يكف عن التفكير. وسوف ينهض، وسوف يذهب إلى هناك، بكل بساطة!.. فحتى زيارته الأخيرة للعجوز (وهي الزيارة التي استهدف منها دراسة المكان وقام بها على سبيل التمرين)، حتى هذه الزيارة لم تكن في الواقع إلا محاولة، ولم يكن فيها جد. كل ما هنالك أنه قال لنفسه: «والله... سأذهب، وسأحاول، سأحقق ما أحلم به على الأقل»، ثم لم يسعه بعد ذلك فوراً إلا أن يصدق ويولي هارباً وقد امتلاً اشمئزازاً أمام نفسه. ولكن كان يبدو أنه قد أوغل في التحليل إلى النهاية، وأنه حل المشكلة الأخلاقية التي تطرحها هذه القضية. لقد كان منطقه حاداً قاطعاً كسكنين مسنونة، ولم يبق لفكره أي اعتراض واع يمكن أن يقدمه. غير أنه لم يكن واثقاً بنفسه فكان يتمنى اعترافات من الخارج، على نحو غامض وعنيد، لأن شخصاً يدفعه إلى ذلك ويجبره عليه. وهذا يوم الأمس الذي جاء على غير توقع وكان يوماً حاسماً، قد أثر فيه تأثيراً يشبه أن يكون آلياً: لأن شخصاً قد أمسكه من يده وأخذ يجره، معصوب العينين، بقوة خارقة، جراً لا فكاك له منه، ولا سبيل له إلى الاعتراض عليه! أو لأن الله قد التقطت طرف ثوبه فدارت به عجلاتها، وأخذت تجذبه إليها جذباً لا حيلة له في دفعه!

في أول الأمر (منذ مدة طويلة) كان هنالك سؤال يشغل باله كثيراً، وهو: لماذا تنكشف جميع الجرائم بسهولة ويسر؟ لماذا يُعثر على آثار جميع المجرمين تقريباً في غير عناء؟ وقد توصل راسكولنيكوف شيئاً فشيئاً إلى نتائج متنوعة شائقة. قال لنفسه إن السبب الأساسي في ذلك لا يرجع إلى استحالة اخفاء الجريمة استحالة مادية بقدر ما يرجع إلى المجرم نفسه. فجميع المجرمين إنما يشعرون، لحظة تنفيذهم جريمتهم، بنوع من انهيار الإرادة وفقدان الرأي السديد، فإذا بالارادة والرأي يحل محلهما طيش صبياني تماماً، في الوقت الذي يكون فيه المرء أحوج ما يكون إلى العقل والحكمة والحذر. كان راسكولنيكوف مقتنعاً بأنَّ غياب الرأي السديد وانهيار الإرادة الصلبة يستوليان على

الإنسان كما يستولي عليه مرضٌ من الأمراض وينموان مزيداً من النمو شيئاً بعد شيء ثم يبلغان ذروتهما قبيل تنفيذ الجريمة. وكان مقتنعاً بأنهما يلبثان على هذه المرحلة عند ارتكاب الجريمة، ويلبثان عليها بعد ارتكاب الجريمة بزمن يختلف طوله باختلاف الأفراد، ثم يزولان كما تزول جميع الأمراض. أما هذا التساؤل: «هل المرض هو الذي يولد الجريمة، أم أن الجريمة يصاحبها دائماً، بحكم طبيعتها، شيء من مرض؟» فتلك مسألة لم يشعر راسكولنيكوف أنه قادر على حلها.

فلما انتهى إلى هذه النتائج ارتأى أن أمثال هذه الاضطرابات المرضية لا يمكن أن تعتبره هو، واعتقد بأنه سيظل محافظاً على سلامته الرأي وقوه الارادة طوال فترة تنفيذ خطته، وذلك لسبب وحيد هو أن ما ينوي القيام به «ليس جريمة»... لندع جانبياً طريقة وصوله إلى هذه النتيجة، فلقد استبقنا منذ الآن أشياء كثيرة... وحسبنا أن نضيف إلى ما ذكرناه أن المصاعب الواقعية والعقبات المادية لم يكن لها في ذهنه إلا دور ثانوي. كان يقول لنفسه: «سوف يكفيوني أن أظل مسيطرًا على إرادتي وعلى فكري حتى تذلل جميع هذه الصعاب متى أزف الوقت وأصبح على أن أدقق في أيسر تفاصيل القضية...». ولكن القضية لم تبدأ، فكان اقتناع راسكولنيكوف بأن قراراته حاسمة يضعف شيئاً بعد شيء. حتى إذا أزفت الساعة، جرت جميع الأمور على غير ما تنبأ به، بل تقاد تكون مفاجئة، حتى لكانه لم يتنبأ بشيء يوماً من الأيام.

هناك ظرف من أبسط الظروف أذهله حتى قبل أن يهبط السلم: حين وصل إلى فسحة المطبخ الذي كان بابه مفتوحاً كما يكون كذلك دائماً، ألقى على داخل المطبخ نظرة محاذرة موارية ليتأكد من أن صاحبة البيت ليست في المطبخ أثناء غياب ناستاسيا، وليتتأكد من أن باب غرفتها مغلق تماماً بحيث لا تستطيع أن تلمحه حين يدخل إلى المطبخ لأخذ الفأس. فما كان أشد ذهوله حين رأى أن ناستاسيا لم تكن حاضرة فحسب بل كانت مشغولة كذلك، فهي تُخرج الغسيل من سلة وتنشره على حبال!

فلما رأته قطعت عملها والتفت نحوه ثم لم تحول بصرها عنه إلى أن غاب. وقد أشاح راسكولنيكوف عينيه وابتعد كأنه لم يلاحظ شيئاً، ولكن مهمته كانت قد أخفقت: ما من فأس! وأسودت الدنيا في عينيه.

قال يحدث نفسه وهو يجتاز باب المنزل: «من أين جئت بهذه الفكرة وهي أن ناستاسيا لا بد أن تكون في هذه اللحظة غائبة حتماً؟ لماذا اتخذت هذا القرار موقناً هذا اليقين كله؟» وشعر بأنه مسحوق مُذل. كان من شدة غضبه يشتهي أن يسخر من نفسه... إن حنقاً غبياً حيوانياً أخذ يغلي في أعماقه.

توقف تحت باب المنزل حائراً متربداً. إنه يكره أن يمضي إلى الشارع هكذا، تقيداً بالشكل، ولكنه يكره أكثر من ذلك أيضاً أن يعود إلى غرفته. جمجم يقول: «يا لها من فرصة أضعتها، أضعتها إلى الأبد!» قال ذلك وهو تحت قبة المدخل، ولكنها هو ذا الآن أمام حجرة الباب الصغيرة التي كان بابها مفتوحاً أيضاً. ارتعش راسكولنيكوف فجأة. لقد لمح في هذه الحجرة على بعد خطوتين منه، تحت دكة، في اليمين، شيئاً يسطع... نظر حواليه: لم ير أحداً. اقترب من الحجرة سائراً على رؤوس أصابع قدميه، وهبط درجتين، ونادى الباب بصوت ضعيف. لم يجده أحد. قال يحدث نفسه: «نعم! الباب غائب. على كل حال، أغلب الظن أنه في مكان ما بالفناء ما دام الباب مفتوحاً». واندفع نحو الفأس بوابة واحدة (إن الشيء الذي يسطع كان فأساً). سحب الفأس من تحت الدكة حيث كانت موضوعة بين حطبتين، وقبل أن يغادر الحجرة أسرع يضع الفأس في العلاقة داخل المعطف، ودس يديه في جيبيه وخرج. لم يره أحد! قال يحدث نفسه وهو يبتسم ابتسامة غريبة: «لأنك محروم من العقل عاونك الشيطان!» وشجعته هذه المصادفة كثيراً.

سار في الشارع بهدوء ووقار ورصانة دون أن يتتعجل، وذلك حتى لا

يوقظ حوله شبّهات. كان لا يكاد ينظر إلى المارة، حتى لقد كان يجهد أن لا يرفع عينيه، بغية أن لا يلفت انتباه أحد. وتذكر عندئذ قبعته فقال يحدث نفسه: «ما أغباني! كان معي مال أول أمس، ثم لم أشتّر قبعة!» وأفلت منه شتيمة . . .

وألقى نظرة على داخل أحد الدكاكين عرضاً فلمح ساعة معلقة في الجدار تشير إلى السابعة وعشرين دقيقة. كان عليه أن يغذر الخطى، ولكن كان عليه كذلك أن لا يمضي إلى منزل العجوز رأساً، وإنما ينبغي له أن يدور دورة. إن من الأفضل أن يدخل المنزل من الباب الآخر في الجهة الثانية.

في الماضي، حين كان يتفق له أن يتصور هذا كلّه، كان يقدّر أحياناً أنه سيشعر بخوف شديد. ولكنه الآن لا يشعر بهذا الخوف الشديد بل لا يشعر بخوف البتة. الآن تشغله أفكار ليس لها أي شأن بالموضوع، وما أكثر تبدلها وتغييرها! فحين اجتاز حدائق يوسبوف مثلاً انبعثت في ذهنه فكرة توقف عندها مليتاً، هي أن من الواجب وضع نوافير مياه من شأنها أن ترطب الهواء ترطباً لذيداً في الميادين العامة. وشيئاً فشيئاً انتهى كل الاعتقاد بأنه إذا وسعت «حدائق الصيف» بحيث تشمل كل «ساحة مارس»، وإذا ضممت هذه الحديقة إلى حديقة «قصر ميخائيل»، فسيكون ذلك تجديداً في المدينة ممتعاً ومفيداً في آن. وهذا سؤال آخر يشده إليه بقوة. تسأّل راسكولنيكوف: لماذا يحب الإنسان في المدن الكبرى، لا بحكم الضرورة بل بداعي الميل، أن يمكث خاصة في الأحياء التي ليس فيها حدائق ولا نوافير مياه، ولا يسودها إلا الحمام والعنف والقاذورات؟ وتذكر عندئذ جولاته في «سوق العلف»، فارتدى لحظة إلى الشعور بالوضع الذي هو فيه، فقال يحدث نفسه: «يا للسخف! من الأفضل أن لا أفكّر البتة!». .

ومضت في ذهنه هذه الفكرة: «لا شك أن الذين يقادون إلى المقصولة

يتثبت فكرهم هذا التثبت بجميع الأشياء التي يصادفونها في طريقهم». ولكن هذه الفكرة التي مضت في ذهنه بسرعة كسرعة البرق، لم تلبث أن اختفت بسرعة البرق أيضاً. لقد استطاع هو نفسه أن يحملها على الاختفاء... ولكنها هوذا قد اقترب... هذا هو المنزل... هذا مدخل العمارة! وفي مكان ما، رأت ساعة حائط على حين فجأة. قال راسكولنيكوف لنفسه متسائلاً: «ماذا؟ أ تكون هي السابعة ونصف؟ وهذا ممكن؟ مستحيل... لا شك أن هذه الساعة متقدمة!...»

وابتسم له الحظ مرة أخرى حين اجتاز المدخل. إن عربة ضخمة محملة بالعلف كانت تدخل، في تلك اللحظة نفسها كما لو عمداً، أمامه تماماً، فتخفيه إخفاء كاملاً طوال مدة مروره. فما أن نفذت العربة إلى الفناء حتى كان هو قد استطاع أن يتسلل يمنة. وسمع عدة أصوات آتية من الجهة الأخرى وراء العربة. كان هنالك أناس يصرخون ويتشاجرون. ولكن أحداً لم يلاحظه، ولم يلتقط بأحد البة. وكانت نوافذ كثيرة مطلة على الفناء المربع الواسع مفتوحة في تلك اللحظة. ولكن راسكولنيكوف لم يرفع رأسه. لقد كان لا يملك من القوة ما يمكنه من رفع رأسه. والسلم الذي يفضي إلى بيت العجوز يقع على اليمين قرب المدخل، فسرعان ما كان راسكولنيكوف على ذلك السلم... .

حبس راسكولنيكوف أنفاسه، وضغط بأحد يديه خفقات قلبه، بينما كانت الأخرى تتلمس الفأس وتعدل وضعها. وأخذ يصعد محاذراً هادئاً مصيخاً بسمعه في كل لحظة. ولكن السلم كان خالياً كل الخلو هو أيضاً. إن جميع الأبواب مغلقة. لم يلتقط راسكولنيكوف بأحد. صحيح أن باب شقة غير مسكونة، في الطابق الثاني، كان مفتوحاً. وأن عدداً من الدهانين يعملون في تلك الشقة، ولكنهم لم يلاحظوه. توقف راسكولنيكوف لحظة، وفكّر، ثم تابع الطريق وهو يحدّث نفسه قائلاً: «طبعاً، من الأفضل أن لا يوجدوا هنا... ولكن... ما يزال ثمة طابقان».

هذا هو الطابق الرابع أخيراً... هذا هو الباب... هذه هي الشقة المقابلة... إنها ما تزال خالية... وأغلب الظن أن الشقة التي تقع تحت مسكن العجوز في الطابق الثالث خالية أيضاً. إن البطاقة المسمرة على الباب قد زالت... معنى ذلك أن سكانها قد رحلوا... كان راسكولنيكوف يشعر باختناق. ومضت في ذهنه فكرة سريعة سرعة البرق: «ماذا لو انصرفت؟» ولكن لم يجب عن هذا السؤال، وأنصت يصغي إلى ما يجري في بيت العجوز: لا شيء إلا الصمت... صمت كصمت القبور. واستدار مرة أخرى نحو السلم، وتسمع مدة طويلة بانتباه شديد... وبعد ذلك، ألقى على ما حوله نظرةأخيرة، وتهياً، وعدل مقبض الفأس في العلاقة مرة أخرى. تسأله بينه وبين نفسه: «أليست مسرفاً في الشحوب، مسرفاً في توتر الأعصاب؟ أنها شِكَاكة ريبة... أفلًا ينبغي لي والحالة هذه أن أنتظر... إلى أن يهدأ قلبي ويسكن رواعي؟»

ولكن قلبه لم يهدأ. بالعكس: أخذ قلبه، كأنما على عمد، يدق دقاً أقوى فأقوى... لم يطق صبراً، فمد يده ببطء إلى حبل الجرس، وشدّه، وبعد نصف دقيقة قرع الجرسمرة أخرى بقوة أكبر.

ما من جواب. فيما قرع الجرس بغير طائل؟ ثم إن هذا ليس بالمستحسن. لا شك أن العجوز في منزلها، ولكنها الآن وحيدة ولا بد أن تكون أكثر حذراً أو شِكَا. لقد كان راسكولنيكوف يعرف بعض عاداتها...وها هو ذا يضع إذنه على البابمرة أخرى. أكانت حواسه مشحونة شحذاً قوياً إلى هذا الحد - وذلك ما يصعب أن يسلم به الناس عامة - أم أن الضجة كانت مسموعة حقاً؟ المهم أنه قد ميّز، على حين فجأة، خشخشة يد محاذرة على مقبض الباب وحفيض ثوب يلامسه. لا شك أن أحداً يختبئ وراء هذا الباب، ويصيخ بسمعه من الداخل، مثلما يصيخ هو بسمعه من الخارج، حابساً أنفاسه مثله، واضعاً إذنه على الباب مثله أيضاً...

تعمد راسكولنيكوف أن يتحرك، ودمدم بصوت عالٍ بغية أن لا تحس العجوز أنه يختبيء، ثم قرع الجرس مرة ثالثة، ولكنه قرعه في هذه المرة برفق وهدوء ورصانة ورزانة، بغير تعجل يدل على نفاد الصبر. إن ذكرى هذه اللحظة ستعاوده في المستقبل واضحة مضيئة، لأنها قد انطبعت في ذهنه إلى الأبد. إن راسكولنيكوف لم يستطع أن يفهم في يوم من الأيام بعد ذلك، من أين جاءه ذلك المكر كله، لا سيما أن فكره كان يظلم بين الفينة والفينية، وأنه أصبح لا يكاد يشعر بجسمه... وبعد لحظة سمع صوت المزلاج يُسحب لفتح الباب.

الفصل السابع

الباب قليلاً كما حدث في المرة الماضية، وحدقت إلى راسكولنيكوف من قرارة الظلام عينان حادتان ربّاتان. هنا فقد راسكولنيكوف هدوء أعصابه فارتكب خطيئة كبيرة أو شكت أن تفسد عليه كل شيء.

لقد خشي راسكولنيكوف أن تخاف العجوز من وجودها وحيدة معه، وكان لا يأمل أن يرد إليها مظهره طمأنيتها، فأمسك الباب وشده إليه، حتى لا يخطر ببالها أن تغلقه من جديد، فلما رأت العجوز ذلك لم تشذّ الباب إلى جهتها، ولكنها لم تترك قبضته أيضاً، فأوشكت أن تُجز إلى فسحة السلم. وحين رأها راسكولنيكوف ما تزال واقفة في العتبة لتسد الطريق، مشى إليها قُدماً، فإذا بذعر شديد يستولي عليها، وإذا هي تتفهقر إلى الوراء بوابة واحدة، وتحاول أن تقول شيئاً فلا تستطيع، وتشخص إليه بكل عينيها.

قال لها وهو يصطنع هيئة طلقة بقدر ما يستطيع ذلك :

- نهارك سعيد يا آليونا ايفانوفنا .

ولكن صوته لم يطعه، فقد كان متقطعاً مرتجفاً. وتتابع كلامه يقول لها :

- جئتكم بالرهن... ولكن فلنمض إلى هناك حيث الضوء أكثر

ولم ينتظر أن تدعوه إلى الدخول بل دخل إلى الغرفة بخطى حازمة.
جرت العجوز وراءه. وانحلت عقدة لسانها فقالت:

ـ رباه! ما هذا؟ من أنت؟ ماذا تريد؟

ـ عجيب يا آليونا إيفانوفنا... أنا راسكولنيكوف... إنك تعرفيني
منذ مدة طويلة... خذني... لقد جئتكم بالرهن الذي وعدتكم به آخر
مرة...

قال لها ومد إليها الرهن.

أخذت العجوز تتفحص الرهن، ولكن سرعان ما عادت عيناها
تحدقان إلى عيني الزائر الغريب. كانت تتفرس فيه بانتباه وخبيث
وخشية. انقضت دقيقة، حتى لقد خُيل إلى راسكولنيكوف أنه يرى في
عينيها نوعاً من السخرية، كأنما هي قد أدركت كل شيء. شعر
راسكولنيكوف بأنه يفقد سيطرته على نفسه، وأن خوفاً يغزوه، خوفاً
يبلغ من الشدة أنه سوف يولي هارباً إذا هي ظلت تحدق إليه هذا
التحديق نصف دقيقة أخرى دون أن تقول كلمة واحدة.

قال فجأة، بخبث أيضاً:

ـ ما بالك تنظرین إلى هكذا كأنك لم تعرفيني؟ خذني الرهن إذا
شئت... وإلا لجأت إلى غيرك! ليس في وقتٍ متسع...

إن راسكولنيكوف لم يشا أن ينطق بهذه الأقوال، ولكنها أفلتت منه
من تلقاء نفسها فجأة.

استردت العجوز هدوءها. اللهجة الجازمة في كلام الزائر قد أعادت
إليها الثقة.

سألته وهي تنظر إلى الرهن:

ـ ولكن، سيدتي، لماذا تفاجئني هكذا؟... وما هو هذا الشيء الذي
تريد أن ترهنه؟

قال راسكولنيكوف :

- هو علبة سجائر مصنوعة من الفضة. حدثتك عنها في المرة الماضية.

مدت يدها وقالت :

- ولكن ما أشد شحوبك! ويداك ما بالهما ترتجفان! هل أنت مريض، هه؟

أجابها بصوت متقطع :

- بي حمى! ..

ثم أضاف يقول بمشقة كبيرة :

- وحين لا يملك المرء ما يأكله فلا بد أن يشجب لونه! ..
لقد بارحته قواه من جديد. ولكن جوابه كان معقولاً. تناولت العجوز الراهن.

سألت العجوز راسكولنيكوف، وهي تتفرس فيه مرة أخرى، وترى الرهن بيدها :

- ما هذا؟

- علبة سجائر... فضة... انظري.

- لا يبدو أنها من فضة! .. لكنك لفتها لفأ أكثر من اللزوم.

قالت ذلك وأخذت تحاول حل عقدة الخيط مقتربة من النافذة حيث كان الضوء أكثر (كانت جميع النوافذ في بيته مغلقة رغم الحرارة الخانقة). تركت راسكولنيكوف إذاً بعض لحظات، وأدارت له ظهرها. فلَّ راسكولنيكوف أزرار معطفه وسلَّ الفأس من العلاقة، ولكنه لم يخرجها إخراجاً تاماً، فهو ما يزال يمسكها بيده اليمنى تحت المعطف. لقد اعترى ذراعيه ضعفٌ شديد، وهو يحس أنهما تزدادان تخدراً وثقلاء لحظةً بعد لحظة، وتصبحان أشبه بقطعتين من خشب. خشي أن يرخي

الفأس وأن يتركها تسقط . . . وأخذ رأسه يدور فجأة . . . هتفت العجوز تقول بزعل وهي تنوي أن تتقدم نحوه :

- من ذا يخطر بياله حقاً أن يربط صرّة هذا الربط؟

لم يبق في وقت راسكولنيكوف متسع للحظة يضيعها . وها هو ذا يخرج الفأس ، ويشهّرها بكلتا يديه ، ويسقطها على رأس العجوز وهو لا يكاد يعي ماذا يعمل ، ولا يكاد يبذل جهداً ، حتى لتوشك أن تكون الحركة التي قام بها حركة آلية . لقد تمت هذه الحركة كما لو من تلقاء نفسها ودون أن تتدخل فيها قواه ، ولكنه ما أن أُسقط الفأس حتى عادت إليه قواه .

كانت العجوز عارية الرأس على عادتها ، وكان شعرها الشائب ، الخفيف ، المُدهن ، المزبَّت كثيراً ، المضفور على صورة ذيل فأرة ، المشدود ببقية مشط ، كان يبرز ناتئاً على قفار قبتها . ولأن قامتها قصيرة فإن ضربة الفأس قد سقطت على قمة جمجمتها . أطلقت العجوز صرخة ، ولكنها صرخة ضعيفة جداً . ومال جسمها إلى الأرض ولكنها استطاعت أن ترفع يديها إلى رأسها . وكانت ما تزال تمسك «الرهن» بإحدى يديها . هو راسكولنيكوف على رأسها بضربة جديدة ، ثم بضربة أخرى ، باذلاً كل ما يملك من قوة ، وذلك بظاهر الفأس أيضاً ، وعلى قمة الجمجمة كذلك . انبعاث الدم من الرأس كأنه ينسكب من كأس مقلوبة ، وتهاوي الجسم إلى وراء . تقهقر راسكولنيكوف ليخلّي لها مكاناً ، ثم أسرع يميل على وجهها : كانت العجوز قد ماتت . لكن عينيها المحمّلتين تريدان أن تخرجا من محجريهما . والوجه كله ، ولا سيما الجبين ، تبدو عليه علامات الانقباض والتتشنج التي تصاحب الاحتضار .

وضع راسكولنيكوف الفأس على أرض الحجرة قرب الميتة ، وأسرع يدس يده في جيبها متحاشياً أن تتتسخ يداه بملامسة الدم . دس يده في

ذلك الجيب الأيمن الذي أخرجت منه العجوز مفاتيحها في المرة الماضية. كان راسكولنيكوف محتفظاً بصحو ذهنه، كان لا يشعر بظلم فكره أو بدوار في رأسه. إن يديه وحدهما ما تزالان ترتجفان. سوف يتذكر راسكولنيكوف في المستقبل أنه كان في تلك اللحظة شديد الانتباه كثير الحذر، وأنه قد عرف كيف يتحاشى أن يلطخ يديه بالدم... سرعان ما أخرج راسكولنيكوف المفاتيح. كانت المفاتيح، كما في المرة الماضية، مجتمعة في حزمة واحدة تضمها بعضها إلى بعض حلقة من فولاذ. حمل راسكولنيكوف المفاتيح بيديه وهرول مسرعاً إلى غرفة النوم لا يضيع لحظة واحدة. إنها غرفة صغيرة جداً تتنصب فيها أيقونات في داخل خزانة كبيرة ذات زجاج. وعند الحاجط المقابل يوجد سرير كبير، نظيف جداً، له غطاء من حرير، مبطن بالقطن ومصنوع من عدة أقمشة مجتمعة. وعند الجدار الثالث توجد الخزانة ذات الأدراج. شيء غريب: ما إن أخذ راسكولنيكوف يدخل أحد المفاتيح في قفل الخزانة، وما إن سمع صرير المفاتيح، حتى سرى في كيانه كله نوع من قشعريرة أو رعدة. وتمنى فجأة من جديد أن يدع كل شيء وأن ينصرف. ولكن ذلك لم يدم إلا لحظة. لقد فاتت أوان الانصراف. وسخر راسكولنيكوف من نفسه حين وافته فكرة أخرى تنبهه إلى الخطر. لقد خيل إليه بغتة أن العجوز ربما كانت ما تزال حية وربما تصحو من غيبوبتها. فإذا هو يترك المفاتيح والخزانة، ويعود إلى الجثمان راكضاً، ويتناول الفأس ويشهرها فوق العجوز مرة أخرى، ولكنه لا يسقطها عليها. لقد كانت العجوز ميتة. لم يبق مجال للشك في هذا. وحين مال راسكولنيكوف عليها ليدقق النظر فيها من قرب، رأى رؤية واضحة أن الجمجمة كانت قد انكسرت وأن قمتها كانت قد انحرفت قليلاً. اشتئمى أن يضع هنالك إصبعه، ولكنه منع نفسه من ذلك: يكفيه أن يرى. وكان الدم قد شكل على أرض الغرفة أثناء ذلك بركة كبيرة. ولمح راسكولنيكوف، على حين فجأة، حبلًا صغيراً في عنق العجوز، فشده،

ولكن الحبل كان متيناً فلم ينقطع، وكان إلى ذلك مشرياً بالدم. حاول راسكولنيكوف أن ينزع الحبل. ولكن شيئاً ما كان يثبته. ثارت ثائرة راسكولنيكوف، فشهر الفأس من جديد، عازماً على أن يقطع الحبل فوق جسم العجوز، لكنه لم يجرؤ أن يفعل، واستطاع، بعد دققتين من الجهد، أن يقطع الحبل دون أن يحزّ الجثمان، ملطخاً بالدم يديه والفأس معاً. ثم سحب الحبل. لم يخطئ ظنه: هي صرّة مال. لقد غُلّق بالحبل صليبان، أحدهما من خشب السرو، والثاني من نحاس، وغُلّقت به أيقونة صغيرة مطلية بالمينا، وحافظة نقود من جلد شامواه، صغيرة متسخة كل الاتساخ، ولها إطار وحلقة من فولاذ. كانت حافظة النقود تبدو محشوة حشواً. وضعها راسكولنيكوف في جيبيه دون أن يدقق فيها. ثم ألقى الصليبيين على صدر العجوز. وركض إلى غرفة النوم من جديد، حاملاً الفأس في هذه المرة.

وبسرعة محمومة، أمسك المفاتيح، وعاد ينهمك في معالجتها، ولكن دون أن يفلح أيضاً، فما من مفتاح من هذه المفاتيح كان يبدو أنه ملائم للقفل. ليس يرجع ذلك إلى أن يديه كانتا ترتجفان، وإنما يرجع إلى أنه كان يخطئ في كل مرة. كان يدرك مثلاً أن هذا المفتاح من المفاتيح ليس هو المفتاح المطلوب، وأنه لا يدخل في القفل، ومع ذلك كان يستمر على محاولة ادخاله. وفجأة تذكر وفهم أن المفتاح الكبير المستن الذي يتارجح الآن بين سائر المفاتيح الصغيرة، لا يناسب الخزانة ذات الأدراج حتماً (وذلك ما سبق أن قاله لنفسه في المرة الماضية)، بل يناسب صندوقاً ما، وأن كل شيء ربما كان موعداً مخبأً في ذلك الصندوق. ترك راسكولنيكوف الخزانة ذات الأدراج، وأسرع يندس تحت السرير، لعلمه بأن من عادة النساء العجائز أن يخفين صندوقهن في هذا المكان. ولم يخطئ في ظنه إذ كان يوجد تحت السرير فعلاً صندوق كبير، يزيد طوله على أرшин، وله غطاء محدود بمنجد بجلد رقيق أحمر تزييه مسامير صغيرة من فولاذ. انطبق المفتاح

المستن على القفل انتباهاً تماماً، وفتح الصندوق. هذا معطف من فرو الأرنب مبطن بحرير أحمر، يعلو سائر الأشياء التي يضمها الصندوق، ويحميه شرشف أبيض يوجد تحته فستان من الحرير ثم شال. وفي قراره الصندوق لا يبدو أنه يوجد إلا خرق. أخذ راسكولنيكوف يمسح بالبطانة الحمراء يديه الملطختين بالدم، قائلاً لنفسه: «هي حمراء، والدم لا يُرى على قماش أحمر كما يُرى على غيره»، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك، وتساءل مذعوراً: «رباه! أأنا بسبيل أن أصبح مجنوناً؟».

غير أنه ما كاد يحرك الخرق الموجودة في قراره الصندوق حتى انزلقت من تحت المعطف، على حين فجأة، ساعة ذهبية. قلب راسكولنيكوف عندئذ كل ما يضمها الصندوق.

كان بين الخرق، فعلاً، أنواع شتى من أشياء ذهبية (العلها أشياء رهنها أصحابها عند آليونا إيفانوفنا ثم لم يستردوها): فهناك أساور وسلال وأقراط ودبابيس لرباط العنق وغير ذلك. إن بعض هذه الأشياء موضوع في علب، وبعضها ملفوف بورق جرائد لا أكثر، ولكن ورقة الجريدة مزدوجة ومربوطة بخيط في عناية وحرص. أسرع راسكولنيكوف يحسو بهذه الأشياء جيوب سرواله ومعطفه، مهملاً حتى إن يفضي الضرر ويفتح العلب. ولكن وقته لم يتسع لأخذ مقدار كبير من هذه الأشياء . . .

ذلك أنه سمع على حين فجأة أصوات وقع أقدام في الغرفة التي يرقد فيها جثمان العجوز. تجمد وانشد حتى لكانه ميت. ولكن السكون لم يلبث أن عاد يخيم. فظن أنه كان ألعوبةً وهم من أوهام الخيال. وما هي إلا برهة وجيزة حتى سمع صرخة ضعيفة تنطلق على حين بغتة، كانت تلك الصرخة أشبه بآلة خافته متقطعة، ثم عاد الصمت يخيم من جديد. إن صمتاً كصمت الموت قد ساد الجو خلال دقيقة أو دقيقتين. قرفص راسكولنيكوف قرب الصندوق ينتظر، وهو لا يتنفس إلا بكثير من العناء. ثم نهض بوئبة واحدة، فأمسك الفأس، واندفع يخرج من غرفة النوم.

في وسط الغرفة كانت اليزافيتا واقفةً وفي يدها سلة كبيرة. إنها تنظر إلى أختها الميّة مذعورة مصعوقة. كان وجهها شاحباً شحوباً شديداً، وكانت كأنها لا تملك من القوة ما يمكنها من أن تصرخ. فلما رأت راسكولنيكوف أخذت ترتعش كورقة في مهب الريح. وسرت في جسمها كله رعدة قصيرة متقطعة. وتقبض وجهها بتشنجات. رفعت ذراعها، وفتحت فمها، دون أن تصرخ مع ذلك، وأخذت تتقدّر إلى الوراء بخطى بطيئة أمام راسكولنيكوف، محاولةً أن تلتصق في ركن من الأركان. وكانت أثناء ذلك تحدق إليه وتترسّ فيه، ولكنها ما تزال خرساء لا تنطق، كأنما انقطعت أنفاسها. هجم راسكولنيكوف عليها مسلحاً بفأسه. تقلصت شفتا اليزافيتا من الألم، وكأنها طفل من أولئك الأطفال الصغار جداً الذين إذا رأوا الشيء الذي يخيفهم، همّوا أن يصرخوا دون أن يحولوا نظراتهم عن الشيء الذي يشير خوفهم. مسكونة اليزافيتا! كانت تبلغ من السذاجة والبساطة ومن فرط ما عانته من اضطهاد ورعب في حياتها أنها لم ترفع حتى ذراعها لتحمي وجهها، مع أن هذه الحركة هي الحركة الطبيعية في مثل تلك اللحظة، لأن الفاس إنما كانت مصوّبة إلى رأسها. اكتفت اليزافيتا بأن رفعت قليلاً يدها اليسرى التي لا تحمل شيئاً، فمدتها ببطء نحو راسكولنيكوف كأنما تدفعه عنها. هو راسكولنيكوف عليها بحد الفأس، فأصابت الضربة جمجمتها، وشقّت أعلى جبينها حتى النافوخ تقرّباً. سقطت اليزافيتا على الأرض كتلةً واحدة، فتناول راسكولنيكوف سلطها، وقد طار صوابه كلّه، فرمّاها وأسرع راكضاً إلى حجرة المدخل.

كان الذعر يستولي عليه بمزيد من القوة شيئاً بعد شيء، ولا سيما بعد جريمة القتل الثانية هذه التي لم تكن في الحسبان قط. إنه الآن يتّعلّم مغادرة المكان بأقصى سرعة. ولو كان عندئذ في حالة تمكّنه من أن يرى رؤية أوضح وأن يفكّر أبداً أسلماً، لو استطاع أن يدرك صعوبة وضعه الذي يتصف بأنه يائس فظيع مستحيل، لو استطاع أن يتّصور،

عدا ذلك ، العقبات الكثيرة التي ما يزال عليه أن يجتازها ، وربما الجرائم الكثيرة التي سيرتكبها لانتزاع نفسه من هذا البيت والعودة إلى مسكنه ، إذن لكان من الجائز جداً أن يترك كل شيء ، وأن يبادر فوراً إلى تسليم نفسه ، لا عن خوف ، بل عن شعور بالهول والاشمئزاز مما فعل . لقد كان الاشمئزاز ، خاصةً ، يزداد دقةً بعد دقيقة . ما كان له الآن ، بحال من الأحوال ، أن يقترب من الصندوق ، أو حتى من الغرفة .

ولكن نوعاً من الذهول ، بل ومن الحلم ، قد استولى عليه شيئاً بعد شيء ، حتى لكانه في بعض اللحظات قد نسي نفسه ، أو قل نسي الأمر الأساسي وتشبث بالتفاصيل وحدها . وحين ألقى نظرة على المطبخ لمح دلواً موضوعاً على دكة ، وممتئاً نصفه بالماء . فارتأى أن يغسل فيه يديه والفأس . كانت يداه الملطختين بالدم لزجتين . أغطس حد الفأس في الماء ، وتناول من على حافة النافذة قطعة صغيرة من صابون كانت موضوعة في صحن ، وأخذ يغسل يديه داخل الدلو . فلما انتهى من غسلهما ، سحب الفأس ، فنظف نصلها ، ثم لب ثلات دقائق كاملة بذلك مقبضها في الموضع الملطخة بالدم ، حتى لقد استعمل في تنظيفه الصابون . وبعد ذلك مسح الفأس كلها بخرقة كانت تجف على مقربة منه فوق حبل مشدود بانتباه شديد . لم يبق على الفأس أي أثر ، ولكن مقبضها ما يزال رطباً . دس راسكولنيكوف الفأس في العلاقة التي خاطها في داخل معطفه ، ثم أخذ يفحص المعطف والسروال والحداءين ، بالقدر الذي أتاحه له النور الضعيف . لا شيء ، من النظرة الأولى ، يبدو على مظهره من خارج . على الحداءين وحدهما كان يمكن أن يرى الناظر بضم بقى . بل راسكولنيكوف خرقه ومسح الحداءين . على أنه كان يعرف أنه لا يفحص نفسه جيداً ، وأنه ربما كان هنالك شيء يخطف الأبصار ولكنه لا يلاحظه . وقف في وسط الغرفة حائراً . وهذه فكرة مظلمة قاتمة تغزوه ، وهي أنه يتصرف تصرف مجنون ، وأنه لا يملك في هذه اللحظة لا القدرة على التفكير ولا القدرة على الدفاع عن نفسه ،

وأن ما يجب عليه أن يفعله قد يكون غير ما يفعله الآن . دمدم يقول : «رباً ! إن عليَّ أن أهرب ، أن أهرب !» واندفع نحو حجرة المدخل . ولكن هناك إنما كان يتنتظره رعب لم يشعر بمثله في حياته !

لبث راسكولنيكوف جامداً لا يتحرك ، وأخذ ينظر فلا يصدق عينيه : إن الباب الذي يفضي إلى فسحة السلم ، هذا الباب الذي قرع جرسه ودخل منه منذ قليل ، هو الآن مفتوح ، لا مفتاح ولا مزلاج إذن ، طوال الوقت الذي انقضى ! إن العجوز لم تغلق الباب إذن بعد دخوله ، ربما من باب الاحتياط والحدر ! ولكن ما هذه الخواطر ؟ ألم يرَ اليزافينا بعد ذلك ؟ فكيف لا يخطر بباله أنها لا بد أن تكون قد دخلت من مكان ما ؟ إنها لم تخترق الجدران على كل حال !

وأسرع راسكولنيكوف إلى الباب فأوصد المزلاج .

ثم سرعان ما قال يحدث نفسه :

- لا ، لا ، ليس هذا ما يجب عليَّ أن أفعله . ينبغي أن أصرف ، أن أصرف . . .

وسحب المزلاج ، وفتح الباب ، وأخذ ينصل إلى ضجات السلم متجمساً .

لبث يتजسس هذا التجسس مدةً طويلة . هناك ، في بعيد ، ربما عند باب العمارة ، أصوات رجلين صارخين معولين ، يتشارجران ويتشاتمان . تسأله راسكولنيكوف : «ما بالهما ؟» وانتظر صابراً . وصمت كل شيء في آخر الأمر دفعةً واحدة : افترق الرجالان . استعد راسكولنيكوف للخروج ، فإذا بباب في الطابق الأسفل يُفتح على حين فجأة صاحباً ، فيخرج منه أحدٌ ويأخذ يهبط درجات السلم وهو يدندن لحنًا من الألحان . قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : «ولكن ما بالهم يحدثون مثل هذه الضجة جميـعاً ؟» وعاد يغلق الباب عليه من جديد ، وانتظر . وأخيراً انقطعت كل ضجة ، فما من حركة وما من نامة . خرج

راسكولنيكوف. ولكنه ما أأن وضع قدمه على أول درجة من درجات السلم حتى سمع مرة أخرى أصوات وقع أقدام.

إن أصوات وقع الأقدام هذه آتية من بعيد، من أسفل السلم، ولكن راسكولنيكوف تذكر فيما بعد، تذكر تذكرة واضحاً جداً، أنه منذ سمع صدى أول خطوة، أوجس فوراً من أن ذلك آت إلى هنا حتماً، إلى مسكن العجوز. لماذا؟ ماذا كان في تلك الضجة من شيء خاص ذي دلالة إلى هذا الحد؟ كانت الخطوات ثقيلة، موزونة، أميل إلى البطء، ها هو «القادم» يجتاز الطابق الأرضي، يستمر في الصعود، إن صوت وقع خطاه يزداد قوة، وما ينفك يزداد قوة! إن راسكولنيكوف يسمع الآن لهاته. ها هو ذا يبلغ الطابق الثاني... هو قادم إلى هنا! أحس راسكولنيكوف فجأة بتجمد في جسمه. إن الأمور تجري كما تجري في الأحلام تماماً، حين يرى النائم نفسه ملاحقاً مطارداً، فيحدق به خصمه، ويصبح مهدداً بالموت، فيظل مستمراً في مكانه إن صع التعبير، عاجزاً عن تحريك ذراعيه.

ولم يشب راسكولنيكوف إلى رشده إلا حين أخذ القادر يعبر إلى الطابق الثالث. فاستطاع عندئذ أن يرجع إلى البيت مسرعاً محاذراً، وأغلق على نفسه الباب، ثم أمسك المزلاج فدفعه دفعاً رفياً بلا ضجة، تقوده في ذلك غريزته، ثم التصق بالباب حابساً أنفاسه. وكان القادر المجهول قريباً من الباب هو أيضاً. إن كلاً من الرجلين يقف الآن أمام الآخر على نحو ما كان يقف راسكولنيكوف والعجوز منذ قليل، حين لم يكن يفصل بينهما إلا سُمك الباب، وحين كان راسكولنيكوف مصيخاً بسمعه يتنتص.

تنفس الزائر عدة مرات بمشقة كبيرة. قال راسكولنيكوف يحدث نفسه وقد تقلصت يده على الفأس: «لا بد أنه طويل وضخم». حقاً إن ذلك كله يشبه الأحلام شبهها كبيراً. أمسك الزائر حبل الجرس، وشدة شدأ قوياً.

فما أن دوى رنين الجرس حتى أحسن راسكولنيكوف بأنه يسمع ضجة خفيفة في الغرفة كأن أحداً قد تحرك، حتى لقد أنصت جاداً بضع ثوان، وقرع الزائر المجهول الجرس مرة أخرى وانتظر ثم إذا هو يثور على حين فجأة ويأخذ يهز قبضة الباب بكل ما أوتي من قوة. فكان راسكولنيكوف ينظر مذعوراً إلى المزلاج الذي أخذ يتهدّز في الرزة. إن راسكولنيكوف يتوقع، وقد شله الرعب، أن يرى المزلاج ينخلع من لحظة إلى أخرى. والحق أن انخلاع المزلاج لم يكن مستحيلاً. فلقد كان الرجل يهز الباب هزاً قوياً يمكن أن يخلع المزلاج. خطر ببال راسكولنيكوف في لحظة من اللحظات أن يسند المزلاج بيده. ولكنه أمسك عن ذلك، لأن الرجل كان سيلاحظ هذه الحركة. أخذ راسكولنيكوف يشعر بدوار، وقال يحدث نفسه: «ها أنا ذا أوشك أن أقع». ولكن الزائر المجهول أخذ يتكلم، فسرعان ما ثاب راسكولنيكوف إلى رشده.

زار الرجل المجهول يقول بصوت أحش:

- هيء! ماذا؟ هل هما نائمتان هناك أم أن أحداً ذبحهما؟ اللعنة عليكم! هيء! أنت يا آليونا ايفانوفنا! يا عجوز النحس! وأنت يا اليزافيتا ايفانوفنا، يا جمالاً لا يضارع! افتحوا الباب! آه... يا لللعنة! أهـما نائمتان حقاً؟

وجئ من الغضب مرة أخرى فشد حبل الجرس بكل قواه عشر مرات متتالية. لا شك أنه رجل خطير الشأن، وأنه فوق ذلك من رواد هذا المتزل الذين ألفوا التردد إليه.

وفي تلك اللحظة نفسها سمع صوت وقع خطوات صغيرة متوجلة على درجات السلم. كان شخص آخر يقترب. ولم يسمع راسكولنيكوف ضجة مجئه في أول الأمر.

صاحب القادر الجديد يقول بصوت رنان مخاطباً الزائر الأول الذي كان لا يزال يشد الحبل:

- هل يمكن أن لا يكون في البيت أحد؟ نهارك سعيد يا كوخ!
قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «صوته يدل على أنه شاب في
ريغان الشباب».

أجاب كوخ:

- لا يعلم إلا الشيطان ماذا جرى! لقد أوشكت أن أكسر القفل.
ولكن كيف تعرفني أنت؟

- ما هذا الكلام؟ ألم أغلك أمس الأول ثلث مرات متتالية في
البلياردو بمقهى «جامبرينوس»؟

- آ...

- أليستا إذاً في البيت؟ هذا شيء غريب! وهو فوق ذلك شيء
مزعج! أين عساها ذهبت، هذه العجوز؟ لقد كنت أتيا إليها لأعمال...

- أنا أيضاً آت إليها لأعمال، يا صديقي! ..

صاحب الشاب يقول:

- ماذا نفعل الآن؟ يا لسوء الحظ! كنت أحسب أنني سأحصل على
بعض المال.

- طبعاً لم يبق لنا إلا أن ننصرف، ولكن لماذا حددت لي موعداً؟ يا
للعجز الشمطاء! هي التي حددت لي هذا الموعد! وقد اضطررت من
أجل الوصول أن أدور دورة طويلة. أين عساها ذهبت؟ إنني لا أفهم!
إنها تقع في بيتها طوال العام، هذه العجوز الشمطاء... وتعفن في
مكانها لا تبارحه... لأنها تشكو من أوجاع ساقيها فما بالها تمضي
تنجول الآن على حين فجأة؟ ..

- ما رأيك الآن في أن نسأل البواب؟

- نسأله عماداً؟

- نسأله عن المكان الذي ذهبت إليه، وعن الوقت الذي ستعود فيه!

- هم... نسأل؟ ولكن كيف نسأل عن المكان الذي ذهبت إليه وهي لا تذهب إلى أي مكان في يوم من الأيام؟

قال الرجل ذلك وشد قبضة الباب مرة أخرى، ثم أضاف:

- لا فائدة! لم يبق إلا أن ننصرف!

صرخ الشاب على حين فجأة قائلاً:

- انتظر! انتظر... إن الباب يتحرك حين يُهز.

- وماذا في هذا؟

- هذا يعني أن الباب ليس مغلقاً بالمفتاح، وإنما هو موصد بالمزلاج وحده. إلا تسمع صرير المزلاج؟

- وعلى أي شيء يدلّ هذا؟

- كيف لا تفهم؟ هذا يدلّ على أن إحداهما، في أقل تقدير، موجودة في البيت، فلو أنهما خرجتا كلتاهم لأغلقتا الباب بالمفتاح من خارج، لا بالمزلاج من داخل. إنك تسمع صرير المزلاج... لا تسمعه؟ ومن أجل إغلاق الباب بالمزلاج من الداخل لا بد أن يكون في البيت أحد. هل فهمت؟ هما إذن في بيتهما، ولكنهما لا تريдан أن تفتحا.

صاح كوخ يقول مدھوشًا:

- حقاً... حقاً! ثُرى ماذا تصنعن؟

وراح يهز الباب غاضباً من جديد.

هتف الشاب يقول مرة أخرى:

- انتظر! كفاك هزاً للباب! إن في الأمر سراً! لقد قرعتَ الجرس وهززت الباب فلم تفتحا!.. معنى هذا، إما أنهما مغشياً عليهما، وإما أنهما... .

- وإنما أنهما ماذا؟

- هلم نستدعى البواب. الأفضل أن يتولى هو إيقاظهما!

- موافق!

وأخذ الرجلان يهبطان على السلم. ولكن الشاب ما لبث أن قال:
- انتظر! أبق أنت هنا، وأنا استدعى البواب.

- أبقى هنا؟ لماذا؟
- لا يدرى أحد ماذا يمكن أن يحدث.

- لك ما تشاء...

قال الشاب بلهجة متحمسة:

- أرأيت؟ إنني أهيئ نفسي لوظيفة قاضي تحقيق! الأمر واضح،
وأ... . . . ضح! لا شك أن هناك سراً.
واندفع الشاب راكضاً على السلم.

فلما أصبح كوخ وحيداً شد حبل الجرس برفق، فرن الجرس رنة واحدة، ثم هز قبضة الباب مرة أخرى ببطء، كمن يفك أن يحاذر، فهو يشدّها إليه ويرخيها ليتأكد من أن الباب ليس موصداً إلا بالمزلاج. ثم زفر زفارة قوية ومال إلى تحت، ونظر من ثقب القفل، ولكن المفتاح كان مدسوساً في القفل من الداخل، فلا يمكن أن يُرى شيء.

لبث راسكولنيكوف ساكنًا جامداً، قابضاً على فأسه. كان في حالة قريبة من الهذيان. حتى لقد كان يتهدأ لأن يقاتلهما متى دخلا. ولقد خطر بياله مراراً حين كانا يقرعان ويتشاوران أن يحسّم الأمر دفعة واحدة فيناديهما من خلال الباب. واستبدت به في بعض اللحظات رغبة مجنونة رعنة في أن يسخر منهما، وأن يستهزئ بهما، وأن يمطرهما بوابل من الشتائم قبل أن يفتحا الباب. لقد مضت في ذهنه بمثيل سرعة البرق هذه الفكرة: «الأفضل أن يتم الأمر بأقصى سرعة».

وكان الوقت ينقضي. مضت دقيقة، ومضت دقيقة أخرى... دون أن يرجع أحد. أخذ كوخ يضطرب. وها هو ذا يهتف فجأة:

- اللعنة! ما شأني أنا؟

ونفذ صبره، فترك مكانه، وهبط بسرعة هو أيضاً. إن أصوات وقع حذاءيه تدوّي على السلم. ثم انقطعت هذه الأصوات.

- ما العمل يا رب؟

قال راسكولنيكوف ذلك ثم سحب المزلاج وشق الباب. لم يسمع أية نائمة. وبدون أن يفكر مزيداً من التفكير، خرج على حين فجأة وأغلق الباب وراءه بقدر ما يستطيع من احكام، واندفع يهبط السلم.

حتى إذا اجتاز طابقين تقرباً سمع صخباً شديداً يدوّي تحت. أين يختبئ؟ لم يعرف أين يستطيع أن يختبئ. حتى لقد تهياً لأن يقفل راجعاً وأن يعود إلى بيت العجوز ركضاً.

- هيه، لعنة الله عليه! يا للشيطان! أو قفوه!

إن الشخص الذي أطلق هذه الصرخات قد وثب من شقة في أسفل، وأخذ يهبط السلم تدحرجاً إن صح التعبير، صائحاً بأعلى صوته:

- ميتكا! ميتكا! ميتكا! (37) شيطان يقشر جلدك! يا للجنون!

وانتهى الصراخ بعويل حاد، فكانت أصواته ترجع في فناء المنزل ثم صمت كل شيء. ولكن في تلك اللحظة نفسها أخذ عدة رجال يصعدون السلم محدثين ضجة كبيرة وهم يتكلمون كثيراً بصوت عالٍ. لعل عددهم ثلاثة أو أربعة. وتميز راسكولنيكوف ذلك الصوت الرنان، صوت الشاب الذي كان يرابط على الباب مع كوخ منذ قليل. قال لنفسه: «إنهم هم!».

شعر راسكولنيكوف بيساس مطلق فمضى إلى لقاءهم قدائماً قائلاً لنفسه: «ليكن ما يكون!». لقد ضاع كل شيء: إذا استوقفوه فقد ضاع كل شيء، وإذا تركوه يمر فقد ضاع كل شيء أيضاً لأنهم سيذكرونها... أوشكوا أن يلتقوها. ليس يفصلهم الآن إلا طابق واحد! وإذا بالنجاة تؤاتيه فجأة! وبعد بعض درجات، على اليمين، كانت هناك

شقة خالية مفتوحة بابها، هي تلك الشقة نفسها التي تقع في الطابق الأول التي كان يعمل فيها الدهانون. لقد غادر الدهانون منذ قليل، بمصادفة تشبه أن تكون عمداً. لا شك أنهم هم الذين خرجو من قليل محدثين صخباً شديداً. إن خشب الأرض في هذه الشقة ما يزال طلاوة غضاً. وفي وسط الغرفة الأولى طشت ووعاء مملوء دهاناً وفرشاة كبيرة. تسلل راسكولنيكوف إلى الشقة من الباب المفتوح في مثل لمع البصر سرعة، والتصق بالحائط. وحسن ما فعل لأن الرجال كانوا قد وصلوا إلى فسحة السلم، فداروا وصعدوا إلى الطابق الثالث، وهم ما يزالون يتكلمون بصوت عال. انتظر راسكولنيكوف بضع لحظات ثم خرج سائراً على رؤوس الأصابع وأخذ يهبط السلم راكضاً.

ما من أحد كان على السلم! وما من أحد كان تحت قبة مدخل العمارة! اجتاز العتبة مسرعاً، حتى إذا سار في الشارع، التفت يسراً.

كان يعلم حق العلم، كان يعلم علم اليقين أنهم في هذه اللحظة نفسها موجودون في بيت العجوز، وأنهم قد دهشو أشد الدهشة حين رأوا الباب مفتوحاً بعد أن كان مغلقاً منذ قليل، وأنهم ينظرون إلى الجثتين، وأنهم لن يحتاجوا إلى أكثر من دقيقة واحدة من أجل أن يدركوا حق الإدراك أن القاتل قد بارح المكان منذ برهة وجيبة، وأنه أفلح في الاختباء بمكان ما، وأنه قد تسلل من بين أصابعهم إن صح التعبير. ولعلهم قدروا أيضاً أن هذا القاتل قد اعتصم بالشقة الخالية بينما كانوا يصعدون السلم. ومع ذلك لم يجرؤ راسكولنيكوف أن يعجل سيره، رغم أنه ما يزال هناك مائة خطوة عليه أن يقطعها حتى يصل إلى المنعطف التالي. تساءل: «ماذا لو تسللت فاختبأت تحت أحد الأبواب؟» ماذا لو انتظرت فترة ما في سلم منزل مجهول؟ ثم أجاب عن سؤاله بقوله: «لا، هذارأي فاسد!» وتساءل أيضاً: «ماذا لو رميت الفأس في مكان ما؟ ماذا لو ركبت عربة؟» ثم أجاب عن سؤاله بقوله: «لا، هذارأي فاسد، رأي فاسد!».

وها هو ذا يصل أخيراً إلى زقاق، فيدخل فيه وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. ولكنه فهم أنه الآن تملص من الورطة أو يكاد إذ أنه في هذا الزقاق لا يشير حوله الشبهات كما يمكن أن يثيرها هناك. ثم إن الناس يذهبون ويجيئون هنا كثيراً فضاع راسكولنيكوف في الجمهور كحبة رمل. ولكن تلك المحن كلها كانت قد هدّت قواه، فهو لا يكاد يستطيع أن يسير. كان العرق يسيل منه، وكانت عنقه مبتلة مخضلة، حتى إن أحد المارة صرخ يقول حين وصل راسكولنيكوف إلى القناة: «يا للسكران!»

أصبح راسكولنيكوف لا يعي نفسه كثيراً، وكانت حاله تزداد سوءاً عند كل خطوة جديدة. إن اللحظة الوحيدة التي بقيت في ذاكرته هي اللحظة التي وصل فيها إلى رصيف القناة، فأرعبه أن يرى الناس هناك قليل، فمن الممكن أن يُلاحظ. فأوشك عندئذ أن يعود أدراجه إلى الزقاق. ومع ذلك، ورغم أنه قد بلغ من الضعف حداً لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه، فقد دار دورة طويلة، ورجع إلى بيته من جهة أخرى تماماً.

وحين اجتاز مدخل العمارة التي فيها بيته، لم يكن قد استرد صحو ذهنه بعد. ومهما يكن من أمر فإنه لم يتذكر الفأس إلا حين صار على السلم، مع أن هذه المسألة هي من أخطر المسائل التي كان عليه أن يحلها. لقد كان عليه أن يعيد الفأس إلى مكانها مهما كلف الأمر، وذلك على أخفى نحو ممكن. يجب أن نذكر أنه كان بطبيعة الحال عاجزاً عن أن يتصور أن من الأفضل له، بدلاً من إعادة الفأس إلى مكانها، أن يرميها، ولو بعد مدة، في أي مكان، في فناء عمارة من العمارات.

جرى كل شيء على خير وجه. كان باب غرفة البواب مغلقاً، ولكنه ليس مقفلًا بالمفتاح. معنى ذلك أن البواب لا بد أن يكون في غرفته.

ولكن راسكولنيكوف كان قد بلغ من العجز عن التفكير في أي شيء، فأقبل على غرفة الباب بخطى حازمة، وفتح الباب. ولو قد سأله الباب عندئذ: «ماذا تريده؟» لكان من الممكن أن لا يزيد على أن يمد إليه الفأس. ولكن الباب كان غائباً في هذه المرة أيضاً، واتسع وقت راسكولنيكوف لأن يعيد الفأس إلى مكانها تحت الدكة، حتى إنه لم يفته أن يضع فوقها الحطبة التي كانت موضوعة عليها حين أخذها. واستطاع بعد ذلك أن يبلغ غرفته دون أن يصادف في طريقه أي مخلوق. وكان باب صاحبة البيت مغلقاً. حين دخل راسكولنيكوف حجرته ارتدى على الأريكة دون أن يخلع ملابسه. ولم ينم. كان في حالة تشبه التخدر، فلو دخل عليه أحد في ذلك الوقت، لأسرع يثبت عن سريره واقفاً، ولأخذ يصرخ. إن شذرات من أفكاره تتصادم في رأسه، ولكنه، رغم الجهد الذي بذلها، لم يستطع أن يقبض على أية فكرة من تلك الأفكار، ولم يستطع أن يستقر على واحدة منها....

الجزء الثاني

الفصل الأول

لدى راسكولنيكوف راقداً زمناً طويلاً. وكان يتفق له أن يستيقظ نصف استيقاظ، فكان يلاحظ أثناء تلك الدقائق القليلة أن الليل قد حل منذ وقت بعيد، ولكن لم يخطر بباله قط أن ينهض. ورأى أخيراً أن النور قد انتشر فكأنه النهار. كان مستلقياً على ظهره، وهو ما يزال على تلك الحال من التخدير. ومن الشارع، كانت تصل إليه أصوات عويل رهيبة، وهي أصوات كان يسمعها كل ليلة تحت نافذته بعد الساعة الثانية من الصباح، وكانت هي التي توقفه من نومه. قال راسكولنيكوف لنفسه: «آ... ها هم السكارى يخرجون من خماراتهم. لا شك أن الساعة تجاوزت الثانية!» وبوبضة واحدة، نهض على حين فجأة عن الأريكة وقال يخاطب نفسه: «ماذا؟ تكون الساعة تجاوزت الثانية؟» ثم عاد يجلس على الأريكة، وسرعان ما عاد إلى ذهنه كل شيء، فإذا هو يتذكر كل ما حدث، دفعه واحدة في لحظة قصيرة.

اعتقد في أول الأمر أنه فقد عقله، وها هي ذي رعدة باردة تسري في جسمه. ولكن هذه الرعدة ناشئة أيضاً عن الحمى التي انتابته منذ مدة بينما كان نائماً، وهي تهزه الآن هزاً يبلغ من القوة أن أسنانه تصطك. فتح الباب وأصاخ بسمعه: كان كل شيء في المنزل ينام نوماً عميقاً. دُهش، وألقى نظرة على نفسه وعلى ما حوله. لم يستطع أن يفهم كيف أمكنه، في الليلة

البارحة، حين دخل غرفته، أن لا يوصدها بالكلابة، وأن يرتمي على أريكته دون أن يخلع ملابسه، بل ودون أن يخلع قبعته. كانت القبعة قد تدحرجت على الأرض فهي ترقد الآن قرب الوسادة. تساءل راسكولنيكوف: «لو دخل على أحد، فماذا كان يمكن أن يظن؟ أكان يمكن أن يظن أنني سكران، ولكن...» وهرع نحو النافذة. كان الضوء منتشرأ. وأسرع يتفحص نفسه من القدمين إلى الرأس ليرى إلا يزال على ثيابه آثار. ولكنه لم يلبث أن قال لنفسه إن هذه الطريقة ليست هي الطريقة التي يجب عليه أن يتبعها، ثم نضا عنه ثيابه وأخذ يفتشها وهو يرتجف من الحمى ارتجafa شديداً. قلب ثيابه ثم قلبها، منقباً في كل درزة. ثم لم يشق بحسن ملاحظته، فأعاد فحصها مرة ثالثة. ولكن لم يكن ثمة شيء. كان يبدو فعلاً أنه لم يبق أي أثر، إلا بعض قطرات من دم متاخر في أسفل سروال المهترئ المنسل. تناول سكيناً مطوية كبيرة فقصّ بها حاشيتي السروال. كان يبدو حقاً بأنه ليس ثمة آثار غير هذه الآثار. وتذكر فجأة أن حافظة النقود والأشياء التي أخرجها من صندوق العجوز ما تزال حتى الآن في جيبيه. لم يكن قد خطر بياله أن يخرجها من الجيب وأن يخبيها، لا ولا فتّر فيها منذ قليل، حين كان يفتش ثيابه. ما معنى هذا؟ وها هو ذا قد أخذ يسلّها من الجيوب بمثل لمح البصر سرعة، ثم يرميها على المنضدة. حتى إذا فرغ من إخراج كل شيء، ثم قلب الجيوب ليتأكد مزيداً من التأكد أنه لم يبق في الجيوب شيء، مضى يضعها جميعاً في أحد الأركان. ففي أسفل ذلك الركن يوجد ثقب تحت الورق الذي يغطي الجدار والذي كان منزوعاً ممزقاً. فما هي إلا لحظات حتى دسّ جميع الأشياء في الثقب تحت الورق، وقال يحدث نفسه: «حسن! دخل كل شيء! لا أحد رأى ولا أحد عرف! حتى حافظة النقود اختفت!» قال ذلك فرحاً وهو ينهض عن الأرض وينظر ببلاده إلى الركن وقد أصبح ورق الحائط منتفخاً على نحو واضح. ارتعش من الرعب، ودمدم يقول يائساً: رباه! ماذا فعلت؟ أهكذا يُخْبأ شيء من الأشياء؟»

الحق أن راسكولنيكوف لم يكن يقدر أنه سيرأخذ من عند العجوز أشياء، وإنما كان يتصور أن لا يجد إلا مالاً، لذلك لم يهيء مخباً يخفي فيه ما يأخذ من أشياء. قال يسأل نفسه: «ولكن هل هناك الآن ما يدعوه إلى الابتهاج؟ أهكذا يخبار شيء من الأشياء؟ حقاً لقد ذهب عقلي!» وتهالك على الأريكة مهدود القوى خائر العزم، وسرعان ما عادت إليه تلك الرعدة التي لا تطاق. وها هو ذا يشد إليه، على نحو آلي، معطفه القديم الذي كان يرتديه طالباً، والذي يوجد الآن على كرسي، وهو معطف شتوي دافئ، لكنه قد أصبح منذ الآن أشبه بخرقة بالية. شد راسكولنيكوف المعطف، وغطى به جسمه. فاستولى عليه النوم والهديان من جديد، وغاب عنه شعوره.

فما أن انقضت خمس دقائق حتى وثب عن أريكته مرة أخرى، وعاد بسرع إلى ثيابه سائلاً نفسه: «كيف أمكنني أن أنام بينما لم أفعل شيئاً بعد؟ نعم، إنني لم أفعل شيئاً بعد! حتى العلاقة لم أنزعها من تحت الإبط حتى الآن! كيف أمكنني أن أنسى أمراً هاماً كهذا الأمر، كيف أمكنني أن أنسى قرينة خطيرة كهذه القرينة؟» وانتزع العلاقة، ثم أسرع يقطعها قطعاً صغيراً يرميها واحدة بعد واحدة تحت الوسادة بين الغسيل: إن قطعاً ممزقة من قماش لا يمكن أن تثير الشبهات بحال من الأحوال، أو هذا ما يخيّل إلي...» ذلك ما كان يردده راسكولنيكوف واقفاً في وسط الغرفة. ثم أخذ يجول بصره حواليه، على أرض الغرفة، في جميع الجهات، ليرى هل أغفل شيئاً من الأشياء. فعل ذلك وهو يشعر بتتوّر مؤلم. لقد كان على يقين من أن كل شيء يبارحه، حتى ذاكرته، وحتى أية قدرة على التفكير، فكان ذلك يعذبه عذاباً لا طاقة له به. قال يسأل نفسه: «ماذا؟ أيكون الأمر قد بدأ منذ الآن؟ أيكون هذا هو العقاب؟ نعم، نعم، هذا هو العقاب!» وعثر فعلاً على بقايا من قصاصات السروال كانت ملقاة على الأرض يستطيع أن يراها أول قادم. فصرخ يقول وقد تاه عقله من جديد: «ماذا فعلت؟»

هنا راودته فكرة غريبة: ربما كانت ثيابه نفسها مغطاة بالدم ، ربما كان ثمة بقع كثيرة ولكنه لا يراها ولا يلاحظها لأن رأيه قد فسد ولأن فكره قد أظلم! . . وتذكر فجأة أن حافظة النقود أيضاً قد تلطخت بالدم فقال لنفسه: «معنى هذا أنه لا بد أن يكون في الجيب دم ، لأنني دست حافظة النقود في الجيب رطبة مخضلة». وقلب جيبي في مثل لمح البصر سرعة ، فتحقق من صدق ظنه: كان في بطانة الجيب بقع دم فعلا! قال لنفسه: «إذا لم يذهب عقلي ذهاباً تاماً ، وما زلت أحتفظ بفكري وذاكري . . ولو لا ذلك لما انتبهت ، ولما كنت قادراً على استنتاج تلك النتيجة!» قال ذلك وهو يشعر بالانتصار ، حتى لقد أفلتت من صدره تهيدة فرح . وأردف يخاطب نفسه: «لم يكن ذلك إذا إلا غيبة عابرة ، لم يكن إلا وهنا ناشئاً عن الحمى!» وانتزع من سرواله كل بطانة الجيب الأيسر . وفي تلك اللحظة نفسها سقط شعاع شمس على حذائه الأيسر فأثاره ، فرأى راسكولنيكوف آثار دم على الجورب الذي كان خارجاً من الحذاء . «نعم ، هي آثار دم . إن كل طرف الجورب مرتوي بالدم!» أغلبظن أنه لم يحاذر فمشى على بركة الدم ، وكان حذاءاه مثقوبين . . . تسأله راسكولنيكوف: «ولكن ما العمل بهذا ، الآن؟ أين أضع هذا الجورب ، وقصاصات حافة السروال وبطانة الجيب؟»

لم كل شيء ، وأمسكه بيده ، ولبث واقفاً جامداً في وسط الغرفة . قال يحدث نفسه: «أأرميه في المدفأة؟ لا . . . فإنهم سيفتشون المدفأة قبل أن يفتشوا أي مكان آخر! أحرقه؟ ولكن بماذا أحرقه؟ ليس عندي عيدان كبريت . خير من ذلك أن أخرج فامضي أرمي هذا كله في مكان ما! نعم ، الأفضل أن أرمي هذا كله!» ذلك ما ردده راسكولنيكوف وهو يجلس على الأريكة من جديد . وأضاف: «ويجب أن أرميه فوراً ، يجب أن لا أضيع وقتاً ، يجب أن أرميه في هذه الدقيقة نفسها! . . .» ولكن رأسه هوى على الوسادة من جديد ، ومن جديد عاودته الرعدة الباردة التي لا

تطاقي، ومن جديد شدَ إلية معطفه يغطي به جسمه. وقد ظلت هذه الفكرة الواخزة توافيه مدةً طويلة، خلال ساعات عده، «عليه فوراً، بلا ابطاء، أن يخرج فيرمي هذا كله في مكان ما، حتى لا يراه أحد، وأن عليه أن يفعل ذلك بسرعة، بسرعة كبيرة، بأقصى سرعة ممكناً!» وحاول عدة مرات أن ينهض عن الديوان. ولكنه أصبح الآن لا يقوى على النهوض. وهذه ضربة شديدة على الباب ترد إليه شعوره.

- هلاً فتحت الباب أخيراً! أنت حي أم لا؟ إنه لا يفعل شيئاً غير أن ينام. نعم، إنه ينام أياماً بكمالها، مثل كلب. يا له من كلب! افتح! هلاً فتحت! لقد دقت الساعة العاشرة!

كذلك كانت تصيح ناستاسيا وهي تقرع الباب بقبضة يدها.

قال صوت رجل:

- قد لا يكون في غرفته!

قال راسكولنيكوف لنفسه: «هذا صوت البواب... ماذا يريد مني؟» انتفض وأثباً، جلس على الأريكة. كان قلبه يدق دقاً إلى حد الألم.

قالت ناستاسيا ترد على الرجل:

- لو لا أنه في غرفته فمن عسى يوصد الباب بالكلابة؟ عجيب! هو الآن يحبس نفسه! أهو يخاف أن يُخطف؟ افتح يا نوام! استيقظ يا كسان!

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «ماذا يريدان مني؟ لماذا يجيء البواب؟ لقد اكتشف إذن كل شيء! أقاوم أم أفتح؟ سأضيف...»

وأنهض جسمه، ومال إلى أمام، وسحب الكلابة. كانت غرفته صغيرة بحيث يمكن أن يسحب الكلابة دون أن يغادر سريره.

صدق ظنه: كان البواب وناستاسيا واقفين على عتبة الباب.

ألقت عليه ناستاسيا نظرة غريبة، وشخص هو بيصره إلى البواب وقد

بدا عليه التحدي واليأس. مد إليه الباب ورقة سمراء مطوية مختومة بالشمع، وقال له وهو يناله الورقة:

- استدعاء من المكتب!

- أي مكتب؟

- الشرطة تستدعيك إلى المكتب... ما من أحد يجهل ما هو المكتب!...

- الشرطة؟... لماذا؟

- أنا أعلم؟ هم يستدعونك، فاذهب اليهم!

قال الباب ذلك، وتفرس في وجه راسكولنيكوف، وألقى نظرة حواليه، ثم استدار لينصرف.

وكانت ناستاسيا تنظر إلى راسكولنيكوف، ولا تحول بصرها عنه. وها هي ذى تسأله الآن:

- أحسب أنك مريض جداً، أليس كذلك؟

التفت الباب. وأضافت ناستاسيا قولها:

- إن بك حمى منذ أمس!.

لم يجدها راسكولنيكوف. وما يزال يمسك الورقة التي لم يفتشها بعد.

واصلت ناستاسيا كلامها مشفقةً عليه حين رأته يهم أن ينزل عن السرير:

- لا... لا تنهض! أنت مريض! لا تذهب إلى الشرطة اليوم!... ما من أمر خطير يدعو إلى الإسراع. ما هذا في يدك؟

نظر راسكولنيكوف إلى يده. كان لا يزال ممسكاً قصاصات حافة السروال، والجورب، وبطانية الجيب المنزوعة. لقد نام وهو ممسك بهذا كله. سوف يتذكر في المستقبل، حين سيفكر في هذا الأمر، أنه

استيقظ نصف استيقاظ أثناء نوبة الحمى، فضغط على هذه الأشياء بيده ضغطاً قوياً، وعاد ينام وهو على هذه الحال.

- عجيب أمره! لم هذه الخرق من الأرض، ثم هو ينام ينام معها كأنها كنز ثمين . . .

قالت ناستاسيا ذلك وانفجرت تضحك ضحكتها العصبية المجلجلة. أسرع راسكولنيكوف يدنس الأشياء كلها تحت معطفه، وحذق إلى الخادمة بنظرة نافذة، فشعر، رغم أنه لم يكن في تلك اللحظة قادرًا على أن يحكم على الأمور حكمًا صحيحاً دقيقاً، شعر أن من سيقبض عليه ويُعتقل لا يُعامل بهذه المعاملة. ومع ذلك تسأله: «ولكن لماذا تستدعيني الشرطة؟»

قالت له ناستاسيا:

- أتشرب شايًا؟ هل تريده؟ في وسعي أن أجئتك بشاي. ما يزال عندنا بقية!

دمدم راسكولنيكوف مجيئاً وهو يقف:

- لا بل سأذهب إلى الشرطة . . . سأذهب إلى الشرطة فوراً.

قالت ناستاسيا:

- لن تقوى حتى على هبوط السلم!

- سأذهب!

- افعل ما تشاء!

قالت ناستاسيا ذلك وانصرفت في أثر الباب. فلم يلبث راسكولنيكوف أن أسرع يفحص الجورب وحافة السروال في الضوء، ثم قال لنفسه: «هناك بقع، لكنها لا تكاد ترى، فكل شيء متآكل ممحو. فمن لا يعرف شيئاً لن يرى شيئاً. الحمد لله أن ناستاسيا لم تستطع أن تلاحظ شيئاً البتة» قال راسكولنيكوف لنفسه ذلك ثم فضَّ

الورقة وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً وأخذ يقرأ. لبث يقرأ مدة طويلة، مدة طويلة، ثم فهم أخيراً أنه استدعاء عادي من قسم الشرطة بالحى، يطلب منه فيه أن يحضر إلى مكتب مفوض الشرطة في الساعة التاسعة والنصف من هذا اليوم نفسه.

تساءل راسكولنيكوف وهو يعاني حيرة أليمة: «أمعقول هذا؟ أنا لا شأن لي بالشرطة شخصياً! ولماذا في هذا اليوم ذاته؟ رباه! إلا فليته هذا كله بأقصى سرعة!» قال ذلك وهم أن يركع ليصلي، ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه وقهقه ساخراً، لا ساخراً من الصلاة بل من نفسه. وأخذ يرتدي ثيابه مسرعاً قائلاً لنفسه: «ان كنت قد هلكت فلاهلك! يستوي عندي كل شيء! ولكن يجب أن ألبس الجورب (هذا ما خطر بباله فجأة). سوف يتسع بالتراب مزيداً من الاتساح، فيختفي ما بقي عليه من آثار الدم». ولكنه ما أن لبس الجورب حتى انتزعه على الفور مشمسزاً مذعوراً. ثم تذكر أنه لا يملك جوارب أخرى، فعاد يلبسه. ومرة أخرى انفجر يضحك مقهقاً. «ماهذا كله إلا مواضعات اجتماعية شكلية! كل شيء نسيبي!»، قال لنفسه ذلك وهو يفكر بجزء من عقله، ولكنه يرتعش بكل جسمه، وأردف يقول لنفسه: «لقد لبست الجورب مع ذلك! لبسته أخيراً مع ذلك!» وحين قال هذا الكلام، كان ضحكه يتحول إلى يأس. وأضاف يقول: «لا، إن هذا فوق طاقتى . . .» كانت ساقاه تصطكان. فدمدم في نفسه قائلاً: «هو الخوف!» وألم به دوار وأخذ يشعر بصداع من شدة الحر. تابع كلامه يقول وهو يتوجه نحو السلم: «هذه حيلة! إنهم يريدون استدراجي إلى هناك بالحيلة، ليواجهوني بعد ذلك بالواقع كلها. والمصيبة أنني في حالة تشبه الهذيان . . . فقد تفلت مني حماقة ما . . .»

وفيما كان يهبط السلم تذكر أنه ترك جميع الأشياء في الثقب وراء ورق الجدار فتساءل: «ماذا لو فتشوا الغرفة أثناء غيابي؟». وتوقف عن السير. ولكن اليأس والاستهتار - إن صحة التعبير - اللذين كانوا يستوليان

عليه حين يتصور أنه هالك قد بلغا من القوة أنه لم يزد عندئذ على أن حرك يده بإشارة تدل على قلة الاكتتراث وتتابع سيره قائلاً لنفسه: «فلينته هذا الأمر بأقصى سرعة ممكنة!»

كان الحر في الخارج شديداً لا يطاق. ما من قطرة مطر هطلت منذ أيام. هو جو الغبار والأجر والكلس مرة أخرى، هو جو المطاعم العفنة والخمارات الكريهة من جديد. وها هم أولاء السكارى يطالعونه عند كل خطوة يخطوها والسعاة والحوذيون المكدودون. وانبهرت عيناه من أشعة الشمس حتى أوجعتاه. وأخذ يحس بدور في رأسه، كما يحدث عادة للمرء حين يخرج أثناء الحمى فجأة في يوم شديد القيظ.

فلما بلغ منعطف شارع الليلة البارحة، نظر إلى تلك العمارة بقلق وألم، ثم لم يلبث أن حول عنها عينيه فوراً.

وحين اقترب من قسم الشرطة قال لنفسه: «إذا استجوبت فقد اعترف!»

إن قسم الشرطة يقع على بعد مائتين وخمسين متراً من بيته تقريباً. لقد نقل قسم الشرطة هذا منذ مدة وجيبة إلى مقر جديد يقع في الطابق الرابع من عمارة بُنيت حديثاً. كان راسكولنيكوف قد ذهب مرّة إلى المقر القديم، ولكن هذا حدث منذ مدة طويلة جداً. حين اجتاز مدخل العمارة لمح على اليمين سلماً كان يهبطه رجل يحمل بيده سجلاً فقال لنفسه: «لا بد أنه بواب، ولا بد إذن أن يكون قسم الشرطة في هذه الجهة». وصعد السلالم على غير هدى. كان لا يريد أن يسأل أحداً عن شيء.

وقال لنفسه وهو يصعد: «سأدخل فأجثو على ركبتي وأروي كل شيء».

السلم ضيق، شديد الانحدار، مليء بالقادورات. مطابخ جميع الشقق في كل الطوابق تطل على هذا السلم، وأبوابها تظل مفتوحة طول النهار تقريباً. لذلك يكون الجو خانقاً جداً. بوابون يحملون سجلات

تحت الابط، وسعاة شرطة، وزوار كثيرون من الجنسين يصعدون وينزلون بغير انقطاع. باب المكتب مفتوح على مصراعيه هو أيضاً. دخل راسكولنيكوف، ووقف في حجرة المدخل. الحجرة مزدحمة بأناس من سواد الشعب يتذمرون دورهم. الحر خانق هنا أيضاً. تضاف إلى ذلك رائحة الدهان (لقد أعيد دهن الغرف وما يزال الدهان طرياً) التي تبعث في النفس شعوراً بالغثيان. انتظر راسكولنيكوف لحظة ثم قرر أن يمضي إلى المكتب التالي. إن جميع الغرف صغيرة، سقفها واطئ جداً. كان راسكولنيكوف نافذ الصير إلى درجة رهيبة وكان نفاد صبره هذا يدفعه إلى أن يوغل مزيداً من الإيغال. لم يلاحظ أحد. في المكتب التالي كان يكتب كتاب لا يكادون يرتدون ثياباً خيراً من ثيابه، ولا يوصف مظهرهم إلا بأنه مظهر غريب عجيب في أقل تقدير. اتجه راسكولنيكوف إلى أحدهم. سأله هذا:

- ماذا تريدين؟

فأراه راسكولنيكوف الاستدعاء الذي تلقاه من مكتب الشرطة.

قال الموظف بعد أن ألقى نظرة على الورقة:

- هل أنت طالب؟

فأجابه راسكولنيكوف:

- نعم، طالب سابقاً.

تفرس فيه الموظف، ولكن بدون أي فضول. هو رجل مشعر الشعر توحى نظرته بأن هناك فكرة ثابتة تحاصر ذهنه.

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «من هذا الرجل لن أعرف شيئاً إن جميع الأمور عنده سواه».

قال الموظف وهو يشير بإصبعه إلى الباب التالي:

- اسأل السكريتير!

دخل راسكولنيكوف الغرفة التي دله عليها الرجل (وهي الرابعة في

صف الغرف). إنها صغيرة جداً كذلك، تزدحم بأناس ثيابهم خير قليلاً من الجالسين في المكاتب السابقة. وبينهم سيدتان. فأما الأولى وهي ترتدي ملابس حداد فقيرة، فقد كانت جالسة أمام منضدة قبالة سكرتير يُملي عليها فكتتب. وأما الثانية فهي امرأة ضخمة الجسم حمراء الوجه، صارخة الزينة، متربفة التبرج، تضع على صدرها حلية كبيرة كأنها صحن. وكانت هذه المرأة الثانية واقفة، متنحية بعض التنجي، يبدو عليها أنها تنتظر شيئاً. مذ راسكولنيكوف ورقته إلى السكرتير، فألقى عليها السكرتير نظرة سريعة وقال له: «انتظر» وواصل اهتمامه بالسيدة التي ترتدي ثياب الحداد.

تنهد راسكولنيكوف متخففاً من قلقه وقال يحدث نفسه: «لم يستدعوني إذن من أجل ذلك الأمر». وأخذ يسترد شجاعته، ويحاول أن يستعيد هدوءه وطمأنينته.

قال لنفسه: «إن أيسر حماقة أرتكبها وأبسط زلة أقع فيها يمكن أن تفضحني فضحاً تاماً». ثم أضاف: «هم!.. لا هواء هنا... الجو خانق.. إن رأسي أخذ يدور.. وفكري أيضاً..»

شعر راسكولنيكوف باضطراب رهيب يغزو كيانه كله. خشي أن لا يستطيع السيطرة على نفسه. حاول أن يتثبت بأي شيء لا علاقة له بهمومه، ولكنه لم يفلح. كان السكرتير يشغل باله كثيراً: إن راسكولنيكوف ما ينفك يحاول أن يقرأ في وجهه شيئاً، أن يوجس في وجهه شيئاً. هو شاب في نحو الثانية والعشرين من عمره، له وجه مسموم كثیر الحرکة، يوهم مظهره بأنه أكبر من سنه، شديد العناية بهندامه، يحترم «الموضة» احتراماً واضحاً، مدهن الشعر، له فرق يهبط حتى النقرة، في أصابعه البيضاء المونقة تسقط خواتم كثيرة، وصدرته تزدان بسلسل من ذهب. حتى لقد خاطب أجنبياً كان هناك، ببعض عبارات بالفرنسية، فكان كلامه بالفرنسية حسناً.

قال الشاب للمرأة السمينة ذات الوجه الأحمر والهندام الصارخ التي

كانت ما تزال واقفة كأنها لا تجرؤ أن تجلس من تلقاء ذاتها رغم أن
كرسيًّا كان يوجد إلى جانبها، قال لها:

- اجلس يا لويسيا إيفانوفنا!

فأجابته السيدة قائلة:

- (أشكرك) (Ich danke).

وجلست، فخشخش حرير. إن ثوبها الأزرق كزرة السماء، المزدان
بتخاريم بيضاء، المنتفخ كمنطاد، قد انتشر حول الكرسي، فشغل نصف
الغرفة تقريبًا، وانتشرت منه روائح عطر، ولكن السيدة أظهرت وجدها
من احتلال كل هذا المكان، ومن نشر كل هذا العطر، فكان في
ابتسامتها التي ظهرها الوقاحة كثير من القلق.

انتهت المرأة التي ترتدي ثياب الحداد، فنهضت أخيراً. فإذا بضابط
يدخل بضجة على حين فجأة، ضابط يوحى مظهره بالحماسة والنشاط
ويحرك كتفيه كلما خطأ خطوة. ألقى الضابط على المنضدة قبعته
المزданة بشارة رسمية، وجلس على مقعد. ووثبت السيدة ذات الثوب
المخشوش عن كرسيها منذ لمحته، وانحنت تحفيه تحية عميقه بنوع من
الإعجاب، ولكن الضابط لم يولها أي انتباه. ومع ذلك لم تجرؤ أن
تعود إلى الجلوس بحضوره. ولم يكن هذا الضابط إلا مساعد مفروض
الشرطة. إن له شاربين أحمرین مدربين يستويان أفقیاً على جانبي وجهه،
وهو وجه لا تعبر قسماته الدقيقة عن شيء، إلا عن الغطرسة. ألقى
الضابط على راسكولنيکوف نظرة شقراء فيها استياء: ذلك أن ملابس
راسكولنيکوف كانت زرية حقاً، وكانت هيئته، رغم حالة الانهيار التي
هو فيها، لا تتفق وهذه الملابس، حتى لقد تجرأ فرشق الضابط بنظرة
طويلة بعض الطول، مدققة بعض التدقيق، فشعر الضابط بازعاج
شديد، وصاح يسأل راسكولنيکوف:

- وأنت، ماذا تريد؟

لا شك أنه قد أدهشه أن لا يخطر ببال شخص يرتدي مثل هذه الأسمال الرثة أن يغض طرفه ويرتكب أمام نظرته الكاسرة.

أجابه راسكولنيكوف مضطرباً :

- استدعيت إلى هنا، هو استدعاء . . .

فأسرع السكرتير يتدخل تاركاً أوراقه :

- بشأن المطالبة بدفع مال. هذا هو الطالب!

قال السكرتير ذلك ودفع إلى راسكولنيكوف دفتراً وهو يشير له إلى موضع منه، وأضاف يقول :

- اقرأ !

تساءل راسكولنيكوف : «بشأن المطالبة بدفع مال؟ أي مال؟ إذن ليس الأمر ذلك الأمر!». وارتعش من الفرح. شعر فجأة بتخفف كبير لا يوصف. إن حملاً ثقيلاً قد سقط عن كتفيه.

صرخ الضابط يسأله :

- قيل لك أن تحضر في أية ساعة أيها السيد؟ لقد ورد في ورقة استدعائك أن تحضر في الساعة التاسعة، وال الساعة الآن هي العادية عشرة، أليس كذلك؟

لا يدرى إلا الله لماذا كان هذا الضابط يشعر بمزيد من الاستياء شيئاً بعد شيء .

أجابه راسكولنيكوف بصوت عالٍ، ومن فوق كتفه :

- لم أستلم ورقة الاستدعاء إلا منذ ربع ساعة. أحسب أنني يكفيوني أن أجيء رغم الحمق . . .

إن راسكولنيكوف أيضاً قد اعتبر غضب مفاجئ لم يكن في الحسبان، ولكنه يجد في هذا الغضب لذةً ومتعة .

- لا تصرخ، أرجوك!

- لست أصرخ . بالعكس : أنا أتكلم بكثير من الرصانة والرزانة ، وأنت تصرخ . ولما كنت طالباً ، فإني لا أسمع بالتكلّم معي بهذه اللهجة .

بلغ غضب مساعد مفوض الشرطة من الشدة أنه لم يثبت دقة بكمالها لا يستطيع أن ينطق كلمة واحدة ، فلم يزد على أن يرغي ويزيدي . ثم إذا به ينهض بوثبة واحدة كمن وُخز ، ويصبح قائلاً لراسكولنيكوف :

- اسكت . أنت هنا في مكتب رسمي . لا تكن فظاً أيها السيد !

صرخ راسكولنيكوف :

- وأنت أيضاً في مكتب رسمي ، ومع ذلك تصرخ ، بل وتدخن سيجارة ، وهذا دليل على أنك لا تولينا جميعاً أي اعتبار !

وشعر راسكولنيكوف ، حين قال هذه الكلمات ، بلذة لا توصف . وكان السكرتير ينظر إليهما مبتسمًا . واضح أن الضابط الذي كان يغلي ويفور قد أفهم .

وأخيراً صرخ الضابط يقول بصوت بلغ من العلو أنه كان لا يبدو طبيعياً :

- ليس هذا شأنك . تفضل بالإدلاء بالإفادة المطلوبة منك . أره الشكوى يا الكسندر جريجوريتش . أنت مطالب بمالي تهرب من دفعه . يا للشاطر ! ..

ولكن راسكولنيكوف كان قد انقطع عن الإصغاء إليه : أمسك الورقة بشرابة ، محاولاً أن يكشف اللغز بأقصى سرعة .قرأ الورقة مرة أولى ، ثم قرأها مرة ثانية ، ولكنه ظل لا يفهم شيئاً . فقال للسكرتير يسأله :

- ما هو الموضوع ؟

- أنت مدين بمالي عليك أن تدفعه . هناك سند تعهد فيه بسداد الدين عند المطالبة به . وعليك الآن إما أن تدفع كل شيء ، بما في ذلك النفقات والغرامات ، الخ ، وإما أن تحذّد ، كتابةً ، الموعد الذي ستكون

فيه قادراً على دفع المال، وأن تتعهد بأن لا تغادر العاصمة، وبأن لا تبيع أمتعتك وأن لا تخفيها قبل سداد الدين. أما الدائن ففي وسعه أن يبيع أمتعتك، وأن يلاحقك وفقاً للقانون.

- ولكن . . . ولكتني لست مدينا لأحد بشيء!

- ذلك أمر ليس من شأننا. لقد تلقينا سندًا بمبلغ مائة وخمسة عشر روبيلاً مستحق الدفع وفقاً للقانون، كنت أنت قد وقعته منذ تسعه أشهر باسم السيدة زارنتسينا، أرملة موظف من الدرجة الثامنة، ثم انتهى هذا السند إلى يدي المستشار تشيباروف، ومن أجل هذا إنما استدعيتك، وعليك الآن أن تدللي بإفادتك.

- ولكن هذه السيدة هي صاحبة البيت الذي أقيم فيه . . .

- هل يغير هذا من الأمر شيئاً؟

كان السكرتير ينظر إليه وهو يبتسم ابتسامة تسامح توشك أن تشتمل على عطف وشفقة، ولكنها تشتمل كذلك على شعور بالانتصار مردده إلى أن أمامه شاباً غرّاً قد وقع في الورطة لأول مرة وكأنه يقول له: «هيه! كيف حالك الآن؟» ولكن راسكولنيكوف لم يهتم أي اهتمام بالسند أو تحصيله! حقاً إن هذا لا يستحق، الآن، أقل قلق، ولا يستحق أيسر انتباه! لبث راسكولنيكوف واقفاً يقرأ أو يصغي أو يجيب أو حتى يسأل، ولكنه يفعل ذلك كله على نحو آلي. إن فرحة الناشئ عن شعوره بأنه في أمان، وبأنه قد نجا من الخطر الرهيب الذي كان يتربص به، هو ما كان يملأ كل كيانه في هذه اللحظة. لم يبق في نفسه مكان للتبرّر، والتحليل، والاحتياطات الواجب اتخاذها في المستقبل، والافتراضات، والشكوك، والاستجوابات. هذه دقّيّة فرح، فرح مباشر، فرح غريزي صرف. ولكن في تلك الدقيقة نفسها دوى في المكتب ما يشبه أن يكون رعداً وصاعقة. إن الضابط الذي كان ما يزال يغلي ويغور من الإهانة التي أُلحقت به منذ قليل، قد انفجر انفجار الرعد والصاعقة في محاولة

لإثبات عظمته المتهاورة على السيدة ذات الثوب المخشنخ التي كانت تتأمله منذ دخل ، وعلى شفتيها ابتسامة بلهاه .

صرخ يقول لها فجأة بصوت عال (وكان السيدة التي تلبس ثياب الحداد قد خرجت) :

- آ... هاينت يا... ماذا جرى عندك في الليلة الماضية ، هه؟ لقد عدت تشيرين الفضائح ، وتعرضين دعاراتك في عرض الشارع ! عدت تخلقين المشاجرات وتشجعين السكر! أتراءك تحلمين بأن تقضي أيامك في سجن من السجنون؟ لقد سبق أن قلت لك ، سبق أن نبهتك عشر مرات إلى أنني سأكون في المرة الحادية عشرة بغير رحمة ولا رأفة ولا شفقة ، وهاينت ذي تستأنفين... تستأنفين... يا... يا... .

كادت الورقة التي يحملها راسكولنيكوف أن تسقط من يديه . نظر مبهوراً إلى السيدة المخشنخة التي تعامل بمثل هذه الفظاظة . ولكن سرعان ما فهم الموضوع ، وسرعان ما أخذت القصة تسلية ، فكان يصغي متلذذاً ، حتى لقد أحس برغبة في أن يضحك ، في أن يضحك مقهقاً ، فإلى هذا الحد كانت أعصابه مهترة!

بدأ السكريير يتكلم فقال بلهجـة تفيض توسلـاً:

- ايليا بتروفتش... .

ولكنه انقطع عن الكلام ، لأنـه رأى أنـ من الأفضل أنـ يـنتظر لـحظـة منـاسبـة أكثر منـ هذه اللـحظـة ، لأنـه كانـ يـعرف بالـتجـربـة أنـ منـ المستـحـيل كـبح جـمـاح الضـابـط العـنـيف ، اللـهم إـلا بالـلـجوـء إـلى الـقوـة .

أما السيدة المخشنخة فإنـها أخذـت تـرـجـف منـذ انـطـلـق الرـعد وـدوـت الصـاعـقة . ولكنـ الشـيء الغـرـيب هو أنـ تـعبـير وجهـها كانـ يـزـداد تـرقـقاً وـتـلطـفاً ، وـابـتسـامـتها للـضـابـط الرـهـيب كانت تـزـداد حـسـناً وـظـرفـاً عـلـى قـدر ما كانت الشـتـائم المـوجـهة إـلـيـها تـزـداد كـثـرةً وـشـدـةً . كانت تـراـوح في مـكـانـها ، وـلا تـنـحـني اـحـتـرـاماً للـضـابـط ، مـنـتـظـرةً مـعـ ذـلـك ، بـصـبرـ نـافـدـ ، أـنـ يـتـبع

لها أن تقول كلمة . وكوفع صبرها فعلاً، فما أن سكت الضابط حتى أسرعت تقول بنبرة ألمانية ظاهرة، رغم أنها تكلمت الروسية بطلاقة :

- لم يحدث في بيتي عربدة ولا مشاجرة، يا سيدي الكابتن، ولا حدثت فضيحة أو جرصة، لم تحدث أية فضيحة! كل ما في الأمر أنه جاء سكران . . . سأقص عليك كل هذا يا سيدي الكابتن . . . حقاً أنا لست مذنبة . . . إن بيتي بيت لائق يا سيدي الكابتن، والسلوك فيه سلوك لائق يا سيدي الكابتن . . . وأنا نفسي، لم أسمح بأية فضيحة، في أي يوم من الأيام. ولكنه جاء سكران ثم طلب ثلاث زجاجات، ثم رفع قدمه في الهواء وأخذ يعزف بها على البيانو . . . ذلك أمر لا يستحسن أبداً في بيت لائق. ثم خرب لي البيانو. قلت له: ما هذه آداب مستحبة، ما هذه آداب مستحبة . . . فتناول عندئذ زجاجة وأخذ يضرب بها جميع الناس على قفاهم . . . عندئذ ناديت البواب . . . فجاء كارل . . . وحين جاء كارل، وزم الرجل عين كارل، ووزم أيضاً عين هنرييت، وصفعني أنا نفسي، خمس صفعات! . . ليس من الظرف في شيء أن يفعل أحد ذلك في بيت لائق يا سيدي الكابتن. عندئذ صرخت . . . ولكنه مضى عندئذ إلى النافذة المطلة على القناة ففتحها، وأخذ ينخر نخير خنزير صغير، وذلك عيب حقاً . . . كيف يرضى أن يقف إلى النافذة فيأخذ ينخر نخير خنزير صغير؟ هذا عيب، عيب، عيب! . . شدّه كارل من رداء «الفراك» الذي كان يرتديه، شدّه ليبعده عن النافذة . . . وعندئذ يا سيدي الكابتن - أعرف لك بذلك، نعم أعترف لك بذلك - مزق له كارل رداءه . . . ولكنه أخذ عندئذ يصبح قائلاً إنه يطالب بخمسة عشر روبلأ، لأن رداءه تمزق. فدفعت له، يا سيدي الكابتن، دفعت له بنفسى، دفعت له خمسة روبلات تعويضاً له عن رداءه. ما هو بالزائر اللائق يا سيدي الكابتن إن الزائر اللائق لا يتسبب بهذه الفضيحة! وقد قال لي: سوف ترين . . . لأنشرون هجاء مقدعاً لكم. إن لي صلات بجميع الجرائد. وأستطيع أن أقول فيها عنكم ما أشاء! وهذا كلام يقال لي؟

- آ... هو إذاً كاتب؟

- نعم يا سيدى الكابتن، وهو أيضاً زائر غير لائق، لأنه لم يتورع،
في منزل لائق، أن...

- كفى، كفى، سبق أن قلت لك وكررت أن...

عاد السكرتير يتكلم فقال بلهجة ذات مغزى:

- ايليا بتروفتش!

رشقه الضابط بنظرة سريعة فكفَ السكرتير عن الكلام وهز رأسه
بحركة خفيفة. وتابع الضابط كلامه فقال:

- اسمعي أيتها المحترمة لوизا ايفانوفنا! إليك كلمتي الأخيرة! أقول
لك آخر مرة: إذا حدثت في بيتك اللائق، بعد الآن، فضيحة واحدة،
فسأتولى بنفسى وضعك في قفة سلطة، كما يقال بالأسلوب الرفيع.
مفهوم؟... إذن هكذا... أديب... كاتب... أخذ في «منزلك
اللائق» خمسة روبلات تعويضاً عن تمزيق ردائه. آ... هؤلاء هم
المؤلفون! (قال الضابط ذلك وهو يرمي راسكولنيكوف بنظرة احتقار).
وأمس الأول، في حانة من الحانات، حدثت قصة أخرى: تغذى واحد
من هؤلاء المؤلفين، ورفض أن يدفع ثمن الوجبة، وقال لصاحب
الحانة: «سأكتب مقالة أهجوك فيها هجاء لاذعاً» وفي الأسبوع الماضي،
على ظهر سفينة من السفن، قام كاتب آخر بقذف أسرة مستشار من
مستشاري الدولة بأشنع الشتائم، وتناول بالشتم امرأته وابنته خاصة.
ومؤلف ثالث، لم يمكن طرده من أحد محال بيع الحلوى إلا ركله
بالأرجل في ظهره. هؤلاء هم الأدباء، هؤلاء هم الكتاب، والطلاب
والدعاة! أف؟.. أما أنت فانصرفي الآن، ولكن اعلمي أنني سأراقبك،
فإياك ثم إياك... مفهوم؟

إن لوизا ايفانوفنا، وقد ازدادت تلطفاً وتودداً عن ذي قبل، أخذت
تحني انحناء الاحترام في جميع الاتجاهات، ومازالت تتقدّم إلى وراء

أثناء هذا الانحناء حتى بلغت الباب . ولكنها حين بلغت الباب صدمت بمؤخرتها ضابطاً مهيباً يزدان وجهه النضر المتفتح بسالفين أشقرين رائعين كثيفي الشعر . أنه نيكوديم فومتش ، مفوض الشرطة بذاته . أسرعت لويساً ايفانوفنا تتحني ، احتراماً له ، حتى كادت تلامس الأرض من شدة الانحناء ، ثم ولت هاربةً من المكتب بخطوات صغيرة متواصة .

قال نيكوديم فومتش يخاطب ايليا بتروفتش ، بلهجة محبيه ودود :

- ماذا؟ أعاد هزيم الرعد ، أعاد قصف الصاعقة ، والعاصفة ، والاعصار؟ هل أغضبوك مرة أخرى فاستسلمت للغضب؟ لقد سمعت كل شيء وأنا أصعد السلم !

قال ايليا بتروفتش باهمال نبيل وهو ينتقل من منضدة إلى أخرى ، متنقل الذراعين بأوراق ، مرتحاً عطفيه ترنحًا جميلاً، عند كل خطوة ، على عادته :

- وكيف لا! انظر أرجوك إلى هذا السيد مثلاً: هو كاتب ، هو طالب أو طالب سابق ، يرفض أن يدفع ما عليه من ديون ، يوقع سندات ، يرفض إخلاء المسكن ، الشكاوى الكثيرة أو دعت ضده ، ثم هو ينزعج لأنني أدخلن سيجارة بحضوره . انظروا قليلاً إلى حملة الأقلام هؤلاء . هذا نموذج لهم . عينة تمثلهم بحسنها وروعتها أجمل تمثيل !

قال نيكوديم فومتش :

- ليس الفقر عاراً يا صديقي . ونحن نعلم أنك لا تطيق احتمال أي ازعاج ...

ثم اتجه إلى راسكولنيكوف فقال له بكثير من اللطف والمودة :

- أغلب الظن أنك توهمت أنه أراد الإساءة إلى شعورك ، فلم تستطع أن تسيطر على نفسك . ولكنك أخطأـت: ثق أن هذا الرجل من أ Nigel الرجال . ولكنني أعرف لك بأنه عنيف ، عنيف كالبارود ، كالبارود ... يشتعل ، يفرقع ، ينفجر ، ولكن كل شيء ينتهي بعد ذلك! ولا يبقى إلا

قلبه الذي هو من ذهب!.. حتى لقد أطلق عليه لقب «الضابط بارود» منذ كان يخدم في الكتبية.

صاحب ايليا بتروفتش، يقول وقد أرضت هذه الكلمات غروره، ولكنه ما يزال مهتاجاً:

- ويا لها من كتبية!

شعر راسكولنيكوف برغبة مفاجئة في أن يخاطبهم جميعاً بكلام لطيف ودود إلى أبعد حدود اللطف والود. فبدأ يقول بلهجة طلقة، متوجهاً بكلامه إلى نيكوديم فومتش:

- انظر يا كابتن، ضع نفسك في مكانني... أنا مستعد لأن اعتذر إلى السيد، إذا كنت قد أخطأت في حقه أي خطأ. أنا طالب فقير، مريض، مرهق (هذا ما قاله: مرهق) بالبؤس. أو قل إنني كنت طالباً في الماضي، ثم أصبحت عاجزاً عن سد حاجاتي فتركت الدراسة. ولكنني سألتلقى مالاً بعد قليل. أن أمي وأختي تعيشان في إقليم س...، سوف ترسلان التي مالاً فأدفع ما علىي. أن لصاحبة البيت الذي أقيم فيه قلباً طيباً كريماً، ولكنها غضبت كثيراً، لأنني فقدت موردي من اعطاء دروس خاصة، فأصبحت لا أدفع لها أجر مسكنني منذ أربعة أشهر تقريباً، حتى لقد بلغ الغضب بها أنها أصبحت لا تبعث إلى بوجبات الطعام... لذلك ترانني لا أفهم من أمر هذا السند شيئاً. هي تطالبني بمال مستعينة بهذا السند الذي وقعته لها ولكن من أين أجيء بمال أدفعه؟ أحكموا في الأمر بأنفسكم!

عاد السكرتير يقول من جديد:

- هذا ليس من شأننا!

فاستأنف راسكولنيكوف بكلامه مخاطباً نيكوديم فومتش، لا السكرتير، ومحاولاً أن يخاطب في الوقت نفسه ايليا بتروفتش، رغم أن هذا كان منهمكاً بأوراقه، وكان يقابلها بقلة الاحتراث وبالاحتقار، قال:

- اسمح لي، اسمح لي، أنا أواافقك كل الموافقة، ولكن اسمح لي أيضاً أن أشرح ظروفي، اسمح لي أن أذكر لك من جهتي أنني أسكن عندها منذ ما يقرب من ثلاثة سنين، منذ وصلت من الأقاليم، وأنني قبل كل شيء، قبل كل شيء... نعم، لماذا لا أعترف أنا أيضاً بأنني منذ البداية قد وعدتها بأن أتزوج ابنتها؟ نعم لقد وعدتها بذلك كلاماً... كلاماً فقط... وكانت ابنتها فتاة... أعجبتني على كل حال، وإن لم أكن قد تولدت بعها! هو الشباب، باختصار! فكانت صاحبة البيت تمهلني في الدفع كثيراً... وكانت أعيش حياة تتصرف بكثير من الطيش...

قاطعه ايليا بتروفتش بفظاظة، شاعراً بالانتصار:

- ما من أحد يسألك أن تذكر تفاصيل من هذا النوع عن حياتك الخاصة أيها السيد، ثم إن وقتنا ليس فيه متسع للإصغاء إليك...

ولكن راسكولنيكوف سارع يقاطعه بعنف، رغم أنه أصبح يشق عليه إلى أبعد حدود المشقة أن يقول أي شيء. قال يرد:

- لا، اسمح لي، اسمح لي أن أروي لكم من جهتي كيف جرت الأمور... وأن أرويها مرتبةً، رغم أنني أواافقك على أنه ليس من المفيد أن أقص عليكم هذا كله... إليكم ما حدث: منذ سنة، ماتت تلك الفتاة بمرض التيفوس، وبقيت أنا مستأجرأً للمسكن الذي أقيم فيه، فلما جاءت صاحب البيت تقيم حيث تقيم الآن قالت لي (قالت لي ذلك بصداقة ومودة): إنها تثق بي ثقة مطلقة، ولكنها سألتني ألا أستطيع أن أوقع لها سندأً بمبلغ مائة وخمسة عشر روبلأً، هو المبلغ الذي تعتقد أنني مدین لها به؟ اسمح لي... لقد قالت لي بالحرف الواحد أنها ستظل تمهلني بعد تسليمها هذا السند، ستظل تمهلني في الدفع ما شئت، وإنها لن تستخدم بحال من الأحوال، - هذه أقوالها هي - لن تستخدم هذا السند إذا لم أدفع من تلقاء نفسي.وها هي ذي الآن، بعد

أن فقدت موردي من الدروس ، وبعد أن أصبحت لا أملك ما أقتات به ،
تقدّم السنّد للسلطات من أجل تحصيله . فما رأيكم في هذا؟

قال له ايليا بتروفتش بوقاحة :

- إن هذه التفاصيل المؤثرة لا تعنينا في شيء أيها السيد ! عليك أن
توقع الإفادة والتعهد . . . أما أنك كنت مولهاً بحب الفتاة أو أنك لم تكن
مولهاً بحبها ، وأما الظروف المحزنة التي أعقبت ذلك . . . فهذا كله لا
شأن لنا به البتة .

دمدم نيكوديم فوميتشر يقول لصاحب الضابط وهو يجلس إلى مكتبه
ويمضي يوضع بعض الأوراق :

- أحسب أنك تقسو كثيراً !

لقد شعر نيكوديم فوميتشر بشيء من الهرج .

قال السكرتير لراسكولنيكوف :

- اكتب !

فسأل راسكولنيكوف بلهجة فظة :

- ماذا أكتب؟

- سأملّي عليك . . .

خيل إلى راسكولنيكوف أن السكرتير أصبح يعامله بمزيد من الازدراء
والاحتقار بعد تلك الاعترافات التي أوردها . ولكن الشيء الغريب هو
أن راسكولنيكوف قد أصبح على حين فجأة لا يبالي بالرأي الذي قد يراه
غيره فيه . وقد حدث له هذا الانقلاب بمثل لمع البصر سرعةً ، حدث له
في ثانية واحدة ، فلو شاء أن يفكّر لحظة واحدة لأدهشه في أغلبظن
أن يكون قد حدث هؤلاء الموظفين على هذا النحو ، وأن يكون قد
أجبرهم على سماع مساراته . من أين جاءته هذه الحالة النفسية الجديدة؟
لو امتلأت الغرفة الآن لا برجال شرطة بل بأصدقاء حميمين لكان عاجزاً

عن أن يوجه إليهم كلمة فيها شيء من مودة وصدق، وذلك من فرط الفراغ الذي أصيب به قلبه. إن إحساساً غامضاً بالوحدة، إحساساً مبهماً بعزلة أليمة لا نهاية لها، قد اجتاح شعوره على حين فجأة. لا، ليس إهانة اعترافاته العاطفية أمام إيليا بتروفيتش لا ولا المهانة من انتصار الضابط عليه هو الذي هزَّ قلبه هزاً يبلغ هذا المبلغ من العمق. آه... أنه ليس يعنيه الآن أن يكون فيه صغار، وأن يكون في الآخرين صغار، ولن تغيب عنده المطامح، ولا الضباط، ولا النساء الألمانيات، ولا تحصيل السنادات، ولا المكاتب، ولا غير ذلك!.. أنه لو حكم عليه بالحرق حياً في هذه اللحظة، لما قام بحركة واحدة، ولما زاد على أن يصغي إلى الحكم الذي صدر عليه، إذا هو أصغرى. إن شيئاً جديداً كل الجدة قد تحقق الآن في كيانه، شيئاً لم يعرفه حتى ذلك الحين، شيئاً هو حادث لا يتمنى به ولا سابقة له. أن راسكولنيكوف لم يدرك ذلك الشيء. ولكنه كان يحس إحساساً واضحاً بأنه أصبح لا يستطيع أن يخاطب هؤلاء الناس، هؤلاء الموظفين في قسم الشرطة بالحي، لا يستطيع أن يخاطبهم بأي كلام فضلاً عن الأفضاء اليهم بعواطفه الشخصية ومشاعره الحميمة كما فعل منذ قليل. بل لقد أحسن راسكولنيكوف أنه أصبح لا يستطيع أن يخاطب أقرب أقربائه بحال من الأحوال، ولو كانوا أخوة وأخوات. إن راسكولنيكوف لم يكن قد شعر حتى تلك الدقيقة، في يوم من الأيام، بإحساس يبلغ هذا المبلغ من الهول والغرابة. والأمر الذي كان يؤلمه مزيداً من الألم هو أن ما يشعر به كان إحساساً ولم يكن فكرة. نعم كان إحساساً مباشراً، كان إحساساً أشد إيلاماً من جميع الإحساسات التي شعر بها طوال حياته.

أملى عليه السكرتير صيغة الإقرار المستعملة في هذه الحالة: لا أستطيع أن أدفع. أتعهد بالدفع بتاريخ كذا. لن أغادر المدينة. لن أبيع أشيائي، ولن أتنازل عنها لأحد، الخ.

قال له السكرتير وهو ينظر إليه متعجبًا:

- أرى أنك لا تستطيع الكتابة، وأن القلم يسقط من يدك. هل أنت مريض؟

- نعم... اشعر بدوار في رأسي... ولكن أكمل مع ذلك!

- انتهى! لم يبق عليك إلا أن توقع.

وقع راسكولنيكوف الإقرار، فتناول السكرتير الورقة وانصرف عنه للاهتمام بأشخاص آخرين.

رد راسكولنيكوف الريشة إلى مكانها، ولكنه بدلاً من أن ينهض ويذهب، وضع كوعيه على المنضدة، وضغط رأسه بين يديه. كان يشعر كأن مسماً قد دق في قمة جمجمته. ووافته فكرة غريبة على حين فجأة: أن ينهض فوراً فيقترب من نيكوديم فوميتش ويقص عليه كل ما حدث في الليلة البارحة، كل ما حصل، حتى أيسر التفاصيل، وأن يقوده بعد ذلك إلى غرفته، فيريحه الأشياء هناك، عند الركن، في الثقب. وبلغت رغبته في ذلك من القوة أنه نهض ليضع مشروعه موضع التنفيذ. لكنه لم يلبث أن قال لنفسه: «ربما كان عليّ أولاً أن أفكر لحظة». ثم سرعان ما أضاف يقول: «لا بل الأفضل أن لا أفكر البتة وأن أتخلص من كل شيء دفعه واحدة». وها هو ذا يتوقف فجأة كمن تسمر في مكانه: كان نيكوديم فوميتش يتحدث بحرارة إلى إيليا بتروفتش، فاستطاع راسكولنيكوف أن يلقط من حديثهما هذه الجمل:

- لا، مستحيل، سوف يخلّى سبيلهما كليهما! أولاً، هناك تناقض. أ الحكم في الأمر بنفسك: لو كانا هما القاتلين فلماذا يستدعيان البواب؟ أيفضحا أمرهما وليشيا ينفيهما؟ أم تراهما استدعايه من باب المكر؟ ألا إن هذا ليكون إسرافاً في المكر! ثم إن الطالب بسترياكوف قد رأه البوابان ورأته امرأة قرب باب العمارة لحظة دخوله. وكان في صحبة ثلاثة أصدقاء ودعهم عند المدخل. وبحضور أصدقائه هؤلاء إنما سأل البواب أين يوجد مسكن العجوز. فتكر قليلاً: أكان يلقي هذا السؤال لو

أنه جاء لهدف كهذا الهدف؟ أما كوخ فقد قضى نصف ساعة تحت ، عند باائع الجواهر ، قبل أن يصعد إلى بيت العجوز ، وهكذا يكون قد ترك باائع الجواهر وصعد إلى بيت العجوز في الساعة الثامنة إلا ربعاً على وجه التحديد . . . ففكر الآن . . .

- اسمح لي ! فكيف نفسر هذا التناقض الشديد في أقوالهما؟ هما يؤكdan أنهم قرعا الباب ، وأن الباب كان مغلقاً ، ثم يؤكdan أن الباب كان مفتوحاً بعد ثلث دقائق حين عادا يصعدان في صحبة البواب . فما تفسير هذا التناقض؟

- هنا إنما يكمن سر القضية : لقد كان القاتل في داخل البيت حتماً ، وكان قد أوصد الباب بالمزلاج ، ولا بد أننا كنا سنكتشفه لو لا أن كوخ قد ارتكب تلك الحماقة فمضى يبحث عن البواب هو أيضاً . ففي تلك الفترة بعينها ، أعني الفترة التي انقضت بين نزول كوخ وصعود الثلاثة إنما تمكّن القاتل من هبوط السلم ، واستطاع أن يتسلل من بين أيديهم بطريقة أو بأخرى . إن كوخ الآن يرسم على نفسه إشارة صليب بكلتا يديه قائلاً : «لو قد لبست فوق ، إذن لوثب علىي وقتلني بفأسه !» إن كوخ ينوي أن تقام له في الكنيسة صلاة شكر الله على ما خصه به من نعمة النجاة ! هئ هي ! . . .

- والقاتل ، ألم يره أحد؟

- كيف يمكن أن يراه أحد؟ إن المترجل أشبه بسفينة نوح .
بهذا عقب السكرتير الذي كان يصغي إلى الحديث من مكانه . وكرر نيكوديم فوميتشر يقول بحرارة شديدة :

- أقول لكم إن القضية واضحة ، واضحة جداً !

فقال إيليا بتروفتش معارضًا :

- لا ، ليست واضحة البتة !

رفع راسكولنيكوف قبعته ، واتجه نحو الباب ولكنه لم يبلغه . . .

فلما أفاق من غيبوبته رأى نفسه جالساً على كرسي، ورأى رجلاً يسنده من يمينه، وأخر يقف من شمال وهو يحمل بيده كأساً مملوءة بماء أصفر، ورأى نيكوديم فوميتش واقفاً أمامه يحدق إليه ويترس فيه. نهض راسكولنيكوف عن كرسيه.

فسأله نيكوديم فوميتش بلهجة خشنة:

- ماذا بك؟ أنت مريض؟

فقال السكريتير وهو يرجع إلى منضدته ويرتد إلى أوراقه:

- إنه، منذ كان يكتب الأقرار، كان لا يكاد يستطيع تحريك قلمه!

وصاح ايليا بتروفتشر من مكانه وقد عاد يرتدي أوراقه هو أيضاً، صاح
سؤاله:

- أنت مريض منذ مدة طويلة؟

كان ايليا بتروفتشر قد لاحظ المريض طبعاً أثناء إغماهه، ولكنه ابتعد فوراً منذ رأه يفيق.

ودمدم يقول مجيباً عن سؤال ايليا بتروفتشر:

- منذ أمس . . .

- وهل خرجت أمس؟

- نعم خرجت.

- مريضاً؟

- مريضاً.

- في أي ساعة؟

- بعد الساعة السابعة من المساء.

- إلى أين ذهبت؟ اسمح لي أن ألقى عليك هذا السؤال.

- إلى الشارع!

- جواب مختصر مفيد!

كان راسكولنيكوف شاحباً شحوباً شديداً. وقد أجاب عن تلك الأسئلة بصوت خشن متقطع دون أن يغض عينيه السوداويين المشتعلتين أمام نظرات ايليا بتروفتش. قال نيكوديم فوميتش:

- هو لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه، وأنت . . .

فأجابه ايليا بترورفتش بنبرة غريبة بعض الغرابة:

- لا . . . بـأـ . . . سـ! . .

أراد نيكوديم فوميتش أن يضيف شيئاً آخر، ولكنه أمسك عن الكلام حين ألقى نظرة على السكرتير الذي كان يحدق إليه من مكانه. وصمت الجميع فجأة. شيء غريب.

ثم قال ايليا بترورفتش يختتم الحديث:

- طيب! في وسعك أن تصرف.

خرج راسكولنيكوف. ولكنه استطاع أثناء خروجه أن يسمع استئناف الحديث حاراً محتمداً. وبين جميع الأصوات كان صوت نيكوديم فوميتش، المتسائل المستفسر، أكثرها وضوحاً وتميزاً . . . حتى إذا صار راسكولنيكوف في الشارع ثاب إليه كل وعيه وعاد إليه كل شعوره.

- تفتيش! تفتيش! سيقومون بالتفتيش فوراً! يا للصوص! أنهم يشتبهون فيّ! . .

كذلك كان يردد راسكولنيكوف بينه وبين نفسه مسرعاً خطاه للرجوع إلى بيته. لقد عاد الخوف يستبد به من أخمص قدميه إلى قمة رأسه.

الفصل الثاني

قال راسكولنيكوف في نفسه متسائلاً: «وماذا لو كان التفتيش قد تم؟
ماذا لو وجدتهم في بيتي؟»

ولكن راسكولنيكوف عاد إلى بيته فلم يجد فيه أحداً، ولا كان أحد قد جاء يفتشه. حتى ناستاسيا لم تلمس شيئاً، ولكن رباه! كيف أمكنه أن يدع هذه الأشياء في الثقب؟

أسرع راسكولنيكوف نحو الركن، ودنس يده وراء الورق، وأخذ يخرج منه الأشياء فيدستها في جيوبه واحداً تلو آخر. عرف أن مجموع الأشياءثمانية: علبتان صغيرتان تضمان أقراطاً للآذان أو ما يشبه ذلك (لم يدقق كثيراً)، ثم أربع علب صغيرة من الجلد، فيها جواهر، ثم سلسلة كانت ملفوفة بورقة من ورق الجرائد، ثم شيء آخر ملفوف بورقة من ورق الجرائد أيضاً، وأغلب الظن أنه وسام . . .

وزع هذه الأشياء على مختلف جيوب معطفه، ووضع بعضها في الجيب الأيمن من سرواله، وهو الجيب الوحيد الذي بقي للسروال، وجهد أن يدستها في هذه الجيوب بحيث لا تتمكن رؤية شيء من خارج. وتناول حافظة النقود أيضاً. ثم خرج من الغرفة مسرعاً حتى لقد ترك بابها مفتوحاً تماماً.

كان يمشي بخطى سريعة ثابتة. ورغم أنه كان محطماً فقد كان واعياً

ما هو عليه. كان يخشى أن يلاحق ويطارد، كان يخشى أن يتم وضعه تحت المراقبة بعد نصف ساعة، أو بعد ربع ساعة. فلا بد له إذن، مهما كلف الأمر، أن يغتيب هذه الأشياء التي ثبتت ارتكابه جريمة القتل، لا بد له أن يتخلص منها ما ملك بعض قوة، وبعض تفكير... ولكن إلى أين يذهب؟

كان قد عزم على هذا الأمر وبيث فيه: «أن يرمي جميع الأشياء في القناة، فتسقط الإثباتات في الماء، وتسقط معها القضية!» ذلك ما كان قد عزم عليه في الليلة السابقة، أثناء هذيانه، في تلك اللحظات التي كان يحاول فيها (وقد تذكر هذه المحاولات) أن ينهض وأن يخرج قائلاً لنفسه: «أسرع، أسرع تخلص من هذا كله!». ولكن التخلص من هذه الأشياء لم يكن سهلاً.

ظل راسكولنيكوف يتتجول مدة نصف ساعة وربما أكثر على طول قناة كاترينا، ونظر مراراً إلى السلالم التي تهبط إلى الماء، فكان لا يجوز أن يخطر بباله أن يضع مشروعه موضع التنفيذ، فإما أن أطوافاً توجد عند أسفل الدرجات وعليها نساء يغسلن غسيلهن، وإما أن مراكب قد ربطت هنالك بالأقلاس وجميع الأمكنة تعج بالناس. هذا عدا أن في الإمكان أن يُرى وأن يراقب من على أرصفة الشاطئ. أليس أمراً يبعث على الشبهة والريبة أن ينزل رجل إلى تحت، عمداً، ثم يتوقف ليرمي شيئاً من الأشياء في الماء؟ وماذا لو طافت العلب على سطح الماء بدلاً من أن تغوص إلى القاع؟ لا شك أنها ستطفو، ولا شك أن جميع الناس سيرونها! بل إن جميع من لقيهم في طريقه حتى الآن كانوا يتفسرون فيه بأنهم لا هم لهم سواه! قال لنفسه: «لماذا يتفسرون في هذا التفسر؟ اللهم إلا أن يكون هذا وهمًا مني لا أكثر!»

وخطر بباله أخيراً أنه ربما كان الأفضل أن يذهب إلى مكان ما على شاطئ نهر نيفا. إن شاطئ نهر نيفا لا يعج بالناس كما يعج بهم شاطئ

القناة. فهناك لن يُلاحظ كما يلاحظ هنا، و Hernallk يكون رمي الأشياء في الماء أسهل منه هنا على كل حال، وهو هناك أبعد عن المكان الذي وقعت فيه الحادثة منه هنا، نعم، هذا خاصةً! وسرعان ما دُهش على حين فجأة: كيف أمكنه أن يظل يطوف مدة نصف ساعة، قلقاً خائفاً، في أمكنة خطرة هذا الخطر كلّه، دون أن يدرك هذا الأمر قبل هذه اللحظة؟ كيف يظل يطوف طول هذه المدة لا لشيء إلا أن ينفذ مشروعًا تصوره في نومه أثناء هذيان؟ إذن لقد أصبح ذاهلاً وقليل التقدير، ولقد أصبح شديد النسيان! أنه يعرف هذه الحقيقة الآن! لا شك أن عليه أن يسرع. نعم، إن عليه أن يسرع حتماً!

اتجه نحو نهر نيفا عن طريق شارع «ف...». غير أن فكرة أخرى وافته أثناء سيره: «لماذا نهر نيفا؟ لماذا الماء؟ أليس الأفضل أن أذهب إلى مكان بعيد جداً، ولو إلى الجزر مرة أخرى، فأختار مكاناً في الغابة خالياً من الناس، فأدفن كل شيء تحت إحدى الأشجار، بعد أن أضع على المكان علامة تهديني إليه في المستقبل؟» ورغم شعوره بأنه عاجز عن التمعن في هذا كله تمعناً واضحاً، فإن الفكرة قد بدت له سليمة لا اعتراض عليها.

ولكن لم يُكتب له أن يبلغ الجزر أيضاً، وإنما جرت الأمور مجرّى آخر. فما إن خرج من شارع «ف...» إلى أحد الميادين، حتى رأى على يساره، فجأة، مدخل فناء محاط بجدران كبيرة من جميع الجهات، ورأى على اليمين، بعد المدخل مباشرةً، سوراً طويلاً بغير ملاط، هو سور عمارة مجاورة ذات أربعة طوابق، ورأى على اليسار، حاجزاً من خشب يوازي ذلك السور، ويقع بعد المدخل مباشرةً، ويبلغ طوله نحو عشرين خطوة ثم ينبعطف يساراً. هذه أرض خلاء تتكدس فيها أنواع شتى من مواد متروكة مهجورة. فإذا نظر الناظر إلى آخر الفناء بعد الحاجز، رأى ركنَ سقيفة من حجر، واطئة، مسودة من الدخان، لعلها كانت جزءاً من ورشة. فلا بد أن مصنعاً للعربات أو للأقفال أو

شيئاً من هذا القبيل كان يقوم هنا، لأن الأرض سوداء من غبار الفحم في كل مكان تقريباً منذ باب المدخل. قال راسكولنيكوف لنفسه فجأة: «وَجَدْتُ ضَالْتِي! أَرْمَى كُلَّ شَيْءٍ هُنَا ثُمَّ أَنْصَرْفُ!». وَإِذْ لَمْ يَرَ أَحَدًا فِي الْفَنَاءِ، أَسْرَعَ يَجْتَازُ الْبَابَ، فَإِذَا هُوَ يَلْمَحُ، بِالْقَرْبِ مِنَ الْبَابِ، مَزْرَاباً مَثَبَّتاً بِالْحَاجِزِ الْخَشْبِيِّ، بِمَثَابَةِ مِبْوَلَةِ (كَمَا يَوْضِعُ مُثْلَهُ كَثِيرًا فِي الْمَحَلَّاتِ الَّتِي مِنْ هَذَا النَّوْعِ)، حِيثُ يَكْثُرُ الْعَمَالُ وَأَصْحَابُ الْحَرْفِ وَالْحَوْذِيُّونَ وَأَشْبَاهُهُمْ)، وَفَوْقَ الْمَزْرَابِ كُتُبٌ عَلَى السِّيَاجِ، بِالْطَّبَاشِيرِ، الْجَمْلَةُ الَّتِي تَكْتُبُ عَادِيَّةً مِنْ بَابِ الْمَزَاحِ، بِخُطٍّ رَدِيءٍ وَأَخْطَاءٍ إِملَائِيَّةٍ: «مَمْنُوعُ الْوَقْفِ هُنَا». قَالَ رَاسِكُولِنِيَّكُوفُ يَغْبُطُ نَفْسَهُ: «لَهُذَا الْمَكَانُ هَذِهِ الْمِيزَةُ عَلَى الْأَقْلَى، وَهِيَ أَنْ أَحَدًا لَنْ يَشْتَبِهَ فِي أَنَّنِي دَخَلْتُهُ وَوَقَتْتُ فِيهِ». وَأَضَافَ: «أَرْمَى هُنَا كُلَّ شَيْءٍ، كُلَّ شَيْءٍ، دَفْعَةً وَاحِدَةً، كَدْسَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ أَمْضَى!»

وَأَلْقَى عَلَى مَا حَوْلَهُ نَظَرَةً أُخْرَى، وَفِيمَا كَانَ يَدْخُلُ يَدَهُ فِي جِيَبِهِ إِذَا هُوَ يَرَى، حَذَاءَ الْجَدَارِ، فِي الْمَسَافَةِ الَّتِي تَفْصِلُ الْبَابَ عَنِ الْمِبْوَلَةِ وَلَا يَزِيدُ طُولُهَا عَنِ خَطْوَتَيْنِ، صَخْرَةً كَبِيرَةً غَيْرَ مَنْحُوتَةٍ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ وَزْنُهَا نَحْوُ عَشْرِينَ كِيلُو جَرَامًا. إِنَّ الرَّصِيفَ يَقْعُدُ خَلْفَ الْجَدَارِ الْحَجَرِيِّ فِي الشَّارِعِ. وَإِنَّ وَقْعَ أَقْدَامِ الْمَارِّةِ، وَهُمْ كُثُرٌ دَائِمًا فِي هَذَا الْمَكَانِ، يُسْمِعُ فِي الدَّاخِلِ. وَلَكِنْ أَحَدًا لَا يُسْتَطِعُ أَنْ يَرَاهُ فِي هَذِهِ الْجَهَةِ مِنَ الْبَابِ إِلَّا إِذَا دَخَلَ، وَذَلِكَ أَمْرٌ يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ، فَلَا بُدَّ لِرَاسِكُولِنِيَّكُوفِ إِذْنٍ أَنْ يَسْرِعَ.

مَالَ رَاسِكُولِنِيَّكُوفُ عَلَى الصَّخْرَةِ فَأَمْسَكَ أَعْلَاهَا بِيَدِيهِ كُلَّتِيهِمَا امْسَاكًا قَوِيًّا، وَاسْتَجْمَعَ قَوَاهُ كُلُّهَا، فَزَحَزَحَ الصَّخْرَةَ مِنْ مَكَانِهَا. أَنْ حَفْرَةً صَغِيرَةً كَانَتْ قَدْ تَشَكَّلَتْ تَحْتَ الصَّخْرَةِ. فَسَرَّ عَانِي مَا أَخَذَ رَاسِكُولِنِيَّكُوفُ يَرْمِي فِي هَذِهِ الْحَفْرَةِ كُلَّ مَا كَانَ فِي جِيَوبِهِ، وَكَانَتْ حَافِظَةُ النَّقْوَدِ آخِرَ شَيْءٍ رَمَاهُ، فَكَانَ مَكَانُهَا فَوْقَ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى وَبَقَيَ فِي الْحَفْرَةِ مَتَسْعَةً. ثُمَّ أَمْسَكَ بِالصَّخْرَةِ مِنْ جَدِيدٍ، وَرَدَهَا إِلَى

وضعها الأصلي مرةً واحدة، فلا يكاد يبدو أنها ارتفعت عن وضعها الأصلي إلا قليلاً. ولكن راسكولنيكوف نبش الأرض، وكوم قليلاً من التراب حول الصخرة وعجنه بقدمه. وأصبح من المستحيل أن يلاحظ أي تغير.

وبعد ذلك خرج واتجه نحو الميدان، فإذا هو مرةً أخرى، كما حدث له في مكتب الشرطة منذ قليل، يشعر بفرح قوي جارف يستبد به لحظةً. قال يحدث نفسه: «ها هي ذي الإثباتات قد دفنت في باطن الأرض! من ذا الذي يخطر على باله أن يبحث عنها تحت هذه الصخرة؟ لعل هذه الصخرة موجودة في هذا المكان منذ وجد المنزل، وستظل باقية ما بقي! وهبهم اكتشفوا الأشياء، فمن ذا الذي يمكن أن يشتبه في؟ انتهى الأمر! لا براهين بعد الآن!» وأخذ يضحك. سوف يتذكر في المستقبل أنه ضحك ضحكاً عصبياً صغيراً أخرس متصلةً، وأنه كان ما يزال يضحك حين اجتاز الميدان. ولكنه ما إن دخل بوليفار ك... الذي التقى فيه ليلة أمس الأول بالفتاة، حتى انقطع ضحكه فجأة. إن خواطر توافي ذهنه الآن. بدا له على حين فجأة أنه سيشعر باشمئزاز لا سبيل إلى التغلب عليه حين يمر قرب الدكة التي جلس عليها غارقاً في أفكاره بعد انصراف الفتاة، وأنه سيؤلمه أشد الآلام أن يصادف، من جديد، الشرطي ذا الشاربين الذي أعطاه حينذاك عشرين كوبيناً. ودمدم يقول: «شيطان يأخذه!»

كان يسير وهو يرمي ما حوله بنظرة ذاهلة خبيثة. إن جميع أفكاره تدور الآن حول نقطة واحدة يحس هو نفسه أنها النقطة الرئيسية، وأنه الآن، على وجه التحديد، يقف وجهاً لوجه أمام هذه النقطة الرئيسية، وذلك لأول مرة منذ شهرين.

ثم إذا هو يقول لنفسه فجأة وقد اعتراه حنق رهيب: «ليأخذ الشيطان هذه القصة. دعنا من ذلك! ما دامت القصة قد بدأت، فلتذهب إلى

الشيطان... هي و«الحياة الجديدة»! ما أغباني! ما أكثر ما صنعت اليوم من أكاذيب! ما أكثر ما ارتكبت اليوم من حقارات! ما أبشع ما أظهرته من تزلف وصغار، منذ قليل، أمام ذلك التافه ايليا بتروفتش!... على كل حال... لا ضير... أنني لا أكرث بهم، لا أكرث بهم ولا بأنني أظهرت لهم تزلفاً وصغاراً! ليس هذا هو الأمر... ليس هذا هو الأمر البتة!

وتوقف فجأة. إن سؤالاً جديداً لم يكن في حسابه قط، سؤالاً بسيطاً غاية البساطة، يحيّره الآن ويصعّقه صعقاً. قال يسأل نفسه:

«لو كنت قد نفذت هذا الأمر عن وعيٍ حقاً، لا على نحوٍ يبلغ هذا المبلغ من البلاهة، لو كانت لك غاية محددة تماماً مرسومة تماماً، فكيف تفسّر أنك إلى هذه اللحظة لم تلق نظرة واحدة على ما تحويه حافظة النقود، وأنك لا تعرف ما الذي أردت أن تجنيه ولا تدرك الهدف الذي ارتضيته في سبيله أن تحتمل كل هذا العذاب وارتضيته في سبيله عاماً أن ترتكب عملاً يبلغ هذا المبلغ من الحقاره والخسنه والدناه؟ ألم تكن ت يريد منذ لحظة أن ترمي في الماء حافظة النقود هذه وجميع تلك الأشياء التي لم تتكلف نفسك حتى عناء النظر إليها؟ كيف تفسّر هذا كله؟»

نعم هذه هي الحقيقة! هذه هي الحقيقة تماماً! وكان هو يعلم هذه الحقيقة منذ مدة. إن هذا السؤال ليس جديداً عليه. فهو حين قرر في الليل أن يرمي كل شيء في الماء، أنما قرر هذا القرار بدون أي تردد، وبدون أية محاكمة، كما لو كان ينبغي له أن يفعل هذا نفسه لا أي شيء سواه... نعم أنه يعلم كل هذا، وأنه يتذكر كل هذا، حتى ليكاد يكون قد اتخاذ قراره ذاك منذ البارحة، لحظةً كان ينبع صندوق العجوز ويُخرج منه العلب... نعم هذه هي الحقيقة!

«والسبب هو أنني مريض جداً (إلى هذه النتيجة وصل راسكولنيكوف جازماً في نهاية المطاف). لقد عذبت نفسي ومزقت نفسي وصرت أنا

نفسي لا أعرف ماذا أفعل... وأمس، وأمس الأول، وفي جميع تلك الأيام الأخيرة، كنت أمزق نفسي بغير انقطاع. حين سأشفى من مرضي، فلن... لن أمزق نفسي بعد ذلك... ولكن ماذا... ماذا إذا لم يكتب لي الشفاء؟ يا رب! إن هذا فوق طاقتني!» كان راسكولنيكوف يسير بلا تردد. كان يرغب رغبة رهيبة في أن يسلو وينسى بأي طريقة، ولكنه لا يعرف ماذا يعمل من أجل أن يسلو. وهذا إحساس جديد لا يستطيع التغلب عليه يحتاج نفسه شيئاً بعد شيء ويشتد في كل دقيقة. هو نوع من اشمئزاز لا حد له، اشمئزاز يشبه أن يكون جسماً، اشمئزاز من كل ما يحيط به ومن كل ما يراه في طريقه، اشمئزاز عنيد، كاسر، حاقد، مبغض. إن جميع المارة الذين يلقاهم كريهون، كريهةً وجوههم، كريهة حركاتهم، وحتى مشيّتهم كريهة. لو توجه أحد إليه بكلام في هذه اللحظة، لما زاد على أن يبصق في وجهه، ولربما عضه... .

وتوقف عن السير فجأة، لحظة صار على رصيف «نيفا الصغير» في جزيرة فاسيليفسكي قرب الجسر. قال لنفسه: «انه يسكن هنا في هذا البيت! ما معنى هذا؟ لقد جئت إذن إلى رازوميخين رغم إرادتي! ها قد تكرر اليوم عين ما حدث في ذلك اليوم... ولكن هذا أمر عجيب جداً: أنا جئت إلى هنا واعياً عامداً أم أنني مشيت على غير هدى فإذا بي أصل إلى هذا المكان مصادفة؟... لا بأس! كنت أقول... أمس الأول... إنني سأذهب إليه غداة قيامي بذلك العمل... طيب... أي ضير في هذا؟ سأذهب إليه! ماذا جرى؟ لكانني الآن لا أجرو أذهب إليه... ». .

وصدع إلى الطابق الخامس حيث يسكن رازوميخين.

كان رازوميخين في بيته، في غرفته الصغيرة، يعمل، يكتب. فتح الباب بنفسه. إنهما لم يلتقيا منذ أربعة أشهر. كان رازوميخين يرتدي روباً منزلياً مهترئاً يكاد يكون خرقه بالية، وكان عاري القدمين إلا من

بابوج، ولم يكن قد حلق ذقنه ولا غسل وجهه، ولا مشط شعره. ارتسם على وجهه تعبير الدهشة والاستغراب حين رأى رفيقه داخله عليه، فهتف يقول وهو يتفرس فيه من قمة الرأس إلى أخمص القدمين:

- ماذا؟ أنت؟

ثم صمت وصفراً، ثم أردف يقول وهي نظر إلى اسماعيل راسكولنيكوف الرثة:

- هل من الممكن أن تكون أحوالك سيئة إلى هذا الحد؟ لقد تفوقت علي في هذا المجال كثيراً. اجلس، اجلس! لا بد أنك متعب! وحين تهالك راسكولنيكوف على الأريكة التركية المنجددة بقماش مشمع، وهي أسوأ حالاً من أريكته، أدرك رازوميixin فجأة أن رفيقه مريض فقال له:

- هيئتك تدل على أنك مريض جداً. هل تعلم هذا؟ وجسّ نبضه، فسحب راسكولنيكوف يده بحركة حادة، وقال له:

- لا داعي إلى ذلك. لقد جئت... إليك السبب الذي دفعني إلى المجيء: فقدت جميع الدروس التي كنت أعطيها... أود أن أحصل... ولو على... لكن لا داعي إلى ذلك... أصبحت في غير حاجة إلى دروس...

قال رازوميixin وهو يتفرس فيه بانتباه:

- أنت تهذى! أتدرى؟

- لا... لست أهذى!

قال راسكولنيكوف ذلك ونهض عن الأريكة. إنه حين صعد إلى رازوميixin لم يخطر بباله أنه سيكون عليه أن يراه وجهاً لوجه. وها هو ذا يدرك الآن على حين فجأة أنه لا شيء يضايقه أكثر مما يضايقه أن يرى الآن أي إنسان من الناس وجهاً لوجه. إن كل ما في نفسه من بغض قد

رازو ميخين .

قال فجأة :

- وداعاً !

واتجه نحو الباب .

- ولكن انتظر ! انتظر ، يا لك من غريب !

فعاد راسكولنيكوف يقول وهو يسحب يده من جديد :

- لا داعي !

سؤاله رازو ميخين :

- فلماذا جئت إذا ؟ أتراءك جنت ؟ إن في سلووكك هذا ما يشبه أن يكون إهانة لي . لن أدعك تنصرف وأنت على هذه الحال .

- إذن فاسمع ! لقد جئت إليك لأنني لا أعرف أحداً غيرك يمكن أن يساعدني أن أبدأ . . . نعم جئت إليك لأنك أفضل منهم جميعاً، لأنك أذكي منهم جميعاً، ولأنك حصيف الرأي سديد الحكم . ولكنني أرى الآن أنني لست في حاجة إلى شيء . هل تسمع ؟ لست في حاجة إلى شيء إطلاقاً . . . لا إلى خدمات أحد ولا إلى عطف أحد . . . سأدبّر أموري . . . بنفسي ، وحدي . نعم . . . يكفي هذا . دعوني وشأنى أنتم جميعاً !

- ولكن انتظر لحظة يا سخيف ! أنت مجنون ، مجنون تماماً ! اعمل ما تشاء ! ولكن اسمع قليلاً : أما الدروس فأنا نفسي لا أعطى الآن دروساً ، ولا ولا أكتثر بالدروس ! غير أن عندي في السوق صاحب مكتبة اسمه خيروفيروف ، هو فيرأيي خير درس ، ولو ساومني تجارة على أن أعدل عنه في مقابل خمسة دروس لما فعلت ! إنه ينشر كتبأ عن العلوم الطبيعية ! لا تستطيع أن تخيل مدى رواج هذا النوع من الكتب . إن الناس يتخطافونها تخاطفنا ! العناوين وحدتها تساوي وزنها ذهباً ! أنت

تدعي دائماً أني غبي، فاعلم يا عزيزي أن هنالك أناساً أغبى مني، أقسم لك على ذلك! لقد أخذ هو أيضاً يجاري التيار، ويتبع الاتجاهات الجديدة⁽³⁸⁾. إنه شخصياً لا يفهم شيئاً البة، ولكنني أشجعه طبعاً على السير في هذه الطريق. انظر عندي ما يزيد عن الملزمتين المطبوعتين باللغة الألمانية. في رأيي أن الكلام الذي تضمنه ليس إلا دجلة وشعوذة. إن الكاتب يطرح هذا السؤال: هل المرأة إنسان أم أنها ليست إنساناً. وقد انتهى إلى أن يبرهن بفخامة وجلال على أن المرأة إنسان... إن خير وفي موف يهيء هذه الأشياء لعلاقتها بقضية المرأة التي تناقش كثيراً هذه الأيام، وأنا أتولى الترجمة... وسوف نطيل النص الألماني الذي يتتألف من ملزمتين ونصف ملزمة فنجعله ست ملازم، ونجعل له عنواناً فخماً يملأ نصف صفحة، ثم نحدد ثمن سعر النسخة الواحدة من الكتاب بخمسين كوبيناً. طيب! وأنا أتقاضى عن ترجمة الملزمة الواحدة ستة روبلات، أي خمسة عشر روبراً عن هذا الكتاب، ولكنني أخذت منه ستة روبلات سلفة. ومتى انتهينا من هذا الكتاب، فستترجم كتاباً عن الحيتان. وقد اخترنا من كتاب «الاعترافات» عدداً من النمايم التي سترجمها أيضاً. لقد قال أحدهم لخير وفي موف إن روسو يشبه رادتشيف⁽³⁹⁾ وأنا أتحاشى طبعاً أن أعارضه... شيطان يأخذه!... ها نحن إذن نصل إلى الأمر الأساسي: هل تريد أن تترجم الملزمة الثانية من كتاب «هل المرأة إنسان؟» إذا كنت تريد أن تفعل ذلك، فخذ النص على الفور، وخذ مع النص أقلاماً وورقاً - كل كذلك على نفقة الناشر - واقبل هذه الروبلات الثلاثة، فإني قد تقاضيت سلفة عن ترجمة الملزمة الأولى والملزمة الثانية، فتكون هذه الروبلات الثلاثة من حرقك. حتى إذا فرغت من ترجمة ملزمتك، قبضت ثلاثة روبلات أخرى. وإنني لأرجوك خاصةً أن لا تتصور أن ما أفعله الآن هو خدمةً أقدمها إليك. بالعكس: فإنني ما إن رأيتكم داخلاً علي حتى قلت لنفسي: سوف يفيدني كثيراً. فأنا أولاً ضعيف في الإملاء، وأنا ثانياً أقرب إلى الضعف في اللغة الألمانية، لذلك تراني في أكثر الأحيان الفق وأخترع، وأعزني

نفسي قائلاً إن النتيجة تكون بذلك أفضل . ولكن من يدري؟ قد لا تجيء النتيجة أفضل بل أسوأ! .. هي، أتقبل أم لا؟

تناول راسكولنيكوف النص الألماني صامتاً، وأخذ الرويلات الثلاثة أيضاً، ثم خرج وهو ما يزال ساكتاً لا ينطق بكلمة واحدة. وتابعه رازوميixin بنظراته مشدوهاً. ولكن ما إن وصل راسكولنيكوف إلى ناصية الشارع الأول حتى قفل راجعاً على حين فجأة، وصعد ثانية إلى بيت رازوميixin، فبعد أن وضع الملزمة والرويلات الثلاثة على المنضدة، خرج مرة أخرى دون أن ينطق بكلمة واحدة أيضاً.

زار رازوميixin وقد ثارت ثائرتهأخيراً:

- لا شك في أنك مصاب بحمى حارة! ما هذه المهزلة التي تمثلها؟
أنك تفقدني صوابي. لماذا جئت الي إذن أيها الأحمق؟

دمدم راسكولنيكوف وقد أخذ يهبط السلم:

- لست في حاجة إلى... ترجمة! ..

فصرخ رازوميixin يسأله من أعلى:

- أنت في حاجة إلى ماذا إذن؟

تابع راسكولنيكوف هبوطه في صمت.

- اسمع! أين تسكن الآن؟

لم يجب راسكولنيكوف.

- شيطان يأخذك!

ولكن راسكولنيكوف كان قد صار في الشارع. وعلى جسر نيكولي⁽⁴⁰⁾، اضطر أن يشوب إلى رشهه مرة أخرى، بسبب حادث مزعج وقع له: لقد هوى حوذى على ظهره بضربة سوط أليمة، لأن راسكولنيكوف لم ينتبه إلى تحذيراته التي كررها ثلاث مرات أو أربعاً فكادت تدوسه خيول العربة. وقد أخرجته هذه الضربة عن طوره،

فغضب غضباً بلغ من الشدة أنه صرَّ بأسنانه، ووثب إلى الأفريز (لقد كان يمشي في وسط الجسر لا حيث يمشي المشاة، لا يدري المرء لماذا!). فانطلقت من حوله الضحكات والتعليقات:

- حصل على جزائه!

- لا بد أنه مجنون، أو محتاب!

- حيلة معروفة: يتظاهرون بالسكر ويرتمون عامدين تحت العجلات ليبتزوا تعويضاً!

- من هذا يعيشون يا أصدقائي، هذا مصدر رزقهم . . .

ولكن في تلك اللحظة التي رأى فيها راسكولنيكوف نفسه قرب الأفريز آخذَا بحَك ظهره، متابعاً بنظرته المشدوهة الحانقة، ابتعد العربة، أحسَّ فجأة بأن أحداً يدس مالاً في يده. نظر فرأى أمامه امرأة متقدمة في السن - لا شك أنها زوجة تاجر - على رأسها قلنوسوة من نسيج، وقدمتها في حذاءين من الجلد الرقيق، ومعها فتاة تلبس قبعة وتحمل بيدها شمسية خضراء، ولعلها بنتها. قالت له السيدة وهي تدس المال في يده: «خذ هذا يا صاحبي لأجل الله». أخذ راسكولنيكوف الصدقة، وتابعت المرأتان طريقهما. وكانت الصدقة قطعة نقد فضية قيمتها عشرون كوبি�كاً. لا شك أنهما ظننا من زيه الغريب ومظهره الزري أنه شحاذ محترف. أما العشرون كوبيكـاً - وهي مبلغ ضخم بالقياس إلى صدقة - فأغلب الظن أنهما أنعمتا بها عليه بسبب ضربة السوط التي أثارت شفقتهما.

قبض راسكولنيكوف على قطعة النقد بيده، وسار عشر خطوات، ثم التفت يواجه نهر نيفا في اتجاه «القصر». كانت السماء صافية لا يعكرها سحاب، وكان الماء أزرق اللون تقريباً. وذلك ما لا يتفق إلا في القليل النادر. وكانت قبة الكاتدرائية⁽⁴¹⁾، التي لا تبرز هذا البروز إلا حين يُنظر إليها من هذا المكان من الجسر على بعد عشرين خطوة تقريباً

من برج صلاة صغير، كانت متألقة ساطعة، وكان الناظر إليها يستطيع، بفضل شفافية الهواء، أن يميز أدق زخارفها. هدا ألم راسكولنيكوف، ونسي ضربة السوط التي هوى بها الحوذى على ظهره. إن فكرةً مقلقة مضطربة تشغل الآن ذهنه كله. حدق ملياً إلى هذه الأماكن التي كانت مألوفة له. لقد حدث له في الماضي، حين كان ما يزال يتrepid إلى الجامعة⁽⁴²⁾، حدث له مراراً كثيرة قد تُعد بالمئات، ولا سيما أثناء عودته إلى بيته، أن وقف في هذا المكان نفسه، فأخذ يتأمل المشهد الرائع، فكان يُدهش دائماً من الأثر المبهم الذي يحدثه هذا المشهد في نفسه. لقد كان هذا المشهد الفخم يبدو له دائماً خالياً من الروح، يبدو له أخرس عقيماً بارداً بروداً غريباً... وكان راسكولنيكوف يُدهش في كل مرة من الإحساس القاتم الملغم الذي يشعر به، وكان لشكه في نفسه يرجى دائماً شرح أسباب ذلك لنفسه. وقد تذكر الآن فجأة، بدقة حادة، جميع المسائل التي هاجمته وحاصرته، فبداله أنه لا يتذكر هذا كله مصادفةً. إن مجرد توقفه في هذا المكان نفسه الذي كان يتوقف فيه سابقاً قد بدا له غريباً شاداً. أكان يظن حقاً أنه ما يزال يستطيع أن يفكر في نفس الأمور وأن يهتم بنفس المشاهد وأن يعني بنفس الموضوعات التي كانت تستهويه في الماضي... وفي الآونة الأخيرة أيضاً. أوشك راسكولنيكوف أن ينفجر ضاحكاً. ولكن قلبه قد انقبض في الوقت نفسه انقباضاً يبلغ درجة العذاب. بدا له أن ماضيه كله، وأفكاره كلها، وجميع المسائل والعواطف التي كان يعالجها في الماضي، وهذا المشهد نفسه، وهو ذاته، وكل شيء... كل شيء يرقد الآن في أسفل، تحت قدميه، في قراره هوة سحرية لا نهاية لها... كان يبدو له أنه يطير إلى مكان ما في الأعلى وأن كل شيء يختفي ويزول ويغيب... نعم، كل شيء وعلى إثر حركة غير ارادية من يده أحسن بقطعة النقد الفضية مشدودة بقبضته، فبسط يده وتأمل قطعة النقد ملياً، ثم رماها في الماء بحركة يسيرة، واستدار على عقبيه وعاد يسير في

طريق بيته . كان يحس في تلك اللحظة كما لو أنه قطع بالمقص كل صلة بينه وبين العالم .

ولم يرجع إلى بيته إلا عند هبوط الليل ، أي أنه ظل يسير ست ساعات كاملة . ولو سأله عن الطرق التي سلكها لما استطاع أن يجيئك بشيء . خلع ثيابه وهو يرتجف ارتجاف حصان عاجز ، ثم استلقى على الأريكة ، وغطى نفسه بمعطفه ، فلم يلبث أن غاب عن شعوره . . .

وأفاق في وسط ظلام كامل ، حين أيقظته صرخة كريهة . ما هذه الصرخة يا رب ! لم يسبق له في يوم من الأيام أن سمع جلبة رهيبة بشعة إلى هذا الحد : عويل ، ونشيج ، وصريف أسنان ، وصرخات ، وشتائم لا يتصورها العقل ! ما كان له أن يتخيّل همجية بهذه الهمجية ، ووحشية بهذه الوحشية ! انتصب على أريكته مروعاً مهدوداً القلب . ولكن التشاجر والصخب والشتائم ما تنفك تقوى وتتشدد .وها هو ذا يتعرّف صوت صاحبة البيت فجأة ، فيصاب بدهشة كبيرة وذهول شديد . كانت تعول وتئن وتصيت وتتضرع ، وتشوه الألفاظ من فرط سرعتها حتى ليستحيل على المرء أن يدرك جملة واحدة من كلامها . لعلها كانت تتنهل إلى من يضربها أن يكف عن ضربها ، ذلك أن أحداً كان يضربها على السلم ، نعم . . . إن أحداً يضربها هنالك ضرباً مبرحاً بلا شفقة ولا رحمة . وهذا صوت الرجل الذي يضربها قد بلغ من شدة الغضب والحنق والهول أنه أصبح نوعاً من صراخ أبخ . كان هذا الرجل يقول كلاماً ، ولكن كلامه هو أيضاً كان لا يفهم من فرط سرعته واحتناقها ! . . وأخذ راسكولنيكوف يرتجف على حين بغتة : تعرف صوت الرجل . أنه صوت ايليا بتروفتش . ماذا؟ ايليا بتروفتش هنا ، يضرب صاحبة البيت؟ نعم ، إنه يضربها بقدمه ، ويطرق برأسها درجة السلم : هذا واضح ، تدل عليه الضججات والصرخات والضربات ، ولا تخطئ في الدلالة عليه . ماذا جرى إذن؟ هل انقلب العالم عاليه سافله؟ وهذا راسكولنيكوف يسمع في جميع الطوابق ، من أعلى السلم إلى أدناه ، أصوات جمهور

من الناس يحتشد صارخاً صائحاً. أناس يصعدون، وأناس ينزلون، والجلبة تزداد، والأبواب تقرقع... وأناس آخرون يهربون مسرعين. «لماذا؟ لماذا؟ أهذا ممكناً؟». كذلك كان يتساءل راسكولنيكوف وهو يعتقد صادقاً بأنه قد أصبح مجنوناً، ولكن لا، إنه ما يزال يسمع ذلك كله واضحاً كل الوضوح... لا بد إذاً أنهم آتون إليه أيضاً، «لأن... نعم... لأن كل شيء يرجع... إلى أبني... بالأمس... قد... رباء!». أراد أن يغلق الباب بالكلابة، ولكن يده رفضت أن تطيعه، ولو قد أغلق الباب بالكلابة لما أجداه ذلك شيئاً من جهة أخرى. لقد كان الخوف يطوق نفسه كدرع من جليد، ويعذبه ويسلمه... ولكنها هي ذي الجلبة كلها تهداً رويداً رويداً بعد أن دامت عشر دقائق طويلة... إن صاحبة البيت تشن الآن وتتأوه. أما إيليا بتروفتش فاستمر يهدأ ويتوعد ويشتم... وبدا أخيراً أنه هداً هو أيضاً، ثم أصبح صوته لا يُسمع البتة. «أتراه انصرف؟ يا رب!». نعم، لقد انصرف. وهذه صاحبة البيت تنصرف أيضاً وهي ما تزال تئن وتبكي. هذا بابها يُغلق مقرقاً... هؤلاء هم الناس يتفرقون جميعاً فيعود كل منهم إلى مسكنه... إنهم يتاؤهون ويتناقشون ويستوضحون تارةً بأصوات قوية جداً (توشك أن تكون صراخاً) وتارةً بأصوات خافتة جداً (توشك أن تكون همساً)... لا شك أن عددهم كبير جداً يكاد يضم جميع سكان المنزل. تساءل راسكولنيكوف: «رباه! أهذا كله ممكناً؟ ولماذا، لماذا جاء إلى هنا؟»

تهالك راسكولنيكوف مهدود القوى على أريكته من جديد، ولكن جفنه لم يعرف إلى الغموض سبيلاً بعد ذلك. ولبث راقداً هذا الرقاد مدة نصف ساعة وهو يعاني عذاباً ورعباً أكبر من كل ما عرف في حياته من عذاب ورعب. وهذا ضياء شديد ينير غرفته فجأة. لقد دخلت عليه ناستاسيا مع شمعة وطبق حساء. فلما نظرت إليه ملياً وعرفت أنه ليس نائماً، وضعت الشمعة على المنضدة، وأخذت ترثب على المائدة ما كانت تحمله إليه: خبزاً، وملحاً، وصحناً، وملعقة.

قالت :

- لم تأكل شيئاً منذ أمس! ظللت تتسلّك هنا وهناك طوال النهار، وهذه حمى شديدة تنتابك الآن!

قال راسكولنيكوف لناستاسيا :

- ناستاسيا، لماذا ضربوا صاحبة البيت؟
فأجابته وهي تنظر إليه ملياً :

- من ضرب صاحبة البيت؟

- منذ قليل، منذ نصف ساعة... ضربها ايليا بتروفتش مساعد
مفوض الشرطة، هنا، في السلم... لماذا ضربها هذا الضرب؟...
ولماذا جاء؟...

تفرست فيه ناستاسيا صامتةً مقطبةً مدةً طويلة. لقد آلمه هذا، ثم شعر
بخوف.

سألها راسكولنيكوف وجلاً، بصوت واهن :

- ناستاسيا، لماذا تصمتين؟

فقالت تجبيه بعد لحظة بصوت خافت كأنها تكلم نفسها :

- هو الدم.

- الدم؟ أي دم؟

كذلك تتمم وقد اصفر وجهه وأخذ يقهقر فيلتصق بالحائط. ما تزال
ناستاسيا تنظر إليه صامتة. ثم قالت بعد لحظة بلهجة قاسية واثقة :

- لم يضرب أحد صاحبة البيت.

فنظر إليها وهو لا يكاد يتنفس، وقال لها بمزيد من الوجل :

- سمعت الجلة بنفسي... لم أكن نائماً... جلست هنا...
وسمعت... جاء مساعد مفوض الشرطة... وخرج الجميع من
شققهم... وهرعوا إلى السلم...

- لم يجئ أحد. الدم هو الذي يصرخ فيك. حين لا يجد الدم مخرجاً فيأخذ يتختز ويسد الكبد، تتراءى للمرء عندئذ رؤى... أتريد أن تأكل أم لا؟

لم يجب راسكولنيكوف. وظلت ناستاسيا واقفةً إلى جانبه، لا تتكلم، وما تزال تتفرس فيه.

- اسقيني يا ناستاسينكا...

نزلت ناستاسيا، ثم عادت بعد دقيقتين تحمل جرةً صغيرة من الفخار الأبيض فيها ماء. لا يتذكر راسكولنيكوف ما جرى بعد ذلك. كل ما يتذكره هو أنه شرب جرعة من ماء بارد، وأنه قلب ماء الجرة على صدره. ثم أغمي عليه.

الفصل الثالث

ولكنه لم يفقد وعيه كله طوال مدة مرضه. كان يعاني حالة حمى مصحوبة بهذيان، ولكن هذه الحالة قد تركت له نصف وعي. وقد تذكر بعد ذلك أشياء كثيرة. كان يتراءى له تارةً أن أناساً كثيرين قد احتشدوا حوله، وأنهم يريدون أن يأخذوه، أن ينقلوه إلى مكان ما، وأنهم يتناقشون ويختلفون في أمره. وكان تارةً أخرى يجد نفسه وحيداً في غرفته على حين فجأة: فقد ذهب الناس جمِيعاً لأنهم خافوا منه، فهم يشقون الباب من حين إلى حين لينظروا إليه، وليهددوه، وهم يتآمرون عليه، ويضحكون منه، ويزدرونه، ويستفزونه. وقد تذكر راسكولنيكوف أنه رأى ناستاسيا ساهراً عليه قرب سريره مراراً. واستطاع كذلك أن يميز رجلاً لا بد أنه كان يعرفه جيداً، ولكنه لا يملك أن يقول من هو هذا الرجل على وجه التحديد. وكان ذلك يحزنه ويؤلمه، حتى لقد كان يبكي. وكان يتراءى له في بعض الأحيان أنه راقد في سريره منذ شهر، وكان يتراءى له في أحياناً أخرى أن هذه المدة كلها يوم واحد يتصل ويستمر. ولكن ما باله نسي ذلك الأمر، ما باله نسي ذلك الأمر نسياناً تماماً! على أنه كان يتذكر في كل لحظة أنه قد نسي شيئاً لا يجوز له أن ينساه. وكان عندئذ يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يتذكر، ويتعدب ويشن، ثم إذا هو يستولي عليه حنق مسحور أو يستبد به ذعر شديد، فينهض عن أريكته، ويحاول أن

يهرب، غير أن أحد الناس يمتنع من ذلك بالقوة، فيهوي إلى ضعفه من جديد، ويغيب عنه شعوره مرة أخرى. ثم عاد إليه وعيه تماماً.

حدث ذلك في الساعة العاشرة من أحد الأصباح. كانت الشمس في مثل تلك الساعة من أيام الصحو يسقط منها شعاع طويل على الجدار الأيمن من غرفته، ويضيء الركن القريب من الباب. هذه ناستاسيا واقفة قرب سريره، وهذا شخص آخر يتفرس فيه بكثير من الاستطلاع، رجل لا يتذكر راسكولنيكوف أنه رأه قبل اليوم قط. هو فتى يرتدي قفطاناً، وله لحية صغيرة، وتدل هيئته على أنه مستخدم في محل تجاري. ومن خلال الباب المشقوق، تنظر صاحبة البيت.

رفع راسكولنيكوف جسمه قليلاً، وسأل وهو يومئ إلى الشاب:

- من هذا يا ناستاسيا؟

قالت ناستاسيا:

- صحا من غيبوبته!

فأمن المستخدم على كلامها قائلاً:

- نعم، صحا!

وفهمت صاحبة البيت التي كانت تنظر من خلال شق الباب، أن راسكولنيكوف صحا من غيبوبته، فأغلقت الباب مسرعةً وغابت. إن هذه المرأة كانت دائماً خجولة، لا تطيق النقاش والعتاب. هي في نحو الأربعين من عمرها، لها حاجبان سوداوان، وعينان سوداوان، وهي بدينة سمينة، وطيبة بسبب هذه السمنة، وبسبب كسلها أيضاً، وإنها لتمتاز بكثير من البشاشة على كل حال، ولكنها مفرطة في العفة.

عاد راسكولنيكوف يسأل من جديد، وهو يتوجه بسؤاله إلى المستخدم رأساً:

- من... أنت؟

ولكن الباب فتح في تلك اللحظة واسعاً، ودخل رازوميخين منحنياً بسبب طول قامته. وهتف يقول وهو يدخل:

ـ مسكنك هذا يشبه أن يكون حجرة في سفينة. أهذا مسكن؟ لا يدخله المرء مرة إلا ويصطدم جبينه! إذاً لقد أفقت من غيبوبتك يا صاحبي، هه؟ لقد أعلمني باشنكا⁽⁴³⁾ منذ هنีهة أنك أفقت...

قالت ناستاسيا:

ـ نعم، أفاق الآن.

وردد المستخدم قائلاً وهو يتسم بابتسامة خفيفة:

ـ نعم، أفاق الآن...

سأل رازوميخين وهو يتوجه إلى المستخدم فجأة:

ـ ولكن... من أنت؟ أنا، مثلاً، اسمي فرازوميخين، لا رازوميخين كما اعتاد الناس أن يسموني، بل فرازوميخين... وأنا ابن رجل من السادة النبلاء وهذا هو صاحبي... ولكن، أنت، من أنت؟

ـ أنا مستخدم في محل التاجر شيلوباييف، وقد جئت هنا لأعمال.

ـ هلاً تفضلت فجلست على هذا الكرسي!

قال رازوميخين ذلك وجلس على كرسي آخر في الجهة الأخرى من المائدة. وتابع كلامه يخاطب راسكولنيكوف:

ـ أحسنت صنعاً يا عزيزي بالصحو من غيبوبتك. فإنك منذ أربعة أيام لم تطعم شيئاً، غير قليل من الشاي جُرّعته بالملعقة. وقد جئتك بزوسيموف مرتين. هل تتذكر زوسيموف؟ فحصلك بكثير من الاهتمام والانتباه، ثم قال إنك سليم معافي، إلا من ضربة أصابت رأسك. وأضاف أن الأمر لا يعدو أن يكون أنزعاً عاجاً عصبياً بسيطاً مردّه إلى سوء التغذية. فقد كنت في حاجة إلى بيرة وفجل، فلما حُرمت منهما مرضت. ولكنه يؤكّد أن ذلك كلّه سينقضى بسرعة، ستبرأ في القريب

على أحسن ما يكون. ياله من رجل لامع، زوسيموف هذا. لقد نجح
نجاحاً فائقاً في الطب منذ الآن.

ثم أضاف رازوميخين يخاطب المستخدم من جديد:

- لا نريد أن نؤخرك. هلاً تفضلت فذكرت لنا غرضك من هذه
الزيارة!

وتابع بكلم راسكولنيكوف:

- لاحظ يا روديا أن هذه هي المرة الثانية التي يوفد فيها مكتبهم
مندوباً. ولكن مندوبيهم في المرة الماضية لم يكن هذا الشاب، بل كان
رجل آخر، ومع ذلك الرجل الآخر إنما تباحثنا.

وعاد يسأل المستخدم قائلاً:

- من ذلك الذي جاء في المرة الماضية؟

فأجابه المستخدم:

- لا شك أنك تقصد الذي جاء منذ ثلاثة أيام. أنه الكسي
سيميونوفتش. هو يعمل في المحل أيضاً.

- أرى أنه أربع منك. مارأيك؟

- نعم، إنه أكثر وقاراً.

- أهنتك! طيب، أكمل!

بدأ المستخدم كلامه مخاطباً راسكولنيكوف مباشرةً:

- إليك الموضوع: بواسطة افاناسي ايفانوفتش فاخروشين الذي
أرجو أن تكون قد سمعت عنه، ويطلب من السيدة والدتك، ووصلت
إلى مكتبنا حواله مالية لك، فإذا كنت في حالة تمكنك من الفهم،
فسوف أدفع لك مبلغ خمسة وثلاثين روبلات لقاءها سيميون سيميونوفتش
من افاناسي ايفانوفتش بناء على طلب من السيدة والدتك. هل أبلغت
هذا الأمر؟

قال راسكولنيكوف حالمًا مفكراً:

- نعم، أذكر... فاخروشين...

هتف رازوميixin يقول:

- هل سمعت؟ إنه يعرف التاجر فاخروشين، فكيف لا يكون في حالة تمكنه من الفهم؟ ثم إنني لاحظ أنك رجل عاقل، فهيا أكمل حديثك. إنه ليحلو للمرء دائمًا أن يسمع أقوال رجل عاقل.

تابع المستخدم كلامه فقال:

- نعم، إن فاخروشين هذا نفسه. أفالاني ايفانوفتش فاخروشين، لم يتردد، حين طلبت السيدة والدتك ذلك - وهي التي أوصلت إليك بواسطته، في مرة سابقة، مبلغًا من المال - لم يتردد في هذه المرة أيضًا أن يكتب إلى سيميون سيميونوفتش طالبًا منه أن يدفع لك مبلغ خمسة وثلاثين روبلًا، بانتظار أن يدفع لك أكثر من ذلك في المستقبل.

- يميناً إن قولك «باتضطر أن يدفع لك أكثر من ذلك في المستقبل» هي خير ما خرج من فمك. ولا بأس كذلك في قولك «السيدة والدتك». ما رأيك الآن؟ أهو يملك شعوره كاملاً أم لا؟

- أتمنى ذلك... كل ما أريده هو أن يعطيوني إيصالاً صغيراً يشهد باستلامه المبلغ.

- سيكتب لك الإيصال فوراً. ما هذا الذي معك؟ أهو سجل؟

- نعم، سجل.

- هاته. هيا يا روديا! انهض قليلاً. سأسندك. وقع له اسمك دفعه واحدة. خذ القلم يا صاحبي، لأن حاجتنا إلى المال ماسة... .

قال راسكولنيكوف وهو يدفع القلم:

- لست في حاجة...

- لست في حاجة إلى ماذا؟

- لن أوقع.

- ولكن كيف يمكن أن... بغير توقيع... يا للعنة!

- لست في حاجة إلى مال.

- لست في حاجة إلى مال؟ ألا إنك لتکذب يا عزيزي. أنا شاهد على أنك تکذب.

قال رازوميixin ذلك، والتفت يخاطب الشاب:

- لا تقلق، أرجوك... هو يقول هذا، ولكنه يهذى من جديد. ثم إنه يتفق له أن يهذى في الحالة الطبيعية. أنا أعرفه. وأنت رجل عاقل. ليس علينا إذن إلا أن نرشده، أو قل أن نرشد يده، فيوضع. هيا، ساعدني!

- يمكنني أن أرجع مرة أخرى.

- لا، لا، لماذا تزعج نفسك مرة أخرى؟ أنت رجل عاقل... هلم يا روديا، لا تؤخر ضيفنا... أنت ترى أنه يتظر منذ مدة.

قال رازوميixin ذلك وتهيأ، جاداً كل الجد، لأن يقود يد راسكولنيكوف. فقال له راسكولنيكوف:

- دع عنك. سأوقع بنفسي.

وتناول القلم، ووقع.

دفع له المستخدم المال، وخرج.

- مرحى! والآن يا عزيزي، ستأكل! هه؟
نعم سأكل! ..

قال رازوميixin يسأل ناستاسيا التي لبست هناك طوال تلك المدة:

- هل عندكم حساء؟

- نعم، عندنا حساء من أمس.

- أهوا حساء بالرز والبطاطس؟

- بالرز والبطاطس.

- قدرت ذلك. هاتي الحساء، وأتينا بشاي!

- حالاً!

نظر راسكولنيكوف حواليه مدهوشًا مخبولاً شاعرًا بذعر أخرين. لقد فرر أن يصمت وأن يتذكر تتمة الأحداث. قال يحدث نفسه: «يخيل إليّ أنني لا أهذي الآن. يخيل إليّ أن هذا كلّه واقع وليس أضغاث أحلام!»

وبعد دققتين عادت ناستاسيا بالحساء، وأعلنت أن الشاي سيكون مهيأً بعد قليل. من أجل الحساء ظهرت ملقطان وصحنان وجميع أدوات المائدة: وعاء الملح، ووعاء الفلفل، ووعاء الخردل لتطيب المرق، الخ. إن مثل هذا الترتيب الدقيق لم يُراع منذ مدة طويلة. وكان غطاء المائدة نظيفاً.

قال رازوميixin:

- لا بأس، يا ناستاسيوشكا، في أن ترسل إلينا براسكوفيا بافلوفنا زجاجتين صغيرتين من البيرة. سوف يسرنا أن نشربهما.

فدمدمت ناستاسيا وهي تمضي لتنفيذ الأوامر:

- إنك لتحب المسئرات!

وكان راسكولنيكوف ما يزال ينظر حواليه زائغ الهيئة مشدود الانتباه. وفي أثناء ذلك الوقت كان رازوميixin الذي جلس إلى جانبه على الأريكة، ينهض رأسه بيده اليسرى، بخراقة كخراقة الدب، ويحمل إلى فمه باليد اليمنى ملعقة من الحساء بعد أن ينفع عليها عدة مرات حتى لا يحترق بها فم صاحبه. وكان الحساء في الواقع فاتراً غير ساخن. التهم راسكولنيكوف ملعقة أولى، فملعقة ثانية، فملعقة ثالثة، بشهادة ونهم. فلم يلبث رازوميixin أن توقف عن إطعامه قائلًا إن من الواجب أن

يُستشار في ذلك زوسيموف أولاً.

ودخلت ناستاسيا تحمل زجاجتي بيرة.

- هل تريدين شيئاً من الشاي؟

- نعم.

- هاتي لنا شاياً يا ناستاسيا، فإننا فيما يتعلق بهذا الشراب، أعني الشاي، نستطيع أن نستغنى عن وصفات كليلة الطب! آ... هذه هي البيرة!

قال رازوميخين ذلك، وعاد إلى كرسيه، وجذب إليه الحساء، واللحم المسلوق، وأخذ يلتهم كل هذا كأنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام. دمدم يقول بمقدار ما يتبع له فمه المملوء لحمًا أن يتكلّم:

- نعم يا روديا، نعم يا صديقي القديم، على هذا النحو إنما أصبحت أكل الآن كل يوم في منزلكم. إن صاحبة البيت باشنكا هي التي تكرمنا هذا التكريم. إنها تحيطني بكل أنواع العناية والرعاية. طبعاً أنا لا أطلب شيئاً، ولكنني لا أرفض شيئاً كذلك... هذه ناستاسيا وشایها! هي الريح نفسها في صورة امرأة! هل تريدين شيئاً من البيرة يا ناستاسيا؟

- مهرج!

- وهل تريدين شيئاً من الشاي؟

- الشاي... لا أرفض الشاي!...

- إذاً صبي لنفسك شيئاً. لا بل انتظري! سأخدمك أنا، بنفسي. اجلس إلى المائدة.

قال رازوميخين ذلك وأسرع ينهمك في صب الشاي، فملا فنجاناً ثانياً، ثم ترك غداءه، وعاد يجلس على الديوان. وكما فعل منذ قليل، دس يده اليسرى تحت رأس المريض، فأنهضه قليلاً، وأشربه شایه بالملعقة، نافخاً على كل ملعقة بكثير من العناية والاهتمام، كأن سلامه

المريض مرهونة بهذا النفح. وكان راسكولنيكوف صامتاً لا يقاومه أية مقاومة، رغم شعوره بأنه يملك من القوة ما يكفيه لأن ينهض جسمه، ولأن يبقى جالساً بغير مساعدة من أحد، بل ولأن يستعمل يديه أيضاً لأخذ ملعقة أو فنجاناً، حتى لقد مضى إلى حد الاعتقاد أن في وسعه أن يمشي إذا شاء. ولكنه بنوع من مكر غريب، مكر يكاد يكون غريزياً، خطر بباله فجأة أن يخفي قواه، بل وأن يتظاهر بغيوبة تامة إذا لزم الأمر، من أجل أن يتتجسس خلال ذلك على ما يجري حوله. غير أنه لم يستطع أن يتغلب على اشمئزازه: فبعد أن ابتلع نحو عشر ملاعق من الشاي، سلَّ رأسه، ودفع الملعقة بتنورة طارئة، وتهالك على الوسادة، إن رأسه يستريح الآن على وسادات حقيقة من ريش، تجللها أغطية نظيفة، وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك وأدركه.

أعلن رازوميixin وهو يعود إلى مكانه ويهاجم على حسائه وبيرته من جديد:

- يجب على باشنكا أن ترسل إلينا في هذا اليوم نفسه شيئاً من مرتب التوت نصنع منه لمريضنا شراباً.

قالت ناستاسيا التي كانت تبسط صحن فنجانها على أصابعها الخمس المتباude، وترشف شايها فيرشع «من خلال السكر» في فمه:

- ولكن من أين عساهما تأتي الآن بالتوت؟

- التوت يا عزيزتي ستجده عند البقال. هل تعلم يا روديا؟ لقد جرت هنا قصة لا تعرف عنها شيئاً! حين هربت من عندي هروب وغد من الأوغاد، دون أن تذكر لي عنوانك، غضبْتُ غضباً بلغ من الشدة أنني قررت فوراً أن أعثر عليك... وأن أعقبك! وأخذت في ذلك اليوم نفسه أبحث عنك... يمكن أن يقال إنني ركضت وأزعجت الناس جميعاً لأهتمي إليك... كنت قد نسيت عنوانك الحالي، أو قل إنني ما نسيته لأنني ما كنت أعرفه أصلاً. أما مسكنك القديم، فإن كل ما كنت

اذكره عنه هو أنه يقع في مكان ما من «الأركان الخمسة» بعمارة تسمى «عمارة خارلاموف»... والحق أن ذلك السيد، صاحب العمارة، لم يكن اسمه خارلاموف، بل بوخ. فانظر كيف يخطئ المرء بسبب التجانس اللفظي! الخلاصة أني غضبت غضباً شديداً، غضباً بلغ من الشدة أني ذهبت من الغدرأساً إلى مكتب تسجيل العنوانين: فإذا أنا أعرف منهم عنوانك في غضون دقيقتين. نعم، نعم، إنك مسجل عندهم!

- مسجل!

- نعم، نعم، مسجل. ومع ذلك لم يستطعوا أن يعثروا على عنوان الجنرال كوبليف. لست أخترع شيئاً: لقد جرى هذا أمامي. هوه! ما لنا نتهو في التفاصيل!.. عل كل حال، ما إن جئت إلى هنا، حتى كنت أعرف جميع شؤونك، نعم، جميع شؤونك! يا صديقي أنا أعرف كل شيء. وناستاسيا شاهدة على ذلك. لقد أروني ايليا بتروفتش، وتعارفت مع نيكوديم فومتش، والباب، والميد زاميوتوف، الكسندر جريجوريفتش زاميوتوف، سكرتير قسم شرطة الحي، وعرفت أخيراً باشنكا... باشنكا... إنها زهرة من عرفتهم. ناستاسيا تعرف ذلك.

تمتمت ناستاسيا تقول وهي تضحك ضحكة فيها شيء من مكر:

- عرف كيف يتملقها.

- عليك أن تضعي السكر في فنجانك يا ناستاسيا نيكيفوروفنا!
صاحت ناستاسيا تقول وهي تنفجر ضاحكةً:

- يا للحيوان!

ثم أضافت بعد أن انتهت نوبة الضحك:

- ليس اسمي نيكيفوروفنا بل بتروفنا.

قال لها رازوميixin:

- أحطنا علمًا بذلك.

ثم استأنف كلامه مخاطبًا راسكولنيكوف:

- هكذا يا صاحبي، الخلاصة أنتي أردت أن أستعمل سائلاً كهربائيًا من أجل أن استحصل، دفعة واحدة، جميع الأوهام المعيشة في هذه النواحي. ولكن باشنكا غلبتني. يا صديقي، ما كنت لأتصور في يوم من الأيام أنها جذابة... إلى هذا الحد... هه؟ ما رأيك؟

لم يجب راسكولنيكوف، رغم أنه لم يحول بصره القلق عن رازوميفيين في لحظة من اللحظات، ورغم أنه ما يزال يحدق اليه.

تابع رازوميفيين كلامه فقال دون أن يظهر عليه أي استياء من صمت راسكولنيكوف وكأنه يوافق على كلام صاحبه:

- نعم، إنها إنسانة ممتازة من جميع الجهات.

هتفت ناستاسيا تقول من جديد، وقد بدا عليها أن هذه المحادثة تسرها سروراً عظيماً:

- يا له من حيوان!

- المصيبة يا صديقي أنك لم تعرف كيف تدير أمرك منذ البداية. إن على المرء أن يتبع في معاملتها طريقة غير طريقتك. إن لها طبعاً... غريباً! سنتكلم عن طبعها فيما بعد. ولكن كيف استطعت أن تفسد أمورك معها إلى الحد الذي انقطعت معه عن ارسال طعامك إليك؟ وما قصة السنن تلك؟ أنت جنت؟ كيف ترضى أن توقع سندات؟ ومشروع الزواج ذاك، حين كانت ابنته ناتاليا ياجوروفنا ما تزال على قيد الحياة؟ إبني أعلم كل شيء! أنا أدرك أنني هنا أمسك الوتر الحساس، وأنني حمار. معذرة، معذرة. ولكن قل لي بمناسبة الحمامات ما رأيك: أليست بارسكوفيا بافلوفنا حمقاء إلى الحد الذي قد يفترضه المرء من أول نظرة، أليس كذلك؟

قال راسكولنيكوف بأطراف شفتيه، مشيحاً بوجهه، مدركاً مع ذلك أن استمرار الحديث أفضل:

- نعم . . .

فهتف رازوميخين وقد أسعده إسعاذاً واضحاً أنه حصل على جواب:

- أليس كذلك؟ ولكنها ليست ذكية أيضاً، هه؟ إن لها طبعاً لا يُتوقع أبداً. أنا، بصراحة، يحيرني هذا الطبع يا صاحبي. لا بد أنها في الأربعين من عمرها . . . هي تقول إنها لم تتجاوز السادسة والثلاثين. هذا حق من حقوقها. على أني (أحلف لك!) لا أحكم عليها إلا من وجهة النظر الفكرية، من وجهة النظر . . . الميتافيزيقية وحدها. إن ما يقع بيننا يدخل في نطاق الرمز. هو نوع من علم الجبر يا صاحبي . . . لست أفهم من ذلك شيئاً. سخافات كل هذا! ولكنها إذ رأت أنك لم تعد طالباً، وأنك فقدت ما كنت تعطيه من دروس، وأنك أصبحت لا تملك ما تدثر به ظهرك، وأنك غدوات منذ موت آنستها لا تستطيع أن تدعك عضواً في الأسرة، قد انتابها ذعر. وإذاً أنك من جهتك انطويت على نفسك بدلاً من أن تعيش كما كنت تعيش في الماضي، فقد قام في ذهنها أن تطردك. وكانت تفكر في هذا المشروع منذ مدة، ولكن السندي كان يقلقها كثيراً، ولما كنت قد أكدت لها أن أمك ستدفع . . .

- قلت لها ذلك حقاراً مني . . . إن أمي توشك أن تستجدي أكف الناس . . . لقد كذبت عليها لأجبرها على أن تحتفظ بي وأن تطعمني . . .

قال راسكولنيكوف ذلك بصوت عال واضح.

أجابه رازوميخين:

- نعم، ولقد تصرفت عندئذ تصرفاً فيه تعقل وحكمة. ولكن المشكلة هي أنه من تلك اللحظة ظهر السيد تشيرنوف، وهو مستشار ورجل من رجال الأعمال، فلو لا هذا الرجل لما خطر ببال باشنكا، وهي المرأة الخجولة، أن تتخذ أي إجراء. ولكن رجل الأعمال لا يملك هذا الخجل، فكان أول سؤال ألقاه طبعاً هو هذا السؤال: هل

هناك أمل في قبض قيمة السندي؟ وكان الجواب بنعم. لأن هناك أمّاً لها معاش مقداره مائة وخمسة وعشرون روبلًا، فلن تضن على ابنها رودنكا بإخراجه من المأزق ولو اضطررها ذلك إلى حرمان نفسها من الطعام، ولأن هناك أختاً حنوناً سوف ترضي بأن تبيع نفسها عبدة في سبيل إنقاذ أخيها الحبيب. على هذا اعتمد الرجل. ما بالك تضطرب هذا الاضطراب؟ هاؤنت ذا ترى يا صاحبي أنني أعرف الآن قصتك، أعرفها من ألفها إلى يائها. لم يذهب سدى ما أفضي به إلى باشنكا من مسازات حين كنت ما تزال تعد نفسك من أقربائها بصفة زوج ابنتهما المقبل... ولشن كنت أقول لك هذا الكلام، فلأنني صديقك. اسمع إذن ما حدث: حين يسترسل الإنسان الشريف الحستاس في مسازات حميمة، فإن رجل الأعمال يجلس إلى منضدته وينهمك في الحساب ليخرج بمنفعة. وهكذا تنازلت باشنكا عن السندي لتشيباروف، فلم يتورع تشيباروف هذا عن المطالبة بقيمة السندي. وحين علمت أنا بهذا كله، أردت أن أتدخل في الأمر فأرسل سائل الكهربائي إليه هو أيضاً. ولكن الانسجام قام بيدي وبين باشنكا أثناء ذلك، فأوقفت القضية كلها، وقضيت عليها في مدها، إذ كفلت أن تدفع المبلغ. لقد أصبحت كفيلك يا صاحبي، هل تسمع؟ واستدعينا تشيباروف، فدستنا في فمه عشرة روبلات، فرد السندي الذي يشرفني، يا سيدتي، أن أقدمه إليك. لن تطالب بعد الآن بسند، بل ستصدق على عهد الشرف وحده. خذ السندي. لقد مزقته قليلاً، كما يجب أن أفعل...

وضع رازوميخين السندي على المائدة. فألقى راسكولنيكوف عليه نظرة سريعة، ثم التفت إلى جهة الحائط دون أن يقول شيئاً، فاستاء رازوميخين من ذلك، وقال بعد دقيقة:

- أرى يا صاحبي أنني كنت غبياً مرة أخرى. لقد ظننت أنني بشرثراتي سأسرّي عنك وأسلّيك، وهذا ألاحظ الآن أنني لم أزد على أن حركت غضبك!

- أأنت الشخص الذي كنت أثناء هذيني لا أتعرف إليه؟
كذلك سأله راسكولنيكوف بعد أن صمت خلال دقيقة هو أيضاً،
ودون أن يلتفت إليه. فأجاب رازوميفين :

- نعم أنا، حتى إن حضوري قد سبب لك بعض نوبات الهياج، ولا
سيما حين جئت إليك بزاميوفوف.

فالتفت راسكولنيكوف فجأة بعنف. وحدق إلى رازوميفين سائلاً:

- زاميوفوف؟ سكرتير مفوض الشرطة؟ لماذا جاء؟

- ولكن ماذا دهاك؟ لماذا تضطرب هذا الااضطراب؟ لقد أراد أن
يتعرف إليك... وإنما أراد ذلك لأننا تحدثنا عنك كثيراً. وكيف كان
يمكنني، لولاه، أن أعرف هذه الأشياء كلها عنك؟ إنه رجل شهم،
رائع... في نوعه طبعاً. ونحن الآن صديقان، نلتقي كل يوم تقريباً.
ذلك أنتي سكنت في مكان قريب. ألم تعرف ذلك بعد؟ نعم، انتقلت
منذ برهة وجيبة. وقد ذهبنا إلى لويسا مرة أو مرتين. أتذذكر لويسا
إيفانوفنا؟

- هل كنت أهذي؟

- أظن ذلك! كنت غير نفسك؟

- وماذا كنت أقول؟

- ماذا كنت تقول؟ هـ... معروف ماذا يمكن أن يقول رجل يهدي.
والآن، يا صاحبي، لم يبق لنا وقت نضيعه. إلى العمل!
نهض من الكرسي وتناول قبعته.

- ماذا كنت أقول؟

- ما باله يصر؟ أتراه يخشى أن يكون قد فضح سراً من الأسرار؟ لا
تقلق إذن. لم يفلت منك كلام في حق السيدة الكونтиسة. ولكنك
تكلمت كثيراً عن كلب حراسة من نوع «البولدوخ»، وتكلمت عن أقراط

إذن، وعن سلاسل ذهبية، وعن جزيرة كريستوفسكي، وعن بواب ما، وتكلمت أيضاً عن نيكوديم فومتش وايليا بتروفتش مساعد مفوّض الشرطة. ثم إنك يا سيدى قد اهتممت اهتماماً عظيماً بجوربك، فكنت تتولّ أن نسرع ونعطيك جوربك فبادر زاميوتوف بنفسه يبحث لك عنه في كل ركن من الأركان، حتى إذا وجده، حتى إذا وجد تلك القاذورة حملها إليك بيديه، بيديه البيضاوين المعطرتين المجللتين بالخواتم. عندئذ هدا روّعك، ثم ظللت قابضاً بيديك على تلك القاذورة يوماً كاملاً، لا يستطيع أحد أن ينتزعها منك. لا بد أنها ما تزال في مكان ما تحت غطائك! و كنت تطالب أيضاً بقصاصات سروالك، حتى لقد كنت تبكي وأنت تطالب بتلك القصاصات. تسأّلنا أية قصاصات تعني، ولكن كان كلامك مشوشًا فلم نفهم منه شيئاً. والآن كفى كلاماً، ولنبادر إلى العمل. هذه خمسة وثلاثون روبلأً. أنتي آخذ منها عشرة، وسأعود إليك بالحساب بعد ساعتين. وفي أثناء هذا الوقت أكون قد أبلغت زوسيموف، الذي كان ينبغي أن يكون هنا منذ مدة طويلة، لأن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. وأنت يا ناستاسيا، أرجوك أن تعني به أثناء غيابي! أعطه ما يشربه، أو أعطه شيئاً آخر إذا هو رغب في ذلك. أما باشنكا فسوف أقول لها فوراً ما يجب قوله. إلى اللقاء!

قالت ناستاسيا عندما خرج :

- إنه يدعوها باشنكا! آه! يا للماكر!

ثم فتحت الباب وأصاحت بسمعها، ثم لم تطق صبراً فهرولت تهبط. أنها تحرق شوقاً إلى معرفة ما قد يقوله رازوميixin لمولاتها. وفي وسعنا أن نقول بوجه عام أنها كانت مفتونة برازوميixin افتتاناً واضحاً.

فما أن أغلقت وراءها الباب حتى رمى المريض غطاءه، ووثب عن السرير كالجنون. كان قد انتظر خروجهما نافذ الصبر إلى حد الاحتراق والتشنج، ليباشر العمل بأقصى سرعة. ولكن ما هو هذا العمل الذي

يريد أن يقوم به؟ ها هو ذا قد أصبح، كأنما عن عمد، لا يعرف ماذا كان يريد أن يعمل! «رباه! قل لي شيئاً واحداً يا رب: أهم يعرفون أم هم لا يعرفون بعد؟ أهم يعرفون منذ الآن كل شيء ولكنهم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون شيئاً؟ أكانوا يعبثون بي بينما أنا راقد هنا؟ أتراهم سيدخلون علي فجأة ليقولوا إنهم يعرفون كل شيء منذ مدة طويلة، ولكنهم تظاهروا بالجهل عامدين؟ .. ما العمل الآن؟ هاًنذا نسيت ما يجب أن أعمله، كأنما قصدت ذلك! هاًنذا نسيته مع أنني كنت أذكره منذ قليل...»

ظل راسكولنيكوف واقفاً في وسط الغرفة ينظر فيما حوله حائراً حيرة أليمة. ثم اقترب من الباب، ففتحه وأخذ يتنصل، ولكن ليس هذا ما كان يريد أن يعمله. وكأنه تذكر فجأة، فإذا هو يهرب نحو الركن، حيث يوجد ثقب تحت ورق الجدار. أخذ يفتش هنالك بانتباه، وأدخل يده في الثقب يتلمسه، ولكن هذا ليس ما كان يريد أن يعمله أيضاً... فاتجه عندئذ نحو المدفأة، ففتحها، ونبش رمادها، فعثر على قصاصات السروال ومزرق الجيب المنتزع كما كانت حين رماها في هذا المكان. إذن لم ينظر أحد في المدفأة. وعندهن تذكر الجورب الذي جاء رازوميخين على ذكره منذ قليل. إن ما قاله رازوميخين صحيح. إن الجورب موجود تحت الغطاء فعلاً، ولكنه بلغ من الاتساخ ومن الاهتراء بالحک أن زاميتوف لا يمكن أن يكون قد لاحظ فيه شيئاً البتة.

«نعم! زاميتوف! .. قسم الشرطة! ولكن لماذا استدعى إلى قسم الشرطة؟ أين كتاب الاستدعاء؟ هوه! إنني أخلط! لقد استدعيت إلى قسم الشرطة في يوم ماضٍ! وكنت حينذاك أدقق النظر في الجورب. والآن... والآن... لقد كنت مريضاً... لماذا جاء زاميتوف إلى هنا؟ لماذا أتى به رازوميخين إلى بيتي؟»

بهذا تمت راسكولنيكوف مهدود القوى، وهو يعود إلى الجلوس على سريره. وتتابع حديثه لنفسه:

«ماذا يجري؟ أنا ما أزال أهذى أم أن هذا كله الآن واقع لا شأن له بأخيلة الهذيان؟ يبدو لي أن هذا كله الآن واقع... آ... تذكرت: أهرب، يجب أن أهرب بأقصى سرعة، يجب أن أهرب حتماً. نعم، ولكن إلى أين؟ وأين ثيابي؟ أين حذائي. لقد أخذوها... لقد أخفوها عنِي! فهمت! آ... هذا معطفي... لقد نسوه! وهذا هو المال على المائدة! الحمد لله! وهذا هو السند... سأخذ المال وأهرب. سأستأجر بيتاً آخر، ولن يعثروا عليَّ! نعم، ولكن مكتب العناوين... آه... سيكتشفونني! سيكتشفونني رازوميخين! الأفضل مع ذلك أن أهرب... أن أهرب إلى مكان بعيد، إلى أمريكا، ثم أبصق عليهم... ويجب أن آخذ السند أيضاً... فقد ينفعني هناك... ماذا آخذ أيضاً؟ هم يعتقدون أنني مريض! لا يخطر ببالهم أن في إمكاني أن أمشي... ها ها! قرأت في أعينهم أنهم يعرفون كل شيء! المهم أن أستطيع الهبوط على السلم! ولكن ماذا لو كانوا قد وضعوا حراساً يحرسون العمارة! ماذا لو كان يوجد شرطة تحت؟ ما هذا؟ شاي؟ آ... ما تزال بقية من بيرة، نصف زجاجة، باردة تماماً!»

أمسك الزجاجة التي كان قد بقي فيها ما يملأ كأساً كبيرة، فأفرغها في جوفه دفعة واحدة، متلذذاً، كأنما ليطفئ النار التي تحرق صدره. ولكن قبل أن تنقضي دقيقة واحدة، كانت البيرة قد صعدت إلى رأسه، فإذا برعدة خفيفة تسري في ظهره، رعدة توشك أن تكون لذيدة، فاستلقى على سريره وسحب الغطاء يدثر به جسمه. أخذت أفكاره المحمومة المضطربة تغلي مزيداً من الغليان، وسرعان ما استولى عليه نعاس لطيف. فاهتدى إلى مكان رأسه على الوسادة متلذذاً، وتدثر مزيداً من التدثر بالغطاء الرخو المحسو بالقطن الذي يقوم الآن مقام معطفه الممزق، وزفر زفراً خفيفاً، ثم نام نوماً عميقاً مريحاً.

واستيقظ حين سمع أحدهم يدخل عليه، ففتح عينيه، ليرى رازوميخين. كان رازوميخين قد فتح الباب واسعاً، ووقف على العتبة

متسائلًا أيدخل أم لا يدخل. أسرع راسكولنيكوف ينهض عن سريره جالساً، ونظر إلى صاحبه نظرة من يحاول أن يتذكر شيئاً ما.

قال رازوميixin:

- هه... أنت غير نائم؟

ثم صرخ ينادي ناستاسيا في السلم قائلاً:

- ناستاسيا، هاتي الصرة!

وعاد يقول لراسكولنيكوف:

- سأقدم إليك الحساب فوراً.

سأله راسكولنيكوف وهو يلقي على ما حوله نظرة قلقة:

- كم الساعة الآن؟

- يمكننا أن نقول، أيها الأخ العزيز، إنك غير محروم من النوم. لقد حان المساء. لا بد أن الساعة غير بعيدة عن السادسة. معنى ذلك أنك نمت ست ساعات أو أكثر...

- رباه! كيف أمكن أن...

- ماذ؟ إنك قد أحسنت صنعاً. ما أحسب أنك مستعجل! ما أحسب أنك مرتبط بموعد! أليس كذلك؟ نحن نملك إذن وقتنا. إنني منذ ثلاثة ساعات أنتظر أن تفيق من نومك. جئت إليك مرتين، ولكنك كنت ما تزال نائماً. وقد ذهبت مرتين أيضاً إلى زوسيموف. ولكنني لم أجده. لا ضير! سوف يجيء... ثم إنني قد تغيبت لأمور شخصية صغيرة. أنت تعلم أنني قد انتقلت اليوم من مسكنى، انتقلت منه مع عمي... إن لي عما الآن. ولكن دعنا من هذا كله... سحقاً لهذا كله! هاتي الصرة يا ناستاسيا. سوف... فوراً... وكيف صحتك الآن يا صاحب؟

قال راسكولنيكوف:

- صحتي حسنة. أبللت من المرض. أنت هنا منذ مدة طويلة؟

- قلت لك إنني أنتظرك منذ ثلاث ساعات.

- نعم، ولكن... قبل ذلك؟

- قبل ماذا؟

- منذ متى تأتي إلى هنا؟

- ألم أقصص عليك ذلك؟ ألا تذكر؟

Shard Fikr Raskolnikov. إن ما جرى في هذه الفترة يبدو له حلماً. كان عاجزاً عن أن يتذكر أي شيء بنفسه، وألقى على رازوميخين نظرة مستفسرة.

قال رازوميخين:

- آ... إذن نسيت! لقد بدا لي في الصباح أن عقلك... أما الآن فقد ساعدك النوم وشفاك. حقاً إن هيئتكم الآن أفضل كثيراً مما كانت. مرحى! إلى العمل إذن! وسوف تتذكر فوراً! انظر إلى هنا، أيها السيد العزيز!

وأخذ رازوميخين يغض صرته التي كان يبدو أنه يوليه أكبر اهتمام.

- نعم يا عزيزي، هذا أمر يهمني كثيراً، ذلك أن عليّ أن أجعلك رجلاً، هيا بنا! لنبدأ من فوق.

ثم قال وهو يسحب من الصرة قبعة جميلة وإن تكون من طراز عادي بخس الثمن:

- هل ترى هذه القبعة؟ سأجريها عليك، أتسمح بذلك؟

قال راسكولنيكوف وهو يدفعه عنه باستحياء:

- ليس الآن... بل وفي وقت آخر...

- لا سبيل إلى التملص يا صاحبي. لا تصرّ! في وقت آخر يكون الوقت قد فات. لن أنام الليل إذا لم أجرّبها عليك، ذلك أنني اشتريتها كيما اتفق، دون أن أعرف قياس رأسك.

وألبسه القبعة ثم قال بلهجة المتصر:

- إنها تناسبك . . . تناسبك كثيراً، لكانها فضلت لك. لباس الرأس يا عزيزي أهم جزء من أجزاء اللباس، فهو الذي يحدد مكانتك في المجتمع. إن تولستياكوف، وهو صديق قديم لي، يضطر إلى خلع قبعته الرديئة كلما ظهر في مكان عام يحتفظ فيه الآخرون بقبعاتهم على رؤوسهم، والناس يردون ذلك إلى مشاعر الاحترام مع أن الأمر لا يعدو أنه أحسن بالخجل من قبعته الرديئة التي تشبه أن تكون عش عصافور. نعم، تلك هي أسباب حياء هذا الرجل! انظري يا ناستاسيا، انظري إلى هاتين القبعتين: انظري إلى قبعة بالمرستون هذه (قال ذلك ومضى يأتي من أحد الأركان بقبعة راسكولنيكوف المدوره المشوهه، التي لا يدرى أحد لماذا سماها قبعة بالمرستون⁽⁴⁴⁾، ثم انظري إلى هذه الآية من آيات فن صنع القبعات، واحذر كم دفعت ثمنها؟ ما رأيك؟ وما رأيك أنت يا ناستاسيا، (لقد التفت رازوميفixin إلى الخادمة يسألها، حين رأى راسكولنيكوف صامتاً لا يجيب).

قالت ناستاسيا تجذب عن سؤاله:

- عشرين كوبيكاً على الأقل!

فهتف يقول مسناة:

- عشرين كوبيكاً يا غبية، يا حمقاء؟ بعشرين كوبيكاً لا يمكن شراوك أنت في هذه الأيام! لقد دفعت ثمانين كوبيكاً، ولم يكن ثمنها قليلاً هذه القلة إلا لأنها مستعملة. ثم إنني اشتريتها على شرط: أن في وسعك أن تذهب إلى البائع في السنة القادمة، متى اهترأت هذه القبعة، فإذا هو يُبدلها لك بقبعة جديدة مجاناً، أحلف لك! . . . والآن هلموا إلى الولايات المتحدة الأمريكية⁽⁴⁵⁾، كما كنا نسميها في المدرسة. ولكنني أتبهك قبل كل شيء إلى أنني معتز جداً بهذا السروال (قال ذلك وبسط أمام راسكولنيكوف سروالاً رمادياً من نسيج صيفي خفيف): لا ثقب فيه، ولا بقعة، هو إذن، رغم أنه ليس من قبل، سروال جيد، ناهيك

عن الصدرية التي تناسبه على نحو ما توجب الموضة. أما أنه ليس من قبل، فتلك مزية، فلقد أصبح بذلك أكثر ليونة وأشد مرونة. اسمع يا روديا: لكي ينجح المرء في الحياة، يكفيه في رأيي أن يراعي الفصول: إذا لم تطالب بهليون في شهر كانون الثاني، فسيبقي لك دائماً بضعة روبلات في حافظة نقودك. ونفس الشيء يمكن القول عن هذا السروال. نحن الآن في منتصف فصل الصيف، لذلك اشتريت سروالاً صيفياً. صحيح أنك ستحتاج في فصل الخريف إلى قماش يضمن لك مزيداً من الدفء، وسيكون عليك أن ترمي هذه الملابس، لا سيما وأنها ستكون قد بليت، بسبب إهمالك طبعاً... ولكن فلنعد إلى سؤالنا: احظركم دفعت ثمن هذا السروال! روبلين وخمسة وعشرين كوبيكاماً لاحظ أنني اشتريته على ذلك الشرط نفسه الذي اشترطته في شراء القبعة: إن من حقك أن تستبدل به سروالاً بالمجان متى اهتم. فعلى هذا النحو إنما تتم الصفقات في دكان فديايف: يدفع المشتري مرة واحدة إلى الأبد، لأنه لن يضع قدميه مرة أخرى في هذا الدكان قط. ولننتقل الآن إلى الحذاءين. كيف تجدهما؟ واضح أنهما مستعملان، ولكنهما ما يزالان يصلحان خلال شهرين، وهذه بضاعة أجنبية: إن سكرتير سفاراة إنجلترا قد باعهما في الأسبوع الماضي. لم يكن قد أتعلمهما إلا ستة أيام، ولكنه كان في حاجة ماسة إلى المال. الثمن: روبل وخمسون كوبيكاماً. صفقة رابحة، أليس كذلك؟

قالت ناستاسيا:

- ولكنهما قد لا يكونان على قياس قدميه!

- قد لا يكونان على قياس قدميه؟ وهذا الذي أخذته معه!

قال رازوميخين ذلك واستل من جيبه حذاء قديماً مهترئاً مثقباً متسخاً بوحل جاف هو أحد أحذية راسكولنيكوف. ثم أردف:

- لقد اتخذت الاحتياطات الالزمة! ماذا تظنن؟ عرفنا قياس قدميه من قياس هذا الحذاء العجيب! نعم لقد جرت الأمور كلها بدقة تامة وعنابة

محكمة. أما الملابس الداخلية فقد تفاهمت بشأنها مع صاحبة البيت. إليك ثلاثة قمصان من نسيج سميك، ولكن صدرها على آخر موضة. لنحسب الآن التكاليف كلها. قبعة: ثمانون كوبيكاً، ملابس أخرى: روبلان وخمسة وعشرون كوبيكاً، المجموع: ثلاثة روبلات وخمسة كوبيكات، الحذاءان: روبل وخمسون كوبيكاً، لأنهما في حالة جيدة جداً. المجموع: أربع روبلات وخمسة وخمسون كوبيكاً، الملابس الداخلية، جملة واحدة، خمسة روبلات. المجموع: تسعة روبلات وخمسة وخمسون كوبيكاً. الباقي: خمسة وأربعون كوبيكاً، نقوداً نحاسية من فئة الخمسة كوبيكات. إليك هي. خذها. هكذا يا روديا تكون قد «تهنديت» الآن، لأن معطفك برأيي ما يزال قابلاً للاستعمال، حتى إنه لا يخلو من وجاهة. أرأيت قيمة اختيار المرء ملابسه من محلات شارمر!⁽⁴⁶⁾ أما الجوارب وما إلى ذلك، فإني أترك لك أمر الاهتمام بها. وأما المال فما زلنا نملك منه خمسة وعشرين روبلأ. وليس عليك بعد الآن أن يقلقك أجر المسكن. أن باشنكا ستمهلك أمها لا غير محدود، كما قلت لك. والآن يا عزيزي، اسمح لي أن أبدل لك قميصك لأنني لا أستغرب أن يكون مرضك كله قد تسلل إليك من هنا . . .

قال راسكولنيكوف بعد أن استمع مشمئزاً إلى الكلام المرح الذي تدفق من فم رازوميخين:

- دعني! لا أريد!

قال رازوميخين مصراً:

- لا مناص يا عزيزي! لن يقول أحد أنني أبليت حذائي في غير طائل!

ثم التفت يقول لنيستاسيا:

- هلمي أناستاسينكا! لا تستحي! ساعديني! نعم.. هكذا . . .

استطاع رازوميخين ونيستاسيا أن يبدلاً قميص راسكولنيكوف، رغم

المقاومة التي أبدتها. وعاد راسكولنيكوف يتهالك على وسادته، ولزم الصمت خلال دقيقتين قائلًا لنفسه: «سيلبثان مدة طويلة لا يتركاني وشأنني» ثم سأله وهو ينظر إلى الجدار:

- بأي مال اشتريت هذه الأشياء كلها؟

فأجابه رازوميخين متعجلاً:

- بأي مال؟ عجيب! بمالك أنت. لقد جاء إلى هنا مستخدماً من عند فاخروشين يحمل إليك مالاً أرسلته أمك. إلا تذكرة؟

قال راسكولنيكوف بعد تفكير طويل شاق:

- نعم، الآن تذكريت!

فتأنمه رازوميخين مقطباً قلقاً.

وفتح الباب، ودخل رجل طويل القامة قوي البنية. أحسن راسكولنيكوف أنه سبق أن رأى هذا الرجل.

هتف رازوميخين يقول فرحاً كل الفرح:

- زوسيموف! أخيراً وصل!

الفصل الرابع

زولسيموف

رجل طويل القامة، سمين الجسم، ممتليء الوجه، شاحب اللون، حليق اللحية، يوشك شعره المسبل أن يكون من فرط شقرته أبيض. على عينيه نظارتان، وفي إحدى أصابعه السميكة المنتفخة خاتم كبير من ذهب. أنه في السابعة والعشرين من عمره. يرتدي معطفاً أنيقاً واسعاً مصنوعاً من نسيج صوفي خفيف، وسريراً صيفياً فاتح اللون، وبوجهه عام كان لباسه واسعاً أنيقاً جديداً. أن قميصه الناصع البياض يتألق تالقاً باهراً، وان ساعته تزدان بسلسلة سميكة. أما حركاته فبطيئة بعض الباء، ثقيلة بعض الثقل، رغم أنها ليست خالية من انطلاق مصطنع. هذا إلى أن الادعاء يظهر فيه واضحاً كل الوضوح، رغم جميع الجهد التي يبذلها لاختفاء. أن كل الذين عرفوه قد لاحظوا أنه رجل صعب المراس شديد الطبع، ولكنهم يجمعون على أنه يعرف مهنته معرفة طيبة.

هتف رازوميixin يقول له:

- لقد ذهبت إليك مرتين يا صاحبي! ها هو ذا قد أفاق من غيبوبته كما ترى.

قال زولسيموف:

- نعم! نعم!

ثم أردد يسأل وهو يتفرس فيه ويجلس عند قدميه على طرف السرير
بغير تحرج :

- هيه ! كيف حالنا الآن ؟

قال رازوميخين :

- ما يزال مكتتب المزاج ، ولقد كاد يبكي منذ قليل حين بذلنا له
قميصه !

- هذا طبيعي ! .. كان يمكنكم أن ترجعوا ذلك إلى حين آخر ما دام
يضايقه . . . النبض جيد . أما زلت تشعر بشيء من صداع في رأسك ؟

قال راسكولنيكوف حانقاً مصراً :

- لا ! صحتي حسنة ! أنا معافي !

وكان راسكولنيكوف قد نهض على سريره ملتمعاً العينين متقد
الناظرات . ولكنه لم يلبث أن تهاوى على الوسادة والتفت نحو الحائط .
وكان زوسيموف يراقبه بانتباه فقال بلهجة متأقلة :

- كل شيء على ما يرام . هل أكل شيئاً ؟
ذكر له ماذا أكل المريض ثم سُئل عما يمكن أن يأكله .

قال الطبيب :

- يمكن إطعامه كل شيء ! حساء ، شاي . . . ولكن لا فطر ، ولا قثاء
طبعاً . وقد لا يناسبه لحم البقر أيضاً . ولكن علام هذا الكلام كله ؟
(وتتبادل نظرةً مع رازوميخين) . ولا حاجة إلى الدواء بعد الآن ، لا حاجة
إلى شيء بعد الآن . غداً أرى . . . على أننا نستطيع اليوم في الواقع
أن . . . ولكن . . .

قال رازوميخين :

- سأصطحبه مساء غد في نزهة . نذهب أولاً إلى حديقة يوسوبوف ،
ثم نذهب بعد ذلك إلى «قصر الكريستال»⁽⁴⁷⁾ .

- لو كنت في مكانك لتركته غداً حيث هو. قد أخرج معه مدة قصيرة... على كل حال سوف نرى.

- خسارة... ذلك أنتي أحفل اليوم بانتقالي إلى المسكن الجديد الذي يقع على بعد خطوتين من هنا. ليته يستطيع أن يشاركنا، ولو راقداً على أريكته! أما أنت فسوف تجيء أليس كذلك؟ (قال رازوميفixin هذا متوجهًا بالكلام فجأة إلى زوسيموف). لن تنسى، هه؟ قد وعدتني بهذا. أجاب زوسيموف:

- قد أجيء، ولكنني إذا جئت فسأجيء متأخراً. ماذا أعددت للحفلة؟

- لم أهيء أشياء كثيرة! شاي، فودكا، سمك مجفف، فطائر أيضاً. ليس بيننا غرباء.

- من سيحضر؟

- رفاق من شباب هذا الحي، أكثرهم لا أعرفه من قبل. وسيحضر الاحتفال عمْ لي جاء بالأمس إلى بطرسبرج لأعمال، ولا أراه إلا مرة واحدة كل خمس سنين.

- ما هو عمك هذا؟

- سلخ حياته كلها في مقاطعة نائية مديرًا لمركز بريد... وقد أحيل على التقاعد فهو يتتقاضى معاشًا صغيراً. عمره خمس وستون سنة... لا داعي إلى الكلام عنه... على أنني أحبه في الواقع. سيجيء بورفيري بتروفيتش أيضًا، قاضي التحقيق في الحي. أنه متخصص في القانون. ولكنك تعرفه...

- هل يمت إليك بقرابة أيضًا؟

- قرابة بعيدة جداً! ولكن لماذا أراك معتكر المزاج؟ أمل أن لا تحملك المشاجرة التي وقعت بينك وبينه ذات يوم على أن تظن أنك معفى من حضور الحفلة...

- هوه! أنا لا أكترث به.
- أحسن، أحسن. وهكذا ستضم الحفلة طلاباً، واستاذًا، وموظفاً،
وموسيقياً، وضابطاً وزاميوتوف... .

- قل لي: ما الذي يمكن أن يجمع بينك أو قل بينه (هنا أو ما
زوسيموف باشارة من رأسه إلى راسكولنيكوف) وبين رجل مثل
زاميوتوف؟

- يا لهؤلاء المتعبين! المبادئ طبعاً! يميناً أنك جالس على المبادئ
كجلوسك على خازوق فلست تجرؤ أن تقوم بحركة واحدة على ما يشاء
لك هواك. أما أنا ففي رأيي أن الإنسان الطيب الخير هو في ذاته مبدأ
من المبادئ. ولا يهمني أي شيء آخر. زاميوتوف رجل رائع في
نظرى.

- هو على كل حال رجل يعرف معرفة رائعة كيف يلعب على حبلين
وكيف يجني ربحاً من طرفين.

صاحب رازوميخين وقد ازداد استياوه ازدياداً شديداً:

- ما شأني أنا وهذا؟ ولا أكترث بأنه يلعب على حبلين ويجني الربح
من طرفين. إن كل ما قلته لك هو أنه في نوعه إنسان جيد. ولو نظرنا
إلى جميع أنواع البشر وقدرناهم من جميع الجوانب لوجدنا أن الطيبين
والأخيار ليسوا بكثيرين. أنتي لعلى يقين من أنني أنا نفسي لا أستحق أن
أشتري بصلة، ولو أضفت أنتي.

- أنت تبالغ! أنا مستعد لأن اشتريك ببصلتين اثنتين!

- أما أنا فلا أشتريك إلا بصلة واحدة. ها... يا لك من فكاهي!
ثم إن زاميوتوف ما يزال صبياً صغيراً. ولسوف تأتي مناسبات أشدّ فيها
أذنيه، ولكن يجب على بانتظار ذلك أن أداريه لا أن أصدّه. لا سبيل إلى
إصلاح إنسان بسوء المعاملة، ولا سيما إذا كان صبياً، فإنما يجب على
المرء أن يمكر مزيداً من المكر حين يُعامل صبياً صغيراً. ولكنكم،

معشر التقدميين المتصلبين، لا تفهمون من هذا الأمر شيئاً، ولا تحترمون الطبيعة الإنسانية. وانتم حين لا تحترمون الطبيعة الإنسانية إنما تسيئون إلى أنفسكم. وإذا كنت تحرص على أن تعرف كل شيء، فاعلم أن لنا، أنا وهو، قضية مشتركة.

- هل يمكننا أن نسألك عن هذه القضية المشتركة، ما هي؟

- قضية ذلك الدهان. نعم، سوف ننقذه من تلك الورطة! على أنه أصبح غير معرض لأي خطر. لقد أصبحت القضية واضحة، واضحة جداً. وكل ما علينا هو أن ندفعها إلى نهايتها بسرعة.

- من ذلك الدهان؟

- كيف؟ ألم أقصص عليك القصة. ها... فعلاً... أنا لم أقصص عليك إلا البداية... إن جريمة قتل العجوز المرا比ة، أرملة الموظف... أقصد... أن الدهان أصبح الآن مقحماً في هذه القضية.

- سمعت عن جريمة القتل هذه من قبل... حتى لقد اهتممت بها بعض الاهتمام... لي سبب... نعم، وقرأت أيضاً ما تقوله عنها الصحف ...

- وقد قُتلت اليزافيتا أيضاً!

بذلك نطقـت ناستاسيا على حين فجأة، متوجهة بالكلام إلى راسكولنيكوف. كانت قد بقـيت في الغرفة طوال ذلك الوقت، مستندةً إلى الباب، تتبع الحديث.

تمـم راسكولـنيـكـوف يقول بصوت لا يـكـاد يـسـمع:

- اليـزـافـيتـا؟

قالـت نـاستـاسـيـا:

- نـعـم اليـزـافـيتـا، السـمـسـارـة. أـلـا تـعـرـفـهـا؟ كـانـت تـجيـء إـلـى هـنـا، تـحـتـ، حـتـى لـقـد رـقـعـت لـك قـميـصـاً.

التفت راسكولنيكوف نحو الحائط، حيث تناثر على الورق الأصفر الوسخ رسوم أزهار صغيرة بيضاء، فاختار من هذه الأزهار زهرة مخططة بلونبني ومرسمة رسمًا ردئاً، فأخذ يتأملها محاولاً أن يحصي عدد تويجاتها وعدد الأسنان في حافات أوراقها. وشعر بأعضائه تخدر، حتى بدا له أنها ليست أعضاءه، ولكنه لم يحاول أن يتحرك، وظل ينظر إلى الزهرة مصراً معانداً.

قال زوسيموف يسأل رازوميخين مقاطعاً ثرثرة ناستاسيا باستحياء واضح:

- طيب، فماذا وقع لذلك الدهان؟

وتتابع رازوميخين حدديثه قائلاً بحرارة:

- لقد أقحم هو أيضاً في جريمة القتل.

- هل هناك قرائن؟ وما هي تلك القرائن؟

- قرائن؟ ليست هناك أية قرائن! غير أن القرينة التي يستشهدون بها ليست قرينة، وذلك ما يجب البرهان عليه!.. المسألة بسيطة: لقد أخذوا يكررون تلك الحماقات نفسها التي ارتكبواها حين اشتبهوا في الرجلين الآخرين فاعتقلوهما... أقصد: كوخ وبستريلاكوف! نعم لقد كرروا تلك الحماقات نفسها نقطة نقطة. ما أغرب تصرفهم يا رب! إن المرء ليشعر بالخزي والعار من هذا التصرف، ولو لم يكن له به شأن! قد يجيء اليّ بستريلاكوف اليوم!.. بالمناسبة يا روديا: عليك أن تعرف هذه القصة لأنها وقعت قبيل مرضك، تماماً عشية اليوم الذي أغمي عليك فيه بقسم الشرطة... بينما كانوا يتحدثون في هذا الأمر هناك... .

نظر زوسيموف إلى راسكولنيكوف مستطلعاً، فلم يحرك راسكولنيكوف ساكناً.

قال زوسيموف:

- تريد أن تعرف رأيي يا رازوميخين؟ إنك تسرف في الحركة حول هذه القضية حقاً!

فأجاب رازوميخين صارخاً وهو يضرب المائدة بقبضة يده:

- لا ضير! ستنقذه من تلك الورطة على أية حال! إن الأمر الذي يغيبني في هذا كله أكثر مما يغيبني أي شيء آخر ليس وقوعهم في الخطأ، فالوقوع في الخطأ يمكن التسامح فيه دائماً، حتى إن الخطأ شيء رائع فعلاً لأنّه يؤدي إلى الحقيقة. ليس الخطأ إذن هو الذي يغيبني منهم، وإنما يغيبني إصرارهم على إنكار الأخطاء التي يقعون فيها. أنتي أعتبر بورفيرى، ولكن... اسمع، هل تعرف مثلًا ما هو الذي حيرهم وأضلّهم في أول الأمر؟ أن الباب كان مغلقاً، فلما عاد الرجلان مع الباب كان الباب مفتوحاً، فاستنتجوا من ذلك أن كوخ وبسترياكوف هما القاتلان! أرأيت إلى هذا المنطق ما أعجبه!

- لا تتحمس لهذا التحمس كله: لقد أوقفوهما فحسب... لم يكن في وسعهم على كل حال أن... بالمناسبة... لقد أتيح لي أن أقابل كوخ. يظهر أنه كان يشتري من العجوز الأشياء المرهونة التي تختلف أصحابها عن تجديد رهنها في الموعد المحدد. أليس هذا صحيحاً؟

- بلـى، بلـى، إنه وجد حقير! وهو يشتري سندات أيضاً. هو وجد حقير! هو محتال خطير... شيطان يأخذـه! ولكن ليس هذا ما يثير غضبي وحنقـي، وإنما يثير حنقـي وغضـبي أنـهم يتبعـون روتيناً عـتـيقـاً بـالـيـاـ تراـكمـ الغـبـارـ عـلـيـهـ. إنـ هـذـاـ الرـوـتـيـنـ هوـ الذـيـ يـثـيرـ سـخـطـيـ! وـمـاـ أـسـهـلـ أنـ يـكـتـشـفـ المـرـءـ، فـيـ معـالـجـةـ هـذـهـ القـضـيـةـ، طـرـقـاًـ جـدـيدـةـ كـلـ الجـدـةـ! إـنـ فـيـ وـسـعـنـاـ، إـذـاـ نـحـنـ اـعـتـمـدـنـاـ عـلـىـ عـلـمـ النـفـسـ وـحـدـهـ، أـنـ نـجـدـ السـبـيلـ إـلـىـ مـعـرـفـةـ الـحـقـيـقـةـ. هـمـ يـقـولـونـ: «لـدـيـنـاـ وـقـائـعـ». وـلـكـنـ الـوـقـائـعـ لـيـسـ كـلـ شـيـءـ، وـنـصـفـ الـقـضـيـةـ أـنـماـ يـكـمـنـ فـيـ طـرـيـقـةـ تـأـوـيلـ هـذـهـ الـوـقـائـعـ...ـ

- وهـلـ تـسـتـطـعـ تـأـوـيلـهـاـ، أـنـتـ؟ـ

- عجيب أمرك! أن المرأة لا يمكنه أن يسكت حين يحس، حين يحس بغرائزه أن في وسعه تقديم خدمة إذا هو... آه! هل تعرف القضية تفصيلاً؟

- مازلت أنتظر أن تقصّ على حكاية الدهان.

- سأقصّ عليك حكايته. اسمع: في اليوم الثالث بعد وقوع الجريمة، في الصباح، حين كانوا يدقّون في استجواب كوخ وبسترياكوف مع أن هذين الرجلين كانا قد ذكرا جميع حركاتهما وسكناتها، ورغم أن كل شيء قد اتضح اتصاحاً صارخاً حدث على حين فجأة حادث لم يكن متوقعاً على الإطلاق: أن فلاحاً اسمه دوشكين، وهو صاحب خمارنة تقع أمام العمارة التي وقعت فيها الجريمة، جاء إلى قسم الشرطة حاملاً علبة مجوهرات فيها قرطان من ذهب، وأخذ يروي قصة عجيبة، قال: « أمس الأول، في المساء، بعد الساعة الثامنة بقليل، (لاحظ الوقت: اليوم والساعة) رأيت الدهان نيكولي يهرب إلى خمارتي، وكان قد ارتادها مراراً قبل ذلك، حاملاً إلى علبة فيها قرطان ذهبيان يزدانان بأحجار صغيرة، راجياً أن أرهنهما لدى لقاء قرض قيمته روبلان. فلما استجوبته لأعرف من أين أتى بالقرطين، قال إنه عثر عليهما على رصيف، فلم أسأله غير ذلك (إن دوشكين هو الذي يتكلم)، ونقدته ورقة صغيرة أبي روبلان واحداً، لأنني قلت لنفسي: إذا لم يرهن هذين القرطين عندي فسيرهنهما عند غيري ليشرب بالقرض خمرة، فالأولى أن يبقيا بين يدي أنا: فبذلك أضمن على الأقل أن لا يطوفا العالم كله، فإذا راجت إشاعة تقول إنهما مسروقان، مضيت إلى قسم الشرطة لأبلغ عنهما». واضح أن هذه القصة التي رواها دوشكين سخيفة. وأنا أعرف دوشكين هذا: إنه كذاب كبير. إنه، هو نفسه، يقرضن برهن ويختفي الأشياء المسروقة. فلئن أخذ من نيكولي شيئاً تساوي قيمته ثلاثة روبلان فإنه لم يفعل ذلك من أجل أن «يبلغ عنه». كل ما هنالك أنه خاف. ودعنا من دوشكين هذا على كل

حال. واسمع التتمة. قال دوشكين: «أما ذلك الفلاح، نيكولي ديمانتيف، فإني أعرفه منذ زمن بعيد، منذ الطفولة، فنحن كلانا من إقليم واحد هو إقليم ريازان (مقاطعة زارايسك)، وهو يحب أن يشرب قليلاً، وإن لم يكن سكيراً مدمراً. وكنا نعلم أيضاً أنه كان يدهن الجدران، في ذلك المنزل، مع دمترى، ابن بلده. فلما نقتله ورقة الروبل، بذلها فوراً، وشرب كأسين، واحدة بعد أخرى، ثم تناول النقود الفائضة وانصرف. ولم أر دمترى معه في تلك اللحظة. وفي الغد، سمعنا أن آليونا إيفانوفنا وأختها اليزافيتا إيفانوفنا قد وجدتا مقتولتين بضربي فأس، ولما كنا نعرفهما كلتيهما، فقد راودني شك في أمر القرطين الذهبيين، لأننا، كما سبق أن قلت، كنا نعرفهما ونعرف أن آليونا إيفانوفنا تفرض على رهون. عندئذ ذهبت إلى العمارة، وأخذت أقصى الأمر قليلاً. سألت أولاً عن نيكولي أهو موجود، فقال لي دمترى إنه غائب يتصف ويجهو، وإنه قد عاد ثملاً في أول الصباح فلم يمكث إلا عشر دقائق، ثم خرج من جديد، وعرفت أن ميتكا لم يره بعد ذلك، وأنه طرق يتم عمله وحيداً. والشقة التي كانا يدهنانها أنها تقع في الطابق الثاني، وتطل على نفس السلم الذي تطل عليه شقة المرأتين الشقيقتين. عرفنا هذا كله، ولكننا لم نقل عندئذ شيئاً لأحد. (إن دوشكين هو الذي ما يزال يتكلم). غير أننا أسرعنا نجمع كافة المعلومات التي يمكن جمعها عن جريمة القتل، ورجعنا إلى بيتنا وقد امتلأت نفوسنا ريبة واشتباهـا. وفي الصباح، في الساعة الثامنة من هذا الصباح (أي غداة غد وقوع الجريمة)، رأيت نيكولي داخلاً على الخمارـة. لا أستطيع أن أقول إنه لم يكن قد شرب خمراً بعد، ولكني لا أستطيع أن أقول أيضاً إنه كان ثملاً جداً، وإنما كان قادراً على متابعة حديث. وجلس على دكة دون أن ينطق بكلمة. ولم يكن يوجد في الخمارـة عندئذ إلا هو وشخص آخر عابر، وشخص ثالـث من رواد الخمارـة كان نائماً على دكة، هذا عـدة الصبيان اللذين يعملان في

الخمارة طبعاً. سألت نيكولاي:

- هل رأيت ميتكا؟

فأجابني:

- لا، لم أره.

- وهل كنت هنا؟

- لم أكن هنا منذ أمس الأول.

- وأين نمت في هذه الليلة؟

- في حي «الرمال»، عند أهل كولومنا⁽⁴⁸⁾.

- ومن أين جئت بالقرطين في ذلك اليوم؟

- عثرت عليهما على الرصيف.

وكان يقول ذلك كله مشياً بوجهه عنى. سأله:

- هل سمعت عن حدوث كذا وكذا، في ذلك المساء نفسه، في تلك الساعة نفسها وعلى نفس السلم؟

فأجابني:

- لا، لم أسمع عن شيء من هذا!

سمع ما أقوله ولكنه حملق، وابيض لونه حتى صار كالطباشير. وفيما أنا أروي له ما حدث، رأيته يتناول طاقيته فجأة، وينهض. حاولت أن أحبسه عن الخروج، فقلت له:

- انتظر يا نيكولاي! ألا تريد أن تشرب كأساً؟

وأومأت إلى أحد الصبيين أن يسد عليه الطريق، وتركت البسطة. لكن صاحبنا نيكولاي ولئن هارباً، فهو ينبعطف عند ناصية الشارع، حتى إنني لم أره بعد. لم يبق إذن شك: أنه هو الذي ارتكب تلك الجريمة!

قال زوسيموف:

- واضح!

قال رازوميخين :

- انتظر! اسمع التتمة! مضت الشرطة كلها تبحث عن نيكولاي طبعاً فتشوا خمارة دوشكين، ثم أوقفوا دوشكين، وأوقفوا دمترى أيضاً، وقلبوا كل شيء عاليه سالفه عند أهل كولومنا، ثم لم يستطعوا أن يضعوا أيديهم على نيكولاي إلا بعد ثلاثة أيام، أي أمس الأول. قبضوا عليه في خان قرب حاجز «س...». يظهر أنه حين وصل إلى هناك استل صليبه الفضي، وطلب مقايضة هذا الصليب بزجاجة فودكا صغيرة، فأجيب طلبه. وبعد بضع دقائق دخلت امرأة إلى الاسطبل، فإليك ما رأته من شق الباب: رأت نيكولاي في الزريبة المجاورة، قد ربط حزامه بوتد وجعل فيه عقدة متزلقة، وصعد على قطعة غليظة من خشب يريد أن ينتحر شنقاً. خطرت ببال المرأة هذه الفكرة الموفقة، وهي أن تصرخ، فصرخت، فهرع الناس إلى المكان، وقالوا له:

- آ... أهكذا أنت إذن؟

فقال لهم:

- نعم... خذوني إلى قسم الشرطة في حي كذا، وسأعترف هنالك بكل شيء!

فاقتادوه إلى قسم الشرطة الذي حذده، أي إلى قسم الشرطة في حيننا، فسرعان ما بدأت الأسئلة تنهمر عليه انهمار المطر: كيف، وماذا، ولماذا، وأين، ومن أنت، وما ستكل - «عمرى اثنان وعشرون سنة» - وهلّم جرا!...

سؤال:

- بينما كنت تعمل مع دمترى، ألم تر أحداً على السلم في ساعة كذا؟

- مَرَّ أَنَّاسٌ كَثِيرُونَ طَبِيعًا، وَلَكِنْ لَيْسَتْ مَهْمَتِي أَنْ أَرَاقِبَهُمْ . . .
- أَفْلَمْ تَسْمَعْ شَيْئًا مَا، أَفْلَمْ تَسْمَعْ ضَبْجَةً مَا؟
- لَا، لَمْ أَسْمَعْ شَيْئًا يَلْفَتُ الانتِبَاهَ!
- وَأَنْتَ يَا نِيكُولَايُ، هَلْ كُنْتَ تَعْلَمُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ الْأَرْمَلَةَ قُتِلَتْ وَسُرِقَتْ هِيَ وَأَخْتَهَا، يَوْمَ كَذَا، سَاعَةً كَذَا؟
- مَا عَلِمْتُ شَيْئًا، وَلَا رَأَيْتُ شَيْئًا. عَلِمْتُ بِالْأَمْرِ أَوْلَى مَرَّةً مِنْ أَنَّانَاسِي بِالْفَلَوْفَتْشِ مِنْذَ يَوْمَيْنِ، فِي الْخَمَارَةِ.
- وَمَنْ أَينْ جَهَتْ بِالْقَرْطَيْنِ؟
- عَثَرْتُ عَلَيْهِمَا عَلَى الرَّصِيفِ.
- لِمَاذَا لَمْ تَأْتِ إِلَى الْعَمَلِ مَعَ دَمْتَرِيِّ غَدَاءَ ذَلِكَ الْيَوْمِ؟
- لِأَنِّي قَصَّفْتُ وَلَهُوتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.
- أَينْ قَصَّفْتُ وَلَهُوتَ؟
- فِي مَكَانٍ كَذَا.
- لِمَاذَا هَرَبْتَ مِنْ عِنْدِ دُوشِكِينِ؟
- لِأَنِّي خَفَتْ خُوفًا شَدِيدًا.
- مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَفَتْ؟
- خَفَتْ أَنْ أَحَالَ إِلَى الْمَحاكِمَةِ.
- وَلَكِنْ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَخَافَ مِنْ أَمْرِ كَهْذَا، مَا دَمْتُ تَعْرِفُ أَنَّكَ لَمْ تَقْتَرِفْ جَرْمًا؟

وَعَقْبَ رَازُومِيُخِينَ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

- نَعَمْ يَا زُوْسِيمُوفْ، بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ إِنَّمَا أَلْقَيْتُ عَلَيْهِ هَذَا السُّؤَالَ، بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ نَفْسَهَا، صَدَقَتْ أَمْ لَمْ تَصَدَّقْ! نَعَمْ، بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ

نفسها... أنا أعلم ذلك علم اليقين، لقد نقل إلى السؤال بنصه، كلمة
كلمة. ما رأيك؟ ما رأيك؟

- نعم، نعم، ولكن هناك قرائن على كل حال... السؤال الذي
أقوه عليه، أتكلم عن طريقة هؤلاء الناس في فهم مهنتهم. ولكن دعنا
من هذا الآن، ولنكمel وصف ما جرى بينهم وبين نيقولاي. ضيقوا عليه
الخناق، ثم ضيقوا عليه الخناق مزيداً من التضييق، فاعترف. قال:

- لم أغير بالقرطين على الرصيف، وإنما عثرت عليهم في الشقة
التي كنا ندهنها أنا ودمtri.

- كيف عثرت عليهم؟

- كيف؟ هكذا: كنا قد عملنا أنا ودمtri طول النهار حتى الساعة
الشامنة، وكنا نستعد للانصراف، ولكنها هو ذا دمtri يتناول فرشاة
ويأخذ يلطخ لي وجهي. فلما لطخ لي وجهي، ولئلai هارباً، فركضت
وراءه أطارده. كنت أركض وأطلق صرخات وحشية ولكن حين خرجت
من السلالم ووصلت إلى فناء المنزل، رأيتني أسقط على الباب الذي كان
معه عندئذ بعض السادة. أما عدد أولئك السادة فإني لا أذكره الآن.
أخذ الباب يستمني، ثم جاء الباب الثاني فأخذ يستمني أيضاً،
وخرجت امرأة الباب الأول من مسكنها فأخذت تشتمنا كلينا، وفي
تلك اللحظة كان يمر تحت باب الدخول سيد تصحبه سيدة، فأخذ
يستمنا هو أيضاً، لأننا كنا، أنا ودمtri، قد انبطحنا فسدنا عليه
الطريق. كنت قد أمسكت دمtri من شعره، ورميته على الأرض
ورحت أهوى عليه بوابل من اللكمات، وكان دمtri تحتي، قد أمسك
بشعري وأخذت لكماته تنهر على أيضاً - ولكن ذلك كله لم يكن دافعه
الخبث والشر، وإنما كان دافعه المودة والمحبة، فهو نوع من التسلية.
ثم تخلص دمtri، ولئلai هارباً إلى الشارع، فركضت وراءه ولكنني لم
أستطيع أن أدركه. عندئذ عدت إلى الشقة وحدى لأرتب أشيائي. وفيما

أنا أرثها، منتظرًا دمترى، إذا بي أدوس على علبة صغيرة، قرب الباب، في ركن الدهليز، فنظرت، فرأيتها ملفوفة بورق، فنزعت الورق فرأيت كلاً بتين، كلابتين صغيرتين، صغيرتين جداً، فشدّتهما فخرج القرطان . . .

هتف راسكولنيكوف يسأل فجأة، وهو يحدّق إلى رازوميخين بنظرة مضطربة مروعة، بينما هو ينهض جسمه ببطء، ويُسند يده إلى السرير:

- وراء الباب؟ كانت العلبة وراء الباب؟

- نعم، ولكن ماذا بك؟ ماذا دهاك؟

وكان رازوميخين قد نهض هو أيضًا عن مقعده.

أجاب راسكولنيكوف بصوت لا يكاد يُسمع، وهو يتھالك على وسادته من جديد، ويعود يلتفت نحو الحائط:

- لا شيء.

ولبث الجميع صامتين برهة وجيزة.

قال رازوميخين أخيراً وهو يلقي على زوسيموف نظرة سائلة مستفهمة:

- لا شك أنه كان قد غفا، وأنه ما يزال يحلم، أليس كذلك؟

فحرك زوسيموف رأسه بإيماءة خفيفة تعنى النفي. وقال:

- أكمل قصتك. ماذا حدث بعد ذلك؟

- بعد ذلك، بعد ذلك! نعم . . . ما إن رأى القرطين، حتى نسي عمله ونسي دمترى، وتناول قبعته وركض يسعى إلى خماره دوشكين، فأخذ منه روبلاً، كما أسلفنا أيضًا. أما عن جريمة القتل، فإنه ما يزال يصر على أقواله:

- ما علمت شيئاً ولا رأيت شيئاً.

- فلماذا اختفيت إذاً حتى الآن؟

- خفت.

- ولماذا أردت أن تتحر شنقاً؟

- لأنني قدرت أن أمراً سيحدث لي.

- ما هو الأمر الذي قدرت أنه سيحدث لك؟

- قدرت أنني سأحال إلى المحاكمة.

وعقب رازوميixin على ذلك سائلاً زوسيموف:

- هذه هي القصة كاملة. فما الذي تظن أنهم استنتاجوه من ذلك كله؟

- ما عسى أظن؟ هناك قرائن. ومهما تكن هذه القرائن، فإنها تبقى قرائن. الواقع قائمة. ليس في وسعهم أن يخلوا سبيل صاحبك الدهان، رغم كل شيء.

- ولكنهم حشروا مع القتلة وانتهى الأمر. لم يبق عندهم ظل من شك . . .

- أنت تخطئ . . . أنت تتحمس وتندفع . . . يجب أن تنظر في واقعة وجود القرطين مع نيكولاي. لا بد لك من التسليم بأن هذين القرطين إذا كانا انتقلا رأساً في ذلك اليوم نفسه، في تلك الساعة نفسها، من صندوق المرأة العجوز إلى يدي نيكولاي، فقد انتقلا بطريقة من الطرق. هذا أمر له خطورته في التحقيق . . .

هتف رازوميixin:

- أقصد طريقة انتقالهما إلى يدي نيكولاي؟ ألا إن أمرك لعجب! هل يمكنك حقاً، وأنت طبيب يفرض فيه أن يعرف الإنسان، وأتيح له عدا ذلك أن يسبر الطبيعة الإنسانية، هل يمكنك أن لا ترى من خلال جميع هذه المعلومات، طبيعة نيكولاي هذا؟ هل يمكن أن لا ترى منذ البداية أن كل ما صرّح به نيكولاي أثناء تلك الاستجوابات جميعاً إنما كان الحقيقة خالصة صافية؟ لقد وصل القرطان إلى يديه على النحو

الذي ذكره تماماً. داس على العلبة فتناولها .
- الحقيقة خالصة!! .. ولكن اعترف هو نفسه بأنه كذب في المرة الأولى. أليس كذلك؟

- اصغ إلى بانتباه! إن البواب، وكوخ، وبسترياكوف، والبواب الثاني، وامرأة البواب الأول، والبائعة التي كانت في مسكنها حينذاك، والمستشار القضائي كريوكوف الذي نزل من مركبة في تلك اللحظة نفسها وكان يجتاز عتبة المدخل متأبطاً ذراع سيدة، إن هؤلاء جميعاً، أي ثمانية شهود أو عشرة، قد أجمعوا في أقوالهم على أن نيقولاي كان قد بطبع دمtri أرضاً، وجثم عليه، وراح يمطره بوابل من اللكمات، وأن دمtri كان من جهة ممسكاً بشعره يكيل له اللكمات هو أيضاً، وأنهما تدحرجاً كليهما بالعرض فسداً الطريق، وأن الشتائم كانت تنهال عليهما من كل صوب، وإنما كانا «أشبه بالصبية الصغار»، على حد تعبير الشهود نصاً، يولولان ويتضاربان وينفجران ضاحكين ويتسابقان في القهقهة ويطارد كل منهما الآخر في الشارع كالصبيان وقد ظهر في وجهيهما هزل الأطفال! هل سمعت هذا كله؟ فاسمع الآن البقية: كانت الجثتان، فوق، في ذلك الوقت نفسه، ما تزالان ساخنتين ... ساخنتين ... نعم، نعم، لقد كانتا ساخنتين حين اكتُشفتا. فلو كان نيقولاي ودمtri هما القاتلين، أو كان نيقولاي وحده القاتل، وكانا في الوقت نفسه قد سرقا العجوز أو لم يزيدا على أن شاركا في السرقة مشاركة فحسب، لكان من حقي أن ألقى عليك هذا السؤال: هل تلك الحالة النفسية (أعني الولولة، والضحك، والشاجر الصبياني تحت باب الدخول) تتفق وال fas، والدم والمكر الوحشي والحدر والسلب والنهب؟ أيكونان قد قتلا منذ برهة قصيرة، منذ خمس دقائق أو عشر في أكثر تقدير وهذه نتيجة مستخلصة من سخونة الجثتين - ثم هما يمضيان فجأة، تاركين الجثتين والباب مفتوح، مع علمهما بأن أناساً سيصلون من لحظة إلى أخرى. أيقتلان منذ برهة وجيبة، ثم يتركان غنيمتهمما،

ويمضيأن يتدرجان في الشارع «كالصبية الصغار»، ويضحكان ضحكاً صاحباً، ويلفتان إليهما انتباه الناس جميعاً، وهذا ما يؤكده عشرة شهود بصوت واحد؟

- هذا غريب فعلاً. ذلك مستحيل طبعاً، ولكن . . .

- يا أخي، إذا كان وجود القرطين بين يدي نيكولي، في ذلك اليوم نفسه، في تلك الساعة نفسها، واقعةً مادية هامة تشهد عليه - وهي مع ذلك واقعة تفسرها أقوال المتهم نفسه تفسيراً تاماً، فيمكن إذاً دحضها - أقول إذا كان الأمر كذلك فيجب أن ندخل في الحساب وقائع أخرى تشهد للمتهم لا عليه، وتأكد براءته، لا سيما وأنها وقائع ثابتة لا سبييل إلى دحضها. ولكن ماذا تظن؟ هل تعتقد أن قضايانا، وهو على ما هو عليه، يمكن أن يسلم بأن واقعة قائمة على الاستحالة السيكولوجية وحدها، واقعة مبنية على الحالة النفسية فحسب، يمكن أن تُعدّ واقعة ثابتة لا سبييل إلى دحضها، واقعة قادرة بمفردها على أن تهدم جميع وقائع الاتهام المادية أياً كانت؟ لا، إن قضايانا لن يسلم بهذا، لن يسلم به في حال من الأحوال، وذلك بحججة أن العلبة قد وُجدت، وأن الرجل أراد أن يشنق نفسه، وأنه «ما كان ليفعل ذلك لو لا شعوره بجرمه!» تلك هي المسألة الرئيسية، ذلك هو السبب الذي يحضرني على الاندفاع والحماسة، هل فهمت؟

- أرى أنك تندفع وتتحمس فعلاً. انتظر! نسيت أن ألقى عليك سؤالاً: ما هو الدليل الذي نملكه على أن العلبة التي تحوي القرطين مصدرها صندوق العجوز حقاً؟

أجاب رازوميغين على مضض، وقد عبس وجهه:

- ذلك ثابت. لقد عرف كوخ العلبة، وحدد الشخص الذي رهنها عند العجوز، وبرهن ذلك الشخص برهاناً قاطعاً على أنها علبة.

- هذا مؤسف. والآن ألقى عليك سؤالاً آخر: ألم يلمح أحد

نيقولاي لحظة كان كوخ وبسترياكوف يصعدان السلالم؟ أفلأ يمكن إثبات ذلك بطريقة من الطرق؟

أجاب رازوميخين متحسراً:

- لا، لم يلمحه أحد، وذلك هو الأمر المحزن. أن كوخ وبسترياكوف نفسيهما لم يلاحظا العمال أثناء صعودهما. صحيح أن شهادتهما الآن لا تتسق بأهمية كبيرة... هما يقولان: «رأينا باب الشقة مفتوحاً، وقدرنا أنه ربما كانت تجري فيها إصلاحات، ولكننا لم ننتبه أثناء مرورنا، ولا تذكر أكانت فيها عمالة أم لا».

- فالتفسير الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه إذن، للتدليل على براءتهما، هو أنهما كانا يتضاربان ويضحكان مقهقحين. طيب! هذا دليل قوي ولكن... اسمح لي: كيف تفسر أنت الواقع؟ كيف تفسر العثور على القرطين إذا كان قد وجدهما على نحو ما صرحت؟

- كيف أفسرها؟ ليس هناك شيء يحتاج إلى تفسير: الأمر واضح وضوح النهار، أو قل في أقل تقدير إن الطريق الذي يجب أن يسير فيه التحقيق واضح مرسوم. والعلبة هي التي ترسم هذا الطريق. إن القرطين قد سقطا من القاتل الحقيقي. كان هو في أعلى، موصدًا عليه الباب بالمزلاج، حين رابط كوخ وبسترياكوف على الباب. وقد ارتكب كوخ حماقة كبيرة، حين نزل في أثر صاحبه، فانتهز القاتل الفرصة، فهرب من الشقة، ونزل هو أيضاً، إذ لم يكن له مخرج آخر. وفيما كان على السلم، اختباً عن أعين كوخ وبسترياكوف والباب بدخوله إلى المسكن الخالي الذي تركه دمترى ونيقولاي منذ لحظة قصيرة، فظل مختبئاً وراء الباب بينما كان الباب والرجلان الآخران يصعدون. حتى إذا انقطعت ضجة وقع أقدامهم نزل بهدوء، وذلك في اللحظة التي كان فيها دمترى ونيقولاي يطارد كل منهما صاحبه في الشارع أي في اللحظة التي كان قد تفرق فيها الجميع فلم يبق أحد في مدخل العمارة. بل إن من الجائز أن

يكون أحدهم قد رأه، لكنه لم يلاحظه: إن ناساً كثيرين يمرّون. أما العلبة فلا بد أنها قد سقطت من جيبي لحظة كان واقفاً وراء الباب، فلم يتبه إلى ذلك. لأن ذهنه كان مشغولاً عندئذ بهموم أخرى كثيرة. نعم، إن العلبة تبرهن برهاناً قاطعاً على أن القاتل قد رابط هناك. تلك هي القصة كلها.

قال زوسيموف:

- هذا تفسير بارع! نعم... حقاً هذا تفسير بارع جداً يا صاحبي...
- بارع جداً جداً...
- ولكن لماذا؟ لماذا تقول؟...
- لأن كل شيء فيه مرتب بصدق ومركب بإحكام.. لكاننا في مسرح!...

هم رازوميخين أن يتكلم فقال:

- فيه...

ولكن الباب فتح في تلك اللحظة نفسها، فانفرج عن قادم جديد لم يكن يعرفه أحد من الحضور.

الفصل الخامس

سيد ليس الآن في ريعان الشباب، سيد متتكلف متصنع، ذو أبهة وجلال، تعبّر هيئته عن التحفظ والتعالي، وقف على العتبة يلقي على ما حوله نظرات استطلاع فيها دهشة لا تخفي وكأن عينيه تلقيان هذا السؤال: «أتراني ضللت الطريق؟» أنه يتفحص «حجرة» راسكولنيكوف الواطئة الضيقّة وهو يشعر بشيء من الشك ويبدي نوعاً من الخوف بل ويظهر شيئاً من الأسف والمضمض. وبمثل هذه الدهشة نفسها وجهه بصره إلى راسكولنيكوف، ثم ثبّته عليه، فرأى راسكولنيكوف الذي لم يكن مرتدياً ثيابه ولا حلق ذقنه، والذي كان مشعر الشعر راقداً على أريكته الوسخة الحقيرة، رأاه يتفحصه من جهة دون أن يتحرك. وبهذا البطء نفسه أخذ يلاحظ رازوميixin الذي لم يكن ممشط الشعر ولا محلوق الذقن وكان هو أيضاً يتفرس فيه باستطلاع مستهتر وقع دون أن يتحرك. ختّم صمت متواتر خلال ما يقرب من دقيقة ثم لم يلبث المشهد أن تغير تغيراً طفيفاً كما ينبغي أن تتوقع. ذلك أن القادم الجديد قد أدرك من بعض العلامات، وهي علامات واضحة جداً على كل حال، أن هيئته المسرفة في الصرامة لن تنفعه كثيراً في هذه الحجرة، فلطّف هيئته بعض التلطيف، واتجه إلى زوسيموف يسأله بأدب وكيسة، مع احتفاظه بشيء من الجمود والصلابة، قائلًا بلهجة تبرز مقاطع الكلام ابرازاً وأضحاً:

- روديون رومانوفتش راسكولنيكوف، طالب أو طالب سابق؟
تحرك زوسيموف ببطء، ولعله كان سيجيب لو لا أن رازوميخين الذي
لم يسأل أحد شيئاً أسرع يسبقه إلى الجواب فقال:
- هو ذا... راقد على السرير... ماذا تريد أنت؟
إن هذا السؤال الذي ليس فيه شيء من تحرج:
«ماذا ت يريد أنت؟» قد بلبل السيد المتصنّع فأوشك أن يلتفت نحو
رازوميخين، ولكنه استطاع أن يسيطر على نفسه، فاتجه مرة أخرى
بسرعة شديدة إلى زوسيموف.
- نعم، هذا راسكولنيكوف!

كذلك قال زوسيموف بإهمال وتنافل، وهو يشير إلى المريض ب أيامه
من رأسه، ثم ثناء بفتح فماً واسعاً سعة غير مألوفة أيضاً. ثم أغطس
يده في جيب صُدِيرته ببطء فاستلّ منه ساعة ذهبية كبيرة محدبة الشكل،
ففتحها ونظر فيها، ثم أعادها إلى جيبه بذلك البطل وبذلك التوانى
نفسه.

وفي أثناء هذا الوقت، ظل راسكولنيكوف راقداً على ظهره، وظل
صامتاً لا يقول كلمة، وكان يلقي على الزائر نظرة ثابتة عنيدة، وان تكون
هذه النظرة لا تعبر عن أي فكرة. إنه وقد تحول وجهه عن تلك الزهرة
الصغيرة العجيبة المرسومة على ورق الجدار، يبدو الآن شاحباً شحوباً
شديداً، وتدل ملامحه على أنه يعاني الما هائلأً، حتى لكانه خارج من
عملية موجعة أو كأنه أطلق سراحه بعد التعذيب. ولكن القادم الجديد
أخذ يثير فيه بعض الانتباه شيئاً بعد شيء ثم أخذ يثير فيه شكاً وارتياباً،
حتى لقد أثار فيه آخر الأمر نوعاً من خوف وخشية. فلما قال زوسيموف
وهو يومئ اليه: «نعم هذا راسكولنيكوف» انتفض فجأة كأنما وحزته
إبرة، وجلس على السرير، وقال بلهجة تقاد تكون تحدياً وان يكن
صوته واهناً ضعيفاً متقطعاً:

- نعم، أنا راسكولنيكوف! ماذا تريد؟

نظر إليه الزائر وقال يعرف نفسه بلهجة رصينة وقور:

- بيوتر بتروفتش لوجين. أحب أن أظن أن اسمي ليس مجهاً عندك تماماً.

ولكن راسكولنيكوف الذي توقع شيئاً غير هذا، نظر إليه دون أن يجيب، وكان زائغ البصر شارد الفكر كأنه يسمع اسم بيوتر بتروفتش أول مرة حقاً.

سأله بيوتر بتروفتش مرتبكاً بعض الارتباك:

- كيف؟ هل يمكن أن لا تكون قد تلقيت أي نبأ حتى الآن؟

فلم يزد جواب راسكولنيكوف على أن راح ينزلق على الوسادة ببطء، ثم صالب يديه وراء رأسه، وأخذ ينظر إلى السقف. طاف بوجه لوجين تعبير عن حزن، وأخذ زوسيموف ورازوميixin ينظران إليه بمزيد من الاستطلاع والفضول، حتى بدا عليه الاضطراب في آخر الأمر. ودمدم يقول:

- كنت أفترض وأقدر أن الرسالة، وقد أودعت في البريد منذ أكثر من عشرة أيام إن لم يكن منذ خمسة عشر يوماً، لا بد أن...

فقط اقطعه رازوميixin فجأة بقوله:

- اسمع! لماذا تبقى واقفاً هذه الوقفة على الباب؟ هلمْ فاجلس إذا كان لديك شيء تريد أن تشرحه... إن العتبة لا تتسمع لكما كليكما أنت وناستاسيا! يا ناستاسيوشكا، تنحِي قليلاً، ودعيه يمر! تقدم! هذا كرسبي! ادخل!

قال رازوميixin ذلك، وأبعد كرسيه عن المائدة، جاعلاً بينها وبين ركبتيه فراغاً صغيراً، ولبث على هذا الوضع، المزعج بعض الازعاج، برهةً من الوقت، ينتظر أن «يتسلل» الزائر من هذه الفرجة. لقد اختار

رازوميخين اللحظة المناسبة اختياراً لا يدع للزائر سبيلاً إلى الرفض، لذلك أسرع الزائر ينسد في الفراغ الضيق متعرضاً، حتى إذا وصل إلى الكرسي جلس وألقى على رازوميخين نظرة ريبة وشك.

قال رازوميخين بغير اكتراث:

- لا تتحرج! لا تتحرج! إن روديا مريض منذ خمسة أيام، وقد ظل يهدي ثلاثة أيام، لكنه ثاب الآن إلى رشده تماماً، حتى إنه أصبح يُقبل على الطعام نهماً. والجالس هناك هو طبيبه. وقد فحصه منذ برهة قصيرة. أما أنا فإني أحد رفاق روديا، كنت طالباً مثله وأصبحت الآن مريضاً له. فلا تنتبهلينا، ولا تحفل بنا، ولا تتحرج منا. أكمل كلامك وقل ما تريد أن تقوله!

قال بيوتر بتروفتش:

- شكراً.

ثم التفت يسأل زوسيموف:

- ولكن إلا يزعج المريض حضوري وحديفي؟

فأجابه زوسيموف مجمماً:

- ل... لا! حتى لقد يسليه هذا قليلاً!

قال ذلك وتناءب من جديد.

قال رازوميخين:

- نعم، نعم! لقد أفاق من غيبوته منذ مدة طويلة، منذ هذا الصباح!

قال رازوميخين ذلك بلهجته فيها من الألفة ورفع الكلفة ما جعل بيوتر بتروفتش يغير موقفه فأخذ يشعر بشيء من الارتياح والانطلاق، ولعل ذلك يرجع بعض الرجوع أيضاً إلى هذا الفقير الواقع رغم كل شيء في أن يعرف بنفسه على أنه طالب.

بدأ لوجين يتكلم فقال:

- إن والدتك . . .

فإذا برازو ميخين يهتف بصوت عال:

- هم!

فرشقه لوجين بنظرة مستوضحة مستفهمة. فقال له رازوميخين:

- ليس هذا شيئاً! لا تلق إلى هذا بالأَّ. هلْ أَكْمَلْ كلامك.

رفع لوجين كتفيه متعجباً، وواصل حديثه فقال:

- إن والدتك قد شرعت في كتابة رسالة إليك حين كنتُ عندها. فلما وصلتُ إلى هنا تعمدت أن لا أجيء لزيارتكم قبل انقضاء بضعة أيام وذلك بغية أن أكون على يقين كامل من أنك أطلعت على كل شيء. ولكتني أراك، مدھوشاً كل الدهشة . . .

فقطاعه راسكولنيكوف فجأة، وظهرت في هيئته علامات نفاد الصبر والزعل، قاطعه قائلاً:

- أعرف! أعرف! أنت الخطيب، أليس كذلك؟ أعرف أعرف.
ويكفيوني هذا.

أحسن بيوتر بتروفتشر بأنه أهين فعلاً، ولكنه صمت. كان يحاول جاهداً أن يفهم ما قد يعنيه كلام راسكولنيكوف ودام الصمت ما يقرب من دقيقة.

وفي أثناء ذلك كان راسكولنيكوف الذي التفت نحوه قليلاً ليجيئه، قد أخذ يتفرس فيه فجأة بعناد شديد واستطلاع قوي كأنه وقته لم يتسع منذ قليل لأن يفحصه فحصاً كاملاً، أو لأن شيئاً جديداً قد خطف بصره فيه، حتى لقد أنهض رأسه عن الوسادة لهذا الغرض عمداً. وكان ذلك الشيء في مظهر بيوتر بتروفتشر لا يخفي عن عين الناظر إليه فعلاً، إنه شيء خاص، شيء لا أدرى ما هو، شيء يسُوَغ الصفة التي أطلقها عليه راسكولنيكوف بغير تحرج حين سماه «الخطيب». إن المرأة يلاحظ قبل كل شيء يلاحظ بوضوح شديد أن بيوتر بتروفتشر قد أسرع يستفيد من

الأيام القليلة التي يعتزم قضاءها في العاصمة ليجعل نفسه جميلاً وأنيناً بانتظار وصول خطيبته، وذلك، على كل حال، أمر مشروع تماماً، بريء كل البراءة. حتى ليمكن أن يغفر المرء لهذا الرجل، بسبب لقب «الخطيب» الذي أصبح يحمله، ما كان يراه في نفسه من رأي لعله مسرف في التعظيم، بعد التبدل الموفق السعيد الذي طرأ عليه. كان يمكن أن تُعد ثيابه كاملة كل الكمال رائعة كل الروعة، لو لا عيب واحد هو أنها خارجة من عند الخياط رأساً لهدف محدد وغاية معينة. حتى قبعته المستديرة الأنique الجديدة كانت تدل على ذلك الهدف وتبني بذلك الغاية: أن بيوتر بتروفتش يداريها مداراة فيها شيء من الغلو ويمسكها بيديه امساكاً مفرطاً في الاحتياط والحذر. وحتى القفازان الزاهيان بلون البنفسج اللذان اشتراهما من محل جوفان كانا يشهدان بذلك الهدف ويشيران إلى تلك الغاية، على الأقل لأن لوجين كان يحاذر أن يلبسهما، فهو يحملهما بيده بغية أن يكون لهما أثر في أعين الناظرين. إن ثياب بيوتر بتروفتش تغلب عليها، في العادة، الألوان الزاهية التي يحبها المراهقون. ولقد كان يرتدي في ذلك اليوم ستراً صيفية جميلة بلون الكستناء، وسرولاً صيفياً زاهياً، وصديرية مناسبة من نفس القماش، وقميصاً من قماش رقيق جداً، قد اشتراه منذ قليل أيضاً، ورباطاً للعنق تخدذه خطوط بلون الورد، وأجمل ما في ذلك له أن هذه الملابس جميعها كانت تتسع وشخص بيوتر بتروفتش كل الاتساق. إنك لو نظرت إلى وجهه النضر الذي لا يخلو من جمال لا يمكن أن تقدر أنه في الخامسة والأربعين من عمره. وهذا سالفان بلون الكستناء، يحيطان بوجهه إطاراً لطيفاً. أنهما مقدودان على شكل ضلعين، فهما يتکاثفان حول الذقن تکاثفاً حلواً، وقد حُلقت الذقن حلقاً ناعماً فهي ملتمعة براقة. وشعره نفسه، الذي لم يكد يشيخ، والذي تولى الحلاق تصفيقه وتجمعيده، ليس له ذلك المظهر المضحك الغبي الذي نراه عادة في الشعر المجعد لأنه يضفي على وجه المرء ذلك التعبير الأبله الذي يلاحظ في وجه ألماني يرتدي ثياب الزفاف. ولشن كان في هذا الوجه

الرصين اللطيف شيء مزعج بل ومنقىً مع ذلك، فإن مرد هذا إلى أسباب أخرى. نظر راسكولنيكوف إلى السيد لوجين يتفحصه بغير كلفة، ثم ابتسما مسمومة، ثم استرخى على الوسادة مرة أخرى، وعاد ينظر إلى السقف من جديد.

ولكن السيد لوجين صمد، وبدا عليه أنه قرر مذعنًا أن لا يلاحظ الآن هذه الحركات الغريبة:

وقال يقطع الصمت بجهد ومشقة:

- يؤسفني أشد الأسف أن أجده على هذه الحال من المرض ولو قد علمت أنك مريض لجئت أزورك قبل الآن. ولكن الأعباء الكثيرة المتبعة قد حالت بيبي وبين ذلك. هذا عدا أن هنالك دعوى هامة جداً توجب عليّ وظيفي، كمحام، أن أرفعها إلى مجلس الشيوخ. ناهيك عن المشاغل التي لا بد أنك تدركها... أنتي أنتظر وصول والدتك وأختك.

تحرك راسكولنيكوف، وبدا عليه أنه يريد أن يقول شيئاً، وعبر وجهه عن شيء من الانفعال، فأمسك بيوتر بترفتش عن الكلام، وانتظر برهة، ولكنه لم يلبث أن استأنف حديثه حين رأى أن راسكولنيكوف لا يتكلم، فقال:

- ... وقد وجدت لهما مسكنًا ينزلانه في الآونة الأولى...

سأله راسكولنيكوف بصوت واهن:

- أين يقع هذا المسكن؟

- غير بعيد عن هنا. في عمارة باكالايف.

قال رازوميخين مقاطعاً:

- في شارع «الصعود». تضم العمارة طابقين مفروشين يؤجرهما التاجر يوشين. لقد ذهبت إلى هناك.

- نعم، هي غرف مفروشة.

قال رازوميixin:

- منزل حقير، فظيع، قذر، عفن، وهو فوق ذلك مشبوه، جرت فيه قصص بشعة... لا يعلم إلا الشيطان من هم أولئك الذين يقيمون فيه... لقد زرته بنفسي على أثر فضيحة شائنة. ولكنه يمتاز بأن أجره زهيد.

رد السيد لوجين يقول بلهجة جافة:

- لم أستطع طبعاً أن أجمع هذه المعلومات، لأنني لم أصل إلا منذ مدة قصيرة. على أن الغرفتين نظيفتان كل النظافة، ولما كانت الإقامة فيها قصيرة جداً...

ثم تابع كلامه ملتفتاً إلى راسكولنيكوف:

- وقد وجدت مسكننا لنا نحن منذ الآن، أعني البيت الذي سنسكنه في المستقبل، وقد بوشر في اعداده، وبانتظار الانتهاء من ذلك أقيم أنا نفسي على مسافة خطوتين من هنا، في غرفة مفروشة كيما اتفق، عند سيدة اسمها لييفكسيل، في شقة صديق لي هو أندره سيميونوفتش ليزياتنيكوف، وهو الذي دلني على عمارة باكالايف...

- ليزياتنيكوف؟

كذلك سأله راسكولنيكوف ببطء، كأن هذا الاسم يذكره بشيء ما.

- نعم، أندره سيميونوفتش ليزياتنيكوف، موظف بأحدى الوزارات.
أتراك تعرفه؟

أجاب راسكولنيكوف قائلاً:

- نعم... لا...

- معدرة. لقد خيل إليّ من سؤالك أنك... لقد كنت في الماضي ولبني أمره... هو فتى لطيف جداً، مطلع على كل ما هو جديد... إني أحب معاشرة الشباب. من يعرفهم يتعلم كثيراً من الأشياء الجديدة.

قال بيوتر بتروفتش ذلك وهو يلف السامعين بنظره شاملة، آملاً أن يحظى كلامه بتأييدهم.

سأل رازوميخين:

- بأي معنى؟

فقال بيوتر بترورفتش وقد أسعده أن يُسأل:

- بالمعنى الجدي، بالمعنى الهام الأساسي. منذ عشر سنين كنت لا أزور بطرسبرج، صحيح أن جميع هذه الأشياء الجديدة، جميع هذه الإصلاحات وهذه الأفكار⁽⁴⁹⁾، قد وصلت إلى الأقاليم أيضاً. ولكن إذا أراد المرء أن يرى الأمور رؤية أوضح، رؤية أشمل، فلا بد له أن يكون ببطرسبرج. وعندى أن خير وسيلة للتعلم إنما هي ملاحظة أجيالنا الجديدة الفتية. وإنني لأعترف بأنني قد ابتهجت كثيراً...

- ما الذي ابتهجت له على وجه التحديد؟

- سؤالك واسع قليلاً... قد أكون مخطئاً، ولكن يخيل إلىّي أنني أجد الآن نظرة أوضح، وأجد قدرًا من حس النقد أكبر، وأجد فكراً وضعياً أنمى وأوسع...

قال زوسيموف بغير اهتمام:

- هذا صحيح.

فرد رازوميخين قائلاً:

- أكاذيب! ليس هناك أي فكر وضعبي! إن الفكر الوضعي يتم اكتسابه بكثير من المشقة والعناء، وليس يهبط من السماء. ونحن أناس فقدنا عادة العلم والفعل منذ مائتي سنة أو نحو ذلك.

ثم أضاف يقول متوجهًا بكلامه إلى بيوتر بترورفتش:

- صحيح أن الأفكار تختتم، وأن الرغبة في حسن العمل موجودة أيضًا مهما تكن صبيانية، حتى لقد نجد شيئاً من الاستقامة والشرف

والأمانة، رغم أن عدد المحتالين والأوغاد لا يُحصى ولا نهاية لهم. وأقرر أن الفكر الوضعي لا وجود له. أما الذين يملكون الفكر الوضعي فهم التجار وأغنياء الحرفيين.

قال بيوتر بتروفتش يردد على رازوميixin وهو يشعر برضى واضح وارتياح لا يخفى :

- لا أشاطرك رأيك. صحيح أن هناك اندفاعات متطرفة، وأن هناك اختلافات شديدة، ولكن يجب أن تكون عادلين: إن هذه الامدائع المتطرفة تدل على أن أصحابها أناس مؤمنون صادقون، وتدل أيضاً على أن الظروف ليست هي الظروف التي يجب توافرها. ولئن لم يتحقق حتى الآن إلا القليل، فلأنه لم يتهيأ حتى الآن إلا وقت قصير، ناهيك عن قلة الوسائل. وفي رأيي شخصياً أنه قد تحقق منذ الآن شيء ما: انتشرت الأفكار الجديدة، الأفكار المفيدة، انتشرت مؤلفات جديدة مفيدة بدلأ من المؤلفات الرومانسية الحالمة التي ذاعت في القديم. نضج الأدب، واستوصلت أوهام كثيرة ضارة. بإيجاز: قطعنا الصلة بالماضي قطعاً حاسماً، وهذا وحده هو في رأيي شيء هام . . .

دمدم راسكولنيكوف قائلاً:

- يردد أقوالاً محفوظة جباً بالظهور !

لم يسمع بيوتر بتروفتش ما قاله راسكولنيكوف، فسأله مستوضحاً:

- نعم؟

ولكنه لم يحصل على جواب.

وأسرع زوسيموف يقول:

- هذا كله صحيح جداً.

قال بيوتر بتروفتش وهو ينظر إلى زوسيموف نظرة فيها لطف ووداعة:

- أليس كذلك؟

- ثم اتجه إلى رازوميخين يقول له بلهجة تتم في هذه المرة عن الانتصار وتعبر عن الشعور بالتفوق، حتى ليكاد يخاطبه بقوله: «أيها الفتى»:
- عليك أن تسلم بأن هناك سيراً إلى الأمام، أو أن هناك تقدماً على حد التعبير الرايжи الآن، على الأقل باسم العلم والحقيقة الاقتصادية.
- كلام معاد مكرر!
- لا، ليس كلاماً معاداً مكرراً.

ذلك قال بيوتر بتروفتش، ثم تابع يقول بتعجل لعل فيه إسراها:

- مثلاً، قالوا لنا حتى الآن: «أحب قريبك». فلنفرض أنني أحبيته، فما الذي يترتب على ذلك؟ يترتب عليه أن أشطر معطفي شطرين فأعطيه أحدهما فتصبح كلانا عاريين نصف عري، وفقاً لما ي قوله المثل الروسي: «من طارد أربفين في آن واحد لن يدرك أياً منهما». أما العلم فإنه يقول: أحب نفسك قبل سائر الناس، لأن كل شيء في العالم قائم على المنفعة الشخصية⁽⁵⁰⁾. فإذا لم تحب إلا نفسك صرفت شؤونك على نحو ما يجب أن تصرفها ودبرت أمورك كما ينبغي أن تدبرها، فبقي معطفك كاملاً سليماً لم يمزق. وتضييف الحقيقة الاقتصادية إلى ذلك أنه كلما ازداد وجود الشروات الفردية في المجتمع، أي كلماكبر عدد المعاطف الكاملة، ازدادت الأسس التي يقوم عليها المجتمع متانة وصلابةً، وزادت ثروة المجتمع. معنى هذا أنني حين أجني خيراً لنفسي وحدي، فإنما أحصل في الوقت نفسه خيراً لجميع الناس، فينشأ عن ذلك أن قريبي ينال عندئذ أكثر من نصف معطف، ولا يتم ذلك عندئذ بفضل كرم فردي، بل يتم نتيجةً لرخاء عام ورفاهية شاملة. الفكرة بسيطة، ولكنها لم تفرض نفسها - وأسفاه! - إلا بعد وقت طويل، لأنها كانت محجوبةً عن الأنظار بمحاسة ساذجة وأحلام وهمية باطلة. ولم يكن المرء مع ذلك في حاجة إلى كثير من نفاذ البصيرة وقوة الذكاء من أجل أن يدرك أن . . .

قاطعه رازوميixin يقول بخشنونه:

- معدنة، أنا أيضاً لا أملك كثيراً من نفاذ البصيرة وقوة الذكاء، فلنقف إذن عند هذا الحد، وحسبنا ما قلناه! أنا أنما تكلمت لأنني كنت أرمي إلى هدف معين، أما هذه الشرارة كلها التي لا تفصح إلا عن اعجاب المرء بنفسه اعجاباً لذيداً، وأما هذا الكلام المعاد المكرور الذي لا يناسب له معين، فذلك كله ما يزال يبعث في نفسي التفزع منذ ثلاث سنين حتى صرت أحمر لا حين أقوله أنا فحسب، بل حين أسمع غيري يقوله أيضاً. لقد تسرعت كثيراً في اظهار ثقافتك وابراز معارفك. وذلك أمر يمكن أن يغفر لك، ولست ألومك عليه. ولكنني أردت أن أعرف من أنت، ذلك أن الذين تعلقوا بالقضايا العامة من الأوغاد الحقيرين قد بلغوا من فرط الكثرة والتنوع، وبلغوا من شدة افساد كل ما لمسوه، في سبيل مصلحتهم، أنهم وسخوا كل شيء توسيخاً لا خلاص منه ولا يمكن محوه. وكفى هذا! ..

قال السيد لوجين بوقار شديد:

- أتراءك، أيها السيد الكريم، ت يريد أن تشير بهذه الصراحة الصارخة الخالية من أي تحرج إلى أنني أيضاً... .

- رحماك، رحماك! كيف يمكنني أن... . والآن، كفى! ..
كذلك قطع رازوميixin كلامه، والتفت إلى زوسيموف التفاتاً جازماً، ليستأنف ما كان بينهما من حديث.

وملك بيوتر بتروفيتش من الذكاء ما جعله يقبل هذا الجواب فوراً.
وكان قد قرر، على كل حال، أن ينصرف بعد دقيقتين.

قال يخاطب راسكولنيكوف:

- أرجو للعلاقات التي بدأت بيننا الآن أن تتوطد مزيداً من التوطد حين تبل من مرضك، وبفضل الظروف التي تعرفها... . أتمنى لك تحسن الصحة قبل كل شيء... .

لم يلتفت راسكولنيكوف اليه . وهم يوثر بترؤفتش أن ينهض .

قال زوسيموف يخاطب رازوميخين بلهجة قاطعة :

- لا شك أن أحد زبائنها هو الذي قتلها .

فأجاب رازوميخين موافقاً :

- لا شك ! لا شك أن أحد زبائنها هو الذي قتلها .

إن بورفيري لا يطلع أحداً على خواطره ، ولكنه يستجوب جميع الذين أودعوا عندها رهوناً . . .

سأل راسكولنيكوف بصوت عالٍ جداً :

- يستجوبهم ؟

نعم ، لماذا تسأل هذا السؤال ؟

- لا شيء !

وسأل زوسيموف :

- أين يمكنه أن يجدهم ؟

- سُمِّى له كوخ بعضهم . وهناك أسماء أخرى مسجلة على الأوراق التي لفت به الأشياء . وهناك آخرون جاءوا من تلقاء أنفسهم منذ علموا بالنبأ . . .

- يميناً أن الذي ضرب هذه الضربة لا بد أن يكون وغداً كبيراً ، وغداً محنكاً ، ذا خبرة ! يا لها من جرأة ! يا لها من عزيمة !

قال رازوميخين مقاطعاً :

- لا ، بالعكس ! وذلك بعينه هو ما يتوجهكم جميعاً . أنا أزعم أن القاتل أخرق ليس بذى تجربة ولا خبرة ، وأن هذه الجريمة هي خطوطه الأولى على هذا الطريق . لو افترضناه بارعاً حاذقاً لغدت جميع الأمور سلسلة من وقائع لا يمكن تفسيرها . أما إذا افترضناه غير ذى تجربة ولا خبرة ، فإن المصادفة وحدها تكون هي التي أخرجته من الورطة وما أكثر

ما تفعله المصادرات! لعله لم يتبنّاً بالعقبات التي ستتعرض سبيله، ولم يتصور الحواجز التي سيصطدم بها! انظر كيف تصرف: لقد أخذ أشياء لا تزيد قيمة كل منها على عشرة روبلات أو على عشرين روبلات، فملاً بها جيوبه، لقد نبش بين الخرق في صندوق العجوز، على حين أن الدرج الأعلى من الخزانة ذات الأدراج قد عُثر فيها على علبة تحوي ألفا وخمسمائة روبل فضة عدا السنادات والنقود الأخرى. حتى السرقة لم يحسنها. إنه لم يحسن إلا القتل!.. هذه خطوطه الأولى على طريق الاجرام، أقول لك هذه خطوطه الأولى! نعم، لقد طاش عقله وذهب صوابه... أؤكد لك أن ما أنقذه ليس هو الحساب بل المصادفة.

تدخل بيوتر بتروفتش في الحديث، فقال يسأل زوسيموف:

- أظن أنكم تتحدثون عن جريمة القتل التي وقعت مؤخراً وكان ضحيتها تلك المرأة العجوز، أرملة الموظف، أليس كذلك؟

وكان بيوتر بتروفتش يحمل بيده قبته وقفازيه. غير أنه ما يزال يحب أن يرسل بعض الأقوال الملائمة الذكية قبل أن ينصرف. كان واضحاً أنه يهمه أن يخلف في نفوس سامعيه أثراً حسناً، فتغلب حب الظهور عنده على رجاحة العقل.

- هل سمعت عن هذه الحادثة؟

- طبعاً! إن جميع الجيران...

- هل تعرف التفاصيل؟

- لا أستطيع أن أزعم أنني أعرف التفاصيل، غير أن ما يعنيني في هذه القضية إنما هو بعض ظروفها، أو بعض المشكلات التي تطرحها. لست أتكلّم عن أن عدد الجرائم التي تُرتكب في الطبقات الدنيا قد ازداد ازدياداً كبيراً في السنوات الخمس الأخيرة، لا ولا أتكلّم عن حوادث السطو وحوادث الحرائق التي تتعاقب في كل مكان بغير انقطاع. لا، لا أتكلّم عن هذا، وإنما الشيء الذي يبدو لي غريباً هو أن عدد الجرائم

يتزايد في الطبقات العليا أيضاً، على موازاة تزايده في تلك الطبقات الدنيا إن صح التعبير. هنا، طالب سابق يهاجم عربة بريد⁽⁵¹⁾ في الطريق الكبير، وهناك أناس ممن يحتلون مركزاً اجتماعياً حسناً، يصنعون أوراقاً مالية مزيفة، وهنالك أيضاً، في موسكو، تُعتقل جماعة بكمالها من الأفراد تزييف أوراق اليانصيب، ومن بين الجناء الرئيسين فيها أستاذ من أساتذة التاريخ العام⁽⁵²⁾. وهنالك أخيراً، يُقتل موظف من موظفي سفاراتنا في سبيل الحصول منه على مال أو لأغراض أخرى من ذلك! .. فإذا كان قاتل تلك العجوز واحداً من أبناء الطبقات العليا - ولا بد أن يكون كذلك، لأن أبناء الشعب الفقير لا يرهنون، فيما أعلم، أشياء ذهبية - فكيف نفسر إذن هذا التحلل الذي يعيث فساداً في الجزء المتمدن المتحضر من مجتمعنا؟

قال زوسيموف :

- إن للتبدلات الاقتصادية دخلاً كبيراً في حدوث هذه الظاهرة... .
- وقال رازوميixin مجيئاً عن سؤال بيوتر بتروفتش :
- كيف نفسر هذا التحلل؟ الأمر بسيط : نفسره بفقدان الفكر الوضعي والروح العملية... .
- أي؟

- قل لي : بماذا أجب، في موسكو، أستاذ التاريخ العام ذاك حين سُئل لماذا يزيف أوراق اليانصيب؟ لقد أجب بقوله: «إن جميع الناس يغتنون ويشرون بأية وسيلة من الوسائل، لذلك أردت أنا أيضاً أن أغتنى وأن أثرى بأقصى سرعة». لا أتذكر الآن أقواله بنصها، ولكن معناها هو أنه أراد أن يجمع ثروة بأقصى سرعة وبأقل تكلفة، دون أن يتحمل مشقة أو أن يبذل جهداً. نعم، لقد اعتاد الناس أن يعيشوا عالة على الآخرين، دون أن يحفلوا بشيء أو أن يكتثروا بشيء، واعتادوا أن يقتصروا على القيام بأعمال سهلة، فمتى آن الأوان ظهر كل واحد على حقيقته... .

- ولكن هناك أخلاق... هناك مبادئ رغم كل شيء...
تدخل راسكولنيكوف على حين فجأة قائلاً:

- ما الذي يقلقك؟ هذه هي النتيجة التي تترتب على نظريتك نفسها!
- نظريتي أنا؟

- استخرج النتائج التي تترتب على المبدأ الذي وضعته منذ قليل،
تجد أنه يجيز للإنسان أن يقتل الآخرين...

صاحب لوجين يقول:
- أرجوك! ..

قال زوسيموف:
- لا، ليس هذا صحيحاً.

كان راسكولنيكوف ما يزال راقداً، وكان شاحباً شحوباً شديداً،
وكان شفته العليا ترتجف، ويتنفس بمشقة وعسر. تابع لوجين كلامه.
فقال متعالياً:

- هنالك حدود معتدلة معقولة. ليست الفكرة الاقتصادية حضاً على
القتل، وإذا فرضنا أن... .

فقط اقطعه راسكولنيكوف على حين فجأة من جديد يسأله بصوت خفيف
مرتجف من شدة الغضب، بصوت يشوبه نوع من فرح خبيث، يشوبه
نوع من التلذذ بالاهانة:

- هل صحيح أنك قلت لخطيبتك، ساعة وافقت على زواجهها منك،
إن ما يسعدك مزيداً من السعادة أنها فقيرة معدمة... لأن من المفید
 جداً أن يتسلل الرجل امرأة من وهة الشقاء، ليسيطر عليها بعد ذلك عن
طريق الخيرات التي يمن بها عليها؟

صاحب لوجين يقول بصوت شرير حانق، وقد خرج عن طوره:
- أيها السيد الكريم، إنك تشوه فكريتي. معذرة. غير أن من واجبي

أن أعلن لك أن الشائعات التي بلغتك، أو قل الشائعات التي نقلت إليك عمداً، لا تقوم على أي أساس من الصحة... وأنني... أشتبه... الخلاصة... أشتبه في أن هذا السهم... الخلاصة... إنما أرسلته أمك!... على كل حال... إنني بغض النظر عن هذا... قد لاحظت... رغم ما لأمك من مزايا عظيمة... إنها مشبوبة العواطف رومانسية النفس قليلاً...

لكنني ما كان لي أن أتخيل أنها يمكن أن تنظر إلى الأمور هذه النظرة المشوهة التي صورها خيالها... وعلى كل حال، على كل حال... صرخ راسكولنيكوف يقول له وهو ينهض عن وسادته ويحدق إليه بعينين تقدحان شرراً:

- هل تريد أن أقول لك؟
- ماذا تقول لي؟

قال لوجين ذلك، وانتظر جواب راسكولنيكوف متحدياً بمظهر من أهين منذ قليل، وختم الصمت بضع ثوان.

قال راسكولنيكوف:

- اعلم أنك... إذا تجرأت مرة أخرى، فقلت في حق أمي كلمة واحدة، فلا نزلتك تدحرجاً على السلم...
صاحب رازوميixin يقول لراسكولنيكوف:

- ماذا دهاك؟

فقال راسكولنيكوف:
- نعم، هكذا.

اصفر لوجين، وعرض على شفته، ثم قال متمهلاً محاولاً أن يكظم غيظه بكل ما أوتي من قوة، لأن الغضب كان يختنقه خنقاً، قال:
- اسمع يا سيد. لم يفتني أن ألاحظ منذ قليل، حين دخلت،

الاستقبال الخشن الذي من طرفك، ولكنني تعمدت أن أبقى لأرى إلى أي حد سوف تمضي... ولقد كان يمكن أن أغفر أشياء كثيرة لإنسان مريض تربطني به قرابة... أما لك أنت، فلن أغفر... لن أغفر في يوم من الأيام...

صاحب راسكولنيكوف يقول:

- لست مريضاً!

- ذنبك إذن أعظم!

- اذهب إلى جهنم!

ولكن لوجين كان قد خرج دون أن يكمل كلامه. تسلل بين المائدة والكرسي من جديد، ونهض له رازوميخين في هذه المرة عن كرسيه، ليفسح له مجال المرور. خرج لوجين حتى دون أن ينظر إلى أحد دون أن يحيي برأسه زوسيموف الذي كان منذ برهة طويلة يومئ إليه برأسه مهياً به أن يدع المريض وشأنه، وقد خرج وهو يرفع قبعته إلى مستوى كتفه على سبيل الاحتياط، لحظة انحنى ليجتاز عتبة الباب. كان واضحاً من طريقة حنية ظهره أنه انصرف وهو يحمل شعوراً بأنه أهين إهانة فظيعة.

قال رازوميخين لراسكولنيكوف وهو يهز رأسه متحيراً مرتباً:

- هل يمكن أن يتصرف أحد هذا التصرف؟

فصاح راسكولنيكوف يقول خارجاً عن طوره:

- دعوني، دعوني جمِيعاً! ألا ت يريدون أن تتركوني وشأنني أيها الجلادون؟ أنا لست خائفاً منكم... لست الآن خائفاً من أحد. اخرجوا من هنا! أريد أن أكون وحيداً، وحيداً، وحيداً...

قال زوسيموف وهو يومئ لرازوميخين:

- فلنصرف!

- كيف؟ هل يمكن أن نتركه وهو على هذه الحال؟

فکر روسیموف قوله جازماً:

- فلنصرف .

وخرج .

فكّر رازوميixin لحظة، ثم مضى يلحق بصاحب زوسیموف.

قال زوسیموف وقد صارا على السلم :

- لو لم نطعه لساعات حاله مزيداً من السوء. ما ينبغي أن نحنقه.

- ماذا أصابه؟

- ليت هزة سارة تصيبه. نعم، ذلك ما هو في حاجة إليه. لقد استرد قواه منذ قليل... أظن أن هناك أمراً يشغل باله، أظن أن هناك فكرة تثقل على صدره، وتحاصر فكره... وذلك ما أخشاه! لاشك أن الأمر كذلك ...

- لعل للسيد بيوتر بتروفتش دخلاً فيما هو فيه. إن الحديث الذي جرى بينهما يدل على أن بيوتر بتروفتش سيتزوج اخت روديا، وأن روديا قد أبلغ هذا النبأ بر رسالة وصلت إليه قبيل مرضه ببرهة وجيبة...

- نعم، إن الشيطان هو الذي قاد هذا الرجل إليه، في هذا اليوم عينه! لعل هذا الرجل قد أفسد الآن كل شيء. ولكن قل لي: هل لاحظت أن روديا كان لا يكتثر بشيء، ولا يخرج عن صمته إلا لأمر واحد كان يخرجه عن طوره هو جريمة القتل تلك؟

. أجاب رازوميixin موافقاً :

- نعم، نعم، لاحظت ذلك بوضوح. إن هذه الجريمة تهمه، بل وترعبه... ولكن مرد ذلك إلى أنه في ذلك اليوم نفسه الذي مرض فيه قد ارتاع في مكتب رئيس الشرطة، حتى لقد أغمي عليه.

- ستقصّ على ذلك تفصيلاً في هذا المساء، وسأقول أنا لك شيئاً حينذاك. إن حالي تعنيني كثيراً. سأجيء أستطلع أخباره بعد نصف

.

ساعة . مهما يكن من أمر ، فلا خوف عليه من أن يُصاب باحتقان . . .
- شكرأ لك . وفي أثناء هذا الوقت ، سأنتظر أنا عند باشنيكا ،
وسأكلف ناستاسيا بمراقبته . . .

نظر راسكولنيكوف إلى ناستاسيا ضجراً نافد الصبر . إن ناستاسيا لم
تشأ أن تصرف .

قالت له :

هل لك بقليل من الشاي الآن ؟

- بل فيما بعد . الآن أريد أن أنام . اتركيوني !

قال راسكولنيكوف ذلك ، واستدار نحو الحائط بحركة تشنجية .
وخرجت ناستاسيا .

الفصل السادس

ولكن ما أن خرجت حتى نهض فأوصد الباب بالقفل وفضَّ صرَّة الملابس التي أتى بها رازوميخين وأعاد ربطها، ثم أخذ يلبس. شيءٌ غريب: لكان راسكولنيكوف قد أصبح على حين فجأةً هادئاً كلَّ الهدوء. لم يبقَ فيه أثرٌ من ذلك الهذيان الذي يشبه أن يكون جنوناً والذي كان يسكن فيه منذ قليل، ولا يبقى فيه شيءٌ من ذلك الرعب الشديد الذي استولى عليه في الآونة الأخيرة. كانت تلك دقيقة من الهدوء الغريب الذي استولى عليه فجأةً. إن حركاته الدقيقة الواضحة تدلُّ على عزم قوي. وكان يدمدم قائلاً بينه وبين نفسه: «في هذا اليوم، في هذا اليوم نفسه». كان يدرك مع ذلك أنه ما يزال ضعيفاً، غير أن توتراً نفسياً شديداً كان يهب له قوَّةً وثقةً. وكان من جهة أخرى يأمل أن لا يتهاوى في الشارع. فلما انتهى من ارتداء ثيابه الجديدة، نظر إلى المال الموضوع على المائدة، ففكَّر ثم وضعه في جيبه. كان هناك خمسة وعشرون روبلًا. وتناول كذلك النقود النحاسية الصغيرة الباقيَة من الروبلات العشرة التي وقفها رازوميخين على شراء الملابس. ثم فتح الباب برفق، وخرج من الغرفة، وهبط السلالم وهو يلقي نظرة على المطبخ الذي كان بابه مفتوحاً تماماً: كانت ناستاسيا مديرة له ظهرها مائلةً تنفسُخ على سماور مولاتها، فلم تسمع شيئاً. ومن ذا الذي كان يمكن أن يفترض، على كل حال، أن راسكولنيكوف قد

يخرج؟ وما انقضت دقيقة واحدة حتى كان راسكولنيكوف في الشارع. الساعة تقارب الثامنة، والشمس تغرب، والجو خائق كما كان بالأمس، ولكن راسكولنيكوف كان يستنشق، بنهم شديد، هذا الهواء المعffer العفن الموبوء الذي تنشره المدينة الكبيرة. أخذ يشعر بدوار خفيف. وهذا نوع من طاقة وحشية يسطع فجأة في عينيه الملتهبتين، وينعكس على وجهه المهزول المزرق. كان لا يعرف إلى أين يجب أن يذهب، لا ولا يخطر بباله أن يلقي على نفسه هذا السؤال. كان لا يعرف إلا شيئاً واحداً هو أن كل شيء يجب أن ينتهي في هذا اليوم نفسه، دفعه واحدة، وفوراً؛ وأنه بدون ذلك لن يعود إلى بيته، لأنه لا يريد أن يعيش هكذا. أما كيف ينتهي من ذلك كله، وبأية وسيلة ينتهي من ذلك كله، فإنه لم يعرف سبيلاً إلى هذا ولم يكن يريد أن يفكر في هذا! لقد كان يدفع عن نفسه هذه المسألة الأليمة، غير أنه يحس ويعلم أن كل شيء يجب أن يتغير بطريقة أو بأخرى «مهما يكن من أمر، ومهما يحدث من حادث». هذا ما كان يكرره لنفسه بি�أس وثقة وعناد.

وقادت خطاه عادةً قديمة من عاداته، فسار في الطريق التي يسلكها في نزهاته المألوفة، واتجه رأساً نحو «سوق العلف». حتى إذا أوشك أن يصل إليه رأى على أرض الشارع شاباً أسمراً يعزف على أرغن يدوى لحنًا عاطفياً وهو واقف أمام أحد الدكاكين. وكان الشاب يصاحب بالعزف غناء صبية في نحو الخامسة عشرة من عمرها، قد وقفت أمامه على الرصيف ترتدي تنورةً متفخحةً وخماراً وقفازين وقبعةً من قش تزيتها ريشة حمراء بلون النار؛ ومجموع ثيابها يبدو عتيقاً باليأ. كانت الصبية تغني بصوت مغنية من مغنيات الشارع، وهو صوت مصدع لكنه ممتع قوي، وما تزال تمعن في الغناء آملةً أن ينفحها صاحب الدكان كوبكين. وقف راسكولنيكوف إلى جانب شخصين أو ثلاثة أشخاص كانوا يصغون إلى الغناء، فأصغى هو أيضاً، ثم أخرج قطعةً نقديةً قيمتها خمسة كوبيكات فدَّسَها في يد الصبية. فما كان من الصبية إلا أن توقفت

عن الغناء عند النغمة التي كانت قد بلغتها، وهي النغمة الأقوى على الأبلغ تأثيراً، ثم صرخت تقول للعازف بصوت جاف: «كفى!»؛ واستأنف الاثنان سيرهما إلى الدكان التالي.

اتجه راسكولنيكوف بالكلام فجأة إلى رجل كهيل كان يسمع لعزف الأرغن إلى جانبه، وكان يبدو أنه متزه هائم على وجهه، فقال له:

- هل تحب أغاني الشوارع؟
فنظر إليه الرجل مبهوتاً.

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال له وكأن الأمر لا شأن له بغناء الشوارع البتة:

- أنا أحب أن أسمع الغناء على صوت أرغن يدوبي، في ليلة حالكة من ليالي الخريف، ليلة رطبة باردة، رطبة على وجه الخصوص، بينما المارة، قد ازرت وجوههم جميعاً حتى لكانهم مرضى، ولا سيما حين ينهر ثلج ذائب يتتساقط قائماً لا تهتز عليه نسمة من ريح، فتستطيع رؤوس مصابيح الغاز من خلال الثلج المنهر . . .

قال السيد مدمداً وقد روّعه السؤال مثلما روّعه هذا المظهر الغريب في راسكولنيكوف:

- لا أدري! . . . معذرة . . .

ومضى ينتقل إلى الجهة الأخرى من الشارع.

سار راسكولنيكوف قدماً، فوصل إلى ناصية «سوق العلف»، إلى ذلك المكان نفسه الذي كان قد سمع فيه البائع وزوجته اليزافيتا. ولكن البائع وزوجته لم يكونا هناك في ذلك الوقت. تعرف راسكولنيكوف المكان، فوقف، ونظر حوله، ثم اتجه إلى شاب يلبس قميصاً أحمر كان يثاءب عند مدخل دكانٍ لبيع الدقيق فقال له:

- هنا، عند هذه الناصية، يعمل بائع وامرأته، هه؟
فأجابه الفتى وهو يزوره بنظره:

- يجيء إلى هنا باعةً كثيرون لا يُحصى لهم عدد!

- ماذا يسمونه؟

- يسمونه باسمه.

- وأنت، ألسن من زارايسك؟ من أي إقليم أنت؟

ألقى الفتى نظرة أخرى إلى راسكولنيكوف ثم قال:

- منطقتنا يا صاحب السعادة ليست إقليماً بل مقاطعة، وإذا إن أخي هو الذي يسافر، وأبقى أنا في الدار، فإنني لا أعرف شيئاً. أرجو أن تعذرني يا صاحب السعادة!

- هل المحل الذي أراه في الطابق الأعلى مطعم؟

- بل هو خمارة... وفيها بلياردو... وتجد فيه حتى أميرات...

هو محل عظيم!

مضى راسكولنيكوف ينتقل إلى الجهة الأخرى من الميدان. وهناك، عند الزاوية، كان يجتمع جمهور كثيف ليس فيه إلا فلاحون. تسلل راسكولنيكوف إلى حيث يتكاثف الجمهور أكبر تكاثف، وأخذ يتفحص الوجوه. كان يتمنى أن يكلم كل واحد من هؤلاء الناس، لا يدري لماذا! ولكن الفلاحين لم يلتفتوا إليه. كانوا يحتشدون جماعات صغيرة تتحدث متمازحة. وقف راسكولنيكوف لحظة يفكر، ثم مضى يمنة في اتجاه شارع «ف...». حتى إذا غادر «سوق العلف» دخل في زقاق ضيق...

سبق له كثيراً أن سلك هذا الزقاق القصير المنحنى الذي يصل بين الميدان وبين شارع سادوفايا. لقد كان يحب في الآونة الأخيرة، حين كان كل شيء يشير فيه الاشمئزاز والتقرّز، أن يتجلو في هذه التواحي، «نشدانا لمزيد من الاشمئزاز والتقرّز». ولكنه يسلك الآن هذا الزقاق دون أن يفكر في أي شيء. إن في هذا المكان عمارة كبيرة ليس فيها إلا خمارات ومطاعم ومقاه، تخرج منها في كل لحظة نساء حاسرات

الرؤوس يرتدين ثياباً خفيفة، ويحتشدن جماعات في مكانيين أو ثلاثة على الرصيف ولا سيما قرب مداخل الأقبية حيث يكفي المرء أن يهبط درجتين حتى يصل إلى بيت من بيوت اللذة. إن في أحد هذه البيوت الآن جلبة كبيرة تجتاح الشارع كله: فهناك عزف على القيثارة، وغناء، ومرح بلغ ذروته؛ وعند المدخل تزدحم نساء كثيرات، وبعضهن جالسات على الدرجات، وبعضهن جالسات حتى على الرصيف، وبعضهن واقفات يشرحن. وغير بعيد من ذلك المكان، يسير على أرض الشارع جندي سكران متربع، قد وضع في فمه سيجارة، وراح يشتم بصوت عالٍ. كان كأنه يريد أن يدخل مكاناً ما، ولكنه أصبح لا يعرف أين. وهذا رجل يرتدي أسمالاً رثة قد طفق يتبادل الشتائم مع رجل آخر يرتدي أسمالاً رثة أيضاً. وهذا شخص قد بلغ السكر منه كل مبلغ فاستلقى يرقد على أرض الشارع عرضاً. وقف راسكولنيكوف قرب جماعة كبيرة من النساء. كنّ يشرحن بصوت أبيع. إنهن جميعاً حاسرات الرؤوس، يرتدين فساتين من قماش خفيف مشجر، ويتعلن أحذية من جلد الماعز. منهن من تجاوزن الأربعين من العمر غير أن منهن صبايا في السابعة عشرة. وجميعهن تقريباً يحملن آثار كدمات.

اجتذبته الأغاني والجلبة الصادرة عن القبو، دون أن يعرف لماذا. في وسط الضحكات والصرخات، كان يُسمع صوت رجل يغني بصوت نحيل حاد ويصاحب غناءه المرح عزف على قيثارة، بينما أعقاب الأرجل تقرع الأرض قرعاً قوياً لإظهار الإيقاع. مال راسكولنيكوف نحو الباب، وألقى من على الرصيف نظرات مستطلعة، وراح يصغي مظلوم النفس شارد الفكر. كانت الأغنية التي يصدح بها الصوت النحيل الحاد تقول:

يا حارسي الجميل

لا تضربني ظلماً بغير سبب

شعر راسكولنيكوف برغبة رهيبة في سماع هذه الأغنية، لأن المسألة كلها في نظره هي هذه!

قال يسأل نفسه: «ماذا لو دخلت؟ إنهم يضحكون مفهومين. إنهم سكارى. ماذا لو سكرت أنا أيضاً؟»

سأله إحدى النساء بصوت واضح لكنه أبع بعض الشيء:

- ألا تدخل يا سيد العزيز؟

كانت المرأة شابة، بل كانت بين هذه الجماعة من النساء المرأة الوحيدة التي لا يبعث منظرها على النفور البتة.

قال وهو يتتصب وينظر إليها:

- ما أجملك!

ابتسمت المرأة. لقد سرّها هذا المديح سروراً عظيماً. وقالت له:

- أنت أيضاً شاب جميل.

فقالت امرأة أخرى تعارض بصوت أجرس:

- لكنه نحيل جداً. خارج من المستشفى، هه؟

وكان يمر فلاح له وجه سكير مرح ماكر، يرتدي سترة حللت أزرارها، فقال فجأة:

- يظهر أنهن بنات من أعلى طبقة. على الرغم من أن أنوفهن كبيرة!

وأضاف:

- أرأيت إلى هذا المرح ما أعظمها!

قالت له إحداهن:

- هيئا ادخل ما دمت قد جئت!

- فوراً يا حلوة، فوراً.

أجابها الفلاح بذلك، وهرول يهبط الدرجات.

وأراد راسكولنيكوف أن يستأنف سيره. فلما همّ أن يستدير لينصرف، صرخت البنت تقول له:

- اسمع يا سيد!

- ماذا؟

- فارتبتقت، وقالت له:

- سيسعدني دائماً، أيها السيد، أن أقضي معك بعض ساعات؛ ولكنني... أشعر الآن بخجل شديد منك. هلاً أهديت إلى ستة كوبيكات أشرب بها كأساً، أيها الفارس الجميل!

فأخرج راسكولنيكوف من جيبي ما وقع تحت يده: ثلات قطع نقدية من فئة الخمسة كوبيكات.

- آ... يا للسيد السخي!

- ما اسمك؟

- لن يكون عليك إلا أن تسأل عن دوكليدا.

قالت امرأة من جماعة النساء، وهي توميء إلى دوكليدا بإشارة من رأسها:

- ما أعجب هذه الأساليب! كيف ترضي هذه البنت أن تستعطي هذا الاستعطاء؟ لو كنت في مكانها لآثرت أن أدفن نفسي في التراب من شعوري بالخزي والعار!

نظر راسكولنيكوف إلى المرأة التي قالت هذا الكلام، نظرة مستطلعة مستغربة. هي موسم في نحو الثلاثين من عمرها، مجدورة الوجه منتفخة الشفة العليا، تغطي بشرتها كدمات زرقاء. ولقد قالت عتابها بلهجة هادئة جادة.

تساءل راسكولنيكوف وهو يستأنف سيره: «ترى أين قرأت أن رجلاً محكوماً عليه بالإعدام قد قال أو تخيل قبل إعدامه بساعة أنه لو اضطر أن يعيش في مكان ما، على قمة، فوق صخرة، بموضع لا تزيد مساحته على موطئ قدم، وكان كل ما حوله هوَّ سحابة، خضماً كبيراً، ظلماتٍ أبدية، عزلةٍ خالدة، زوابع لا تنقطع، وكان عليه أن يبقى واقفاً على موطئ القدم هذا مدى الحياة، بل ألف سنة، بل أبداً الدهر، لظل

مع ذلك يؤثر أن يعيش هذه العيضة على أن يموت فوراً، أن يعيش فحسب، أن يعيش! أن يعيش أي عيضة، ولكن أن يعيش... نعم، أين قرأت هذا؟ ما أصدق هذا الكلام! رباه، ما أصدق هذا الكلام!...»⁽⁵³⁾.

قال راسكولنيكوف ذلك، ثم أردف بعد لحظة:
- الإنسان جبان، ولكن سافل أيضاً ذلك الذي يصفه بالجبن لهذا السبب!

ودخل في شارع آخر. فما لبث أن قال لنفسه:
«هه! هذا «قصر الكريستال»! لقد تكلم عنه رازوميixin منذ قليل... ولكن ماذا كنت أريد أن أعمل؟ نعم نعم، كنت أريد أن أقرأ... لقد ذكر زوسيموف أنه قرأ في الجرائد...».

- هل عندكم جرائد؟

كذلك سأله راسكولنيكوف وهو يدخل حانة واسعة، نظيفة، ذات عدة قاعات، ولكنها مع ذلك خالية إلا من عدد قليل من الناس. كان هناك شخصان أو ثلاثة يحتسون الشاي؛ وفي قاعة أخرى، في آخر الحانة، جلست جماعة من أربعة أشخاص يشربون الشمبانيا، اعتقاد راسكولنيكوف حين رأهم أن زاميوتوف أحد هم. ولكن المرء لا يمكن أن يكون واثقاً كل الثقة من صدق رؤيته، على مسافة بعيدة هذا البعد.

قال لنفسه: «وأي ضير في هذا على كل حال؟»
سأله الخادم:

- هل تريد فودكا؟

فقال له راسكولنيكوف:

- بل هات لي شاياً، وجئني بجرائم، جرائد قديمة، جرائد الأيام الخمسة الأخيرة. سوف أنفحك بقشيشاً سخياً.

- حاضر. إليك الآن جرائد اليوم. وهل تريد فودكا أيضاً؟
ووصلت الجرائد والشاي. جلس راسكولنيكوف وانكب على
الجرائد باحثاً منقباً: «أيستلر - أيستلر - الأزتيكيان - أيستلر . -
بارتولا . - ماسيمو . - الأزتيكيان . - أيستلر⁽⁵⁴⁾ -» إلى الشيطان هذا
كله . . . آ . . . أخيراً . . . هذه هي الأنباء المتفرقة . . . «سقوط في
سلم»، «تاجر سكران يحترق حياً»، «حريق في حي الرمال»، «حريق في
حي بطرسبرجسكايا»، «حريق آخر في حي بطرسبرجسكايا» «أيستلر . .
أيستلر . . أيستلر . . ماسيمو . .». آ . . . وصلنا . .

وجد راسكولنيكوف أخيراً ما كان يبحث عنه، وأخذ يقرأ. إن
الأسطر تراقص أمام عينيه، ولكنه قرأ «النبا» حتى نهايته، وطفق
يبحث، في شراهة ونهم، عن تفاصيل جديدة في الأعداد التالية،
فكانت يداه ترتجفان من نفاد الصبر وهو يتضيق الجرائد. وفجأة جاء
أحد فجلس إلى مائدة، بقربه. رفع راسكولنيكوف عينيه. أنه
زاميوتوف، زاميوتوف نفسه، بلا تبدل ولا تغير، زاميوتوف، بخواتمه،
وسلاسله، والفرق الذي يشطر شعره الأسود العكف المطئب،
والصديرة الأنique، والبدلة القديمة قليلاً، والقميص الذي ذهب بعض
رونقه. كان زاميوتوف مرحاً، أو قل على الأقل أنه كان يبتسم بكثير من
المرح والطيبة. وكان وجهه الأسمر يبدو ساخناً بعض السخونة من
الشمبانيا التي شربها.

بدأ يتكلّم مدهوشًا فقال لراسكولنيكوف بلهجة من يعرفه منذ مدة
طويلة:

- كيف؟ أنت هنا؟ أمس قال لي رازوميixin أنك لم تتفق من
غيوبتك. شيء عجيب. هل تعرف أنني زرتك أثناء مرضك؟
كان راسكولنيكوف يعرف أن زاميوتوف سيتعرض له. فوضع الجرائد
جانباً، والتفت إليه. إن ابتسامة ساخرة تطوف بشفتيه، ويرى المرء في
هذه الابتسامة، منذ الآن، صبراً نافذاً وغبيظاً شديداً.

أجابه يقول:

- أعرف أنك زرتني. حُكِي لي هذا. حتى لقد بحثت عن جوريبي. ولكن هل تعلم أن رازوميخين مجنون بك، قال لي إنكما ذهبتما معاً إلى عند لوبيزا ايفانوفنا... نعم، تلك التي حاولت أن تدافع عنها في ذلك اليوم، غامزاً «الضابط بارود» الذي لم يفهم من غمزك شيئاً. ألا تتذكر؟ كيف أمكن أن لا يفهم أن الإشارة كانت واضحة، هه؟

- يا له من رجل صَحَابٌ!

- من؟ الضابط بارود؟

- بل صديقك رازوميخين.

- إنك تعيش حياة فرحة يا سيد زاميروف. تستطيع أن تذهب إلى الأماكن الممتعة اللذيدة دون أن تنفق قرشاً واحداً. قل لي: من ذلك الذي قدم لك الشمبانيا منذ قليل؟

- نعم، شربنا شمبانيا...

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ساخراً:

- أعرف... هذه أجورك. إنك تجني نفعاً من كل شيء.

ثم أضاف وهو يربت على كتف زاميروف:

- لا ضير في هذا، يا صاحبي، لا ضير... أنا لم أقل ما قلتة عن نية سيئة خبيثة، وإنما قلتة عن «محبة ومودة»، من باب التسلية»، كما قال الدهان حين كان يضرب ميتكا. أنت تعرف هذا في قضية مقتل العجوز...

- ولكن كيف تعرفه أنت؟

- أنا؟ ربما كنت أعرف أكثر مما تعرف.

- أمرك عجيب... أغلب الظن إنك ما تزال مريضاً. ما كان ينبغي لك أن تخرج!

- أيندو لك أمري عجياً؟

- نعم. ما هذا؟ أكنت تقرأ الجرائد؟

- نعم.

- تتحدث الجرائد كثيراً عن حرائق.

- نعم، ولكن ليست الحرائق هي التي تهمني أنا!

قال ذلك ونظر إلى زاميتو夫 نظرة ملغزة، وعادت بسمة ساخرة تعصف شفتيه، ثم أضاف وهو يغمز بعينه:

- لا، ليست الحرائق هي التي تهمني. أعرف أيها الشاب اللطيف أنك تحترق شوقاً إلى أن تعرف ماذا كنت أقرأ!

- غير صحيح! لقد أقيمت عليك ذلك السؤال كما يمكن أن أقي عليه أي سؤال آخر. أليس من حق أحد أن يلقي سؤالاً؟ ما بالك تبلغ هذا المبلغ من . . .

- اسمع، أنت رجل متعلم، مثقف، هيـه؟
أجاب زاميتو夫 بوقار:

- قطعت في المدرسة الثانوية ست سنين.

- ست سنين؟ يا للفتى الظرير! وإلى ذلك في شعره فرق، وفي أصابعه خواتم . . . هو رجل غني. يا للشاب اللطيف!

قال راسكونيکوف ذلك وانفجر يضحك أمام أنف زاميتو夫 ضحكة عصبية. فتراجع زاميتو夫 إلى وراء، لا لأنه أنزعج بل لأنه دهش.
كرر يقول بلهجة الجد:

- حقاً إن أمرك عجيب! كأنك ما تزال تهذى!

- أنا؟ أهذى؟ أخطأ ظنك أيها الفتى الظرير! أمري عجيب، هـ؟ أنا أثير فضولك، أليس كذلك؟ هـ؟ أثير فضولك؟

- نعم!

- الخلاصة . . . أنت تريـد أن تعرف عـمـ كـنـتـ أـبـحـثـ ، تـرـيـدـ أـنـ تـرـفـ ماـذـاـ كـنـتـ أـقـرـأـ ، أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟ اـنـظـرـ كـمـ عـدـدـاـ مـنـ الـجـرـائـدـ طـلـبـتـ! هـذـاـ يـبـعـثـ عـلـىـ اـشـتـبـاهـ قـوـيـ ، هـهـ؟

- هـلـاـ قـلـتـ إـذـاـ! . . .

- أـتـوـقـعـ مـفـاجـأـةـ؟

- سـأـقـولـ لـكـ فـيـمـاـ بـعـدـ . أـمـاـ الـآنـ ، يـاـ صـدـيقـيـ الـعـزـيزـ ، فـإـنـيـ أـعـلـنـ لـكـ . . . عـفـواـ . . . بـلـ «ـأـعـتـرـفـ»ـ لـكـ . . . لـاـ . . . لـيـسـ هـذـاـ هـوـ التـعـبـيرـ الصـحـيـحـ . . . إـنـمـاـ التـعـبـيرـ الصـحـيـحـ هـوـ: «ـأـدـلـيـ بـإـفـادـتـيـ ، وـتـسـجـلـ أـنـتـ»ـ . نـعـمـ هـذـاـ هـوـ التـعـبـيرـ الصـحـيـحـ . وـهـأـنـذـاـ أـدـلـيـ لـكـ بـإـفـادـتـيـ فـأـقـولـ إـنـيـ أـرـدـتـ أـنـ أـقـرـأـ ، أـنـ أـنـقـبـ ، وـأـنـ أـمـعـنـ فـيـ التـنـقـيـبـ . . .

هـنـاـ ضـيـقـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ عـيـنـيـهـ وـتـوـقـفـ عـنـ الـكـلـامـ بـرـهـةـ ثـمـ اـسـتـأـنـفـ يـقـولـ هـمـسـاـ وـهـوـ يـسـرـفـ فـيـ تـقـرـيـبـ وـجـهـهـ مـنـ وـجـهـ زـامـيـوـتـوـفـ:

- أـنـاـ أـمـعـنـ فـيـ التـنـقـيـبـ - وـأـنـاـ مـاـ جـئـتـ إـلـىـ هـنـاـ إـلـاـ لـهـذـاـ الغـرـضـ - عـنـ جـمـيعـ الـأـخـبـارـ التـيـ تـتـصـلـ بـمـقـتـلـ الـعـجـوزـ أـرـمـلـةـ الـمـوـظـفـ.

كـانـ زـامـيـوـتـوـفـ يـحـدـقـ إـلـىـ عـيـنـيـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ ، دـوـنـ أـنـ يـقـومـ بـأـيـةـ حـرـكـةـ ، دـوـنـ أـنـ يـبـعـدـ وـجـهـهـ عـنـ وـجـهـهـ . إـنـ الشـيـءـ الـذـيـ أـثـارـ دـهـشـةـ زـامـيـوـتـوـفـ بـعـدـ ذـلـكـ أـكـثـرـ مـنـ كـلـ مـاـ عـدـاهـ ، هـوـ أـنـ الصـمـتـ بـيـنـهـمـاـ دـامـ عـنـدـئـذـ دـقـيـقـةـ كـامـلـةـ ، دـوـنـ أـنـ يـكـفـ أـحـدـهـمـاـ عـنـ التـحـدـيـقـ إـلـىـ صـاحـبـهـ وـالـتـفـرـسـ فـيـهـ .

صـاحـ زـامـيـوـتـوـفـ فـجـأـةـ وـقـدـ نـفـدـ صـبـرـهـ وـأـصـبـحـ لـاـ يـعـرـفـ مـاـذـاـ يـجـبـ أـنـ يـظـنـ :

- طـيـبـ! وـهـلـ يـعـنـيـنـيـ أـنـاـ أـنـ تـقـرأـ أـنـتـ هـذـاـ النـبـأـ أـوـ ذـاكـ مـنـ الـأـنـبـاءـ؟ فـدـمـدـمـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ يـقـولـ دـوـنـ أـنـ يـحـركـ سـاـكـنـاـ بـسـبـبـ صـيـحةـ زـامـيـوـتـوـفـ :

- إـنـ الـأـمـرـ يـتـصـلـ بـتـلـكـ الـعـجـوزـ نـفـسـهـاـ الـتـيـ أـغـمـيـ عـلـيـهـ فـيـ قـسـمـ

الشرطة منذ جرى الحديث عليها. نعم، لحظةً جرى الحديث عليها.
أفهمت الآن؟

قال زاميتوف وقد كاد يجنّ جنونه:

- ماذا يجب أن أفهم؟ ما الذي يجب أن أفهمه؟

فما أن سمع راسكولنيكوف هذا حتى تبدل وجهه الهدىء الساكن في ثانية واحدة، ثم إذا هو ينفجر ضاحكاً بعصبية كما انفجر ضاحكاً منذ قليل، حتى لكانه لا يستطيع أن يمسك عن الضحك. وفي مثل وميضر البرق سرعةً، طافت في خياله بوضوح هائل ذكرى الإحساس الذي شعر به من قبل، حين كان واقفاً وراء الباب، ممسكاً فأسه، يرى المزلاج يتهزّ، بينما كان الرجلان، في الجهة الأخرى من الباب، يشتمان ويحاولان فتح الباب، فأحب هو على حين فجأة أن يهينهما، وأن يكيل لهما سيلاً من الشتائم، وأن يمدّ لهما لسانه، وأن يضحك، أن يضحك، أن يضحك!

قال زاميتوف:

- إما أنت مجنون، وإما أنت . . .

ولكنه أمسك عن إتمام كلامه، لأن فكرةً قد ومضت في فكره على حين بغثة.

- وإنما ماذا . . . إنما ماذا؟ ماذا؟ هيّا، قل!

قال زاميتوف غاضباً:

- لا شيء. كل هذا سخاف!

وصمت الاثنين. إن راسكولنيكوف، بعد انفجاره المفاجئ، وضحكته العصبية، قد أصبح حزيناً حالماً على حين فجأة. وها هو ذا يضع كوعيه على المائدة، ويستند رأسه بيده. لقد بدا عليه أنه نسي زاميتوف نسياناً تماماً. ودام الصمت برهة طويلة.

قال زاميتوف:

- لماذا لا تشرب الشاي؟ سوف يبرد...

- لماذا؟ الشاي؟ نعم...

وقرب راسكولنيكوف الشاي إلى شفتيه، وازدرد لقمة من خبز، حتى إذا نظر إلى زاميوتوف بدا عليه أنه تذكر كل شيء فجأة، وأنه يطرد عنه خموده وخوره. وعلى الفور استرد وجهه ما كان يعبر عنه منذ قليل من سخرية. واستمر يشرب الشاي.

قال زاميوتوف:

- أمثال هذه السرقات تتکاثر في هذه الأيام. إليك هذا المثال: لقد قرأت في الآونة الأخيرة في «أخبار موسكو» أنه قُبض على عصابة كاملة من مزيفي النقد. إنهم شركة حقيقية تقوم بتزييف الأوراق المالية.
فأجابه راسكولنيكوف هادئاً:

- قرأت هذا منذ شهر. هذه قصة قديمة.

ثم أضاف مبتسمًا:

- في رأيك إذا إنهم لصوص محتالون!

- لصوص محتالون طبعاً!

- لصوص محتالون؟ أما أنا فأرى أنهم أطفال، أرى أنهم أغرار سُدُج، لا لصوص محتالون. أهو أمر طبيعي أن يجتمع نحو خمسين شخصاً لغاية كهذه الغاية؟ لو كانوا ثلاثة لكان هذا وحده كبيراً. وحتى في هذه الحالة لا بد أن يكون كل واحد واثقاً بالاثنين الآخرين أكثر من ثقته بنفسه. إذ يكفي أن يزل لسان أحد منهم أثناء سكر، فيشرث قليلاً، حتى يفسد الأمر كله. نعم، سُدُج أغرار! ولو لا أنهم سُدُج أغرار لما عهدوا إلى أناس لا يستحقون الثقة بأن يذهبوا إلى البنوك يبدلون أوراقهم المالية. هل يُعهد بمهمة كهذه المهمة إلى أي إنسان؟ ولنفترض الآن أن هؤلاء الأغرار قد نجحوا فأصبح كل واحد منهم يملك مليوناً. فماذا بعد

ذلك؟ هل يمكن أن يستمر هذا إلى الأبد؟ إن كل واحد سيظل رهناً بالآخرين مدى الحياة! ألا إن الانتحار شنقاً خير من هذا! ثم إن هؤلاء لم يحسنوا حتى تبديل أوراقهم المالية: إن الشخص الذي تقدم إلى شباك الصرف في البنك قد ارتعشت يداه ارتعاشاً قوياً حين قبض الخمسة آلاف روبل؛ ثم لم يعد إلا أربعة آلاف منها، أما الألف الخامسة فقد أخذها على الثقة دون أن يعدها، فأراد أن يدُسها في جيبه وأن يولي هارباً بأقصى سرعة. لذلك أيقظ الريب والشبهة. ففسد الأمر كله بسبب ذلك الأبله. أهذا ممكن حقاً؟

- أن تكون يداه قد ارتعشتا؟ طبعاً... هذا أمر يتصور. أنا أرى أن ذلك طبيعي جداً. هناك حالات يفقد فيها المرء سيطرته على نفسه، إذ يكون الأمر فوق طاقتة!

- أمعقول أن هذا الأمر فوق طاقة المرء؟

- أكان يمكنك أنت أن تحافظ على سيطرتك على نفسك في حالة كتلك الحالة؟ أنا على كل حال ما كان يمكنني أن أسيطر على نفسي! كيف يرضي إنسان أن يتعرض لمثل هذه المخاطرة الرهيبة في سبيل مائة روبل مكافأة؟ كيف يمضي يبدل أوراقاً مالية مزيفة؟ وأين؟ في بنك، حيث الموظفون خبراء يعرفون كيف يكتشفون أي تزوير! لا، لا، لو وقفت أنا ذلك الموقف لفقدت صوابي! وأنت؟ ألا تفقد صوابك في حالة كتلك الحالة؟

شعر راسكولنيكوف فجأة، مرة أخرى، برغبة رهيبة في أن «يمد لسانه» استهزاءً! وكانت تسري في ظهره رعدات أحياناً.

ومضى يقول:

- أنا لو كنت في مكان ذلك الرجل لتصرفت غير ذلك التصرف. إليك كيف كان يمكن أن أفعل: لو كان عليّ أن أبدل تلك الأوراق المالية، لرحلت أعدُّ الألف الأولى مرة تلو المرة، ثلث مرات أو

أربعاً، وأنا أقلب كل ورقة على جميع الوجوه وأنظر إليها من جميع الجهات؛ فإذا تناولت الألف الثانية أخذت أعدها حتى أصل إلى النصف، ثم سحبت من الحزمة ورقة بخمسين روبلًا فأخذت أفحصها في الضوء الساطع ثم أقلبها ثم أفحصها من جديد كأنني أخشى أن تكون مزيفة، قائلًا للرجل: «إنني شكاك قليلاً. إن لي قريبة قبضت ورقة مزيفة فأضاعت بذلك خمسة وعشرين روبلًا»، ثم أروح أقصى حكاية طويلة؛ فإذا وصلت إلى الألف الثالثة قلت له: «انتظر! أظن أنني أخطأت في عد المائة السابعة، في الألف الثانية»، ثم تركت الألف الثالثة ورجعت إلى الثانية، وهكذا دواليك... فإذا فرغت من العد، عدت أسحب ورقة كييفما اتفق، من الألف الثانية مثلاً، أو من الألف الخامسة، ورحت أفحصها من جديد، بالنظر إليها استشفافاً، فإذا بشكوك تراودني، فأقول: «هل تستطيع، من فضلك، أن تعطيني ورقة غيرها بدلاً منها؟»، وهكذا دواليك إلى أن ينضج الرجل دمًا وماء، وإلى أن يضيق بي ذرعاً فلا يدرى كيف يتخلص مني، ثم انصرف أخيراً... لا... عفواً... لا أنصرف هكذا ببساطة، بل أعود إليه فأستوضنه أمراً من الأمور، وأأسله عن شيء من الأشياء. نعم، كذلك كان يمكن أن أتصرف.

قال زاميوتوف وهو يضحك:

- حقاً أنك لفظيع! على أن هذا كلام. أما في الواقع، فلا شك أنك كنت ستفضح نفسك. هل تريد أن أقول لك رأيي؟ اسمع إذا: في رأيي أن أحداً لا يستطيع أن يسيطر على نفسه. وليس يصدق هذا عليك وعلى فحسب، بل يصدق أيضاً على أكبر لص وأعظم وغد. إليك هذا المثال القريب: لقد قُتلت في حيننا امرأة عجوز. يخيل إليَّ أن الذي قتلها سفاح رهيب لم يحجم عن ارتكاب جريمته في وضح النهار، ثم تمكَّن أن ينجو بأعجوبة. ومع ذلك ارتجفت يدا ذلك القاتل: أنه لم يحسن السرقة، إنه لم يصمد. الواقع تبرهن على ذلك.

بـدا الاستياء في وجه راسكولنيكوف.

- الواقع تبرهن على ذلك؟ حاولوا إذاً أن تقبضوا عليه لاحقـوه
وطاردوه!

بهذا هتف راسكولنيكوف بلهجة تحـدـ فيـها شـيءـ من فـرـحـ خـيـثـ.

قال زاميـوتـوفـ:

- سـنـقـبـضـ عـلـيـهـ حـتـمـاـ!

- من؟ أنتـمـ؟ سـنـقـبـضـونـ عـلـيـهـ أـنـتـمـ؟ مـسـتـحـيلـ؟ أـلـيـسـ الـأـمـرـ الرـئـيـسيـ فـيـ
نـظـرـكـمـ هوـ أـنـ تـعـرـفـواـ هـلـ الشـخـصـ الـذـيـ تـشـتـبـهـونـ فـيـهـ يـنـفـقـ مـالـاـمـ هوـ لاـ
يـنـفـقـ مـالـاـ؟ أـنـتـمـ تـقـوـلـونـ لـأـنـفـسـكـمـ: إـنـ فـلـانـاـ لـمـ يـكـنـ يـمـلـكـ فـيـ السـابـقـ
مـالـاـ، وـهـاـ هوـ ذـاـ يـنـفـقـ الـآنـ كـثـيرـاـ عـلـىـ حـيـنـ فـجـأـةـ، فـكـيـفـ لـاـ يـكـوـنـ هـوـ.
الـجـانـيـ؟ أـلـاـ إـنـ طـفـلـاـ صـغـيـرـاـ لـيـسـتـطـيعـ إـذـنـ أـنـ يـضـلـلـكـمـ مـتـىـ أـرـادـ!

أـجـابـ زـامـيـوتـوفـ:

- هـذـاـ لـاـ يـنـفـيـ أـنـهـمـ جـمـيـعـاـ يـسـلـكـونـ هـذـاـ السـلـوكـ. إـنـ الجـانـيـ يـرـتـكـبـ
جـرـيمـتـهـ بـكـثـيرـ مـنـ الـبـرـاعـةـ وـالـحـذـقـ، وـيـعـرـضـ حـيـاتـهـ لـلـخـطـرـ، ثـمـ يـتـبـعـ
لـلـذـينـ يـتـعـقـبـوـهـ أـنـ يـقـبـضـوـاـ عـلـيـهـ فـيـ حـانـةـ. إـنـهـ أـثـنـاءـ إـنـفـاقـهـ المـالـ أـنـمـاـ يـقـبـضـ
عـلـيـهـ. . . لـيـسـ جـمـيـعـ الـجـنـاهـ مـاـكـرـيـنـ مـثـلـكـ. أـنـتـ، مـثـلاـ، لـاـ يـمـكـنـ أـنـ
تـذـهـبـ إـلـىـ حـانـةـ، إـذـاـ كـنـتـ قـدـ. . .

قـطـبـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ حاجـيـهـ وـحـدـقـ إـلـىـ زـامـيـوتـوفـ بـنـظـرـةـ ثـابـتـةـ. ثـمـ
قالـ متـجـهـاـ:

- يـبـدـوـ أـنـ لـعـابـكـ يـسـيـلـ شـوـقـاـ إـلـىـ مـعـرـفـةـ ماـ كـانـ يـمـكـنـ أـنـ أـفـعـلـهـ فـيـ
مـثـلـ هـذـهـ الـحـالـةـ.

فـأـجـابـهـ زـامـيـوتـوفـ بـرـصـانـةـ وـرـزانـةـ:

- نـعـمـ، أـتـمـنـيـ أـنـ أـعـرـفـ ذـلـكـ.

وـكـانـ فـيـ صـوـتـ زـامـيـوتـوفـ وـفـيـ نـظـرـتـهـ جـدـ مـفـرـطـ.

سؤال راسكولنيكوف:

- هل تمني ذلك كثيراً؟
- كثيراً.

فبدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال لصاحبه وهو يقرب وجهه من وجهه مرة أخرى، ويحدق إليه بنظرة ثابتة من جديد، قال بصوت هامس، حتى إن صاحبه أحس هذه المرة برعدة تسري في جسمه:

- اسمع إذا! إليك ما كان يمكن أن أفعله! لو كنت أنا القاتل لأخذت المال والأشياء فخرجت من البيت ومضيت فوراً دون أن أضيع دقيقة واحدة، ودون أن أدور في الشوارع دورة واحدة، إلى مكان منعزل متزوج هو حديقة محاطة بسياج مثلاً، أو هو شيء من هذا القبيل. وأكون قد حددت سلفاً، في تلك الحديقة أو في ذلك الفناء، أكون قد حددت صخرة كبيرة وزنها ثلاثون رطلاً أو أكثر، صخرة لعلها موجودة في ذلك المكان منذ بناء المنزل، فهأنذا الآن أزحرز تلك الصخرة التي لا بد أن تكون الأرض تحتها مقعرة طبعاً، وهأنذا أدفن المال والأشياء في هذا القعر؛ حتى إذا انتهيت من دفنها، ورددت الصخرة إلى مكانها، وسوت التراب حولها، انصرفت لا ألوى على شيء، ثم لبست بعد ذلك سنة أو سنتين أو ثلاث سنين أمتنع عن زياره المكان وأخذ الغنيمة. هلم فابحث إذن! ما رأيت ولا عرفت!

قال زاميوتوف الذي أخذ يدمدم دمداً، دون أن يعرف لماذا، قال وهو ينحني بفتحة نحو راسكولنيكوف:

- أنت مجنون!

سطعت عينا راسكولنيكوف، واصفر وجهه اصفراراً رهيباً، وارتجلت شفته العليا، وما لحت اقترب من زاميوتوف أكبر اقتراب ممكن، وحرك شفتيه دون أن ينطق كلمة واحدة، وانقضى على هذه

الحال نصف دقيقة . كان راسكولنيكوف يعرف ماذا يفعل ، ولكنه لا يستطيع أن يسيطر على نفسه ولا أن يتحكم بسلوكه . إن الكلمة رهيبة كانت تهم أن تنبجس من فمه ، كما كان المزلاج ، في ذلك اليوم ، بهم أن يخرج من الرزة . كانت الكلمة توشك أن تفلت بين لحظة وأخرى ؛ كان راسكولنيكوف يوشك أن يطلقها ، أن ينطقها .

قال فجأة :

- ماذا لو كنت أنا قاتل العجوز واليزيافيتا ؟
لكنه ثاب إلى رشده ، وكبح جماح نفسه .
نظر إليه زاميوتوف مرتاعاً ، وانكفاً لونه حتى صار كغطاء المائدة
بياضاً ، وتتجعدت شفاته بابتسمة ، وسأله بصوت لا يكاد يسمع :

- ولكن أهذا ممكن ؟

فالقى عليه راسكولنيكوف نظرة خبيثة ، وقال له :

- اعترف بأنك صدقت ، أليس كذلك ؟ اعترف !

أسرع زاميوتوف يقول :

- لا لم أصدق قط . . . وأنا أستبعد الآن ذلك أكثر مما استبعدته في أي وقت مضى !

- وقعت في الفخ ! إذاً لقد صدقت في يوم من الأيام ، ما دمت تقول إنك تستبعده الآن أكثر مما استبعدته في أي وقت مضى !

صاحب زاميوتوف يقول مرتبكاً ارتباكاً واضحاً :

- لا . . . أبداً ! . . أمن أجل أن تصل إلى هذه النتيجة أخفتني !

- أنت لا تصدق إذن ؟ فعم تكلمت ، في ذلك اليوم ، حين خرجمت أنا من القسم ؟ ولماذا أخذ الضابط «بارود» يستجوبني بعد صحوي من الإغماء ؟

قال راسكولنيكوف ذلك ثم صرخ ينادي خادم الحانة وهو ينهض
ويتناول قبعته :

- هي! أنت! الحساب!
هرع الخادم إليه قائلاً:
- ثلاثة. كوبيكاً.

- خذ، وهذه عشرون أخرى بقشيشاً!

ثم قال لزاميتوف وهو يمد إليه يدأ مرتعة ملأى بأوراق مالية:

-رأيت. أوراق حمراء، وأوراق زرقاء! ⁽⁵⁵⁾ المجموع: خمسة وعشرون روبلأ! فمن أين جاءتني هذه الأوراق؟ ومن أين جاءتني ثيابي الجديدة؟ أنت تعلم أنني لم أكن أملك كوبيكاً واحداً. أراهن على أنك استجوبت صاحبة البيت الذي أقيم فيه! ولكن كفى الآن! إلى اللقاء.
لك خالص تمنياتي!

وخرج راسكولنيكوف مختلجاً بنوع من إحساس غريب، إحساس هستيري، تغالطه مع ذلك لذة عظيمة. ولكنه ظل في الواقع متوجه النفس خائر القوة. كان وجهه متقلصاً، كأنه خارج من نوبة. وازداد إعياؤه بسرعة. إنه الآن، عند كل إحساس جديد، وعند كل صدمة جديدة، تستيقظ فيه قواه وتعود إليه، ولكن قواه هذه ما تثبت أن تخور بسرعة أيضاً، مع زوال الصدمة وإمحاء الإحساس.

وحين أصبح زاميتوف وحيداً، لبث جالساً إلى تلك المائدة نفسها مدة طويلة، غارقاً في تأمله. إن راسكولنيكوف قد قلب له جميع أفكاره فيما يتعلق بنقطة معينة رأساً على عقب، دون أن يعرف ذلك، وجعل رأيه يستقراراً لا عودة عنه، ويثبت ثباتاً لا يتزعزع. قال لنفسه جازماً: «إن إيليا بتروفتش غبي!»

ما كاد راسكولنيكوف يفتح باب الحانة المفضي إلى الشارع، حتى كان رازوميixin على درجات المدخل يهمُّ أن يدخل. ولكنهما لم ير أحد منهما الآخر، رغم أن المسافة بينهما خطوة واحدة، حتى لقد أوشك رأساهما أن يتصادما. ولبئا لحظة يشتمل كل منهما صاحبه

بنظره. لقد ذهل رازوميخين ذهولاً ليس بعده ذهول. غير أن غضباً مفاجئاً شديداً لم يلبث أن سطع في عينيه ببريق رهيب.

زار يقول بصوٍت عالٍ:

- آه... أنت هنا؟ قام عن سريره، هرب من بيته! أتعرف أنني بحثت عنك حتى تحت السرير؟ بل لقد صعدنا إلى العلية نبحث عنك! وأوشكت بسببك أن أضرب ناستاسيا! انظروا أين هو! روديا، ما معنى هذا؟ قل لي الحقيقة كلها! اعترف! هل تسمع؟

أجابه راسكولنيكوف بهدوء:

- معناه أنني سئمتكم جميعاً إلى حد الموت، وأنني أريد أن أكون وحيداً.

- وحيداً؟ بينما أنت عاجز حتى عن المشي، بينما وجهك أصفر كوجه الأموات، بينما أنت تخنق طول الوقت؟ ألا إنك لأبله! ماذا جئت تعمل في «قصر الكريستال»؟ اعترف، اعترف فوراً!

- اتركني.

كذلك قال راسكولنيكوف؛ وأراد أن يمشي متخطياً رازوميخين فغضب رازوميخين غضباً شديداً، وخرج عن طوره، فأمسك صاحبه من كتفه إمساكاً قوياً، وصاح يقول له:

- أتركك؟ أتجروء أن تقول: «اتركني»! إسمع إذا: هل تعرف ما أنا فاعل بك؟ سوف أقبض عليك بذراعي، فأربطك بحبل كما ثُرِبَت صرّة، ثم أنقلك إلى البيت فأحبسك فيه مقفلًا عليك الباب بالمفتاح!

بدأ راسكولنيكوف يتكلم في رفق، فقال بلهجـة تبدو هادئة كل الهدوء:

- اسمع يا رازوميخين! ألسـت ترى إذاً أنـني لا أـريد نـعمـك وأـيـاديـك علىـي؟ ما حاجـتكـم دائمـاً إـلى أـن تـغـمـرـوا بـالـنـعـمـ أولـئـكـ الذـي لا يـعـبـؤـونـ بهاـ، أولـئـكـ الذـينـ لا يـسـتـطـيعـونـ حقـاًـ أـنـ يـحـتـمـلـوهـاـ؟ـ لـمـاـذـاـ سـعـيـتـ إـلـيـ فيـ بدـاـيـةـ مـرـضـيـ؟ـ لـعـلـهـ كـانـ يـسـعـدـنـيـ جـداـًـ أـنـ أـمـوتـ.ـ أـفـلـمـ أـفـهـمـكـ الـيـوـمـ إـفـهـاماـ

كافيأً أنك تعذبني ، وأنك . . . تزعجني وتضايقني؟ ما حاجتكم هذه دائمًا إلى تعذيب الناس؟ أؤكد لك أن هذا كله يؤخر شفائي ، لأنه يجعلني في حالة اهتياج متصل. انظر إلى زوسيموف: لقد انصرف حتى لا يهيجني. فاتركني بسلام أنت أيضًا، ناشدتك الله! ثم أي حق لك في أن تتحتجزني بالقوة؟ ألا ترى أنني أملك عقلي كاملاً وأنا أكلمك في هذه اللحظة؟ قل لي: بأية وسيلة أستطيع أن أمنعك من التشتبث بي بعد الآن ، وأن أحملك على ألا تغدق عليّ بنعمك وآلا ينك هذه؟ افرض أنني سافل؛ ولكن دعوني ، دعوني جميعاً، ناشدتكم الله ، دعوني ، دعوني ! كان راسكولنيكوف قد بدأ كلامه بلهجة هادئة ، متلذذاً منذ ذلك الحين بالسم الذي سينفثه ، ولكنه أنهى حديثه مهتاجاً خارجاً عن طوره محتبس الأنفاس مختنق الصدر ، كما حدث مع لوجين.

فكّر رازوميixin لحظة ثم ترك ذراع صاحبه ، وقال له بهدوء ، شارد الفكرة تقريباً :

- اذهب إلى الشيطان! . . .

فلما هم راسكولنيكوف أن ينصرف ، زأر يقول له فجأة:

- انتظر! أصغ إليّ! إنني أعلن لك أنكم جميعاً، من أولكم إلى آخركم ، لستم إلا ثرثرين صغاراً، ومتبعجيين تافهين! إنكم ما إن يصبكم شر يسير حتى تحضنوه كما تحضن الدجاجة بيضها. وحتى في هذا إنما أنتم تسرقون من الكتاب الأجانب! ليس فيكم ذرة من حياة ، ليس فيكم ذرة من حياة شخصية أصيلة! ليس ما يجري في عروقكم دماء بل مصالة. ما من أحد منكم يوحى إليّ بالثقة. همكم الأول في جميع الظروف هو أن لا تسلكوا سلوك رجال. . .

وهنا رأى أن راسكولنيكوف يهم أن ينصرف مرة أخرى ، فصرخ يقول وقد تضاعف غضبه وحنته:

- ق. . . ف! أصغ إليّ حتى النهاية! أنت تعلم أنني أحتفل الليلة

باتتقالى إلى المسكن الجديد . وربما كان ضيوفى قد وصلوا . . . على أننى تركت هنالك عمى لاستقبالهم (كذلك أسرع يضيف . . . فإذا لم تكن أبله ، إذا لم تكن أبله كل البلاهة ، إذا لم تكن أبله متكبراً ، إذا لم تكن ترجمة عن أصل أجنبى . . . اسمع يا روديا ، أنا أعلم أنك فتى ذكي ، ولكن هذا لا ينفي أنك أبله . . . فإذا لم تكن أبله ، فإن مجئك إلى لقضاء السهرة عندي خير لك من أن ثبلي نعلى حذاءيك متسكعاً في غير طائل ، ما دمت قد خرجت . . . وسأريك بمقد مریح رخص . . . إن عند أصحاب البيت الذي أقيم فيه مقعداً من هذا النوع . . . وتشرب فنجاناً من الشاي ، وتجالس الناس . . . بل هناك ما هو خير من هذا : سأرقدك على مضجع ، ولكنك تكون بيننا على الأقل . . . وسيجيء زوسيموف أيضاً . . . سوف تأتي ، هه؟

- لا .

هتف رازوميخين يقول نافذ الصبر :

- لا تقل هذا . أنت لا تعرف نفسك . ثم إنك لا تفهم من شؤون الحياة شيئاً . لقد حدث لي ألف مرة أن بصفت على الناس ، ثم هرولت أسعى وراءهم . سوف تخجل من هذه العواطف ، وسوف ترجع إلى البشر . تذكر عنوانى إذن : عمارة بوتشنکوف ، الطابق الثاني .

- يخیل إلی يا سید رازومیخین أنك مستعد لأن تُضرب في سبيل أن يكون لك على أحد فضل ومنة .

- أنا؟ لا ، بل إنني مستعد لأن أجدع أنف من تووس له نفسه بذلك ! تذكر إذن عمارة بوتشنکوف ، رقم 47 ، مسكن الموظف بابوشكين .

- لن أجيء يا رازومیخین .

قال راسكولنيکوف ذلك ثم استدار وانصرف .

صرخ رازومیخین يقول وراءه :

زاميتوف في الحانة؟

- نعم.

- رأيته؟

- رأيته.

- وكلمته؟

- كلمته.

- عمّ كلمته؟ هيّا، لا تقل إذا كنت لا تريد أن تقول. شيطان يأخذك! العنوان: عمارة بوتشنکوف، رقم 47، شقة بابوشكين. تذكر العنوان! مضى راسكولنيكوف حتى شارع سادوفايا ثم انعطف وغاب. وقد تابعه رازوميixin بنظره شارد الفكر حالماً، ثم أشاح بيده تعبيراً عن عدم الاكتراض، ودخل، لكنه لم يلبث أن توقف على وسط السلم، وقال يحدث نفسه بصوت عالي: «شيطان يأخذه! إنه يتكلم كما يتكلم إنسان سليم العقل، ومع ذلك يشبه أن يكون... ولكن ما أغباني! ألا يتكلم المجانين كلاماً معقولاً جداً؟ ثم إن ذلك بعينه هو ما يخشاه زوسيموف فيما يخيّل إلى... - وهنا لطم رازوميixin جبينه بيده متسللاً: - ما عسى يحدث لو... . كيف أتركه وحيداً في هذه اللحظة؟ إن من الجائز جداً أن يلقي نفسه في الماء. آه... . لقد ارتكبت حماقة كبيرة! ما كان ينبغي أن أتركه ينصرف!». وأسرع رازوميixin يلاحق راسكولنيكوف، ولكن لم يكن قد بقي لراسكولنيكوف أثر. بصدق رازوميixin على الأرض، وقف راجعاً إلى «قصر الكريستال» بخطى واسعة ليسأل عن زاميتوف بأقصى سرعة.

مضى راسكولنيكوف قُدماً إلى جسر «ص...»⁽⁵⁶⁾، فتوقف في وسط الجسر، ووضع كوعيه على إفريزه، وأخذ ينظر إلى بعيد. إنه بعد أن ودع رازوميixin قد بلغ من الضعف والإعياء والوهن أنه لم يجرأ

ساقيه إلى هذا الموضع إلا في كثير من المشقة والعناء: تمنى لو يجلس في أي مكان، تمنى لو يرقد في عرض الشارع! مال راسكولنيكوف على الماء، وأخذ ينظر، على غير شعور ولا إرادة، إلى أواخر الانعكاسات الوردية لأشعة الشمس الغاربة، وإلى صف المنازل التي يغشاها الغسق رويداً رويداً. هذه غرفة بعيدة من الغرف التي تقع تحت السقوف على الكورنيش إلى اليسار منه تلتمع نافذتها وتوهجه كأن حريقاً يشتعل هناك، تحت شعاع الشمس الساقط عليها. وهذا ماء القناة يظلم مزيداً من الإظلام شيئاً بعد شيء. كان راسكولنيكوف يبدو كأنه ينظر إلى الماء بانتباه. ثم إذا بدواير حمراء تأخذ تدور أمام عينيه، وإذا بكل شيء بعد ذلك، إذا بالمنازل والمارة والأرصفة والعربات تأخذ تدور من حوله وتترافق.وها هو ذا يرى مشهدأً رهيباً فظيعاً فإذا هو يرتجف فينجو من الإغماء. كان قد أحسَّ أن أحداً وقف بقربه إلى يمينه، فنظر فرأى امرأة فارعة الطول، على رأسها خمار، ذات وجه شاحب مستطيل هزيل، عيناهَا حمراوان غائرتان في حجاجيهما. كانت المرأة تنظر إليه في عناد، ولكن كان واضحاً أنها لا تبصر شيئاً ولا تميز أحداً.وها هي ذي تضع ساعدتها الأيمن قائماً على الإفريز، ثم ترفع قدمها اليمنى فتخطو خطوة فوقه وتُتبعها بالقدم اليسرى فتلقي بنفسها في الماء. انشق الماء الموحل من صدمة سقوطها ثم ابتلع فريسته، ولكن المرأة الغريق لم تلبث أن طفت على السطح بعد دقيقة واحدة، ثم جرت مع التيار ببطء غاطسة الرأس والقدمين، طافية الظهر، وقد انتفخت تنورتها فكأنها لحاف.

صرخت عشرات من الأصوات:

- إنها تغرق! إنها تغرق!

فهرع الناس، حتى امتلأ بهم الرصيفان، واحتشد الجمّهور على الجسر حول راسكولنيكوف يصدمه ويعصره عصراً من الخلف.

وهتفت امرأة تقول، من مكان غير بعيد، بصوت نادب شايك: - رياه! هذه صاحبتنا أفروسينوشكا. أنقذوها أيها الأخيار الطيبون! أنقذوها!

وأخذ بعض المحتشدين يصرخون:

- علينا بقارب، علينا بقارب!

ولكن لم يبق ثمة داع إلى قارب: فإن شرطياً من شرطة المدينة أسرع يهبط سلماً يفضي إلى القناة، ثم خلع معطفه وحذاءيه، وألقى بنفسه في الماء، ولم يلق عناء كبيراً باللحاق بالمرأة الغريق، فإن تيار الماء قد حملها حتى صارت على بعد خطوتين من الضفة، فقبض على ثوبها بيده اليمنى، وأمسك باليد اليسرى عصا مدها إليه زميل له، حتى أخرجت المرأة من الماء، وأضجعت على الدرجات الصخرية. ولم تلبث أن ثاب إليها وعيها، فنهضت، وجلست وأخذت تعطس وتشخر وتمسح بيديها ثيابها المبتلة بحركة لا إرادية. ولم تنطق بكلمة واحدة.

صرخت تلك المرأة، قرب أفروسينوشكا، قائلة:

- لقد ركبها ألف عفريت أيها الأخوة والشرب هو السبب. حاولت منذ مدة أن تشنق نفسها، فأخرجنا عنقها من الجبل. ومضيت اليوم إلى البقال بعد أن أوصيت الصغيرة بمراقبتها، فإذا بالمصيبة تقع... هي جارتنا يا أخي، جارتنا. نحن نسكن في مكان قريب، في العمارة الثانية، هناك، آخر الشارع...

تفرق الحشد، وظل الشرطيان منهمكين حول المرأة الغريق. وهذا صوت يصرخ متكلماً عن شيء يتصل بقسم شرطة... كان راسكولنيكوف ينظر إلى هذا كله وهو يحس بإحساساً غريباً بعدم الاهتمام وقلة الاكتتراث. وها هو ذا يشعر بتنفور وتقزز، ثم يقول مجمجاً بينه وبين نفسه: «لا، لا، هذا شيء يدعوا إلى الاشمئزاز... الماء... لا فائدة منه... لن يحدث شيء... ما فائدة الانتظار إذن؟ أما

قسم الشرطة . . . ولكن لماذا غاب زاميتووف عن القسم؟ إن مكاتب قسم الشرطة تظل مفتوحة بعد الساعة التاسعة». وأدار راسكولنيكوف ظهره للإفريز، ونظر حواليه.

ثم قال بلهجة جازمة: «لِمْ لَا؟ ليكن!». وغادر الجسر وسار متوجهًا إلى قسم الشرطة. كان قلبه يخفق مغلقاً. كان لا يريد أن يفكر. حتى القلق تبدد. لم يبق في نفسه أثرٌ من انتفاضة القوة تلك التي أخرجته من غرفته «ليتهي من الأمر». وحل محل تلك القوة خمولٌ وخمودٌ وتبلاً.

قال لنفسه وهو يسير على رصيف القناة بملل وكسل وتوازن: «نعم، هذا أيضًا حل. سأنتهي من الأمر مع ذلك، لأنني أريد أن أنتهي منه. ولكن هل هذا هو الحل حقاً؟ آه . . . لا ضير . . . سيبقى لي موطنٌ قدم من الأرض أقف عليه. ولكن يا لها من نهاية! هل يمكن أن يكون هذا نهاية؟ أقول لهم الأمر أم لا أقوله؟ ولكن دعنا من هذا! إنني متعب مكدود مرهق. يجب أن أضطجع حالاً، يجب أن أقعد في مكان ما. أعيّب ما في الأمر أن هذا كله غباء! هيا، ابصق على هذا أيضًا! آه . . . ما أكثر الحماقات التي يمكن أن تساور فكرنا أحياناً . . .»

كان على راسكولنيكوف، من أجل الوصول إلى قسم الشرطة، أن يمضي في أول الأمر قُدُّماً، ثم إن يلتفت يسراً عند الشارع الثاني. ولكنه توقف قبل أن يصل إلى العطفة الأولى، وفكَّر، ودخل في زقاق ضيق، ثم قام بدورة سائراً في شارعين، ربما بدون نية محددة تماماً، ولكن ربما ليهب لنفسه مهلة جديدة أيضاً، ليكسب فسحةً من وقت. كان يسير مطرقاً إلى الأرض. وفجأة أحسَّ كأن أحداً يهمس في إذنه، فرفع رأسه، فوجد نفسه أمام تلك العمارة، أمام مدخلها تماماً. إنه منذ ذلك المساء لم يكن قد عاد إلى المكان.

وهذه رغبة لا سبيل إلى مقاومتها ولا يمكن تفسيرها، تسيطر عليه وتستبد به. دخل العمارة، ونفذ إلى الباب الأول، الباب الأيمن، وأخذ

يصعد السلم الذي يعرفه جيداً، حتى وصل إلى الطابق الثالث. كان ظلام حالك يلف السلم الضيق شديد الانحدار. وقد توقف راسكولنيكوف على فسحة السلم عند كل طابق، فكان ينظر حواليه مستطلاً. هذا زجاج النافذة في الطابق الأرضي قد خلع. قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «إنه لم يكن هكذا في ذلك اليوم». ثم وصل إلى الشقة التي تقع في الطابق الثاني حيث كان يعمل نيكولي ديمتري. «البيت مغلق، وقد أعيد دهن الباب. معنى ذلك أن البيت معد للإيجار». ثم هذا هو الطابق الثالث. « هنا ». توقف راسكولنيكوف مسمراً: كان باب البيت مفتوحاً تماماً، وكان في البيت ناس، إن كلامهم مسموع. لم يكن راسكولنيكوف يتوقع هذا. وبعد تردد قصير، صعد الدرجات الأخيرة، ودخل البيت.

إنه يُجدد أيضاً. إن فيه عملاً. بدا راسكولنيكوف كالمزهول. لقد كان يتصور، دون أن يدرى لماذا، أنه سيجد البيت كما تركه تماماً؛ حتى الجثتين كان يتصور أنه سيجدهما راقدتين على أرض الغرفة في ذلك الموضع نفسه. فماذا يرى الآن: جدراناً عارية، وما من أثاث! ما أغرب هذا! تقدم نحو النافذة وجلس على حافتها.

لم يكن هنالك إلا عاملان اثنان. أنهما شابان ولكن أحدهما أكبر سنًا من الثاني بكثير. كان يغطيان الجدران بورق أبيض ذي أزهار صغيرة بنفسجية، بدلاً من الورق القديم الأصفر الحائل الممزق. شعر راسكولنيكوف من ذلك بأسف شديد. وأخذ ينظر إلى الورق الجديد مغتاظاً، كأنه يتحسر على أن تغيراً قد حدث.

يبدو أن العاملين قد أطلا يوم عملهم. وهم الآن يرتبان لفافات الورق، ويستعدان للعودة إلى المنزل. لم يلتفت ظهور راسكولنيكوف انتباهم. كان يجري بينهما حديث نشيط. طوى راسكولنيكوف ذراعيه على صدره وراح يصغي إلى حديثهما.

قال الأكبر للأصغر :

- جاءتنى منذ الفجر ، لابسة أجمل الثياب . قلت لها : «مالك تغنجين هذا الغنج» ، فقالت لي : «أريد بعد الآن يا تيت فاسيلتش أن أكون لك جسماً وروحاً!». أسمعت؟ ولتيك رأيت الثياب التي كانت تلبسها . لكانها صورة من صور مجلة ، صورة حقيقة من صور مجلة .

سأله الأصغر :

- وما هي هذه المجلة يا عمي؟
كان واضحًا أن الأصغر يتلمذ على الأكبر .

- المجلة يا أخي واحدة من تلك الصور الملونة ، صورة الموضة ، التي تصل إلى الخياطين المحللين بالبريد من الخارج كلَّ سبت . والغاية منها أن تُرى الناس كيف يجب أن يلبسوها ، رجالاً ونساء . هي رسم . فأما الرجال فثيابهم هي المعاطف أساساً ، ولكن يجب أن ترى قسم ثياب النساء .. هناك حدُث ولا حرج .. مهما تقل عنها فلن توفيها حقها !

هتف الأصغر يقول متھمساً :

- ما أكثر ما يراه المرء في «بيوتر»⁽⁵⁷⁾ هذه! إن المرء يرى فيها كل شيء حقاً ، عدا أمه وأبيه!

قال الأكبر في رصانة :

- نعم ، يرى كل شيء عدا أمه وأبيه!

نهض راسكولنيكوف ومضى إلى الغرفة الثانية التي كانت في الماضي تضم الصندوق والسرير والخزانة ذات الأدراج . فلما رأها خالية من الأثاث بدت له صغيرة صغيراً رهيباً . لم يُبدل ورق جدرانها . وفي الركن ، يُرى على ورق الجدران بوضوح ذلك المكان الذي كانت فيه الأيقونات . نظر راسكولنيكوف حواليه ، ثم عاد إلى النافذة يجلس على حافتها . نظر إليه العامل الكبير نظرة شزراء وسأله بخشونة :

- ماذا تفعل هنا؟

ولكن راسكولنيكوف لم يجده، بل نهض وخرج إلى فسحة السلم، فامسك بحبل الجرس وشدّه. هو ذلك الجرس نفسه، وهو ذلك الرنين نفسه. شدّ الجرس مرةً ثانيةً فمرةً ثالثة. فكان يصغي ويتنذّر. عاوده الإحساس الذي شعر به في ذلك اليوم، ذلك الإحساس الرهيب الكاوي، عاوده بحدة ما تنفك تقوى شيئاً بعد شيء. فكان يرتعش كلما رئ الجرس مرةً جديدة، وكانت لذته تزداد.

صرخ العامل يقول وهو يخرج إلى فسحة السلم:

- ماذا تريدين؟ من أنت؟

فعاد راسكولنيكوف إلى الغرفة. وقال:

- أنا أبحث عن شقة أستأجرها، وقد جئت أرى هذا البيت!

قال العامل:

- ما من أحد يزور مسكننا في الليل. ثم إن عليك أن تصطحب البواب...

تابع راسكولنيكوف كلامه فقال:

- أرى أن الأرض قد غسلت. هل سيعاد دهنها؟ لم يبق دم، هه؟

- دم؟

- لقد قتلت العجوز وأختها. كان ههنا بركة دم...

صاح العامل يقول قلقاً:

- ولكن من أنت؟

- أنا؟

- نعم أنت.

- تريدين أن تعرف؟ تعال معي إذن إلى قسم الشرطة. هناك سأقول لك من أنا.

نظر العاملان إلى راسكولنيكوف مبهوتين . وقال الأكبر للأصغر :
- هلم . . . لقد آن لنا أن ننصرف ، حتى لقد تأخرنا . هيئ يا أليوشَا !
يجب أن نغلق . . .

قال راسكولنيكوف بلهجة هادئة :

- هلموا ننصرف !

وخرج أول الخارجين ، وهبط السلم ببطء . حتى إذا وصل إلى الباب
المطل على الشارع ، صرخ ينادي البواب :
- هيئ ! يا بواب !

وكان يقف عند باب العمارة عدة أشخاص ينتظرون إلى المارة وامرأة
وتاجر يرتدي ثوباً من ثياب المنزل ، وأناس آخرون . مضى
راسكولنيكوف إليهم قدمًا .

سأله أحد البوابين :

- ماذا تريد ؟

- هل ذهبت إلى قسم الشرطة ؟

- عدت منه منذ برهة . ماذا تريد ؟

- أما يزالون هناك ؟

- ما يزالون هناك .

- وهل كان مساعد مفوض الشرطة هناك أيضاً ؟

- وكان مساعد مفوض الشرطة هناك أيضاً . ماذا تريد ؟

لم يجب راسكولنيكوف وتسمر بين الواقفين حالماً .

اقترب العامل الكبير وقال :

- جاء يرى الشقة .

- أي شقة ؟

- الشقة التي نعمل فيها. سألنا: «لماذا غسل الدم؟». ثم قال: «ارتكتب ه هنا جريمة قتل، وأنا أريد أن أستأجر البيت». وقد أخذ يشد حبل الجرس، حتى كاد ينزعه. ثم قال: «هلموا بنا إلى قسم الشرطة، فسأقول لكم هناك كل شيء».

نظر الباب إلى راسكولنيكوف متحيراً مرتباً.

ثم صرخ يسأله مهدداً:

- ولكن من أنت؟

- روبيون رومانوفتش راسكولنيكوف، طالب سابق. وأسكن قريباً من هنا، في زقاق مجاور، عمارة شيل، شقة 14؛ أسؤال عني بباب العمارة. إنه يعرفني.

قال راسكولنيكوف ذلك كله بلهجة هادئة، شارد الفكر، حتى دون أن يلتفت، فقد كان يحدق إلى الشارع الذي اجتاحه الظلام.

- ولماذا جئت إلى هذه الشقة؟

- لأراها.

- ماذا تريد أن ترى هناك؟

- لا شيء.

- ما رأيك في أن نقتادك إلى قسم الشرطة، هه؟
كذلك قال التاجر فجأة، ثم صمت.

نظر إليه راسكولنيكوف من فوق كتفه، وتفرس فيه بانتباه، ثم قال له بلهجة ما تزال هادئة:

- موافق، هلموا بنا إلى قسم الشرطة!

استأنف التاجر كلامه فقال بثقة أكبر:

- نعم، يجب اقتياده إلى قسم الشرطة. لماذا جاء إلى هناك، فإن ذلك يدل على أن هناك شيئاً يشغل باله، أليس كذلك؟

جمجم العامل يقول:

- أهو سكران أم لا؟ الله وحده يعلم!

وعاد البواب يصرخ وقد أخذ يغضب حقاً:

- ولكن ماذا تريده؟ ما مجئتك إلينا لتزعجنا هذا الإزعاج؟

قال راسكولنيكوف ساخراً:

- ها... إنك تخاف الذهاب إلى قسم الشرطة!

- مم عسانى أخاف؟ ولكن لماذا تأتي إلينا فتزعجنا هذا الإزعاج؟

صرخت المرأة:

- هذا لص!

فقال البواب الآخر، وهو رجل ضخم يرتدي معطفاً فضفاضاً،
ويحمل مجموعة من المفاتيح معلقة بحزامه:

- علام نناقشه؟ اخرج من هنا أيها المتشرد!... هيئا انصرف. أقول لك انصرف!

ثم أمسك راسكولنيكوف من كتفه، ورماه إلى الخارج، فترنح راسكولنيكوف وكاد يهوي على الأرض ولكنه لم يسقط، ثم انتصب ونظر إلى الجميع صامتاً ثم مضى.

قال العامل:

- إنسان عجيب!

فعقبت المرأة قائلة:

- جميع الناس عجيبون في هذه الأيام!

وأضاف التاجر يقول:

- كان ينبغي أن نقتاده إلى الشرطة مع ذلك.

فقال البواب الكبير يحسم المناقشة:

- لا داعي لاقتنيا إلى الشرطة . هو محظوظ مشاكس ما في ذلك ريب ، ولو اقتدناه إلى الشرطة لما عرفنا كيف نتخلص منه ، أنا أعرف أمثال هؤلاء الناس ! ...

تساءل راسكولنيكوف وهو يقف في عرض الطريق عند أحد المفارق وينظر إلى ما حوله كأنه ينتظر أن يهديه أحد إلى الحل الحاسم والقول الفصل : «أذهب إلى الشرطة أم لا أذهب؟» ولكن ما من جواب جاءه من أي مكان . كان كل شيء أصمّ ميتاً كالحجارة التي كان يسير عليها .. ميتاً بالنسبة إليه وحده . وها هو ذا يلمع فجأة ، في البعد ، على مسافة مائتي خطوة ، في آخر الشارع ، في الظلام المتزايد ، ها هو ذا يلمع احتشاداً ، ويسمع جلبة وصراخاً . وكانت تقف عربة في وسط الجمهور المحتشد . وومض في الشارع ضوء مصباح . دار راسكولنيكوف واتجه نحو الحشد . كان يبدو حقاً أنه يريد أن يتثبت بأي شيء ، فلما أدرك هو ذلك ضحك في فتور ، لأنّه كان يعرف أن قراره فيما يتعلق بالشرطة قد اتّخذ وانتهى الأمر ، وكان يعلم علم اليقين أن كل شيء سيكون قد انتهى بعد قليل .

الفصل السابع

كانت تقف في وسط الشارع عربة أنيقة من عربات السادة، قد شد إليها حصانان أشهبان قويان ثائران. وكانت خاليةً قد نزل حوذيها عن مقعده ووقف إلى جانبها يشد الحصانين باللجام؛ وقد تجمهر حولها عدد كبير من الناس، وراء حاجز من رجال الشرطة. وكان أحد رجال الشرطة يحمل بيده مصباحاً مشتعلأً قد مال به إلى تحت يضيء بنوره شيئاً كان يوجد على أرض الشارع ملتصقاً بالعجلات. وكان جميع الناس يتكلمون ويصرخون ويتاؤهون، وكان الحوذى مضطرباً يردد بين الفينة والفينة قوله:

- يا للمصيبة! رباء! يا للمصيبة!

استطاع راسكولنيكوف أن يشق لنفسه ممراً، فأفلح أخيراً في أن يرى ذلك الشيء الذي يشير هذا الاضطراب القوي وهذا الفضول الشديد. إنه رجل يرقد على الأرض داماً مغشياً عليه يرتدي ثياباً فقيرة رثة لكنها من ثياب «السادة»، قد داسه الحصانان، فالدم يسيل من جمجمته ومن وجهه المتخن المهدشم. كان واضحاً أن الإصابة خطيرة.

صاح الحوذى نادباً شاكياً:

- يا رب السماء! كيف كان يمكن أن أتفاداه! لم تكن العربية مسرعة، وأنا كنت أصرخ منها! كانت العربية تسير في رفق، كانت تسير على

مهل . جميع الناس رأوا ذلك . إن كنت أكذب فقد كذب إذن جميع الناس . ولكن السكران لا يرى حتى في وضع النهار . . . هذا معروف . أبصرته يجتاز الشارع متربحاً حتى ليكاد يتهاوى على الأرض من شدة السكر . صرخت أنيبهه ، مرّة ، مرتين ، ثلث مرات . . . ولجمت الحصانين ، ولكنها هو ذا يمشي إليهما قُدُّماً فيسقط بين حوافهما . . . فإما أنه فعل ذلك عاماً ، وإما أنه قد بلغ منه السكر كل مبلغ . . . وحصاناي مهران صغيران عصبيان ، فها هما يجمحان ، وها هو ذا يصرخ فيزداد جموحهما فتفتح المصيبة . . .

قال أحد شهداء الحادث :

- نعم ، ذلك ما حدث .

وقال صوت آخر :

- نعم ، لقد صرخ الحوذى ، صرخ ثلث مرات . . .

وقال ثالث مؤيداً :

- نعم ، ثلث مرات ، جميع الناس سمعوا . . .

على أن الحوذى لم يكن منها العزم ولا شديد الخوف . وكان واضحاً أن المركبة يملكتها شخص ثري لا بد أنه كان ينتظر وصولها في مكان ما . وهذه حقيقة لم تغرب عن بال رجال الشرطة طبعاً ، ولا أسلقوها من الحساب . لم يبق إذن إلا أن يُنقل المصاب إلى قسم الشرطة وإلى المستشفى . ولم يكن أحد يعرف اسمه .

في أثناء ذلك ، كان راسكولنيكوف قد تسلل إلى وسط الجمهور ، ومال على الأرض ، فإذا بالمصباح الصغير يضيء وجه الشقي على حين فجأة ، وإذا براسكولنيكوف يتعرفه فوراً .

صرخ يقول وهو يندفع إلى الصف الأول :

- أنا أعرفه ! أنا أعرفه ! هو موظف محال على التقاعد ، هو الموظف

مارميلاروف . أنه يسكن قريباً من هنا، في عمارة كوسل . . . أسرعوا،
نادوا طبيباً! سأدفع! خذ . . .

قال ذلك وأخرج من جيده مالاً فعرضه على أحد رجال الشرطة . كان راسكولنيكوف في حالة اضطراب تبعث على الدهشة .

سُرّ رجال الشرطة بمعرفة شخص المصاب . وأسرع راسكولنيكوف يعرف بنفسه أيضاً، فذكر اسمه، وذكر عنوانه، وألح إلحاها شديداً، كما لو كان المصاب أباً، على أن يُنقل مارميلاروف إلى مسكنه بأسرع ما يمكن . وكان مارميلاروف ما يزال فاقداً وعيه مغشياً عليه . قال راسكولنيكوف متوجلاً:

- بيته هناك: بعد ثلاثة عمارات . إنه يسكن في عمارة كوسل، الألماني الغني . . . لا شك أنه كان سكران عائداً إلى بيته . أنا أعرفه . إنه سكير . . . له أسرة، وزوجة، وأولاد، وبنت . لماذا المستشفى؟ إن نقله إلى المستشفى يستغرق وقتاً طويلاً . ولا بد أن يوجد في عمارته طبيب . سوف أدفع، سوف أدفع . فبذلك يعتني به ذهنه، ويفعلون ما يجب فعله فوراً . وإنما يتعرض للموت حتى قبل أن يصل إلى المستشفى .

وأفلح راسكولنيكوف في أن يدس قطعة نقدية في يد أحد رجال الشرطة . وكانت القضية من جهة أخرى واضحة شرعية . وبدا على كل حال أن نقل الجريح إلى بيته أبسط وأيسر . فرفع المصاب وحمل، ووُجد من يساعد في ذلك . كانت عمارة كوسل تقع على مسافة ثلاثة خطوة . فكان راسكولنيكوف يمشي وراء الجريح سانداً رأسه بكثير من الحذر والاحتياط، وكان يدل الآخرين على الطريق .

- من هنا! من هنا! وحين نصعد السلم يجب أن نجعل رأسه عالياً . . . دوروا . . . تعم هنا . . . سوف أدفع . . . أشكر لكم صنيعكم . . .

ذلك كان يدمدم راسكولنيكوف.

كانت كاترينا ايفانوفنا، على عادتها كلما أتيحت لها دقيقة من فراغ، تسير في غرفتها الصغيرة طولاً وعرضاً، فتمضي من النافذة إلى المدفأة ومن المدفأة إلى النافذة، مصالبة ذراعيها على صدرها، مكلمة نفسها، ساعلة من حين إلى حين. ولقد تعودت منذ مدة من الزمن أن تتحدث إلى ابنتها الكبرى بولينكا التي يبلغ عمرها عشر سنين والتي كانت، رغم أنها لا تستطيع أن تفهم أشياء كثيرة بعد، تدرك حق الإدراك أن أمها في حاجة إليها، فكانت لذلك تتبعها بنظراتها الذكية محمولة، وتبذل كل ما تملك من قوة في سبيل أن تظاهرة بأنها تفهم كل ما كانت تقوله لها. وفي تلك اللحظة، كانت بولينكا تنضو عن أخيها الصغير ثيابه لتضعه في السرير بعد أن لبث مريضاً طوال النهار، فكان الصبي الصغير، بانتظار إبدال قميصه الذي يجب أن يُغسل في تلك الليلة نفسها، جالساً على كرسي، رزيناً صامتاً. كان منتصب الجسم، ساكناً، ملتصقاً ساقيه إحداهما بالأخرى وهو يرفعهما إلى الأمام، موجهاً إبهاميه إلى الخارج، نافخاً خديه، محملاً بعينيه، يصغي إلى ما كانت تقوله أمه لأنّته دون أن يتحرك، كما ينبغي للصغار العقلاً حين تخلع عنهم ثيابهم للنوم. وكانت البنت الثانية، وهي أصغر سنًا منه، وثيابها أطمار بالية تماماً، تنتظر دورها واقفةً قرب الحاجز. وكان الباب المطل على فسحة السلالم مفتوحاً على سعته كلها، من أجل أن يهرب منه ولو جزء من دخان التبغ الذي يأتي من الغرف الأخرى، ويسبّب للمصدورة المسكينة نوبات سعال طويلة أليمة قاسية. لقد نحلت كاترينا ايفانوفنا مزيداً من النحول منذ أسبوع، وأصبحت البقع الحمراء على خديها تزداد حمراء.

كانت تقول لابنتها وهي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً:

- لا تستطيعين أن تعرفي، لا تستطعيين أن تخيلي، يا بولينكا، نوع الحياة الفرحة المرحة الباذحة التي كنا نحيها في دار بابا، ولا نوع

الشقاء الذي نزل عليّ بسبب هذا السكير، والذي سينزل عليكم أنتم جميعاً كذلك. كان بابا في رتبة تعدل رتبة كولونيل. كان يوشك أن يصبح حاكماً، لم يكن عليه إلا أن يخطو خطوة واحدة حتى يصبح حاكماً، لذلك كان جميع الناس يجيئون إليه ويقولون له: «نحن نعدك حاكماً لنا منذ الآن يا ايفان ميخائيلتش». وحين... كح كح كح... حين... كح كح كح... لعن الله هذه الحياة... (صاحت هكذا وهي تبصق وتضفط صدرها) - نعم، حين... آه... حين رأته الأميرة بيزيملنايا، في آخر حفلة رقص، عند رئيس مجلس النبلاء - وهذه الأميرة هي التي باركتني حين تزوجت أباك يا بوليا نعم... حين رأته أسرعت تسأل على الفور: «أليست هذه الفتاة الفتانة هي التي رقصت رقصة الشال حين تخرجت من المدرسة الداخلية؟» يجب ترقيع هذا الثقب، عليك أن تأخذني إبرة وخيطاً فترقيعيه، كما علمتك، وإنما فإنه... كح... غداً... كح كح كح... سيتسع مزيداً من الاتساع (صرخت تقول ذلك صراخاً وقد هدّها السعال). وفي ذلك الأوّان إنما وفد إلينا من بطرسبرج شاب من الحاشية هو الأمير ستسيجولسكي... ورقص معه رقصة مازوركا، وقال لي أنه سيجيء في الغداة ليخطبني... فشكرته بالطف العبارات، ولكنني صرفته قائلة له أن قلبي يملكه رجل آخر منذ مدة طويلة، وهذا الآخر هو أبوك يا بوليا. وغضب أبي غضباً شديداً. هل أعد الماء؟ هيئاً ائتي بالقميص. والجوارب، أين هي؟ يا ليديا (كذلك قالت لصغرى بنتيها) ستندمين هذه الليلة بدون قميص... دُبْري أمرك... ودعني الجوربين جانباً كذلك... سأغسلهما... ألن يعود هذا الرث السكران؟ لقد لبس قميصه حتى أصبح وسخاً كمسحة. ومزقه أيضاً. أتمنى لو أغسل كل شيء دفعه واحدة. بذلك لا أتعذب ليلتين متاليتين... يا رب! كح كح كح... ما هذا أيضاً؟ (هتفت تسأله هذا السؤال وهي ترى جمهوراً على فسحة السلم، وترى مع الجمهور أشخاصاً يحملون حِملَّاً ويحاولون أن يشقوا

طريقهم نحو الغرفة) ماذا جرى؟ ماذا يحملون؟ رباء!
سأل الشرطي وهو ينظر حواليه بينما كان يُحمل مارميلادول إلى
الغرفة دامياً مغشياً عليه:

- أين نضعه؟

قال راسكولنيكوف:

- على الديوان! أضجعوه على الديوان، واجعلوا رأسه في هذه
الجهة.

صاحب يقول واحد وهو على فسحة السلم:

- داسته عربة في الشارع وهو سكران!

وقفت كاترينا إيفانوفنا جامدة، شاحبة الوجه، تتنفس بصعوبة
ومشقة. وارتعب الأولاد. وأطلقت ليدوتشكا صرخة وهرعت إلى
بولينكا، فعانتها وهي ترتجف بجميع أعضاء جسمها.

حتى إذا أضجع مارميلادول على الديوان، هرع راسكولنيكوف إلى
كاترينا إيفانوفنا، وقال لها مسرعاً:

- اهدئي ناشدتك الله، لا تضطرب! ... كان يجتاز الشارع، فمرت
عربة فوقه. لا تقلقي. سيصحو من إغمائه. أنا أمرت بحمله إلى هنا.
لقد جئت إليكم مرة قبل الآن، هل تذكرين؟ سيفيق من غيبوبته. سوف
أدفع!

صاحت كاترينا إيفانوفنا تقول يائسةً وهي تندفع نحو زوجها: - نال
ما كان يسعى إليه!

لم يلبث راسكولنيكوف أن لاحظ أن هذه المرأة ليست من تلك
النساء اللواتي يغمى عليهن لأيسر الأسباب. وبمثيل لمع البصر سرعةً
وضعت وسادةً تحت رأس المسكين: ما من أحد قد خطرت بياله هذه
الفكرة من قبل. ثم أخذت كاترينا إيفانوفنا تخلع ثيابه، وتفحصه،

وكانـت منهـمة في العـنـاـيـة بالـجـرـيـح مـسـيـطـرـة علىـ نـفـسـهـا، عـاـضـةـ علىـ شـفـتيـها المرـتعـشـتين، تـكـظـمـ الـصـرـخـاتـ التـيـ تـهـمـ أـنـ تـنـطـلـقـ منـ صـدـرـهـا.

وـفـيـ أـثـنـاءـ ذـلـكـ اـسـطـاعـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ أـنـ يـقـنـعـ أـحـدـ الـحـضـورـ بـأـنـ يـمـضـيـ يـسـتـدـعـيـ طـبـيـباـ. وـكـانـ يـوـجـدـ طـبـيـبـ فـيـ عـمـارـةـ مـجاـوـرـةـ.

وـكـرـرـ يـقـولـ لـكـاتـرـينـاـ اـيـفـانـوـفـناـ:

ـ أـرـسـلـتـ فـيـ طـلـبـ طـبـيـبـ. لـاـ تـقـلـقـيـ. سـوـفـ أـدـفـعـ. أـلـيـسـ عـنـدـكـمـ مـاءـ؟ وـأـعـطـنـيـ أـيـضاـ فـوـطـةـ، مـنـشـفـةـ، أـيـ شـيـءـ، بـسـرـعـةـ! لـاـ نـعـلـمـ بـعـدـ هـلـ جـرـحـهـ بـلـيـغـ...ـ عـلـىـ كـلـ حـالـ، هـوـ جـرـيـحـ وـلـيـسـ قـتـيـلـاـ...ـ ثـقـيـ بـذـلـكـ...ـ لـنـتـتـظـرـ مـاـ سـيـقـولـهـ الطـبـيـبـ.

هـرـعـتـ كـاتـرـينـاـ اـيـفـانـوـفـناـ إـلـىـ النـافـذـةـ. كـانـ يـوـجـدـ هـنـاكـ، فـيـ رـكـنـ، عـلـىـ كـرـسـيـ خـاـسـفـ، طـسـتـ كـبـيرـ مـنـ فـخـارـ، مـمـلـوـءـ مـاءـ، قـدـ هـيـأـتـهـ مـنـ أـجـلـ أـنـ تـغـسلـ فـيـ اللـيـلـ مـلـابـسـ أـوـلـادـهـاـ وـزـوـجـهـاـ. إـنـ كـاتـرـينـاـ اـيـفـانـوـفـناـ هـيـ التـيـ تـتـولـىـ غـسـلـ الـمـلـابـسـ بـيـديـهـاـ لـيـلـاـ، وـهـيـ تـفـعـلـ ذـلـكـ مـرـتـيـنـ فـيـ الـأـسـبـوعـ عـلـىـ أـلـقـلـ، وـقـدـ تـفـعـلـهـ أـكـثـرـ مـنـ مـرـتـيـنـ أـحـيـاـنـاـ، ذـلـكـ أـنـهـمـ قـدـ وـصـلـوـاـ إـلـىـ حـيـثـ أـصـبـحـوـاـ لـاـ يـمـلـكـوـنـ مـنـ كـلـ مـلـبـسـ إـلـاـ قـطـعـةـ وـاحـدـةـ لـكـلـ فـرـدـ. وـكـاتـرـينـاـ اـيـفـانـوـفـناـ لـاـ تـحـتـمـلـ الـوـسـاخـةـ، وـتـؤـثـرـ عـلـىـ هـذـاـ أـنـ تـقـومـ فـيـ اللـيـلـ، بـيـنـمـاـ الـجـمـيـعـ نـائـمـونـ، بـعـمـلـ تـفـرـضـهـ عـلـىـ نـفـسـهـاـ وـيـفـوقـ طـاقـتهاـ: تـغـسلـ الـمـلـابـسـ ثـمـ تـنـشـرـهـاـ عـلـىـ حـبـلـ لـتـجـفـ، بـغـيـةـ أـنـ تـجـدـ الـأـسـرـةـ أـشـيـاءـهـاـ نـظـيـفـةـ فـيـ الصـبـاحـ. حـمـلـتـ الـطـسـتـ كـمـاـ أـمـرـهـاـ بـذـلـكـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ، وـكـادـتـ تـسـقـطـ مـعـهـ عـلـىـ الـأـرـضـ. وـكـانـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ قـدـ اـسـطـاعـ فـيـ أـثـنـاءـ ذـلـكـ أـنـ يـعـثـرـ عـلـىـ مـنـشـفـةـ. فـبـلـهـاـ بـالـمـاءـ وـأـخـذـ يـغـسلـ وـجـهـ مـارـمـيـلـادـوـفـ الدـامـيـ. وـكـانـتـ كـاتـرـينـاـ اـيـفـانـوـفـناـ تـقـفـ إـلـىـ جـانـبـهـ، مـتـنـفـسـةـ بـمـشـقـةـ وـصـعـوبـةـ، ضـاغـطـةـ صـدـرـهـاـ بـيـديـهـاـ. لـقـدـ كـانـتـ هـيـ نـفـسـهـاـ فـيـ حـاجـهـ إـلـىـ إـسـعـافـ. وـبـذـاـ رـاسـكـولـنيـكـوفـ يـقـولـ لـنـفـسـهـ إـنـهـ رـبـمـاـ أـخـطـأـ حـيـنـ أـلـعـ عـلـىـ ضـرـورـةـ نـقـلـ الـمـرـيـضـ إـلـىـ هـنـاـ. وـكـانـ الشـرـطـيـ مـرـتـبـكـاـ حـائـرـاـ.

وصاحت كاترينا ايفانوفنا تقول لابتها:

- بوليا⁽⁵⁸⁾، إذهب إلى أختك صونيا، وأحضرها بسرعة. فإذا لم تجديها في مسكنها، فلا بأس... قولي إن أباها قد داسته خيول، وأن عليها أن تجيء حالاً متى عادت. أسرعي يا بوليا! خذني، ضعي هذا المنديل على رأسك.

وصرخ الصبي الصغير من على كرسيه على حين فجأة يهيب بها أن تسرع قائلاً:

- أثلعي... (أسرعي)...

قال ذلك وعاد يغرق في صمته، واسترد وضعه: محمق العينين، متصلب الجذع، متجمد الجسم، مشدود الساقين.

وامتلأت الغرفة بالناس في أثناء ذلك، فلو أُلقيت تفاحة لما سقطت على الأرض من شدة ازدحامهم. وانصرف رجال الشرطة، إلا واحداً بقي إلى حين، بغية أن يصد الجمهور الذي كان يصل من السلم ويتدفق من جديد. إن المستأجرين الذي يسكنون عند مدام لييفكسيل قد هرعوا جميعهم تقريباً من غرفهم التي تقع في آخر الشقة: تجمعوا في أول الأمر على الباب، ثم اجتاحوا الغرفة نفسها. غضبت كاترينا ايفانوفنا، فصرخت تخاطب الناس:

- دعوه يموت بسلام على الأقل. آه... أهذه مسرحية ما هذا الذي تفعله أنت؟ تدخلون ولا تزالون تدخنون السجائر! كح كح كح! لم يبق إلا أن تحتفظوا بقبعاتكم على رؤوسكم أثناء رؤية المشهد. هه... هذا واحد قد احتفظ بقبعته على رأسه فعلاً! هيا اخرجوا من هنا... احترموا الأموات على الأقل!

قالت ذلك ثم خنقتها نوبة سعال شديدة. ولكن تقريرها كان له أثره. واضح أنهم يخشون كاترينا ايفانوفنا بعض الخشية. فها هم أولاء سكان البيت يتوجهون نحو الباب واحداً بعد آخر، وهم يشعرون بذلك

الإحساس الغريب، إحساس اللذة الذي يُلاحظ دائمًا حتى لدى أقرب الأقرباء حين يرون شقاء يحل بقريبهم؛ وهو إحساس لا يخلو منه أي إنسان، مهما يكن إحساسه بالأسف والشفقة صادقاً.

وكانت تُسمع وراء الباب أحاديث يدور فيها الكلام على المستشفى، وعلى أنه ليس من اللائق تعكير صفو عمارة في غير طائل.

صرخت كاترينا إيفانوفنا تقول:

- ماذا؟ ليس من اللائق أن يموت الإنسان؟

وهَمِّت أن تفتح الباب وأن تصبَّ على هؤلاء الناس سيلًا من الشتائم، ولكن حين وصلت إلى العتبة رأت نفسها تصطدم بمدام ليفسكل نفسها التي علمت بالمصيبة فأسرعت تعيد النظام إلى نصابه. إن مدام ليفسكل هذه ألمانية مشاكسة مزعجة.

قالت وهي تصفع يديها إحداهما بالأخرى:

- آه... يا رب! زوجك داسه حصان وهو سكران. إلى المستشفى، إلى المستشفى إنما كان يجب... أنا صاحبة البيت...

فقالت كاترينا إيفانوفنا في تعالى وكبرباء:

- أرجوك يا آماليا لودفيجوفنا أن تفكري فيما تقولين... يا آماليا لودفيجوفنا...

كانت كاترينا إيفانوفنا تخاطب صاحبة البيت دائمًا في تعالى وكبرباء، فيما «تلزم هذه حدودها»؛ ولم تستطع حتى في هذا الظرف أن تحرم نفسها من هذه اللذة.

قالت مدام ليفسكل:

- قلت لك مرةً واحدةً إلى الأبد أن لا تسميني آماليا لودفيجوفنا فقط. أنا آماليا إيفانوفنا.

- أنت لست آماليا إيفانوفنا، بل آماليا لودفيجوفنا؛ وأنا لست واحدةً

من أولئك الذين يتملقونك تملقاً ذليلاً، ومنهم السيد ليزياتنيكوف الذي تدوي قهقهاته في هذه اللحظة نفسها وراء الباب (وكان يدوبي وراء الباب ضحكة فعلاً، وكانت تسمع هذه الجملة: «قد بدأت مشاكسة!») فإنني سأسميك دائمًا آمالياً لودفيجوفنا. ولست أفهم على كل حال لماذا يسوءك هذا الاسم إلى هذه الدرجة. لقد رأيت ما حدث لسيميون زاخاروفتش: إنه يموت. فأرجوك أن تغلقي هذا الباب فوراً، وأن لا تدعني لأحد أن يدخل إلى هنا. فليمت بسلام على الأقل! وإنما أؤكد لك أن سلوكك هذا سيعرفه الحاكم العام نفسه من الغد. إن الأمير قد عرفني قبل أن أتزوج، وهو يتذكر سيميون زاخاروفتش جيداً، وقد أحسن إليه مراراً. وجميع الناس يعلمون أن سيميون زاخاروفتش كان له أصدقاء وحمة كثرة أهلهم هو نفسه بسبب عزته وكبرياته، وبسبب ما كان يحسه من ضعفه المحزن. ولكن شاباً سمحاً (وأومأت إلى راسكولنيكوف) ذا ثراء وعلاقات، شاباً يعرفه سيميون زاخاروفتش منذ طفولته، يتولى مساعدتنا الآن، ففي وسعك أن تكوني على يقين يا آماليا لودفيجوفنا من أن... .

قيل ذلك كله بسرعة قصوى كانت تتزايد من دقيقة إلى دقيقة. ولكن السعال قطع بлагعة كاترينا إيفانوفنا فجأة؛ واستعاد المحتضر وعيه في تلك اللحظة وأطلق أنينا فهرعت إليه. وفتح عينيه، وأخذ ينظر إلى راسكولنيكوف الواقف بقربه، أخذ ينظر إليه دون أن يتعرف أحداً ودون أن يفهم شيئاً. وكان يتنفس تنفساً شاقاً عميقاً متقطعاً. وظهر دم على طرفي شفتيه. وكان العرق يتکائف على جبينه. وإذا لم يستطع أن يحدد شخصية راسكولنيكوف، أجال بصره على ما حوله قلقاً. وكانت كاترينا إيفانوفنا تلقي عليه نظرة حزينة لكنها قاسية، وكانت تسيل من عينيها دموع.

قالت بائسة:

- رباء! إن صدره معجون عجناً! ما أكثر الدم! ما أكثر الدم! يجب أن تُنزع عنه ملابسه. استدر قليلاً يا سيميون زاخاروفتش، إذا كنت تقوى على ذلك.

تعرفها مارميلادوف. فنطق بصوت أبجع:

- كاهن!

فتراجعت كاترينا إيفانوفنا نحو النافذة، وأسندت جبينها إلى الزجاج، وهتفت تقول وقد بلغت ذروة الكمد والكرب:

- قاتل الله هذه الحياة!

وعاد المحتضر يقول من جديد، بعد لحظة صمت:

- كاهن!

فصرخت كاترينا إيفانوفنا:

- أر... سلنا... نستد... عيه!

فهم وصمت. وكان يبحث عنها بنظراته وجلاً قلقاً. فعادت إليه ووقفت بقربه. فهداً قليلاً ولكن هدوءه لم يطل فإن عينيه لم تلبثا أن توقفتا على الصغيرة ليدوتشكا⁽⁵⁹⁾ (أثيرته) التي كانت في ركن من الأركان ترتجف ارتجاف من أصابتها نوبة عصبية، وتحدق إليه بعينيها المدهوشتين، عيني الطفلة، تحديقاً ثابتة.

غمغممحاولاً أن يقول شيئاً وهو يومئ إليها قلقاً:

- أ... أ...

فصرخت كاترينا إيفانوفنا:

- ماذا أيضاً؟

فقال وقد تلبت نظراته على قدمي البنت الصغيرة الحافيتين:

- حافية! حافية!

فزأرت كاترينا ايفانوفنا تقول وقد بلغ غضبها أشدده:

- اسكت! أنت تعلم حق العلم لماذا هي حافية!

صاح راسكولنيكوف يقول متخففاً من قلقه:

- الحمد لله! وصل الطبيب!

دخل الطبيب. أنه شيخ مهندم (وهو ألماني) أخذ يلقي على ما حوله نظرات زاخرة بالريبة والشك. اقترب من المريض، وجسّ نبضه، وتفحص رأسه بانتباه، ثم تعاون مع كاترينا ايفانوفنا على حلّ أزرار القميص المبتل بالدم، وعرّى الصدر. كان الصدر خاسفاً خسوفاً مروعاً، وكان مهروساً ممزقاً. إن عدّة أضلاع في الجهة اليمنى كانت محطمة مهشمة. وفي الجهة اليسرى، عند القلب، كانت ثُرى بقعة سوداء ضاربة إلى صفرة، بقعة كبيرة رهيبة: إنها آثار حافر حصان. قطب الطبيب حاجبيه. وروى له الشرطي أن الجريح قد تشبت به إحدى عجلات العربة، فجرّته أثناء دورانها مسافة ثلاثين خطوة على أرض الشارع.

قال الطبيب لراسكولنيكوف هامساً:

- أغرب ما في الأمر أنه عاد إليه شعوره!

فسأله راسكولنيكوف:

- ما رأيك؟

- سيموت حالاً.

- أليس هناك أيأمل؟

- لا أمل البتة. إنه يوشك أن يلفظ آخر أنفاسه. أنه في النزع الأخير. ثم إن رأسه مصاب بجراح خطير جداً. هم... يمكنناطبعاً أن نجري له فصداً... ولكن ما فائدة ذلك؟ سيموت حتماً بعد خمس دقائق أو عشر.

- لنجرِب الفصد مع ذلك !

- طيب . ولكنني أُنْبِهُك مرة أخرى إلى أننا لن نجني من ذلك أية فائدة .

وفي هذه اللحظة نفسها سمع وقع أقدام مرأة أخرى . فتنحى الجمهور على فسحة السلالم وظهر كاهن شيخ أبيض الشعر يحمل الأعراض السرية⁽⁶⁰⁾ ، ووراءه شرطي جاء به إلى البيت . فسرعان ما أخلى له الطبيب المكان ، بعد أن تبادل معه نظرة ذات دلالة ، وبادر راسكولنيكوف يرجو الطبيب أن يبقى ولو لحظة قصيرة . فرفع الطبيب كتفيه ، ولكنه بقي .

تنحى الجميع . ولم يدم الاعتراف إلا وقتاً قصيراً جداً : فأغلب الظن أن المحتضر كان فاقداً إدراكه وكان عاجزاً عن الكلام ، وكان لا يستطيع ، في أكثر تقدير ، أن ينطق إلا بأصوات متقطعة غير متميزة . أمسكت كاترينا ايفانوفنا يد ليدوتشكا ، فأنهضت الصبي الصغير عن كرسيه ثم مضت إلى الركن قرب المدفأة ، فجئت على ركبتيها وأركعت الأولاد أمامها . استمرت البنت الصغيرة ترتجف . أما الصبي الصغير الذي كان جاثياً بركتيه العاريتين على بلاط الأرض ، فكان يرفع يده اليمنى في فواصل مطردة ، فيرسم إشارات الصليب واسعة كبيرة ، ثم يسجد فيلصق جبينه بالأرض ، وكان واضحاً أن هذا يحدث له لذة قصوى . وكانت كاترينا ايفانوفنا تعض على شفتيها وتحبس دموعها . كانت تصلي هي أيضاً ، وتعديل قميص الصغير من حين إلى حين في الوقت نفسه . حتى لقد استطاعت ، دون أن تنهض ودون أن تقطع صلاتها ، استطاعت أن تسلل من الخزانة ذات الأدراج منديلاً ألقته على كتفي الصبية العاريتين . ولكن الباب المطل على الغرف الأخرى قد فتحه المستطلعون أثناء ذلك مرة أخرى . كان جمهور المشاهدين على فسحة السلالم - وهم السكان الذين هرعوا من جميع طوابق العمارة -

تزداد كثافته شيئاً بعد شيء، إلا أن أحداً منهم لم يتحط عتبة الغرفة. وكان لا يضيء هذا المشهد كله إلا بقية شمعة.

وفي تلك اللحظة وصلت بوليا التي ذهبت تحضر أختها، فاندفعت تشق لها ممراً بين ذلك الجمهور. دخلت منقطعة الأنفاس تقريباً، لأنها قد ركضت بسرعة مفرطة، فنزعـت المنديل الذي كان يغطي كتفيها، وبحثـت عن أمها بعينيها، ثم اقتربـت منها وقالـت لها: «ستجيء، فقد لقيتها في الشارع!» أركـعت الأم ابنتها إلى جانبـها. ثم وصلـت فـتـاة، فـتقدـمت وـسطـ الجمهور خـجلـة بلا ضـجة، فـكان ظـهـورـها المـفـاجـيـء في هـذـهـ الغـرـفـةـ التي يـسـودـهاـ الفـقـرـ والـبـؤـسـ والأـسـمـالـ الرـثـةـ والـمـوـتـ والـيـأسـ أـمـراـ غـرـيبـاـ يـبـعـثـ عـلـىـ أـشـدـ الـدـهـشـةـ.ـ كـانـتـ تـرـتـديـ أـسـمـالـ أـيـضاـ وـكـانـتـ ثـيـابـهاـ رـخـيـصـةـ،ـ وـلـكـنـهاـ صـارـخـةـ صـخـابـةـ تـنـاسـبـ أـذـواقـ وـقـوـاعـدـ العـالـمـ الـخـاصـ الـذـيـ تـعـيـشـ فـيـ هـذـهـ الـفـتـاةـ،ـ وـتـلـائـمـ الـغـاـيـاتـ الدـنـيـةـ الـتـيـ تـسـيـطـرـ عـلـىـ ذـلـكـ الـعـالـمـ.ـ وـقـفـتـ صـوـنـيـاـ عـلـىـ الـعـتـبـةـ لـاـ تـجـرـؤـ أـنـ تـجـتـازـهـاـ.ـ وـكـانـتـ تـنـظـرـ حـوـالـيـهاـ زـائـغـةـ الـهـيـئةـ تـائـهـةـ الـفـكـرـ.ـ كـانـ يـبـدـوـ عـلـيـهـاـ أـنـهـ لـاـ تـدـرـكـ شـيـئـاـ وـلـاـ تـعـيـ شـيـئـاـ،ـ وـكـانـ يـبـدـوـ عـلـيـهـاـ أـيـضاـ أـنـهـ ذـهـلـتـ مـنـ ثـوـبـهاـ الـحـرـيرـيـ الـذـيـ اـشـتـرـتـهـ مـسـتـعـمـلاــ وـالـذـيـ كـانـ أـلـوـانـهـ الزـاهـيـةـ وـذـيـولـهـ الطـوـيـلـةـ الـمـضـحـكـةـ لـاـ تـنـاسـبـ هـذـاـ الـمـكـانــ وـذـهـلـتـ مـنـ تـنـورـتـهاـ الـمـسـلـكـةـ الـفـضـفـاضـةـ الـتـيـ تـمـلـأـ عـرـضـ الـبـابـ كـلـهـ،ـ وـمـنـ حـذـاءـيـهـاـ الـلـامـعـينـ وـشـمـسيـتـهاـ الـتـيـ لـاـ فـائـدـةـ مـنـهـاـ الـبـتـةـ لـأـنـ الـوقـتـ لـيـلـ،ـ وـمـنـ قـبـعـتـهاـ الـمـدـوـرـةـ الـمـضـحـكـةـ الـمـصـنـوـعـةـ مـنـ قـشـ،ـ الـمـزـدـانـةـ بـرـيشـةـ حـمـراءـ.ـ وـكـانـ يـلـوحـ تـحـتـ هـذـهـ الـقـبـعـةـ،ـ الـمـوـضـوـعـةـ مـائـلـةـ،ـ وـجـهـ صـغـيرـ نـحـيلـ أـصـفـرـ مـرـتـاعـ،ـ فـاغـرـ الـفـمـ شـارـدـ الـعـيـنـيـنـ مـنـ الرـعـبـ.ـ إـنـ صـوـنـيـاـ تـبـلـغـ مـنـ الـعـمـرـ ثـمـانـيـةـ عـشـرـ عـامـاـ،ـ وـهـيـ قـصـيرـةـ الـقـامـةـ هـزـيلـةـ الـجـسـمـ،ـ لـكـنـهاـ لـطـيفـةـ،ـ شـقـراءـ،ـ لـهـاـ عـيـنـانـ زـرـقاـنـ رـائـعـتـانـ.ـ وـقـدـ رـاحـتـ تـحـدـقـ إـلـىـ الـدـيـوـانـ وـإـلـىـ الـكـاهـنـ بـنـظـرـاتـ ثـابـتـةـ.ـ وـكـانـتـ مـقـطـعـةـ الـأـنـفـاسـ هـيـ أـيـضاـ،ـ لـأـنـهـ رـكـضـتـ رـكـضـاـ سـرـيـعاـ.ـ وـلـاـ شـكـ أـنـ كـلـمـاتـ تـبـادـلـهـاـ بـعـضـهـمـ فـيـ الـجـمـهـورـ هـمـسـاـ قـدـ تـناـهـتـ إـلـىـ

مسامعها فيها هي ذي تخفض رأسها وتتقدم خطوةً إلى أمام. ولكنها لم تعزم أمرها بعد على الابتعاد عن الباب.

انتهت الاعتراف والتناول. وعادت كاترينا ايفانوفنا إلى قرب الديوان. وتنحى الكاهن. ولكنه اعتقاد أن من واجبه أن يوجه إلى كاترينا ايفانوفنا بعض كلمات تواسيها وتقوي عزيمتها. فقاطعته كاترينا ايفانوفنا تقول بلهجة خشنة غاضبة وهي تشير إلى الأولاد:

- وهؤلاء، أين أضعهم الآن؟

قال الكاهن:

- الله رحيم. تأمل في عون الرب!

- هو رحيم بلا شك، لكنه ليس رحيمًا بنا نحن.

قال الكاهن وهو يهز رأسه:

- هذا إثم يا سيدتي، هذا إثم!

فصرخت كاترينا ايفانوفنا مشيرة إلى المحترض:

- وهذا، أليس إثماً؟

- لعل الذين كانوا سبب وقوع هذه المصيبة بغير إرادة منهم، لعلهم يوافقون على أن يدفعوا لك تعويضاً بسبب فقدانك مواردك على الأقل . . .

صرخت كاترينا ايفانوفنا تقول بشراسة وهي تلوح بيدها:

- أنت لا تفهم! لماذا عساهم يدفعون لي تعويضاً؟ إن هذا السكير هو الذي ألقى بنفسه بين حوافر الخيل! ثم ما كلامك هذا عن مواردي! إنه لم يمدني بأية موارد في يوم من الأيام! إنه لم يهيء لي إلا أنواع العذاب! هذا كل ما أمدني به! لقد كان سكيراً، سكيراً، ما وصل إلى يده شيء إلا سارع بشرب به خمراً؛ كان ينهبنا نهباً، كان يذهب إلى الحانات يتلف فيها حياته وحياته! سيموت الآن، الحمد لله، وسيكون موته توفيراً واقتصاداً!

- على المرء أن يعفو ويصفح ويغفر، في ساعة الموت! إن الشعور بمثل هذه العواطف إثم يا سيدتي، إثم كبير!

كانت كاترينا ايفانوفنا ما تزال منهنكة حول المحتضر تسقيه وتمسح عن رأسه العرق والدم وتعدّل وضع الوسادة تحت رأسه؛ فهي تتحدث مع الكاهن دون أن تنقطع عن عملها ملتفة إليه أحياناً. ولكنها وثبت نحوه على حين فجأة حانقة غاضبة، وقد خرجمت عن طورها:

- آه يا أبي! ما هذا كله إلا كلام، كلام لا أكثر! العفو والصفح والمغفرة! هه! لو لم يقع له هذا الحادث، لرجوع إلى البيت في هذا المساء سكران؛ ولأنه لا يملك قميصاً غير هذا القميص الوسخ الممزق الذي يلبسه، لكان عليّ أنا أثناء غطيته في النوم أن أتبيل بالماء لأغسل له القميص ولأغسل ملابس الأولاد؛ ولكن عليّ بعد ذلك أن أجفف الغسيل كله على النافذة، حتى إذا طلع الفجر أخذت أعمل في الترقيع! على هذا النحو كنت سأقضي الليل! فعلام الكلام عن العفو والصفح والمغفرة إذن؟ لقد عفوت وصفحت وغفرت منذ زمان!

واعتبرتها نوبة سعال شديدة فاضطررت أن تنقطع عن الكلام. وبصقت في منديلها ومدته تحت عيني الكاهن ضاغطة صدرها بيدها الأخرى. كان المنديل مبللاً بالدم.

خفض الكاهن رأسه ولم يقل شيئاً.

وكان مارميلادوف المحتضر لا يحول عينيه عن وجه كاترينا ايفانوفنا التي مالت عليه من جديد. كان يريد أن يقول لها شيئاً ما. حاول ذلك محركاً لسانه بمشقة، متتمماً ببعض كلمات مبهمة غير متميزة، ولكن كاترينا ايفانوفنا، وقد أدركت أنه يريد أن يسألها أن تغفر له أسرعت تصرخ قائلة له بلهجة آمرة:

- اسكت! اسكت! لا داعي! أعرف ما تريد أن تقول! فصمت الجريح. ولكن بصره التائه سقط في تلك اللحظة على

الباب، فلمح صونيا. لم يكن قد لاحظها قبل ذلك: كانت صونيا تقف في الجزء المظلم من الغرفة.

- من هذه؟ من هذه؟

كذلك ثائماً يسأل فجأةً بصوت أبَحْ لاهث، وهو يحاول أن ينهض، ويومئ بعينيه مرتععاً إلى الباب الذي كانت ابنته ما تزال واقفةً عنده.

صرخت كاترينا ايفانوفنا تقول له:

- ابق راقداً! ابق راقداً!

ولكنه استطاع بجهد خارق أن ينهض جسمه مستنداً بيده إلى الديوان. فحدق إلى ابنته برهةً من الوقت بنظرة غريبة، كأنه لم يتعرفها. ذلك أنه لم يسبق له أن رآها بمثل هذا الزي الغريب. ولكنه لم يلبث أن تعرفها فجأةً. كانت مُذلةً منهاارةً في ملابسها المبهرجة تحس بالخزي والعار، وهي تنتظر في رفق ووداعة، وفي إذعان وتسلیم، أن يجيء دورها لتوديع أبيها المحتضر. ارتسم على وجه الأب تعبير عن ألم لا نهاية له، وعذاب ليس له حدود. وصرخ يقول:

- صونيا، ابتي، اغفر لي!

وأراد أن يمد إليها يده، لكنه فقد توازنه لأنه لم يتکئ على شيء، فتدحرج عن الديوان منكب الوجه على الأرض. أسرعوا ينهضونه، وعادوا يُرقدونه على السرير. ولكنه كان قد أخذ يلفظ أنفاسه. أطلقت صونيا صرخة ضعيفة، وهرعت إليه، وعانته طويلاً، فمات بين ذراعيها.

صاحت كاترينا ايفانوفنا تقول وهي ترى جثة زوجها:

- نال ما كان يسعى إليه. ولكن ما العمل الآن؟ أين لي بالمال أنفقه على دفنه؟ وهؤلاء، هؤلاء، من أين أطعمهم غداً؟

اقترب راسكولنيكوف من كاترينا ايفانوفنا. وبدأ يتكلّم فقال:

- كاترينا ايفانوفنا! في الأسبوع الماضي روی لي زوجك المتوفى قصة حياته تفصيلاً... ثقي أنه تكلم عنك بحماسة شديدة واحترام عظيم. وقد أصبحنا صديقين منذ ذلك المساء الذي عرفت فيه مدى إخلاصه لكم جميعاً، ومدى ما يحمله لك خاصة يا كاترينا ايفانوفنا من حب وتقدير، رغم آفته الشقية، آفة الإدمان على الشراب... فاسمحي الآن إذن... اسمحي لي أن أسامهم... أن أقوم بأخر واجباتي نحو صديقي المتوفى. خذى هذا المبلغ... أظن أنه عشرون روبلًا... فإذا كان هذا يساعدكم ولو قليلاً، فإنني... لكنني سأعود إليكم، سأعود إليكم حتماً، وقد أعود من الغد... أستودعكم الله!

قال ذلك وغادر الغرفة متوجلاً، وشق لنفسه ممراً بين الجمهور بسرعة. ولكنه لم يلبث أن اصطدم بنيكوديم فومتش الذي علم بنبأ الحادث، فأراد أن يتولى بنفسه اتخاذ الإجراءات الضرورية. لم يكوننا قد التقينا منذ وقع ذلك المشهد في قسم الشرطة، ولكن نيكوديم فومتش عرفه من أول نظرة. قال:

- هه! هذا أنت؟

قال راسكولنيكوف:

- مات! ولقد جاء الطبيب، وجاء الكاهن، وتم كل شيء كما يجب أن يتم. لا تزعج كثيراً تلك المرأة الشقية. حسبها أنها مصدومة. واسها واشدد أزرها إن أمكن...

ثم أضاف يقول ساخراً، وهو يرمي بنظره ثابتة:

- أنا أعرف أنك رجل طيب القلب.

لاحظ نيكوديم فومتش، في ضوء المصباح، لاحظ بقعاً من الدم ما تزال طرية على صديرة راسكولنيكوف، فقال ينبهه:

- ولكنك... ملطخ بالدم!

فأجابه راسكولنيكوف بلهجـة ذات دلالة:

- نعم، تلطخت... أنا كلني ملطخ بالدم.

ثم ابتسם، وحياه بحركة من رأسه، وأخذ يهبط السلم.

كان ينزل ببطء، ولكنه كان يرتعش كمن أصابته حمى. إن موجة كبيرة من الإحساس الجديد الشديد بالحياة الفياضة تغمر نفسه الآن، على غير شعور منه. يمكن أن يشبه هذا الإحساس بالإحساس الذي يشعر به رجل محكوم عليه بالإعدام حين يعلم فجأة بصدور قرار العفو عنه. فلما وصل إلى منتصف السلم أدركه الكاهن الذي غادر إلى بيته. تتحى راسكولنيكوف ليدع له مجال المرور، وبادله تحية صامتة. ولكنه حين كان يهبط الدرجات الأخيرة سمع وراءه على حين فجأة وقع خطوات سريعة. كان واضحًا أن هناك من يحاول أن يلحق به. إنها بولينكا. كانت تركض وراءه وهي تناديه صائحة: «اسمع! اسمع!»

التفت راسكولنيكوف. كانت الصبية قد هبطت الطوابق الأخيرة بسرعة شديدة،وها هي ذي الآن تقف أمامه على الدرجة التي تعلو درجته. إن نوراً ضئيلاً كان يتسلل من الفناء إلى ذلك المكان. ميّز راسكولنيكوف الوجه الذي كان ينظر إليه وابتسم له فرحاً كما يفعل الأطفال. إنه وجه صغير هزيل، ولكنه لطيف. لقد هرعت الصبية وراءه مكلفةً بمهمة كان واضحًا أنها تسرها كثيراً.

سألته معجلةً بصوت لافت:

- اسمع! ما اسمك؟ وأين تسكن؟

وضع راسكولنيكوف يديه على كتفي الطفلة، ونظر إليها بنوع من الفرح. لقد وجد في النظر إليها متعة كبيرة دون أن يعرف لماذا.

سألها:

- من أرسلك؟

فأجابته وهي تبتسم بمزيد من الفرح:

- أختي صونيا هي التي أرسلتني .
- قدرت ذلك .
- وأمي أيضاً . فحين سألتني صونيا أن أجري وراءك ، اقتربت أمي فقالت لي هي أيضاً : «نعم ، اركضي وراءه بسرعة يا بولينكا» .
- هل تحبين أختك صونيا؟
- أكثر مما أحب أي أحد في العالم !
- قالت بولينكا ذلك بلهجة قاطعة ، وأصبح في ابتسامتها مزيد من الجد على حين فجأة .
- سألها :
- وأنا؟ هل ستتحببني؟
- فلم تزد الصبية ، في الجواب عن هذا السؤال ، على أن قررت وجهها من وجهه ، ومدّت إليه شفتتها الممتلتين البريئتين ، بسذاجة ، لتقبله ، ثم عانقته بذراعيها الصغيرتين ، النحيلتين كعودي ثقاب ، عناقًا قويًا ، ومالت برأسها على كتفه ، وأخذت تبكي بكاء رفيقاً ، ودفت وجهها على كتفه . وقالت بعد دقيقة وهي ترفع وجهها الذي احتفظ بأثار الدموع والذي أخذت تمسحه بظهر يدها :
- مسكين بابا!
- ثم أضافت تقول فجأة ، وهي تصطنع هيئة الجد التي يصطنعها الأطفال حين يريدون بغةً أن يتكلموا «كما يتكلم الكبار» :
- ما أكثر المصائب التي تحل بنا!
- وأبوك ، هل كان يحبك؟
- فتابعت كلامها تقول جادةً دون إبتسام ، كشخص كبير تماماً في هذه المرة :
- من بيننا جميعاً كان يحب ليدوتشكا حباً خاصاً . كان يحبها لأنها

صغيرة جداً، ولأنها مريضة أيضاً. وكان يجيئها دائمًا بهدايا صغيرة.
ونحن، كان يعلمنا القراءة.

وأضافت تقول بوقار:

- أنا، كان يعلمني قواعد اللغة، والدين. وكانت أمي لا تقول شيئاً، ولكننا كنا نعرف أنها تسرّ بذلك، وكان باباً يعرف هذا أيضاً. وماما تريد الآن أن تعلمني الفرنسية، لأنه آن الأوان لأن أتعلم . . .

- وهل تجيدين الصلاة؟

- طبعاً نجيد الصلاة. أنا أجيد الصلاة منذ مدة طويلة! أنا أصلي، في سري، لأنني كبيرة. أما كوليا وليدوتشكا فهما يصليان بصوت عالٍ، مع ماما. يرتلان أولاً: «سلام عليك يا مريم . . .»، ثم يتلوان دعاء آخر: «اغفر لأختنا صونيا يا رب، وباركها!». ويتلون بعد ذلك دعاء آخر: «اغفر لأبينا الآخر، يا رب، وباركه!». ذلك لأن أبانا الأول مات. أما هذا فهو أبونا الثاني. لذلك ندعوا للأول أيضاً.

- بولينكا! اسمي أنا روبيون. فادعوا لي أنا أيضاً في بعض الأحيان. أضيفوا في صلاتكم: «ولروبيون المسكين»، لا أكثر من ذلك.

قالت الصبية بحماسة وحرارة:

- طول حياتي، سأدعو لك!

ثم أخذت تضحك فجأة، واندفعت إليه فعائقته بذراعيها عناقاً قوياً. ذكر لها راسكولنيكوف اسمه، وذكر لها عنوانه، ووعد بأن يجيء إليهم من الغد. فانصرفت الفتاة وقد طفح قلبها بالإعجاب به. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حين أصبح راسكولنيكوف في الشارع. وبعد خمس دقائق وصل إلى الجسر، إلى ذلك الموضع نفسه الذي ألقى فيه المرأة المسكينة بنفسها في الماء.

قال لنفسه بلهجـة جازمة إحتفالية: «كفى! تراجعـي يا أنواع السراب!
إلى الوراء يا أيتها المخاوف الوهمـية! تقـهرـي أيـتها الأطـياف! الحـيـاة!

موجودة! ألسنت حيَا في الساعة التي أنا فيها؟ إن حياتي لم تمت بموت المرأة العجوز! لا! إن ملكتها الآن هو ملکوت السماوات! كفاك أيتها المرأة العجوز! آن لك أن تدعى العالم هادئاً! أما ملکوتني أنا فهو ملکوت العقل والضياء... و... القوة... والإرادة... وسنرى من المنتصر منا نحن الاثنين الآن!». كذلك أضاف متغطرساً، كأنما هو يخاطب ويتحدى قوَّة غامضةً ما. وتتابع يكلم نفسه فقال: «كيف رضيت أن أحيا على حِيز ضيق من المكان لا يزيد على أن يكون موطئ قدم؟

... أنا الآن ضعيف جداً، ولكن... أعتقد أن مرضي قد انتهى... وحين خرجت منذ برهة، كنت أعلم حق العلم أنه سيتهي. بالمناسبة: إن عمارة بوتشنکوف على مسافة خطوتين من هنا. سأذهب حتماً إلى بيت رازوميixin... نعم، سأذهب إليه حتى ولو كان لا يقيم في منزل قريب هذا القرب كله. إلا فليكسب الرهان! إلا فليسخر مني! أي ضير في هذا. إن ما أنا في حاجة إليه هو القوَّة، القوَّة. بغير القوَّة لا يصل المرء إلى شيء. والقوَّة لا تُنال إلا بالقوَّة. هذا ما لا يعرفونه!» كذلك أضاف يقول بزهو وكبراء وثقة. وغادر الجسر بخطى بطيئة. فكانت الكبراء والثقة تزدادان فيه كلما انقضت دقة جديدة؛ وكلما انقضت دقة جديدة كان يصبح رجلاً آخر. فما الذي حدث إذن حتى تتحقق في نفسه هذا التحول؟ كان هو نفسه يجهل ذلك. إنه، كالغرق الذي يتعلق بقشة، يتصور أنه «يستطيع أن يحيا، وأن الحياة ما تزال موجودة، وأن حياته هو لم تمت بموت المرأة العجوز». ولعله أسرف في التعجل حين انتهى إلى هذه التبيجة، ولكن ذلك لم يخطر له ببال.

قال لنفسه فجأة: «ومع ذلك طلبت صلوات ودعوات لروديون عبد الرب، المسكين!» ولكنه لم يلبث أن أضاف: «كان هذا من باب الاحتياط على كل حال!» وأسرع يضحك من فعلته الصبيانية. لقد كان مزاجه مشرقاً إشراكاً رائعاً!

اهتدى إلى مسكن رازوميixin بسهولة: كان المستأجر الجديد معروفاً

في عمارة بوتشنکوف، ودلل الباب على الطريق فوراً. فما إن وصل إلى منتصف السلم حتى كان يسمع ضجة حديث حار يقوم بين حشد كبير. كان الباب المطل على السلم مفتوحاً على كل سعته. فكان يسمع صراغ ونقاش. إن غرفة رازوميخين واسعة سعة كافية، فكانت تضم نحو خمسة عشر شخصاً. توقف راسكولنيكوف في ردهة المدخل، ووراء الحاجز، كانت خادمتان، مستعاراتان من صاحبة البيت، منهمكتين حول سماورين كبيرين، وكانتا تهتمان كذلك بزجاجات وصحون وأطباق مثقلة بفطائر مشهيات. والصحون والأطباق مستعارة من صاحبة البيت أيضاً. سأله راسكولنيكوف عن رازوميخين، فهرع إليه رازوميخين مسروراً مفتوناً. إن المرء ليلاحظ من أول نظرة أنه قد أسرف في الشراب؛ ورغم أنه في العادة لا يمعن في الشراب إلى حد السكر، فإن مظهره الآن لا يخطئه الظن.

قال راسكولنيكوف بسرعة:

- اسمع! أنا لم آت إلا لأقول لك إنك كسبت الرهان، وإنه ما من إنسان يستطيع في الواقع أن يحضر ما قد يقع له... ولكنني لا أستطيع أن أدخل... أنا ضعيف إلى حد أني قد أقع أرضاً... لذلك أقول لك: السلام عليكم وإلى اللقاء. تعال إلى غداً.

- اسمع، سأصحبك، ما دمت تقول أنت نفسك أنك تبلغ من الضعف أنك...

- وضيوفك؟ قل لي: من ذلك الرجل المجنّد الشعر الذي ألقى الآن نظره علينا؟

- ذاك؟ الشيطان وحده يعلم من هو! لا شك أنه رجل له بعمي علاقة، أو أنه دعا نفسه بنفسه!.. سأترك الضيوف مع عمي! إنه رجل رائع! خسارة كبرى أنك لا تستطيع الآن أن تعرف إلى عمي! شيطان يأخذهم جميعاً! ثم إنهم في هذه اللحظة لا يملكون من العقل ما

يمكنهم من أن يفطنوا إلى! وما أحوجني إلى استنشاق الهواء! يا عزيزي، لقد جئت في الأوان المناسب. فلو تأخرت دقيقتين لأخذت أتضارب معهم! قسماً بالرب! ليتك سمعت ما كانوا يقولون. ليس في وسعك أن تتصور مدى الأكاذيب التي يستطيع فرد أن يقولها! ولكن قد تستطيع أن تتصور ذلك. لم لا؟ وليكذبوا ما شاءوا أن يكذبوا على كل حال!.. ولكن لا بد أن يأتي يوم سينقطعون فيه عن الأكاذيب!.. اجلس لحظة، سأنادي زوسيموف.

هجم زوسيموف على راسكولنيكوف بشرابة، وظهر عليه استطلاع قوي وفضول غريب، ثم لم يلبث أن أشرق وجهه وأضاء.

قال جازماً بعد أن فحص المريض كيما اتفق:

- عليك أن تنام حالاً. وعليك قبل ذلك أن تتناول شيئاً قبل أن تنام.
ابلع هذه الحبة، هه؟ لقد حضرتها منذ قليل.

أجا به راسكولنيكوف:

- لا بلعَ حبتين إذا لزم الأمر!
وبلع الدواء حالاً.

وقال زوسيموف لرازوميixin:

- إنك لعلى صواب حقاً إذ تريد أن تصحبه. ما سيحدث غداً، ستراه في حينه؛ أما اليوم فحالته ليست سيئة جداً. لقد تبدل تبدلاً واضحأ مما كان عليه قبل قليل. إن الإنسان يتعلم في كل يوم أموراً جديدة.

قال رازوميixin لراسكولنيكوف منذ صارا في الشارع:

- هل تعلم بماذا همس زوسيموف في إذني لحظة خرجنا؟ يا صاحبي، سأكلمك بصرامة، لأن هؤلاء جميعاً حمقى أغبياء. لقد طلب مني زوسيموف أن أثرثر معك أثناء الطريق، حتى تثرثر أنت أيضاً، ثم أمضي أقصى عليه فوراً كل ما تكون قد قلته... ذلك أنه قد قام في ذهنه أنك... أنك مجنون... أو أنك توشك أن تصبح مجنوناً. هل تخيل

هذا؟ أنا أرى أولاً أنك أذكي منه ثلاثة أضعاف، وأرى ثانياً أنك إذا لم تكن مجنوناً فلن تكرر بما قد يقوم في ذهنه؛ وأرى ثالثاً أن هذه الشريحة من اللحم التي هي طبيب جراح، قد أصبحت لا تُعنِي إلا بالأمراض العقلية، فاقتصرت بعد حديثك مع زاميتوف بأنك . . .

- هل روى لك زاميتوف كل شيء؟

- كل شيء. ولقد أحسن صنعاً. إن هذا أفهمني القضية كلها، وقد فهمها زاميتوف هو أيضاً. الخلاصة يا روديا . . . الواقع أن . . . حقاً أنا الآن سكران قليلاً، ولكن لا ضير . . . الواقع أن هذه الفكرة . . . هل تفهم؟ . . . قد ترسخت في أذهانهم، هل تفهم؟ لم يجرؤوا طبعاً أن يفصحوا عنها صراحةً، لأن الأمر سخيف حقاً، ولا سيما بعد أن اعتلقوا الدهان. نعم لقد تبدد كل شيء إلى الأبد كفقاعة صابون. ولكن لماذا هم أغبياء إلى هذه الدرجة من الغباء؟ لقد ضربت زاميتوف قليلاً. ولكن هذا سر بيتنا. أنت لا تعرف هذا، أليس كذلك؟ ذلك أنسني لاحظت أنه أميل إلى المماحكة والتزق . . . حدث هذا كله عند لوبيزا. أما الآن فقد اتضاع كل شيء. والحق أن المذنب الرئيسي إنما كان إيليا بتروفتش. لقد استغل حادثة إغمائه في قسم الشرطة، ثم خجل هو نفسه مما ذهب إليه ظنه. أنا أعلم كل شيء.

كان راسكولنيكوف يصغي بسراقة. وقد أفضى رازوميixin في الكلام بتأثير السكر.

قال راسكولنيكوف:

- إنما أغمي على لأن الجو كان خانقاً و مليئاً برائحة الدهان.

- عجيب أمرك! ما بالك تشعر أنك في حاجة إلى تبرير! لم تكن رائحة الدهان وحدها هي السبب، فإنما أنت تحضن المرض منذ شهر. إن زوسيموف يشهد بهذا. لا تستطيع أن تخيل مدى ما يشعر به هذا الغر، زاميتوف، من خجل واضطراب. لقد قال: «إنني لا أساوي إصبع هذا

الرجل»، يعني إصبعك أنت. إنه يبرهن أحياناً يا أخي على أن له عواطف طيبة كريمة. ولكن الدرس الذي تلقاه اليوم في «قصر الكريستال» قد بلغ منتهى الكمال. ذلك أنك أخذت في أول الأمر تخيفه حتى أخذ يرتعد! ثم كدت تجبره إجباراً على أن يصدق ذلك الأمر السخيف المستحيل... ثم إذا بك تمدُّ له لسانك مستهزئاً على حين فجأة!.. يا سلام، نعم، بلغ ذلك منتهى الكمال! ظل الرجل محظماً مسحوقاً. يميناً أنك لأستاذ، لقد عاملتهم بما يستحقون أن يعاملوا به. آه.. خسارة أني لم أكن هناك! هل تعلم؟ لقد كان زاميتووف ينتظرك عندي محترقاً من نفاد الصبر. كان بورفيري أيضاً يود لو يتعرف إليك... .

- آ... آذلك الرجل أيضاً؟.. ولماذا يعدونني مجنوناً؟

- أقصد... لا مجنوناً تماماً! أظن يا صاحبي أني أسرفت في الشرارة بعض الإسراف... أن ما خطف انتباهه هو أنك لا تهتم إلا بهذا الأمر. هم الآن يرون طبعاً لماذا تهتم به. هم الآن يعرفون الظروف، يعرفون أن ذلك كله قد اختلط بمرضك فأثارك. أنا سكران قليلاً كما ترى يا صاحبي. ولكن له فكرة ما لا يعلمه إلا الشيطان. أعود فأقول لك: أن الأمراض العقلية قد ذهبت بعقله. أما أنت فما عليك إلا أن تبصق على هذا كله... .

وصمت الاثنان نصف دقيقة.

ثم بدأ راسكولنيكوف الكلام فقال:

- اسمع يا رازوميixin، أريد أن أكلمك بصرامة. أنا آتي من بيت رجل ميت. أن موظفاً قد مات... وقد تركت هناك كل ما بقي لي من مال... هذا إلى أني قد قبلتني منذ قليل مخلوقة لو كنت قد قتلت أحداً لكان في وسعها مع ذلك أن... الخلاصة... رأيت هناك مخلوقة أخرى... على قبعتها ريشة حمراء... ولكنني أرى أني أهدر وأهذى... أني ضعيف جداً... اسندني... هناك السلم... .

سأله رازوميخين قلقاً:

- ماذا بك؟ ماذا بك؟

- رأسي يدور قليلاً، ولكن ليس هذا هو الأمر... وإنما الأمر أنني حزين جداً، حزين جداً! كامرأة... حقاً... انظر! ما هذا؟ انظر! انظر! ..

- ماذا؟

- ألا ترى؟ إن في غرفتي ضوءاً. نعم، إنني أرى الضوء من خلال الشق... .

كانا قد وصلا من السلم إلى الفسحة السابقة على الفسحة الأخيرة، أمام باب صاحبة البيت؛ ومن هناك كان يُرى ضوء في غرفة راسكولنيكوف فعلاً.

قال رازوميخين:

- غريب! لعلها ناستاسيا.

- ناستاسيا لا تجيء إليّ أبداً في مثل هذه الساعة؛ ثم إنها نائمة منذ مدة طويلة... على أن هذا كله يستوي عندي... أستودعك الله!

- ما هذا الذي تقوله؟ لا بد لي أن أصحبك طبعاً! ستدخل معاً!

- أعرف أننا ستدخل معاً، ولكنني أريد أن أصافحك وأن أودعك هنا. هلم هات يدك وودعني!

- ماذا دهاك يا روديا؟

- لا شيء. هيئا، ستكون شاهداً.

واستمررا يصعدان السلم، وخطر ببال رازوميخين عندئذ أن زوسيموف ربما كان على حق، فدمدم يقول بينه وبين نفسه: «يا للأسف! أثرت في نفسه الأضطراب بشرثري» وفيما هما يقتربان من الباب سمعا فجأة أصوات كلام في الغرفة. هتف زاميوتوف يسأل:

- ولكن ماذا يجري هنا؟

بادر راسكولنيكوف فأمسك قبضة الباب وفتحه على سعته كلها.
فتحه ووقف متسمراً على العتبة.

كانت أمه وأخته تنتظرانه منذ ساعة ونصف ساعة، جالستين على الديوان. تُرى لماذا كان يتوقع ذلك أقلَّ مما كان يتوقع أي شيء آخر؟ لماذا خطرتا بياليه أقلَّ مما خطر بياليه أي إنسان آخر، مع أنه في ذلك اليوم نفسه تلقى رسالَة تؤكِّد أن وصولهما قريب، وشيك؟ لقد لبستا طوال مدة الانتظار لا تكfan عن مسألة ناستاسيا التي كانت ما تزال في الغرفة أمامهما، فاتسع وقتها لأن تروي لهما كل شيء عن راسكولنيكوف. وقد استبد بهما ذعر شديد حين علمتا «أنه هرب اليوم من البيت» مريضاً، وأنه كان يهذى، على ما روت لهما ناستاسيا. «ماذا جرى له يا رب؟». وقد بكت المرأةان كلتاهمما وعانتا عذاباً شديداً خلال مدة الانتظار هذه التي دامت ساعة ونصف ساعة.

فلما ظهر راسكولنيكوف استقبلته بصيحات فرح وحماسة، واندفعتا كلتاهمما نحوه، ولكن راسكولنيكوف لبِث جامداً كجثة. إن فكرة مفاجئة لا تطاق قد نزلت عليه عندئذٍ نزول الصاعقة؛ حتى إن ذراعيه لم ترتفعا لمعانقتهما، ولم يكن يملك من القوة ما يمكنه من ذلك. شدَّته الأم والأخت إلى صدريهما، وأغرقتهما بالقبل، وكانتا تضحكان وتبكيان في آن واحد. فتقدم خطوة، وترنح، ثم هوى على الأرض مغشياً عليه.

انطلقت صيحات الرعب، وأنات الخوف... وكان رازوميixin قد لبِث على عتبة الباب، فهرع إلى الغرفة، وأمسك المريض بذراعيه القويتين، فأرقده على الديوان بمثل لمح البصر سرعة.

وصاح رازوميixin يقول للأم والأخت مطمئناً مهدئاً:

- ما هذا بشيء، ما هذا بشيء! ليس هذا إلا إغماءً تافهاً لا قيمة له.
لقد قال الطبيب منذ هنـيـة إن صحته قد تحسنت كثيراً، وأنه شفي شفاء

تاماً . . إِلَيْهِ بِقَلِيلٍ مِّنِ الْمَاءِ! ها . . . ها هُوَ ذَا يَسْتَرِدُ وَعْيَهُ، ها هُوَ ذَا
يَسْتَعِيدُ شَعْورَهُ!

ثم أمسك يد دونيا إمساكاً قوياً كاد يهشمها، ليجبرها على أن تميل على أخيها فترى أنه «استعاد شعوره». كانت الأم والأخت تنظران إلى رازوميخين نظرتهما إلى إله، وتشعران نحوه بامتنان عظيم وشكر عميق وعاطفة قوية وحنان شديد. كانتا قد عرفتا من ناستاسيا ما فعله هذا «الشاب الهمام» في سبيل عزيزهما روديا طوال مدة مرضه، كما نعتته بهذه الصفة بولخيريا الكسندروفنا راسكولنيкова، في ذلك المساء نفسه، أثناء حديث حميم جرى بينها وبين دونيا.

الجِنْزُ الْثَالِثُ

الفصل الأول

التعذيب

راسكولنيكوف وجلس على الديوان.

وأومأ إيماءة خفيفة يهيب برازوميixin أن يوقف سيل الموسعة العارم المتقطع الذي كان يغمر به أمه وأخته، ثم أمسك بيديهما كلتيهما، وراح يتأملهما صامتاً، واحدة بعد أخرى، خلال دقيقة أو دقيقتين. خافت الأم من نظرته، فقد كانت هذه النظرة تشف عن عاطفة عنيفة إلى حد الألم، وكانت في الوقت نفسه ثابتة تكاد تدل على جنون... وأخذت بولخيريا الكسندروفنا تبكي.

وكانت آفدوتيما رومانوفنا شاحبة الوجه، يدها ترتجف في يد أخيها.

قال راسكولنيكوف بصوت متقطع وهو يومئ إلى رازوميixin:

- عودا إلى بيتكما... معه! إلى الغد. كل شيء غدا سوف... هل وصلتما منذ مدة طويلة؟

أجبت بولخيريا الكسندروفنا:

- هذا المساء يا روديا. لقد تأخر القطار تأخراً رهيباً! ولكنني لن أتركك الآن بحال من الأحوال يا روديا. سأقضى الليل قرب...

قال وهو يحرّك يده بإشارة اهتياج وغيظ:

- لا تعذبوني هذا التعذيب!

صاحب رازوميixin يقول:

- سابق بقربه! لن أتركه دقيقة واحدة. ليذهب ضيفاً إلى الشيطان!
إلا فليغضبوا إذا حلا لهم أن يغضبوا! ثم إن عمي هناك يترأس الحفل...

قالت بولخيريا الكسندروفنا وهي تصافح رازوميixin من جديد:

- أني لي أن أوفيك حنك من الشكر!

ولكن راسكولنيكوف قاطعها مرة أخرى، وقال مردداً في غضب:

- لا أستطيع! لا أستطيع! لا تعذبوني! كفى هذا! اذهبوا... لا
أستطيع!...

دمدمت دونيا تقول مرتابة:

- لنذهب يا ماما، لنخرج من هذه الغرفة ولو لحظة قصيرة. إن لم
نخرج فسنقتله... هذا أكيد...

فهتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول باكية:

- ألا يجوز لي إذن أن انظر إليه قليلاً بعد فراق دام ثلاث سنين؟

وعاد راسكولنيكوف يتكلم فقال:

- انتظروا... أنتم تقاطعونني دائماً... وقد اضطربت أفكارى
واختلطت... هل رأيتما لوجين؟

قالت الأم:

- لا، يا روديا، ولكنه يعرف أنها وصلنا.

ثم أضافت تقول بوجل:

- وقد عرفنا يا روديا أن بيوتر بتروفتش قد تفضل فزارك في هذا
الاليوم.

- نعم... تفضل!... يا دونيا لقد أبلغت لوجين أنني سأدرجه إلى
أسفل السلالم إذا هو جاء إلى مرة أخرى. وأرسلته إلى الشيطان.

- روديا، ما هذا الكلام الذي تقوله؟ لا شك أنك لا تريد... مع ذلك... أن تقول إن... .

كذلك بدأت تقول بولخيريا الكسندروفنا مرتاعة، ولكنها نظرت إلى دونيا فلم تلبث أن قطعت كلامها وصمتت.

كانت آفدوتيما رومانوفنا تحدّق إلى أخيها بنظرات ثابتة وتنتظر التتمة. وكانت المرأةان قد عرفتا أمر المشاجرة من ناستاسيا، بمقدار ما كانت ناستاسيا قادرة على أن تصوّرها، فكانتا لذلك في حيرة شديدة واضطراب قوي.

تابع راسكولنيكوف كلامه فقال بجهد ومشقة:

- دونيا، أنا لا أريد هذا الزواج. لذلك يجب عليك أن تعلّمي له رفضك من الغد. لا أحب أن أراه بعد الآن!

صاحت بولخيريا الكسندروفنا:

- رباه!

وبدأت آفدوتيما رومانوفنا تتكلّم فقالت باندفاع:

- هلاً فكرت قليلاً فيما تطلبه مني يا أخي!...

ولكنها لم تلبث أن سقطت على نفسها، فأضافت تقول برفق وهدوء ولين:

- قد لا تكون صحتك الآن حسنة... أنت متعب!

- أأنا أهذى إذن؟ لا، أنا لا أهذى! إنك تريدين أن تتزوجي لوجين في سبيلي أنا! ولكنني أنا أرفض هذه التضحيات. لذلك ستكتبي له اليوم رسالة قطيعة. وسأقرأ الرسالة في الصباح، وينتهي كل شيء.

هتفت الفتاة تقول مستنكرة:

- لا أستطيع أن أفعل هذا. وبأي حق... .

فقطّعتها أمها مرتاعة وهي تندفع إليها:

- أنت أيضاً سريعة الغضب يا دونيتشكا... كفى الآن... غداً...
الست ترين إذن أنه... آه... والأفضل أن نصرف أيضاً!

وصاح رازوميخين الثمل يقول:

- إنه يهدي! وإلا فهل كان يجرؤ أن... لسوف تخرج من رأسه هذه
الحماقات كلها غداً. لقد طرده اليوم فعلاً. هذا صحيح. وغضب الآخر
طبعاً. كان يفيض في الكلام هنا، ويعرض علمه ومعرفته. لكنه خرج
مع ذلك واضعاً ذيله بين ساقيه...

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول:

- أصحيح إذن؟

وقالت دونيا وقد امتلاً قلبها شفقةً ورحمةً:

- إلى الغد يا أخي. هلمي يا أمي! أستودعك الله يا روديا!

كرر راسكولنيكوف يقول مستجماً آخر قواه:

- اسمعي يا أختي! أنا لا أهدي. ليس هذا صحيحاً. إن هذا الزواج
دناءة! لنفرض أنني أحط إنسان. ولكن يجب عليك أنت أن لا... إنه
يكفي أن يكون واحد منا... ثم إنني على كوني أحط إنسان، لن أعدك
أختي إذا أنت... فإذا لوجين وإنما أنا! وانصرفوا الآن!

زار رازوميخين يقول:

- ولكنك جُنت! يا لك من طاغية مستبد!

لم يجب راسكولنيكوف، ربما لأنه كان لا يملك من القوة ما يمكنه
من الكلام. وعاد يرقد على الديوان، واستدار إلى جهة الحائط، مهدود
القوى تماماً. نظرت آفدوتيا رومانوفنا مستوضحة إلى رازوميخين.
كانت عيناها السوداوان تسقطان. حتى لقد ارتعش رازوميخين بتأثير هذه
النظرة. ولبست بولخيريا الكسندروفنا جامدةً مذهولة. وهمست تقول
لرازوميخين يائسةً:

- لكتني لن أستطيع أن أنصرف بحال من الأحوال. سأبقى هنا، في مكان ما. أصحب أنت دونيا.

فأجابها رازوميخين همساً كذلك، ولكنه كان غاضباً خارجاً عن طوره:

- بهذا تفسدين كل شيء. لنخرج إلى فسحة السلم على الأقل. يا ناستاسيا، هاتي لنا ضوءاً.

حتى إذا صاروا في السلم، تابع كلامه يقول بصوت خافت:

- أحلف لكما أنه كاد يضررنا أنا والطبيب منذ قليل. هل تفهمان؟

نعم، كاد يضرب الطبيب نفسه. واضطر الطبيب أن يطيعه حتى لا يهيجه مزيداً من الهياج، فانصرف؛ ورغم أنني بقيت أنا تحت، من أجل أن أحرسه، فقد استطاع أن يلبس ثيابه... وأن يهرب! فإذا أهجناه الآن وأغضبناه، فسيهرب، أو هو سيحاول، في وسط الليل، أن يرتكب عملاً ضد نفسه...

- ما هذا الذي تقوله؟

- ثم إن آفدوتيا رومانوفنا لا تستطيع أن تقضي الليل وحيدة في تلك الغرفة المفروشة. هلاً فكرت قليلاً في المنزل الذي تنزلونه! ألم يكن في وسع ذلك الوغد بيوتر بتروفتش أن يجد لكم مسكنًا أليق؟ على أنني سكران قليلاً، لذلك شتمت... لا تولوا هذا انتباها!

قالت بولخيريا الكسندروفنا مصراً:

- إذن سأمضي أتوسل إلى صاحبة البيت أن تهب لنا، أنا ودونيا، ركناً صغيراً نبيت فيه هذه الليلة، لا أستطيع أن أتركه وهو على هذه الحال، لا أستطيع.

كانوا قد هبطوا طابقاً وهم يتكلمون، فأصبحوا الآن أمام باب صاحبة البيت. وكانت ناستاسيا تتقدمهم درجة فتثير لهما المكان. كان رازوميخين يعاني اندفاعاً خارقاً. إنه قبل نصف ساعة، على إفراطه في

الثرثرة أثناء مراقبته راسكولنيكوف إلى بيته - كما اعترف هو نفسه بذلك - كان يشعر بأنه صاح تقريراً، وبأنه ممتلىء نشاطاً رغم المقادير الضخمة من الخمرة التي شربها في السهرة. أما الآن فهو في حالة نشوة شديدة، والخمرة تصعد إلى رأسه بقوة متزايدة. هو الآن واقف بين السيدتين، ممسك يديهما، يحاول بصرامة قوية أن يقنعهما بالحجج التي يعرضها. وأغلب الظن أنه من أجل أن يقنعهما بمزيد من القوة إنما كان يشد يد كل منهما بما يشبه الكلابة، عند كل كلمة يقولها، فإذا هو يوجعهما، بينما عيناه تلتهمان آفدوتييا رومانوفنا التهاماً، من دون أي تحرّج. فكانتا من شدة الألم تخلسان أصابعهما أحياناً من قبضة يده الضخمة المعروقة، ولكنه لا يتبه هو إلى هذا، حتى ليشد هما إليه شداً أقوى. ولو قد طلبتا منه في تلك اللحظة أن يرمي نفسه من أجلهما إلى أسفل السلم منكس الرأس لفعل ذلك فوراً بلا مناقشة ولا تردد. كانت بولخيريا الكستندروفنا تستغرب بعض الاستغراب أن يضغط الشاب يدها هذا الضغط القوي، وأن يكون تصرفه شاداً هذا الشذوذ، ولكنها من شدة تأثيرها حين تتذكر ابنها روديا، ومن أنها ترى في رازوميخين عوناً أرسلته العناية الإلهية، كانت لا ت يريد أن تعرف لنفسها بهذه التفاصيل. أما آفدوتييا رومانوفنا المتأثرة أيضاً، فقد كانت، رغم أنها ليست بالفتاة الوجلة، لا تخلو من شعور بالدهشة والذهول بل ومن إحساس بالخوف والرعب، حين يلتقي بصرها بتلك النظرة الملتمعة التي يلقاها عليها صديق أخيها، غير أن الثقة العظيمة التي أوحى إليها بها حديث ناستاسيا عن هذا الرجل الغريب هي التي كانت تنتزعها من الرغبة في الهروب منه جائةً معها أمها. ثم إنها كانت تدرك حق الإدراك أنهما أصبحتا لا تستطيعان الخلاص منه الآن. يضاف إلى هذا أنها قد هدأت بعد عشر دقائق: فرازوميخين يملك موهبة الظهور على حقيقته كاملةً من أول نظرة، أيةً كانت الحالة التي هو فيها، فإذا بمن يراه يعرف من يعامل.

هتف رازوميخين يقول ليقنع بولخيريا الكستندروفنا:

- لا مجال للتفكير في الالتجاء إلى صاحبة البيت! تلك أكبر حماقة يمكن ارتقاها. لو بقى لأثرت غضبها وحنقها رغم أنك أمه، ولا يدرى إلا الشيطان ماذا يمكن أن يحدث! اسمعيني، إليك ما سأفعله: تبقى ناستاسيا الآن إلى جانبه، وأصحابكما أنا كلتيكما إلى بيتكما، لأنكما لا تستطيان أن تسيرا وحيدتين هكذا في الشوارع. عندنا، في بطرسبرج، من هذه الناحية... لا بأس... فمتى أوصلتكما رجعت إلى هنا راكضاً، فما أن ينقضى على ذلك ربع ساعة حتى أعود إليكما من جديد لأخبركما بكل شيء: أقول لكم كيف حالته، وهل نام أم هو لم ينم، إلخ إلخ. لكم على عهد الشرف لأعود إليكما بعد ربع ساعة. ثم أثب إلى بيتي حيث يوجد ضيوف هم جميعاً سكارى، فأخذ زوسيموف - إن زوسيموف هو طبيبه، وهو الآن في بيتي لكنه ليس بسكران، هو لا يسكر أبداً - أخذه وأمضى به إلى روديا. ومن هناك نجيء إليكما فوراً نحن الاثنين؛ ف بذلك تتلقيان أخباراً عن روديا مرتين في غضون ساعة، وفي إحدى هاتين المرتين تتلقيان الأخبار من فم طبيب، نعم من فم طبيب، فيكون فيها من الجد ما لا يكون في الأخبار التي قد أنقلها أنا وحدي بطبيعة الحال... فإذا لم يكن روديا بخير اصطبجتكمإليه حتماً، يميناً لأصطبجتكمإليه إن لم يكن بخير... أما إذا كانت حالته حسنة، فلن يكون عليكم عندئذ إلا أن ترقدا وتناما. وأنا سأقضي الليلة هنا، على فسحة السلم؛ ولن يلاحظ هو ذلك. وسأطلب من زوسيموف أن يبيت عند صاحبة البيت، فيكون بذلك تحت تصرفني ورهن إشارتي. من ينفعه في هذا الوقت أكثر، أنتما أم الطبيب؟ الطبيب طبعاً! فعوداً إذن إلى بيتكما! ولا مجال للتفكير في الالتجاء إلى صاحبة البيت. أنا يمكن أن أبىت عندها، أما أنتما فلا. لن تحب أن تبىتا عندها... لأنها امرأة حمقاء. سوف تغار... سوف تغار بسبب آفدوتيا رومانوفنا. وبسببك أنت أيضاً... هذه امرأة غريبة الأطوار جداً. على أني أنا أيضاً غبي! لا بأس... هي بنا... أثقان بي؟ أثقان بي أم لا؟

قالت آفدوتيا رومانوفنا:

- فلننصرف يا ماما. لا شك في أنه فاعل ما يقول. لقد رد أخي إلى الحياة. وإذا صح أن الطبيب يقبل أن يقضي الليلة هنا، فهل نتمنى خيراً من هذا؟

هتف رازوميخين يقول مفتتنا غاية الإفتتان:

- حقاً... إنك لتفهميني لأنك ملاك! هيأ بنا. يا ناستاسيا، اصعدني إلى فوق، فوراً، مع النور، وابقي هناك بالقرب منه، وسأعود أنا بعد ربع ساعة.

لم تعارضه بولخيريا الكسندروفنا أية معارضة، رغم أنها لم تقنع اقتناعاً تاماً. وتأبط رازوميخين ذراع السيدتين وجراهما على السلم. ولكن الأم ظلت قلقة، فكانت تقول لنفسها: «قد يكون شاباً ذا نخوة، ولكن فهو قادر على أن يفي بوعده، وهو على هذه الحال؟»

قال رازوميخين وكأنه حذر ما يدور في خاطر بولخيريا الكسندروفنا، بينما هو يسير على الرصيف بخطى واسعة فلا تقاد تستطيع السيدتان أن تجارياه إلا بمشقة كبيرة، وذلك أمر لم يلاحظه على كل حال؛ قال:

- آ... أنا أفهم! إنك تقدرين أنني في الحالة التي أنا فيها، لا...
نعم... أنا سكران، سكران تماماً، ولكن ليست هذه هي المسألة.
ليست الخمرة هي التي أسكريتني... فالضربة التي سقطت على رأسي
أنما سقطت على رأسي حين رأيتكم! على كل حال، لا تكتثرنا لهذا! أنا
لا شيء! أنا أهذى، أنا لست جديراً بكم، لست جديراً بكم البتة...
وما أن أوصلكم، حتى أذهب إلى القناة، فأصب على رأسي جردين
من الماء فأفيق فوراً. ليتكم تعرفان كم أحبكم كليكم! لا تضحكوا! لا
تزعلوا! ازعلا من جميع الناس، ولكن لا تزعلوا مني أنا! أنا صديقه، فأنا
إذن صديقكم. ذلك ما أريد أن يكون! ولقد أوجست هذا منذ السنة
الماضية... نعم، في لحظة ما، هكذا... على أنني لم أوجس شيئاً

البترة، لسبب بسيط هو أنكما هبطتما علىَّ من السماء. من الجائز جداً أن لا أنام طوال الليل. كان زوسيموف يخشى منذ قليل أن يجئ روديا. لذلك يجب تحاشي إهاجته.

هتفت الأم تسؤاله:

- ما هذا الذي تقوله؟

وسأله آفدوتيا رومانوفنا مروعةً:

- حقاً؟ الطبيب نفسه قال لك؟

- قال لي! ولكن كلامه ليس صحيحاً، ليس صحيحاً على الإطلاق. لقد أعطى له دواء، رأيت هذا المسعوق ولكنكما وصلتما... آه... كان من الأفضل أن لا تصلا إلا غداً! على كل حال، لقد أحسنا صنعاً إذ انصرفنا. وبعد ساعة سياتيكم زوسيموف بتقرير كامل. ليس زوسيموف سكران مثلِّي، ليس هو سكران. وأنا لن أكون سكران أيضاً!... لماذا شربت حتى ثملت؟ لماذا؟ لأنهم جرؤوني إلى مناقشتهم، أولئك الملائين! وكنت مع ذلك قد آلية على نفسي أن لا أناقش. وما أسف ما كانوا يقولونه! كدت أن أقتل معهم! وتركت عمي يترأس بدلاً مني. هل تصدقان؟ أنهم ينادون باللاشخصية ويعتبرونها أفضل شيء... يقولون إن على المرء أن لا يكون عين نفسه. ويسمون هذا ذروة التقدم. ويا ليت السخافات التي قالوها كان فيها شيء من أصالة وطرافة. أبداً...

قالت بولخيريا الكسندروفنا خجلةً وجلةً:

- اسمع...

ولكن مقاطعتها هذه لم تزده إلا اندفاعاً وحماسة. فصاح يقول بصوت أعلى:

- آه، إنما أنا أحب النهر والهذيان والخطأ والضلal. إن الخطأ هو الميزة الوحيدة التي يمتاز بها الكائن الإنساني على سائر الكائنات الحية.

من يخطئ يصل إلى الحقيقة . أنا إنسان لأنني أخطئ . ما وصل امرؤ إلى حقيقة واحدة إلا بعد أن أخطأ أربع عشرة مرة وربما مائة وأربع عشرة مرة ! وهذا في ذاته ليس فيه ما يعيب . لك أن تقول آراء جنونية ، ولكن لتكن هذه الآراء آراءك أنت ، فأغمرك بالقبل . لأن يخطئ المرء بطريقته الشخصية ، فذلك يكاد يكون خيراً من ترديد حقيقة لفنه إليها غيره . أنت في الحالة الأولى إنسان ، أما في الحالة الثانية فأنت ببغاء لا أكثر . الحقيقة لا تطير ، أما الحياة فيمكن خنقها . إلى أين وصلنا من هذا الآن ؟ نحن جميعاً ، بغير استثناء ، سواء في ميدان العلم ، أو الثقافة ، أو الفكر ، أو العبرية الخالقة ، أو المثل الأعلى ، أو الرغبات ، أو اللبرالية ، أو العقل ، أو التجربة ، نحن في كل شيء ، في كل شيء ، في كل شيء ، نعم ، في كل شيء ، ما زلنا في الصفوف الإعدادية لدخول المدرسة الثانوية ! نحب أن نكرر ونمضغ أفكار الآخرين ، وتعودنا على ذلك ! أليس هذا صحيحاً ؟ أليس الأمر كما أقول ؟ أليست هذه هي الحقيقة ؟

ـ كذلك قال رازوميixin وهو يهز يدي السيدتين ويضغطهما .

ـ فدمدمت المسكينة بولخيريا الكسندروفنا تقول :

ـ الله . . . لا أعلم !

ـ وأضافت آفدوتييا رومانوفنا قائلة بلهجة الجد :

ـ نعم ، هو هذا ، هو هذا ، رغم أنني لا أواقفك على جميع النقاط . ثم سرعان ما أطلقت صرخة ألم ، لأن رازوميixin قد ضغط يدها في هذه المرة ضغطاً قوياً فلم تملك إلا أن تطلق تلك الصرخة .

ـ وهتف رازوميixin يقول مفتتنا :

ـ نعم ؟ تقولين نعم ؟ إلا أنك إذن . . . إلا أنك إذن ليسبوع خير ، وطهارة ، وعقل ، وكمال . نأوليني يدك ، نأوليني يدك ، وأنت أيضاً ، نأوليني يدك . أريد أن أقبل يديكما في هذا المكان ، في هذه اللحظة ، جائياً على ركبتي ، راكعاً !

وركع في منتصف الطريق، الذي كان خالياً في تلك اللحظة من حسن الحظ.

صرخت بولخيريا الكسندروفنا تقول قلقة أشد القلق:

- كفى، من فضلك! ما هذا الذي تفعله؟

وقالت دونيا ضاحكةً، رغم قلقها هي أيضاً:

- انهض، انهض! ..

- لن أنهض بحال من الأحوال، لن أنهض إلا بعد أن تناولاني يديكما! نعم، هكذا. وكفى الآن! أنهض ونمضي. أنا أمرؤ غبي مسكون. أنا لست جديراً بكما. أنا سكران. وإنني لأشعر من هذا بخزي وعار... أنا لا أستحق أن أحبكم. أما السجود أمامكم فهو واجب يقع على كل إنسان ليس أحمق كل الحمق. لذلك سجدت... ولكن هذا هو مسكنكم. يكفي هذا وحده سبباً أجاز لروديون أن يطرد صاحبكم بيوتر بتروفتش شر طردة! كيف أباح لنفسه أن يُسكنكم في غرفة مفروشة كهذه الغرفة؟ هذه فضيحة! هل تعلمـان نوع الناس الذين يرؤونهم هنا؟ ثم يقول إنك خطيبته!... أنت خطيبته أليس كذلك؟ فاسمحـي لي أن أقول لك إذن أن خطيبك رجل قذر!

بدأت بولخيريا الكسندروفنا تتكلم فقالـت:

- اسمع يا سيد رازوميخين؛ إنك تنسى أن... .

فأسرع رازوميخين يقول مستدركاً:

- نعم، نعم، أنت على حق! أنا أقول سخافات! إنني لأشعر بخجل وعار. ولكن... ولكن لا يمكنـك أن تغضـبي لأنـني كلمـتك بهذه الطريقة. ذلك لأنـني تكلـمت مخلصـاً صادقاً، ولم أقل ذلك الكلام لأنـني... هـم... لا... لن أقول... لو قلت لـكان كلامـي دناءة... الخلاصة... أنا لم أقل ذلك لأنـني... بك... هـم... لا، ما ينبغي أن أقول لماذا... لا أجرؤ... ولكن، حين دخل علينا في هذا اليوم،

أدركتنا جميعاً على الفور أن هذا الرجل ليس منا. لا لأنه وصل مجعداً
الشعر وقد خرج من عند الحلاق رأساً، لا ولا لأنه أسرع يعرض ثقافته
ومعلوماته، بل لأنه جاسوس ومستغل لأنه بخييل كيهودي، لأنه دجال،
ولأن هذا كله واضح لا يخفى! أتظن أنه ذكياً؟ لا بل هو غبي، غبي! لهذا
زوج لك؟ لا، لا!

ثم أضاف يقول وهو يتوقف فجأة لحظة بدأوا يصعدون السلم:

- اسمعا يا سيدتي: إن الضيوف الذين هم في بيتي الآن أناس شرفاء
مهما يكونوا سكارى، ورغم أنها جميعاً نهدر ونهذى - وأنا أيضاً أهدر
وأهذى - فإن هذرنا وهذياننا سيفضيان بنا يوماً إلى الحقيقة، لأننا نحن
نسير في طريق الإخلاص والتجرد عن المنفعة، وليس هذا طريق بيوتر
بتروفتشر، فإن بيوتر بتروفتشر لا يسلك طريق التجرد عن المنفعة...
نعم، فرغم أنني وصفتهم في هذا المساء بجميع النعوت وانهلت عليهم
بجميع الشتائم، فإني أقدرهم جميعاً حق قدرهم. وأنا أحب زاميتو夫
رغم أنني لا أحترمه. أنا أحبه فعلاً، لأنه غير على كل حال. أحب حتى
ذلك الشرس زوسيموف، لأنه شريف ولأنه يعرف مهنته. ولكن كفى
الآن هذا. لقد قلت كل شيء... وسامحاني، أليس كذلك؟ هيئاً بنا!
أني أعرف هذا الدهليز. لقد سبق أن جئت إلى هذا المكان، وهنا، في
رقم 3، وقعت فضيحة. أين تسكنان؟ في أي رقم؟ ثمانية؟ طيب...
أغلقا عليكم الباب طوال الليل، ولا تدعوا لأحد أن يدخل. سأعود
إليكم بأنباء بعد ربع ساعة، وبعد نصف ساعة من عودتي الأولى،
سأعود ثانية مع زوسيموف، ستريان. أستودعكم الله. أنا ذاهب!

قالت بولخيريا الكسندروفنا لابتها خائفة مضطربة:

- رباه! ماذا سيحدث يا دونيتشكا!

فأجبت دونيا وهي تخلع قبعتها وطرحتها:

- هدئي روعلك يا ماما. إن الله نفسه هو الذي أرسل إلينا هذا السيد،

رغم أنه مسرف في السكر. في وسعنا أن نعتمد عليه، أؤكد لك.
انظري إلى كل ما فعله في سبيل أخي من قبل أن نصل . . .

- آه يا دونيتشكا. الله يعلم هل يعود! وكيف أمكن أن أوفق على ترك روبيا؟ . ثم إنني لم أكن أتوقع أن أراه على هذه الحالة! ما أقساه!
لكانه لم يُسرّ برؤيتنا!

وتلاؤات في عيني الألم دموع.

- لا يا أماه. ليس هذا هو الأمر. أنت ما رأيته رؤية جيدة، لأنك كنت تبكين طول الوقت. إنه مريض مرضًا شديداً. فهذا المرض هو سبب كل شيء.

- آ... المرض! ماذا سيحدث؟ وهل رأيت بأية لهجة خاطبك؟

أضافت الألم هذا السؤال الأخير، وهي تختلس نظرة وجلة إلى عيني ابنتها لتقرأ ما يدور في ذهنها، متزوجة بعض التعزي منذ الآن، لأن دونيا دافعت عن أخيها، فهذا دليل على أنها غفرت له.

ثم أردفت تقول وهي ت يريد أن تعرف رأي ابنتها دون أي تكتم:

- أنا واثقة بأنه سيرجع غداً إلى عواطف أخرى.

فردّت آفدوتييا رومانوفنا تقول بلهمجة قاطعة:

- أما أنا فواثقة بأنه سيكرر غداً ما قاله اليوم . . . في هذا الموضوع.
وبهذا الرد وضعت الفتاة حداً للحديث، فقد كانت المسألة صعبة لأنها تتناول نقطة كانت بولخيريا الكسندروفنا، في هذه اللحظة على الأقل، تخشى المجازفة في الكلام عليها. واقتربت دونيا من أمها فقبلتها. فعانتها أمها عناقاً قوياً دون أن تقول كلمة واحدة. ثم جلست تنتظر عودة رازوميخين قلقةً، وتنظر وجلةً إلى ابنتها التي غرفت في خواطرها وأفكارها مضطربة هي أيضاً، وأخذت تذرع الغرفة طولاً وعرضأً، مصالبةً ذراعيها على صدرها. إن هذا المشي في الغرفة طولاً

وعرضاً هو عادة من عاداتها، وأمها تخشى دائمًا في مثل هذه الظروف أن تعكر تأملاتها.

لا شك أن رازوميخين السكران كان مضحكاً جداً حين استولى عليه هذا الهيام المباغت بآفدوتيما رومانوفنا. ولكن ما أكثر الذين لو رأوا آفدوتيما رومانوفنا، ولا سيما في ذلك الوقت الذي كانت تطوف فيه بالغرفة حزينةً مفكّرةً مصالبة ذراعيها على صدرها، ما أكثر الذين لو رأوها لعذروا الفتى ولو كان في حالة طبيعية من غير سكر. إن آفدوتيما رومانوفنا فتاة جميلة جداً، فارعة القوام، معتدلة القد، قوية، واثقة بنفسها كما تشهد بذلك كل إشاراتها دون أن يجرّدها ذلك من شيء من مرونتها ولليونتها، وخفتها ورشاقتها. هي تشبه أخاها وجهها، ولكنها يمكن أن توصف بأنها «آية في الجمال». شعرها كستانائي اللون، أزهى قليلاً من شعر أخيها. وعيتها اللتان تشبهان أن تكونا سوداويين، تلتمعان وتسطعان، وتعبران عن عزة وشمم، وتعبران أحياناً عن رقة وعدوبة وطيبة لا حدود لها. وهي شاحبة، لكن شحوبها ليس شحوب المرض، فإن وجهها يشع نضاره وعافية. وفمهما أميل إلى الصغر، وشفتها السفلی حمراء قانية، بارزة قليلاً كبروز ذقنهما كذلك. وهذا هو العيب الوحيد في ذلك الوجه الرائع؛ على أنه عيب يضفي عليها طابعاً أصيلاً من صلابة وثبات، بل من تعالي وكبرباء. وإذا كان وجهها يعبر عن الجد والتفكير أكثر مما يعبر عن المرح، فإن ابتسامتها، وضحكتها الفرحة التي هي ضحكة الشباب والتي فيها شيء من إهمال، تناسبان وجهها كثيراً. فلا غرابة إذن أن نرى رازوميخين الذي يتصرف بالحرارة والبساطة والاستقامة، أن نرى رازوميخين القوي كعملاق، الثمل فوق ذلك، الذي لم يسبق أن رأى جمالاً كهذا الجمال، لا غرابة أن نراه يفقد عقله منذ أول نظرة. يضاف إلى ذلك أن المصادفة قد شاءت، بما يشبه العمد، أن يرى دونيا في اللحظة السارة التي كانت فيها زاخرة بالفرح لرؤيه أخيها، وأن يراها بعد ذلك وقد أخذت شفتها السفلی ترتجف

استياءً من مطالب هذا الأخ القاسية الوجعة، فكيف كان يمكنه أن يقاوم وأن يصمد؟

ولقد صدق حين قال على السلم، في سكره، أن صاحبة البيت الذي يسكن فيه راسكولنيكوف، أي براسكوفيا بافلوفنا الغربية الأطوار، سوف تغار لا من آفدوتيا رومانوفنا فحسب، بل ربما غارت كذلك من بولخيريا الكسندروفنا، فإن هذه رغم أنها بلغت الثالثة والأربعين من العمر، تبدو أصغر سنًا من ذلك بكثير بوجهها الذي يحمل بقايا الجمال السابق، وهذا هو في كثير من الأحيان شأن النساء اللواتي استطعن الاحتفاظ حتى اقتراب الشيخوخة بصحو الذهن، ونضارة الإحساسات وحرارة القلب الطاهر الشريف (ولنضيف إلى هذا مستطردين أن الاحتفاظ بهذا كله هو للمرأة الوحيدة التي تستطيع بها أن لا تفقد جمالها حين تشيخ). صحيح أن شعر بولخيريا الكسندروفنا قد أخذ يبيض ويتناثر؛ وصحيح أن غضوناً صغيرة رقيقة قد ظهرت حول عينيها منذ مدة طويلة؛ وصحيح أن خديها قد خسفا وجفأ بسبب الهموم والأحزان؛ ولكن هذا الوجه قد ظل جميلاً، حتى ليتمكن أن يقال إنها صورة دونيا بزيادة عشرين عاماً، مع فارق وحيد هو أن الشفة السفلية عند الأم ليست بارزة. وكانت بولخيريا الكسندروفنا امرأة حساسة، ولكن هذه الحساسية لا تمضي إلى حد العاطفة المُضطَّلة. وهي خجولة، ميالة إلى المجاراة، مستعدة للتنازلات، حتى حين يخالف ذلك اقتناعاتها. ولكن لهذا حدوداً. فمتي كان الأمر أمر شرفها وواجبها واقتناعاتها العميق، مما من ظرف من الظروف يمكن أن يحملها على تخطي تلك الحدود.

ما إن انقضت عشرون دقيقة على انصراف رازوميخين، حتى نُقر الباب نقرتين خفيفتين متيسارتين: لقد عاد رازوميخين.

أسرع يقول منذ فتح له:

- لن أدخل . لا يتسع الوقت . إنه ينام نوماً هادئاً مريحاً . أسأل الله أن يظل نائماً هذا النوم عشر ساعات متتالية ! ناستاسيا قائمة عليه . أوصيتها أن لا تتركه إلى أن أرجع . والآن سأمضي أحضر زوسيموف . سيحدثكما هو عن حاله . ثم تهدأان فتنامان ، ذلك أنتى أرى أنكما تكادان تسقطان من فرط التعب . . .

قال ذلك ثم اندفع منصراً .

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول فرحةً كل الفرح :

- ما أعظم ما يمتاز به هذا الفتى من فطنة وإخلاص !

فأجابت آفدوتيا رومانوفنا تقول بشيء من الحرارة وهي تستأنف سيرها في الغرفة طولاً وعرضًا :

- إنه رجل رائع فيما يبدو !

وما إن انقضت على ذلك ساعة واحدة ، حتى سمعت أصوات وقع أقدام في الدهليز ، ونُقر الباب من جديد . كانت المرأةان قد انتظرتا في هذه المرة وهما ممتلئتان ثقة بصدق وعد رازوميixin . وقد جاء رازوميixin مصطحبًا زوسيموف فعلاً . وقد رضي زوسيموف فوراً أن يترك الاحتفال ليعود راسكولنيكوف ، ولكنه لم يقبل أن يجيء إلى السيدتين إلا بشدّ الأذن ، لأنه كان يرتاب في حالة رازوميixin . فما أسرع ما أرضى غروره ، وحتى شعر بشيء من السرور ، حين أدرك أنهما كانتا تنتظرانه حقاً كما يُنتظر عراف . وقد لبث معهما عشر دقائق تماماً ، وأفلح كل الإفلاح في أن يقنع بولخيريا الكسندروفنا وأن يهدىء روتها . وكانت أقواله كلها تشهد باهتمامه الشديد بالمريض ؛ ولكنه حافظ مع ذلك على هيئة مسرفة في الجد والرصانة تنساب طبيباً في السابعة والعشرين من عمره يُستشار في ظرف خطير ، فلم ينطق بكلمة واحدة تبتعد به عن موضوعه ، لا ولا أظهر أية رغبة في أن تقوم بينه وبين السيدتين صلات شخصية مستديمة وأكثر مودة . وإذا لاحظ منذ دخوله

جمال آفدوتيا رومانوفنا الباهر، حاول فوراً أن لا ينتبه إليها أي انتبه، وظل طوال مدة الزيارة لا يكلم إلا بولخيريا الكسندروفنا وحدها. وشعر من سلوكه هذا برضى كثير عن نفسه. أما فيما يتصل بالمريض فقد أعلن أنه وجده هذه المرة في حالة مرضية على وجه الإجمال؛ وشخص المرض فقال إن له، عدا الظروف المادية المؤسفة التي عاش فيها المريض خلال الأشهر الأخيرة، له عدا تلك الظروف أسباباً نفسية، « فهو ثمرة عوامل كثيرة معقدة، منها عوامل نفسية ومادية، فهو ثمرة الهموم والمخاوف وبعض الأفكار، إلخ ». وإذا لاحظ أن آفدوتيا رومانوفنا تصغي إليه بانتبه شديد جداً، أفاد في شرح رأيه مجاملة. حتى إذا سأله بولخيريا الكسندروفنا بصوت قلق خجول عما إذا كان هنالك شيء من «أعراض جنون...»، أجابها وهو يبتسم ابتسامة هادئة صريحة بأن أقواله قد بولغ في تفسيرها؛ فلئن كان صحيحاً أنه لاحظ لدى المريض ميلاً إلى مرض الفكرة الثابتة، لئن لاحظ لديه علامات مرض الفكرة الوحيدة لا سيما وأنه، هو زوسيموف، عاكف الآن على دراسة هذا الفرع الهام من فروع الطب فإن « علينا أن نتذكر أيضاً أن المريض كان يهذى حتى هذا اليوم، أو حتى هذا اليوم تقريباً»، وأضاف زوسيموف يقول: « ولا شك أن وصول أسرته سيحسن إليه كثيراً، وسيسرّي عنه، أي سيساعد على شفائه»، هذا إذا أمكن (أضاف ذلك بلهجة ذات دلالة) أن «يجب صدمات شديدة جديدة». قال زوسيموف ذلك ثم نهض، فحيّا تحية هي مزيج من جد و Moderator، وخرج تغمره عبارات الامتنان والدعاء من بولخيريا الكسندروفنا. حتى إن يد آفدوتيا رومانوفنا، الصغيرة، قد امتدت إليه من تلقاء نفسها، فصافحها، وخرج مفتوناً بهذه الزيارة، ومفتوناً بنفسه أكثر من ذلك أيضاً.

قال رازوميixin يختتم الزيارة وهو يخرج مع زوسيموف:
- سنتحدث غداً. أما الآن فيجب أن تناما، يجب أن تناما حالاً.
سأجيئكم غداً في أول ساعة، لأننيكم بكل شيء.

قال زوسيموف بحرارة حين صارا في الشارع:

- فتاة فتاتة، آفدوتيَا رومانوفنا هذه!

زار رازوميixin يقول:

- فتاتة؟ تقول فتاتة؟

وهجم عليه فجأة، فأمسك بخناقه، وتابع كلامه وهو يهزه من ياقته ويضغطه على حائط:

- إذا تجرأت في ذات يوم... هل تسمع؟ هل تسمع؟ هل تسمع؟
فقال زوسيموف متخبطاً:

- دعني يا سكير!

فلما تركه حدق إلى رازوميixin بنظرة ثابتة ثم انفجر يضحك في قهقهة شديدة. كان رازوميixin واقفاً أمامه، مترجح الذراعين، غارقاً في تأملات سوداء خطيرة.

قال رازوميixin مظلوم الوجه متوجهماً:

- أنا حمار طبعاً، ولكن أنت أيضاً، أنت أيضاً...

- لا يا صاحبي. شأنى أنا شأن آخر. أنا لا أفكر في سخافات.

وأخذ يسيران دون أن يتبادلا كلمة واحدة، وكان يبدو على رازوميixin أنه مهموم جداً. فلما وصلا إلى قرب عمارة راسكولنيكوف قطع رازوميixin الصمت فقال:

- اسمع يا زوسيموف. أنت فتى رائع، ولكنك بالإضافة إلى جميع عيوبك السيئة، تمتاز بأنك زير نساء، وبأنك من أكثر أمثالك خلاعة، بل أنت نجس إلى أبعد حدود النجاسة. أنت مخلوق ضعيف ذو أعصاب ضعيفة. أنت ترفة نفسك، وتسمّن جسمك، ولا تتورع عن شيء، لذلك أقول إنك نجس، فبهذا أنما يصبح المرء نجساً. وقد بلغت من الرخاؤة حداً لا أستطيع معه أن أفهم كيف يمكنك أن تكون

رغم هذا طيباً بارعاً، بل طيباً مخلصاً متفانياً. أنت تنام على فراش من ريش (طبيب ينام على فراش من ريش!) ثم تنهض في الليل مسرعاً لتعود مريضاً من المرضى! أحسب أنك بعد ثلاثة سنين لن ترضى أن تنهض في سبيل مريض. على أن المسألة ليست هذه! إليك المسألة: سببته هذه الليلة في شقة صاحبة البيت (لقد استطعت أن أقنعها بذلك بعد لأي)، وسببت أنا في المطبخ. هذه فرصة لك من أجل أن تتعرف إليها عن كثب... ولكنها يا صاحبي ليست كما تظن. ليس هنا ظل من... .

- ولكنني لا أظن شيئاً بتة!

- هنا يا صاحبي سكت وخف وحياء وخجل وعفة لا تغالب. وهنا بالإضافة إلى ذلك تنهادات ذوبان كذوبان الشموع، نعم ذوبان كذوبان الشموع! خلصني منها ناشدتك بجميع شياطين الأرض! وهي جذابة إلى أبعد حدود الجاذبية... سأعرف كيف أشكر لك هذا الصنيع، أحلف لأعرفنَّ كيف أشكر لك هذا الصنيع!

أخذ زوسيموف يضحك مزيداً من الضحك؛ ثم قال:

- ما أشد اضطرابك! ولكن ما عسانى صانعاً بها؟

- أؤكد لك أن هذا لن يتبعك كثيراً. ستجلس بالقرب منها، فتقول لها أي شيء يخطر ببالك. نعم، لن يكون عليك إلا أن تجلس وأن تتحدث. ابدأ بعلاجها من مرض ما دمت طيباً. ولن تندم على أنك فعلت ذلك. أحلف لك! ثم إن عندها بيانو من طراز قديم. أنت تعلم أنني أعزف على البيانو قليلاً... وهناك أغنية روسية عاطفية تقول: «بدموعي السخينة، سأسقي...». هي تعبد الأغاني العاطفية عبادة، وبهذا إنما بدأنا. وإذا أنك عازف ماهر، إذ أنك أستاذ في العزف، إذ أنك عازف مثل رو宾شتاين⁽⁶¹⁾... أحلف لك لن تندم!

- أتراءك بذلك لها وعوداً؟ تعهدأ خطياً مثلاً؟ أulk وعدتها بأن تتزوجها؟

- لا، لا، لا شيء من هذا البتة! إنها ليست كما تظن. لقد حاول
تشيباروف...

- ما عليك إذا إلا أن تتركها!

- ولكن هذا مستحيل.

- لماذا؟

- لا شيء إلا لأنه مستحيل. هذا هو الأمر. هناك مبدأ الإغراء يا صاحبي.

- ولكن لماذا حاولت إغراءها؟

- أنا لم أحاول إغراءها البتة. لعلني أنا الذي أغريت، بسبب غباؤتي. ويستوي عندها أن أكون أنا أو أن تكون أنت. كل ما يهمها أن يجلس إلى جانبها رجل يتنهد لها. هي يا صاحبي... لا أدرى كيف أعبر لك. أنت تجيد علم الرياضيات، وتواصل دراستها، أنا أعلم ذلك... حدثها إذن عن حساب التكامل. يميناً أنتي لا أمزح. أحلف لك أنها لا تكرر بالامر. سوف يكفيها أن تنظر إليك طوال السنة وأن تتنهد. أنا مثلاً لبشت يومين على الأقل أحدثها، عن مجلس النواب الروسي، حديثاً طويلاً جداً، إذ كان لا بد أن أحدثها عن شيء ما! فكانت لا تزيد على أن تتنهد وتذوب. ولكن حذار أن تكلمها في الحب، ولو كلامتها في الحب لأمكن من شدة حياتها أن تصاب بنبوة تشنج. المهم أن يجعلها تعتقد بأنك لا تقوى على تركها. سيكفيها هذا. وستكون عندئذٍ كأنك في بيتك: اقرأ، اضطجع، اكتب. بل في وسعك أن تجازف فتقبلها... ولكن امض إلى هذا بحكمة وحذر!..

- ولكن ما حاجتي إلى هذا كله؟

- آه! لا أدرى كيف أشرح لك. اسمع: أن كلامكما قد خلق للأخر. حتى لقد فكرت فيك من قبل. وما دمت ستنتهي إلى هذه النهاية أخيراً، فسيان أن يتم هذا متقدماً بعض التقدم أو متاخراً بعض التأخر.

ههنا يا عزيزي يتحقق مبدأ فراش الريش، بل تتحقق أشياء أخرى كثيرة أيضاً. هنا إغراء، هنا خاتمة المطاف، هنا المرساة، هنا المرفأ الهدىء الآمن، هنا سرقة الأرض، هنا أسس الكون نفسها، هنا أنواع الفطائر الدسمة، سماور السماء، التنهدات الهدائة، المدافئ الساخنة، الشياطين المبطنة بالفروع! نعم، ستكون كالموتى، وفي الوقت نفسه ستكون حيَا: ترمي طائرين بحجر واحد! اللعنة! أصبحت أقول سخفاً. آن أوان النوم. اسمع: يتفق لي أحياناً أن أستيقظ في الليل؛ فإذا استيقظت هذه الليلة فسأذهب أرى كيف حال روبيون. سخافة أقولها. لن يحدث له شيء. فلا تقلق كثيراً ولكن إذا حدثك قلبك بشيء فاذهب إليه مرة. فإذا لاحظت شيئاً غير مألوف، كهديان أو حمى، فأيقظني فوراً. على أن هذا ضعيف الاحتمال... .

الستيقظ

رازومixin في الغد بعد الساعة السابعة بقليل ، مشغول بالبال مهموماً. إن أموراً كثيرة تدعو إلى القلق قد هاجمته في ذلك الصباح ولم يكن قد تنبأ بها. ولم يكن قد تخيل في حياته أنه يمكن أن يستيقظ يوماً على هذه الحال. تذكر حوادث الأمس بجميع تفاصيلها ، وأدرك أنه قد وقع له شيء خارق تماماً ، وأنه أحس بعاطفة كان يجهلها كل الجهل حتى ذلك الحين ، عاطفة لا تشبه العواطف التي سبق أن أحس بها قبل ذلك في شيء. لكنه أدرك في الوقت نفسه إدراكاً واضحاً أن الحلم الذي نشأ في دماغه حلم مستحيل التتحقق ، حلم يبلغ من استحالة التتحقق أنه شعر منه بالخزي والعار ، فأسرع ينتقل إلى هموم أخرى محسوسة مباشرة من الهموم التي أورثه إليها «ذلك اليوم المشؤوم».

والشيء الذي آلمه تذكره أكثر من أي شيء آخر هو أنه تصرف تصرف إنسان «دنيء خسيس» ، لا لأنه قد سكر فحسب ، بل أيضاً لأنه كان غبياً أحمق فشعر بغيرة بلهاء فأخذ يذم الفتاة خطيبتها مستفيداً من الوضع الذي كانت فيه ، دون أن يعرف ما بينهما من علاقات على وجه الدقة ، بل دون أن يعرف ما هو هذا الرجل على وجه التحديد. ثم أي حق له في أن يحكم عليه بمثل هذه السرعة وبمثل هذه الخفة وهذا الطيش؟ من

ذا الذي نصبه قاضياً؟ وهل يمكن أن تقبل إنسانة مثل آفدوتيا رومانوفنا أن تبيع نفسها بالمال لرجل تافه حقير؟ فلا بد إذن أنه يملك بعض المزايا... أما هذه الغرفة المفروشة التي استأجرها لهما فكيف كان يمكنه أن يعرف ما هي؟ أفليس يهبي لها شقة مناسبة؟ آه... ما أدناً هذا كله في نظر رازوميixin الآن! هل يبرر سكره ذلك السلوك؟ يا له من عذر! إلا أن سكره ذاك ليلطخه بمزيد من العار! الخمرة تكشف عن حقيقة الرجل، ولقد انكشفت الحقيقة كاملة. «إن قذارة قلبه الحسود الطماع» قد ظهرت واضحة للعيان. ثم هل يجوز له أن يراوده، هو رازوميixin، حلمً كهذا الحلم، على أي نحو من الأنهاء؟ ما قيمته بالقياس إلى هذه الفتاة، هو السكير العreibid، المتصدق المهدئ؟ بل «كيف يمكن أن تُعقد بينه وبينها مقارنة تبلغ هذا المبلغ من السخف والاستهتار؟» كذلك تسأله رازوميixin فإذا هو يحرّم خجلاً، ويشعر بكرب شديد، ثم إذا هو يتذكر تذكرةً واضحاً جداً، على حين فجأة، بما يشبه العدم، أنه قال بالأمس، على السلم أن صاحبة البيت ستغار عليه من آفدوتيا رومانوفنا، فوّقعت هذه الفكرة من نفسه موقعاً لا يطاق ولا يحتمل، فإذا هو يضرب المدفأة بقبضة يده ضربة استجتمع لها كل ما يملك من قوة، فجُرحت يده وكسرت أجرة.

دمدم يقول بينه وبين نفسه، بعد دقيقة، وهو يحس بشعور عميق من المذلة: «لا شك أنه لا يمكن محو أو إصلاح جميع هذه الحقارات التي ارتكبتها، لا الآن ولا في أي يوم من الأيام. فلا فائدة من التفكير فيها إذن، وإنما الأفضل أن أذهب إليهما دون أن أقول شيئاً، وأن أقوم بواجباتي دون أن أقول شيئاً كذلك... دون أن أستغفر... دون أن أقول شيئاً البتة... فقد ضاع كل شيء منذ الآن طبعاً!»

ومع ذلك يعني رازوميixin بهندامه أثناء ارتدائه ملابسه أكثر مما ألف أن يعني به قبل ذلك اليوم. لم يكن يملك إلا بدلة واحدة. ولكن هبه كان يملك بدلة أخرى فلعله ما كان ليرتديها. قال يحدث نفسه: «لو

كنت أملك بدلةً أخرى لتعمدت أن لا أرتديها». على أنه لا يستطيع أن يستخف ويستهتر، فيذهب إليهما وسخ الشيب مشعث المظهر. فليس من حقه أن يهين مشاعر الآخرين، لا سيما وأن هؤلاء الآخرين محتاجون إليه، وأنهم هم الذين يطلبوه. لذلك حرص رازوميخين على أن ينظف ملابسه بالفرشاة بعناية خاصة. أما قميصه فقد كان نظيفاً. والحق أن رازوميخين من هذه الناحية شديد العناية دائمًا.

وقد اهتم في ذلك الصباح بنظافته اهتماماً دقيقاً. وجد قطعةً من الصابون عند ناستاسيا، فغسل شعره ورقبته، وغسل يديه خاصةً. أما سؤاله أيحلق ذقه أم لا (ولقد كان لدى براسكوفيا بافلوفنا أمواس ممتازة بقيت لها من زوجها المتوفي السيد زارنتسين)، فقد أجاب عنه بالنفي، حتى لقد ثارت ثائرته حينذاك، فقال: «لتبق لحيتي كما هي! وإلا ظنتني أني حلقت في سبيل أن... نعم ذلك ما ستظناني! إذن لن أحلق بحال من الأحوال!»

وتتابع يقول لنفسه: «إنني قذر أشد القذارة، فظ أبلغ الفظاظة، قليل الأدب إلى أبعد حد... وهبني رجلاً شريفاً (ذلك أنني أعرف نفسي وأعرف أنني رجل شريف)، فهل لي أن أعتز وأن أفتخر بأنني رجل شريف. المفترض في كل إنسان أن يكون شريفاً، بل وأن يكون أكثر من ذلك. ثم إن لي (أنا أتذكر هذا جيداً) سقطات صغيرة إن لم تكن غير شريفة، فلا يمكن أن توصف على وجه الدقة بأنها... هذا عدا الأفكار التي تساورني في بعض الأحيان... فكيف أطمع في أن أوازن بيني وبين آفدوتييا رومانوفنا؟ على كل حال، فليذهب هذا كله إلى الشيطان! نعم، سأبقى كما أنا عن عمد! سأظل وغداً، خنزيراً، عابشاً... ولا أكتثر. سأبقى على هذه الحال، وسأزيد...»

وبينما كان رازوميخين يحاور نفسه هذا الحوار، جاءه زوسيموف الذي بات ليلته في صالون براسكوفيا بافلوفنا.

كان زوسيموف يتهيأ للعودة إلى بيته، فأراد قبل انصرافه أن يلقي نظرة على المريض. فأبلغه رازوميخين أن المريض نائم نوماً عميقاً. فأمر أن لا يوقظ، ووعد بأن يعود في نحو الساعة الحادية عشرة. ولكنه أضاف يقول:

- هذا إذا وجدته في غرفته! ما أصعب أن يعالج الطبيب مريضاً وهو لا سلطة له عليه. قل لي: هل هو الذي سيذهب إليهما؟ أم هما اللتان ستجيئان إليه؟

أجاب رازوميخين وقد فهم معنى السؤال:

- أظن أنهما هما اللتان ستجيئان. وأغلب الظن أنهما ستحدثانه في شؤونهم العائلية. لذلك سوف أتركهم وأخرج. أما أنت فإنك بصفتك طبيباً تملك حقوقاً أكثر.

- ما أنا بكاهن يسمع اعترافات. سوف أجيء ثم ما ألبث أن أخرج.
إن أعمالاً كثيرة تناذبني . . .

قاطعه رازوميخين يقول وقد اربد وجهه:

- هناك شيء يقلقني: أمس مساء، أثناء سكري، أفلتت من لساني، وأنا أعود به إلى البيت، حمامات سخيفة. من ذلك خاصةً أنني قلت له . . . إنك تخشى أن يكون به جنوح إلى الجنون.

- وقد عدت تقول هذا للسيدتين.

- أعرف. هذه بلاهة. أضربني إذا شئت. ولكن أنت تعتقد حقاً أنه قد يجنّ بصدق هذا الشأن؟

- لا، لن يُجنّ! ولا تنسَ أنك أنت الذي قلت لي بأن هوساً ملحاً يسيطر عليه، وذلك حين جئت بي إليه. وبالامس زدنا النار أواراً، ولا سيما أنت . . . حين رحت تتكلم عن الدهان. يا له من موضوع حديث، حين يكون هذا كله هو السبب في فقدانه صوابه! . . آه . . لو كنت أعلم على وجه الدقة ما قد جرى في قسم الشرطة في ذلك اليوم، لو

كنت أعلم أن وغداً هناك قد أهانه مفصحاً عن اشتباهه فيه، لما سمح لك بأن تجري لسانك في حديث كذلك الحديث. إن المصابين بمرض الهوس الملحق يجعلون من الفارة جبلاً، ويرون أشياء كثيرة حيث لا يوجد شيء! إذا صدقت ذاكرتي، فإن ما رواه زاميوتوف بالأمس قد أوضح نصف المسألة. إنني أعرف حالة رجل في الأربعين من عمره كان مصاباً بمرض الوسواس، فلما كان جالساً إلى المائدة، فأخذ طفل في الثامنة من عمره يستهزئ به، لم يستطع احتمال سخرياته، فقتلها. ونحن هنا إزاء شاب شقي يرتدي أسمالاً بالية، ويعاني بداية مرض، فإذا بشرطى فظ غليظ يهينه موجهاً إليه شبّهات بهذه الشبهات، فماذا تنتظر أن يحدث؟ شخص مصاب بالوسواس، هو إلى ذلك على جانب عظيم من كبرىء مسحورة، أفلا يكون ذلك هو السبب الحقيقي للداء الذي يعاني منه الآن. على كل حال... لا ضير في هذا!... بالمناسبة: إن زاميوتوف فتى لطيف حقاً، ولكن... هم... لقد أخطأ أمس حين روى ذلك كله! يا له من ثرثار فظيع!

- ولكن لمن روى ذلك؟ لك ولـي.

- رواه أيضاً لبورفيرى.

- ما قيمة أن يرويه أيضاً لبورفيرى؟

- بالمناسبة: هل لك تأثير فيما، أقصد في الأم والأخت؟ يجب أن تكونا حذرتين معه اليوم.

أجاب رازوميخين قائلاً على مضمض:

- سيجري كل شيء على ما يرام.

- لماذا هو غاضب على لوجين؟ ما مأخذته عليه؟ إن هذا الرجل يملك مالاً، ويبدو أن الفتاة لا تنفر منه. وهم لا تملكان فجلة، هـ؟

صرخ رازوميخين يقول مهتاباً:

- لماذا تسألني هذا السؤال؟ ما شأنك أنت وهذا؟ أني لي أن أعرف

هل تملكان فجلة، أم لا! أسائلهما إن شئت فتعرف ذلك.

- ما أغباك أحياناً! واضح أنك ما صحوت من سكرك! إلى اللقاء.
وأشكر عندي براسكوفيا بافلوفنا على ضيافتها. لقد حبست نفسها في
غرفتها، وقلت لها «صباح الخير» من وراء الباب فلم تجبني. وكانت قد
استيقظت في الساعة السابعة، وجيء إليها بالسماعر في غرفتها عن
طريق الدهليز. ولكنني لم أشرف برؤيتها.

في الساعة التاسعة تماماً وصل رازوميخين إلى منزل باكالايف؛ فكانت
السيدتان تنتظرانه منذ مدة طويلة محمومتين من نفاد الصبر. لقد نهضتا في
الساعة السابعة أو قبل ذلك. فلما دخل عليهما مظلم الوجه كظلام الليل،
حياهما بخراقة، وسرعان ما غضب من خجله هذا غضباً شديداً. ذلك أنه
لم يضع في حسابه ما ستستقبله به بولخيريا الكسندروفنا: لقد هرعت
بولخيريا الكسندروفنا إليه، فأمسكت يديه، وكادت تقبلهما. وألقى نظرة
خجلى على آفدوتيا رومانوفنا، فكان وجهها الذي ينم في العادة عن
الكبراء، يعبر في هذه اللحظة عن شكر عميق وصداقة واضحة واحترام
كامل؛ وكان هو لا يتوقع شيئاً من هذا كله، بل كان لا ينتظر إلا نظرات
ساخرة، واحتقاراً ظاهراً، فلو استقبلته فعلاً بشتائم متلاحقة لكان وقع
ذلك في نفسه أسهل وأيسر، ولكانت قدرته على احتماله أعظم وأكبر.
لقد شعر الآن باضطراب كبير وببلة عظيمة حقاً. ولكن كان هناك موضوع
لل الحديث من حسن الحظ، فسرعان ما تشبث به.

حين علمت بولخيريا الكسندروفنا أن روديا «لم يستيقظ بعد»، وأن
«كل شيء على ما يرام»، أظهرت ارتياحاً كبيراً ورضى عظيمًا، لأنها
حقاً «في حاجة ماسة إلى أن تتحدث مع رازوميخين حدثاً طويلاً قبل أن
ترى ابنها». وأثير عندئذٍ موضوع الشاي، فدُعى رازوميخين إلى تناول
الشاي مع السيدتين، وكانتا قد انتظرتاه لهذا. دقت آفدوتيا رومانوفنا
الجرس، فجاء خادم قذر المظهر رث الثياب، فأمر بإحضار الشاي،

فأتى بالشاي أخيراً، ولكن بطريقة تبلغ من القذارة وقلة اللياقة حدّ أن السيدتين صُعقتا خجلاً. ووَدَ رازوميخين لو ينْدَد بهذه «الغرفة المفروشة»، ولكنه تذكر لوجين فأمسك عن الكلام، وشعر بحرج، وابتهرج ابتهاجاً عظيماً حين أخذت بولخيريا الكسندروفنا تمطره بوابل من الأسئلة.

ظل يتكلم خلال ثلاثة أرباع الساعة، فكان يُقاطع دائماً وتطرح الأسئلة عليه من جديد. واستطاع مع ذلك أن يروي - بمقدار ما يعرف - الواقع الأساسية من حياة روبيون رومانوفتش منذ سنة حتى إصابته بالمرض الذي يعاني منه الآن. لكنه سكت عن أمور كثيرة كان ينبغي أن يسكت عنها، ولا سيما المشهد الذي وقع في قسم الشرطة وجميع النتائج التي نجمت عنه. وكانت السيدتان تلتهمان أقواله التهااماً. لكنه حين ظن أنه انتهى من الكلام وأرضى سامعيه، بدا أنه في نظرهما لم يكِد يبدأ الكلام.

قالت بولخيريا الكسندروفنا تسلّه متعجلة:

- قل لي، قل لي ما رأيك... معدرة... إنني لا أعرف اسمك حتى الآن...

- دمترى بروكوفتش.

- نعم، قل لي يا دمترى بروكوفتش: أود جداً جداً لو أعرف... كيف هو... يرى الأمور الآن... بوجه عام... أقصد... هل تفهمني؟ رباه كيف أفصح بوضوح؟... أعني ماذا يحب، وماذا لا يحب؟ أما يزال شديد الغضب سريعاً الاتهاب؟ ما هي رغباته... و... و... كيف أعتبر... ما هي أحلامه، إذا جاز لي أن... ما الذي يؤثر فيه الآن أكبر تأثير؟ الخلاصة، أود لو...

قالت أندوتيا رومانوفنا:

- ماما! كيف يمكن الجواب على جميع هذه الأسئلة في آن واحد؟

- يا رب! ذلك أنتي، يا دمترى بروكوفتش، لم أكن أتوقع أبداً، أن أجده على هذه الحال!

أجاب دمترى بروكوفتش يقول:

- هذا طبيعي جداً. أنا ليس لي أم. ولكن لي عمماً يجئ إلى هنا كل سنة، فكلما جاء صعب عليه أن يتعرفي حتى من الناحية الجسمية، مع أنه رجل ذكي، عملي هذا. وقد افترقتم أنتم منذ ثلاث سنين، فجري ماء كثير تحت الجسور خلال هذه السنين الثلاث. ماذا أقول لك أيضاً؟ إنني أعرف روبيون منذ سنة ونصف سنة. فكان منذ عرفته قاتم النفس متوجه الوجه شديد الكبراء متعالياً، وهو في هذه الآونة الأخيرة (ولعل ذلك يرجع إلى عهد أبعد) كثير الشكوك والوساوس أيضاً. هو سميحة طيب. وهو لا يحب أن يظهر عواطفه، ويفتر أن يرتكب إساءةً على أن يفتح قلبه. على أنه في بعض الأحيان يبراً من الوساوس، فلا يظهر عليه عندئذ إلا برودة في العاطفة وفتور في الإحساس حتى ليصل من ذلك إلى درجة يفقد معها روح التواصل الإنساني، فكان له طبعين متعارضين يتناوبان الغلبة واحداً بعد آخر. يتفق له أحياناً أن يكون صموتاً إلى حد رهيب: فإذاً ما أن يزعم أنه ليس في وقته متسع، وإنما أن يزعم أن الناس جمياً يزعجونه؛ ومع ذلك يظل مستلقياً على سريره لا يعمل شيئاً. وما هو بالساخر، ليس لأنه فقد روح الفكاهة، بل لأنه كمن لا يريد أن يتلبث على سفاسف سخيفة وترهات باطلة. إنه لا يصغي أبداً إلى ما يقال له حتى النهاية. إنه لا يهتم أبداً بالأشياء التي يهتم بها الآخرون في لحظة من اللحظات. وهو معتدّ بنفسه اعتداداً عظيماً، ويظهر أن من حقه أن يعتقد بنفسه هذا الاعتزاد. ماذا أقول أيضاً؟.. أظن أن وصولكما سيفيده وسيحدث فيه أثراً نافعاً.

هفت بولخيريا الكسندروفنا تقول وقد أرهقتها أقوال رازوميخين:

- سمع الله منك.

وعزم رازوميخين أمره أخيراً على أن ينظر إلى آفدوتيا رومانوفنا بمزيد من الثقة والطمأنينة. كان قد نظر إليها مراراً أثناء الحديث، ولكنه كان ينظر إليها خلسةً، بسرعة كوميضم البرق، ثم يحول بصره عنها على الفور. وكانت آفدوتيا رومانوفنا تجلس أمام المائدة تارةً فتصغي بانتباه، وتنهض تارةً أخرى فتأخذ تمثي على عادتها من ركن إلى ركن مصالبةً ذراعيها، كازةً شفتتها، ملقية سؤالاً من حين إلى حين، ولكن من دون أن تقطع سيرها، من دون أن تقطع تأملها الذي كان يبدو أنها تتبعه مستمراً متصلةً. وكان من عادتها أيضاً أن لا تصغي حتى النهاية إلى ما يقال لها. كانت ترتدي فستانًا داكن اللون من نسيج خفيف، وقد عقدت حول عنقها منديلًا أبيض شفافاً. وقد لاحظ رازوميخين رأساً، من علامات كثيرة، أن السيدتين في حالة شديدة من الفقر. ولو كانت آفدوتيا رومانوفنا مرتدية ملابس أميرة، فلعلها كانت لا تثير في نفسه كل هذا الخجل والخوف، أما الآن فربما كان السبب في الخوف الذي استقر في قلبه إنما يرجع إلى أن ملابسها كانت فقيرة إلى هذا الحد، وأنه أدرك كل ما هي فيه من بؤس؛ ولذلك أصبح يخاف من كل قول من أقواله، وكل حركة من حركاته، وهذا أمر هو بالنسبة إلى رجل ضعيف الثقة بنفسه أصلاً لا بد أن يكون مصدراً جديداً من مصادر الهرج والإرباك.

قالت آفدوتيا رومانوفنا مبتسمة:

- لقد علمنا أشياء كثيرة هامة عن طبع أخي، ولقد تكلمت من دون تحيز ما في ذلك شك. هذا جيد. وكنت أظن أنك تقف منه موقف المعجب المتحيز.

ثم أضافت تقول حالمه مفكراً:

- يخيل إلي أنه لا بد أن يكون في حياته امرأة فعلاً!
- أنا لم أقل هذا! ولكن من الجائز أن تكوني على حق. غير أن...

- ماذ؟

- إنه لا يحب أحداً، ولعله لن يحب أحداً في يوم من الأيام.
كذلك قال رازوميخين قاطعاً جازماً.

- أيكون عاجزاً عن أن يحب؟

أفلت لسان رازوميخين يقول فجأة دون أن يتوقع هو نفسه ذلك:

- هل تعلمين يا آفدوتييا رومانوفنا أنك تشبهين أخاك شبيهاً رهيباً في كل شيء؟

ثم تذكر ما قاله عن أخيها، فاحمر وجهه أحمراراً شديداً وارتبك ارتباكاً فظيعاً. فلم تستطع آفدوتييا رومانوفنا أن تحبس ابتسامة ساخرة وهي تنظر إليه.

واستأنفت بولخيريا الكسندروفنا كلامها وقد استاءت بعض الاستيء
فقالت:

- من الجائز أن يكون رأيكما كليهما في روديا خطأ. لا أتكلم الآن
عن الحاضر يا دونيتشكا. إن ما كتبه بيوتر بتروفتش في تلك الرسالة،
وما قد تصورناه أنا وأنت، قد لا يكون صحيحاً. ولكنك لا تستطيع أن
تخيل يا دمترى بروكوفتش مدى ما يتصف به روديا من شدة الجموح
وقوة النزوات. أنا لم أستطع في يوم من الأيام أن أركن إلى طبعه، حتى
حين كان في الخامسة عشر من عمره. وإنني لعلى يقين من أنه ما يزال
حتى هذه الساعة قادرًا على ارتكاب أشياء لا تخطر ببال أي إنسان آخر
غیره. لا تذهب بعيداً: هل تعلم أنه منذ سنة ونصف سنة قد أدهشتني
وعذبني، وكاد يميتنى غيظاً وقهرأ، حين وضع في رأسه أن يتزوج تلك
ال... . ماذ أقول؟ تلك ال... . أقصد بنت زارنتسينا هذه، صاحبة البيت
الذي يسكن فيه؟

اتجهت آفدوتييا رومانوفنا إلى رازوميخين فسألته:

- هل تعرف تفاصيل عن هذا الأمر؟

وتابعت بولخيريا الكستندروفنا كلامها فقالت بحرارة:

- هل تحسب أن دموعي وضراعاتي وشقاءنا ومرضى وموتي من الأسى، هل تحسب أن هذا كله كان يمكن أن يصده عن تحقيق ما قام في رأسه؟ لا... . كان سيجتاز جميع العقبات هادئاً كل الهدوء. ماذا؟ هل من الممكن حقاً أنه لا يحبنا؟

أجاب رازوميخين بتعقل وحذر:

- إنه لم يقل لي كلمة واحدة عن هذا الأمر. ولكنني عرفت شذرات من السيدة زارنتسينا نفسها، مع أنها ليست كثيرة الكلام هي أيضاً. والحق أن ما عرفته غريب بعض الغرابة... .

قالت المرأةان كلتاهمما تسألانه:

- ما الذي عرفته؟

- لم أعرف أشياء ذا شأن، كل ما علمته أن هذا الزواج الذي كان مقرراً ومبتوتاً فيه، والذي لم يحل دونه إلا موت الخطيبة، كانت السيدة زارنتسينا مستاءة منه. ويقال عدا ذلك أن الخطيبة لم تكن جميلة، حتى لقد كانت توصف بأنها دمية... وأنها بالإضافة إلى ذلك ممراض... وأنها فوق هذا غريبة الأطوار. ولكنها كانت لا تخلي من بعض المزايا. لا بد أن تكون لها مزايا فلولا هذه المزايا لكان الأمر عجيباً لا سبيلاً إلى فهمه البتة. ثم إنها لم تكن تملك مهرأ. على أن روديا آخر من يمكن أن يعنيه أمر المهر. الخلاصة أن الحكم على الموضوع في ظرف كذلك الظرف صعب.

قالت آفدوتيا رومانوفنا موجزة:

- أنا مقتنعة بأنها كانت تملك مزايا كثيرة.

فعقبت بولخيريا الكستندروفنا تختتم الحديث قائلة:

- أسأل الله أن يعفو عنني ويغفر لي. لا أكتمكما أبني ابتهجت

لموتها، رغم أنني لم أعرف في يوم من الأيام أيهما كان سيشقي الآخر ! ثم عادت تسأل رازوميixin - وهي تلقى على دونيا نظرات مختلسة كان واضحاً أن دونيا تستاء منها - عادت تسأل رازوميixin بحذر وتردد عن المشهد الذي حدث أمس بين روديا ولوجين . لم يكن خافياً أن هذا الحادث كان يشغل بالها ويقلق نفسها أكثر من أي شيء آخر ، حتى ليرعبها ويهزها هزاً . أعاد رازوميixin رواية القصة تفصيلاً ، ولكنه أضاف إليها في هذه المرة النتيجة التي يستخلصها هو ، فاتهم راسكولنيكوف ، دون لف ولا دوران ، بأنه أهان بيوتر بتروفيتش عن سابق عمد وتصميم ؛ ولم يلح في هذه المرة على مرضه الذي ذكر قبل ذلك أنه عذر يشفع له . وختم يقول :

- لقد أعد ذلك حتى قبل أن يمرض .

قالت بولخيريا الكسندروفنا مكرورة مقهورة :

- أظن ذلك أنا أيضاً .

ولكنها شدحت حين رأت رازوميixin يتكلم في هذه المرة عن بيوتر بتروفيتش بكثير من الاعتدال ، بل وبشيء من الاحترام . وأثار هذا الرأي دهشة آفدوتيما رومانوفنا أيضاً .

ولم تطق بولخيريا الكسندروفنا صبراً فقالت تسللاً :

- وهذا هو رأيك إذن في بيوتر بتروفيتش ؟

فأجاب رازوميixin يقول بحرارة وجزم :

- لا يمكنني أن أرى غير هذا الرأي في خطيب ابنتك ، ولست أقول هذا من باب التأدب والمجاملة ، وإنما أقوله لأن... لأن... أقوله ولو لهذا السبب البسيط : وهو أن آفدوتيما رومانوفنا نفسها هي التي أرادت طوعاً أن تولي هذا الرجل شرف اختياره زوجاً لها . ولئن ذمته ذلك الذمّ كله بالأمس ، فلأنني كنت بالأمس سكران... سكران سكراناً مقرضاً ، ولأنني عدا ذلك... كنت قد فقدت عقلي... لأنني

جنت... . جنت تماماً. أما اليوم فإننا أشعر من ذلك بخزي وعار.
قال رازوميixin ذلك، واحمرّ وصمت. واحمرت آفدوتيا رومانوفنا،
ولكنها لم تقطع الصمت. إنها لم تنبس بكلمة واحدة منذ دار الحديث
على لوجين.

ومع ذلك ظلت بولخيريا الكسندروفنا مرتبكة ارتباكاً واضحاً لأن
ابتها لا تساعدها. ثم اعترفت متربدة وهي تلتفت في كل لحظة صوب
ابتها، بأن هناك ظرفاً يقلقها الآن إقلالاً شديداً.

بدأت تتكلم فقالت:

- الحق يا دمترى بروكوفتش . . .

ثم اتجهت إلى ابتها فقالت تسأليها:

- سأكون صريحةً كل الصراحة مع دمترى بروكوفتش يا دونيشكا،
أليس كذلك؟

فأجابتها آفدوتيا رومانوفنا تقول باقتناع:

- طبعاً يا ماما.

فلما أذن لها بأن تبوح بحزنها أحسست بأن جيلاً قد أزبح عن صدرها
فأسرعت تقول:

- إليك الأمر: اليوم، في ساعة مبكرة من هذا الصباح، وصلتنا
بطاقة من بيوتر بتروفتش ردّاً على الرسالة التي أنبأناه فيها بالأمس
بوصولنا. كان ينبغي له طبعاً أن يجيء إلى المحطة لاستقبالنا كما كان
وعدنا بذلك. ولكننا، في المحطة، لم نجده هو بل وجدنا خادماً قادنا
إلى هذه الغرفة المفروشة التي كان معه عنوانها. وأبلغنا الخادم أن بيوتر
بتروفتش سيجيء إلينا اليوم في الصباح. ولكن بيوتر بتروفتش لم يجيء
وإنما بعث إلينا بهذه البطاقة. الأفضل أن تقرأها بنفسك، لأن هناك نقطة
تقلقني كثيراً. سرعان ما ستري ما هي هذه النقطة، فتقول لي رأيك

صريحاً يا دمترى بروكوفتش . إنك تعرف طبع روديا أكثر مما يعرفه أي إنسان آخر ، فسوف تستطيع إذن أكثر مما يستطيع أي إنسان آخر أن تسدِّي إلينا بنصيحتك . وإنني لألفت نظرك إلى أن دونيا قد اتخذت قرارها منذ اللحظة الأولى ، أما أنا فما زلت حائرة لا أدرى ما الذي يجب فعله . . . و كنت أنتظرك .

فضَّل رازوميixin البطاقة التي تحمل تاريخ اليوم السابق ، وقرأ ما يلي :

«السيدة الكريمة بولخيريا الكسندروفنا ، يشرفني أن أعلمك أنني بسبب موانع لم أكن أتوقعها لم أستطيع أن استقبلكم على رصيف المحطة ، فأرسلت إليكم رجلاً بارعاً فطناً سيساعدكم . وكذلك سأحرم نفسي ، في صباح الغد ، من التشرف بزيارتكم ، بسبب بعض الأعمال التي تستدعى ذهابي إلى مجلس الشيوخ ، ولأنني أريد أيضاً أن لا أزعج اجتماعكم العائلي ، أعني لقاءك الأول بابنك ولقاء آفدوتيا رومانوفنا بأخيها . فلن يتاح لي إذن شرف لقائكما وتقديم احترامي لكم في مسكنكم إلا مساء غد في الساعة الثامنة تماماً . وإنني أسمح لنفسي بأن أضيف إلى هذا رجاءً ملحاً ، فأطلب إليكم أن تتدبروا الأمر بحيث تعفونني من حضور روديون رومانوفتش اجتماعنا ، لأنه أهانني بالأمس بفظاظة لا مثيل لها حين زرته أثناء مرضه ، ولأنني أريد أن أكلمكم على انفراد في أمر أحب أن أعرف تفسيركم له ورأيكم فيه . ويشرفني أن ألفت نظركم إلى أنني سأضطر إلى الانسحاب فوراً إذا أنا لقيت عندكم روديون رومانوفتش رغم طلبي هذا ، ولن يكون لكم عندئذٍ أن تلوموا أحداً إلا أنفسكم . وإنما أكتب هذا لأنني أتنبأ بأن روديون رومانوفتش الذي كان يبدو مريضاً حينما زرته ثم استرد صحته فجأةً بعد ذلك بساعتين قد يجيء إليكم ما دام يخرج الآن . إن ما أقوله قد رأيته بعيني رأسي في بيت رجل سكينير داسته خيول فهشمته فمات . وقد أعطى روديون رومانوفتش ابنة ذلك السكينير ، وهي بنت معروفة بسوء السمعة

لدى جميع الناس، أعطاها خمسة وعشرين روبلًا بحجة دفع نفقات الجنازة، فأدهشني ذلك أشد الدهشة، أنا الذي أعرف الجهد التي بذلتмоها في سبيل جمع ذلك المبلغ. أختم رسالتي هذه راجياً أن تنقلني إلى آفدوتيا رومانوفنا المحترمة أبلغ اعتباري، وأن تفضلني بقبول أسمى مشاعر الاحترام والإخلاص من خادمك المطيع:

ب. لوجين»

قالت بولخيريا الكسندروفنا وهي توشك أن تبكي:

– فما الذي يجب أن أعمله الآن يا دمترى بروكوفتش؟ كيف يمكنني أن أطلب من روديا أن لا يجيء؟ لقد كان يطالب أمس مطالبة صارمة بطرد بيوتر بتروفتش، فإذا بالآية تقلب الآن، فيكون هو الذي لا يجوز استقباله! ولكنه سيجيء عامدًا متى عرف، فما عسى يحدث حينذاك؟

قال رازوميخين فوراً بهدوء:

– افعل ما قررته آفدوتيا رومانوفنا.

– آه... رباء! هي تقول... هي تقول... الله يعلم ماذا تقول... وهي لا تشرح الأسباب التي تدفعها إلى قول ما تقول! هي تقول إن من الأفضل، بل إن من المحتشم قطعاً، أن يجيء روديا هذا المساء، في الساعة الثامنة، وأن يلتقيا. أما أنا فكنت أريد حتى أن لا أطلعه على هذه الرسالة، وكنت أؤثر أن أعمد إلى الحيلة بواسطتك، لأنّه من المعجب، لأنّه... سريع الاحتياج جداً! ثم إن هناك أمراً لا أفهمه: من هو ذلك السكير الذي داسته الخيل فمات، ومن هي تلك البنت، وكيف أمكنه أن يعطي تلك البنت آخر ما بقي له من المال الذي...

– الذي لقيت ذلك العناء كله في الحصول عليه.

كذلك أضافت آفدوتيا رومانوفنا.

قال رازوميخين شارد الفكر:

- لم يكن أمس في حالة طبيعية. لو عرفت كيف تصرف أمس في حانة ولو كان في سلوكه شيء من التعقل!... هم... على كل حال، لقد حدثني بالأمس فعلاً، حين كنت أقوده إلى بيته، عن موظف مات، وحدثني كذلك عن فتاة ما، لكنني لم أفهم من كلامه شيئاً. ثم إنني أنا نفسي، بالأمس، قد...

- الأفضل يا ماما أن نذهب نحن إليه. أؤكد لك أننا بذلك سنرى ماذا بقي علينا أن نفعل. وقد آن لنا أن نذهب على كل حال. رباه! تجاوزت الساعة العاشرة.

كذلك صاحت آفدوتيا رومانوفنا وهي تلقي نظرةً على الساعة الذهبية الرائعة، المرصعة بالمينا، التي كانت تحملها معلقةً في عنقها بسلسلة رقيقة من صنع البندقية، والتي تتنافر تنافراً عجيباً مع جملة زينتها. قال رازوميخين لنفسه: «هذه هدية الخطوبة!»

قالت بولخيريا الكسندرروفنا وقد تململت باضطراب:

- آه... آن الأوّان! آن الأوّان يا دونيتشكا! إذا تأخرنا في الذهاب إليه، فقد يظنّ أننا ما زلنا غاضبتيّن بسبب ما حدث أمس. آه... يا رب!

قالت ذلك وأسرعت ترمي على كتفيها خماراً أسود، وتضع قبعتها على رأسها. وارتدت دونيتشكا ثيابها أيضاً. إن قفازيها ليسا مهترئين جداًحسب، بل هما مثقبان أيضاً. ولم يفت رازوميخين ذلك. على أن هذا الفقر الظاهر في ملابس السيدتين كان يضفي عليهما وقاراً خاصاً، وهذا ما يحدث عادةً لأولئك الذين يعرفون كيف يرتدون ملابس فقيرة. كان رازوميخين ينظر إلى الفتاة باحترام وتقديس، ويشعر باعتزاز وافتخار حين يتصور أنه سيصحبها. كان يقول لنفسه: «إن تلك الملكة»⁽⁶²⁾ التي كانت ترقع جوربيها في سجنها لا بد أنها كانت أثناء ذلك أعظم إجلالاً وأكبر مهابةً منها في أعظم الأعياد وأروع الاحتفالات!».

و هتفت بولخيريا الكسندر و فنا تقول :

- رباه ! هل كان في و سعي أن أصدق يوماً أتنى سوف أهاب ، كما
أهاب الآن ، لقاء مع ابني ، مع عزيزي ، مع روديا ؟

ثم أضافت تقول وهي تلقي على رازوميخين نظرة خجلة :

- أنا خائفة يا دمترى بروكوفتش .

قالت دونيا وهي تقبلها :

- لا تخافي يا ماما ، بل ثقي به . أما أنا فواثقة .

صاحت المرأة المسكينة تقول :

- آه... يا رب ! .. أنا أيضاً واثقة ! ومع ذلك لم أنم طوال الليل !
وخرجوا إلى الشارع .

- هل تعلمين يا دونيتشكا ؟ أتنى ما إن غفوت قليلاً عند طلوع الصبح
حتى حلمت فجأة بتلك المسكينة مارفا بتروفنا ... كانت تلبس ثياباً
بيضاء ... واقتربت مني ... وأمسكت يدي ... وكانت تهتز رأسها
وهي تنظر إلى نظرة قاسية ، قاسية جداً ، كأنها تلومني على شيء ما ...
أهذه علامة حسنة ؟ آه... يا رب ! إنك يا دمترى بروكوفتش لا تعلم ،
بعد ، أن مارفا بتروفنا قد ماتت .

- لا ، لا أعلم . ولكن من هي مارفا بتروفنا هذه ؟

- ماتت فجأة ... تصور أنها ...

تدخلت دونيا تقول لأمها :

- ستقولين له فيما بعد يا ماما . هو لا يعرف من هي مارفا بتروفنا
هذه .

- صحيح ؟ لا تعلم ؟ كنت أظن أنك على اطلاع ... اغفر لي يا
دمترى بروكوفتش ... أصبحت لا أعرف أين رأسي في هذه الأيام
الأخيرة . حقاً أتنى أعدك معيناً أرسلته العناية الإلهية ، لذلك كنت
أحسبك مطلعاً على كل شيء . إنني أعدك واحداً من أسرتنا . لا

تؤاخذني إذا أنا كلمتك بهذه الطريقة! .. آه... رباه! ماذا أصاب يدك
اليمني؟ أهي مجروحة؟

دمدم رازوميixin يقول سعيداً كل السعادة:
- نعم، مجروحة.

- إنني أسرف في الصراحة أحياناً، فتردني دونيا... ولكن...
رباه! ما هذه الغرفة الصغيرة التي يقيم فيها؟ ثرى هل استيقظ من نومه؟
وتلك المرأة، صاحبة البيت، كيف تسمى هذا الجحر غرفة؟ اسمع،
أنت تقول إنه لا يحب أن يتكلم عما يعتلجه في قلبه، فلا شك إذاً أنني
سأزعجه وأضجره... بعواطفي وضعفي! ألا تستطيع أن تهديني يا
دمترى بروكوفتش إلى الطريقة التي يمكنني أن أعمد إليها في معاملته؟
لقد طاش صوابي تماماً...

- لا تلقى عليه أسئلة كثيرة، إذا رأيته يعبس أو يتوجه. ولا تسأله
عن صحته خاصةً، فإنه لا يحب هذا.

- آه يا دمترى بروكوفتش، ما أصعب الأمومة! وانظر إلى هذا السلم!
يا له من سلم فظيع!
قالت دونيا ملاطفة:

- ماما، أنك شاحبة الوجه جداً، هدى من روحك يا يمامتي! إنه
سعيداً بلقائنا، فلماذا تعذبين نفسك هذا التعذيب?
هذا ما أضافته وقد سطعت عينها.

- انتظرا، سأرى أولاً هل استيقظ من نومه.

باتأت السيدتان خطاهما، وتقدمهما رازوميixin على السلم. فلما
وصلتا إلى الطابق الثالث لاحظتا أن باب صاحبة البيت مشقوق قليلاً،
ورأتا في الظلام عينين سوداويين حادتين جداً كانتا ترقبانهما. فلما التقت
الناظرات أغلق الباب بشدة، فقرقع قرقعة بلغت من القوة أن بولخيريا
الكسندروفنا أوشكت أن تصرخ رعباً.

السابق لهم

زوسيموف قائلًا في فرح: «هو بخير، هو بخير». إن زوسيموف يعود راسكولنيكوف منذ نحو عشر دقائق، وقد جلس في ذلك المكان نفسه الذي جلس فيه بالأمس، على ركن من الديوان. وكان راسكولنيكوف يجلس في الركن المقابل، مرتديةً، ثيابه كاملةً، وقد اعتنى بغسل وجهه وتصفيف شعره، وذلك أمر لم يقع له منذ مدة طويلة. امتلأت الغرفة دفعةً واحدةً، ولكن ناستاسيا استطاعت مع ذلك أن تتسلل وراء الزائرين، وبقيت تنصت إلى الحديث.

كانت صحة راسكولنيكوف قد تحسنت بعض التحسن فعلاً، ولا سيما إذا قورنت بما كانت عليه أمس. كل ما هنالك أنه الآن شديد الشحوب شارد الفكر متوجههم النفس. فإذا نظرت إليه كنت كمن ينظر إلى رجل أصابه جرح بالغ، أو عانى المآجسبياً حاداً. كان مقطّب الحاجبين، مكروز الشفتين، محموم النظرة. وكان لا يتكلم إلا قليلاً، فإذا تكلّم تكلّم على مضض، كأنه يقوم بواجب، وكان في حركاته أحياناً نوع من قلق.

ليس ينقصه إلا ضماد في الذراع أو عصبة من قماش في الإصبع حتى يكتمل الشبه بينه وبين رجل أصيب بداعوس اليم، أو جرح موجع أو

أي شيء آخر من هذا القبيل.

على أن هذا الوجه الشاحب المتجمهم بدا أنه يتألق لحظة حين دخلت الأم والأخت. غير أن ذلك لم يزد على أن يضيف إلى الذهول المتجمهم تعبيراً عن ألم مكثف. وسرعان ما انطفأ الألم، وبقي الألم. ولم يفت زوسيموف الذي كان يراقب مريضه ويدرسه بكل ما يستطيعه من اهتمام وشغف طبيب في بدايات ممارسته مهنته، لم يفته أن يلاحظ لدى مريضه، بغير قليل من الدهشة، حين وصلت أسرته، نوعاً من تصميم اليم خفي، يشبه التصميم الذي يقوم في نفس إنسان يرى عذاباً عليه أن يحتمله، بدلاً من الفرح الذي ينبغي أن يظهر بسبب هذه الزيارة. وقد استطاع الطبيب أن يلاحظ بعد ذلك أن كل كلمة تقريباً من الحديث الذي جرى حينذاك كانت كأنها تشير وتتنكأ جرحاً لدى المريض. ولكن الطبيب قد أدهشه في الوقت نفسه أن يرى أن المريض كان يسيطر على نفسه بعض السيطرة، فاستطاع أن يخفى هذه العواطف، مع أنه كان بالأمس يثور حنقه عند كل كلمة تُقال، كمن استبدت به فكرة وحيدة ثابتة.

قال راسكولنيكوف وهو يقبل أمه وأخته بعاطفة رقيقة وحنان واضح (وهذا ما جعل وجه بولخيريا الكسندروفنا مشرقاً):

- نعم، ألاحظ أنا نفسي أنني شفيف.

ثم أضاف يقول مخاطباً رازوميixin وهو يصافحه بمودة:

- لا أقول هذا مثلما قلته أمس!

سر زوسيموف كثيراً من وصول الزوار، لأنه كان قد استنفد خلال الدقائق العشر التي قضاها مع المريض جميع موضوعات الحديث، فبدأ كلامه يقول:

- حتى لقد دُهشت من رؤيته على هذه الحال اليوم. فإذا استمر هذا التحسن، فلن تنقضي ثلاثة أيام أو أربعة حتى يعود كما كان تماماً، أعني كما كان منذ شهر أو شهرين أو ربما ثلاثة.

ثم أضاف إلى ذلك مخاطباً راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة محاذرة، كأنه يخشى أن يثير غضبه:

- ذلك أن هذا المرض قد بدأ كامناً منذ مدة طويلة، هه؟ اعترف أن بعض الذنب في ذلك يرجع إليك...
أجاب راسكولنيكوف يقول ببرود:
- جائز جداً.

تابع زوسيموف كلامه فقال متھمساً:

- أقول هذا لأن شفاءك الكامل متوقف بعد الآن عليك أنت خاصة.
أوؤد أن أقنعك الآن، بعد أن أصبح الحديث معك ممكناً، أنه ينبغي علينا القضاء على الأسباب الأولى، الأسباب الأساسية إن صح التعبير، التي ولدت مرضك. فإذا فعلت ذلك شفيت، وإلا تفاقم مرضك. أنا لا أعرف ما هي تلك الأسباب، ولكن لا بد أنك تعرفها أنت. فأنت شاب ذكي، ولا شك أنك لاحظت نفسك. ويخيئ إليّ أن بداية اضطراباتك قد جاءت حين تركت الجامعة تقريباً. فما ينبغي إذن أن تبقى عاطلاً عن أي عمل يشغلك. أعتقد أن عملاً موجهاً إلى غاية محددة سيساعدك كثيراً.

- نعم، نعم. أنت على حق تماماً. سأعيد تسجيلي في الجامعة.
وعندئذ سيجري كل شيء... على ما يرام.

كان بين أهداف زوسيموف من إسداء نصائحه الحكيمة تلك أن ينال إعجاب السيدتين، لذلك كان طبيعياً أن يرتكب بعض الارتباك وأن يضطرب بعض الاضطراب حين فرغ من إلقاء خطابه فرفع عينيه نحو راسكولنيكوف فرأى في وجهه سخرية ظاهرة لا تخفي. على أن ذلك لم يدم إلا لحظة. فإن بولخيريا الكسندروفنا سرعان ما طفت تفيف في شكر زوسيموف، وتعبر له خاصةً عن امتنانها من زيارته لهما في الشقة المفروشة في الليلة الماضية.

قال راسكولنيكوف يسألها قلقاً:

- كيف؟ هل ذهب إليكما ليلاً؟ إذن لم تnama بعد رحلة متعبة كتلك الرحلة؟

- في الساعة الثانية كان كل شيء قد انتهى يا روديا. وقد ألفنا، أنا ودونيا، في بيتنا، أن لا ننام قط قبل الساعة الثانية من الصباح.

وأصل راسكولنيكوف كلامه فقال وقد أظلم وجهه فجأة، وأطرق إلى الأرض:

- أنا أيضاً لا أعرف كيف أشكّره . . .

ثم اتجه يخاطب زوسيموف فقال:

- بصرف النظر عن الناحية المالية - معدرة إذا أنا أشرت إلى هذه الناحية! - فإنني لا أعرف فعلاً كيف استحققت كل هذه العناية منك. حقاً إنني لا أفهم . . . لذلك كانت هذه العناية تشق على نفسي . . . أقول لك هذا بصراحة تامة.

أجا به زوسيموف وهو يحمل نفسه على الضحك حملأ:

- لا تثورن أعصابك يا صاحبي. افرض أنك أول زبائني. إن الطبيب الذي ما يزال في بداية ممارسته يدلل دائماً زبائنه الأول، حتى لقد يُشغف ببعضهم. وأنت تعلم أن زبائني ليسوا كثراً حتى الآن.

أضاف راسكولنيكوف يقول وهو يومئ إلى رازوميixin:

- ناهيك عن هذا . . . الذي لم ينل مني إلا أنواع التصديق وضروب الإهانة.

هتف رازوميixin قائلاً:

- أسفافات جديدة؟ هاينت ذا قد أصبحت «عاطفيأ»!

الآن لو كان يملك مزيداً من نفاذ البصيرة للاحظ أن الأمر ليس أمر «عاطفية»، بل شيء آخر هو نقىض العاطفية تماماً. وقد لاحظت آفدوتيما

رومانوفنا ذلك. وكانت ترافق أخاها في قلق.

وتتابع راسكولنيكوف كلامه كمن يتلو درساً حفظه في هذا الصباح:

- أما عنك أنت يا أماه فلا أكاد أجرؤ أن أتكلم. إنني لم أدرك إلا اليوم مدى العذاب الذي لا بد أنك عانيته أمس حين كنت تنتظرييني هنا.

قال ذلك ومد يده إلى أخته على حين فجأة مبتسمًا دون أن يقول كلمة. ولكن شعوراً صادقاً يظهر في ابتسامته هذه المرة. فأسرعت دونيا تتناول اليد الممدودة إليها، فتصافحها بحرارة، سعيدة شاكرة. هذه أول مرة يتوجه فيها إلى أخته بعد الشقاق الذي وقع بينهما أمس. وأشرق وجه الأم سعادة حين رأت هذه المصالحة الصامتة الحاسمة بين الأخ وأخته.

همس رازوميخين يقول متocomًا وهو يستدير بقوة على كرسيه:

- هذا ما يعجبني فيه! إن له دائماً اندفاعات كهذه!

وقالت الأم لنفسها: «وما أجمل الطريقة التي اتبعها! ما أنبلها من بادرة! ما أحلاها من حركة بسيطة مرهفة أنهى بها سوء التفاهم الذي قام بينه وبين أخته! لقد كفاه أن يمد إليها يده، في هذه اللحظة، وهو يرميها بنظرة فيها رقة ولطف وحنان... وما أجمل عينيه! ما أجمل وجهه كله!... ألا إنه لأجمل حتى من دونيتشكا... ولكن رباء! ما هذه الثياب التي يرتديها! ما أرداً ملابسه! إن الخادم في دكان آفاناسي إيفانوفتش، الخادم فاسيا، يرتدي ثياباً أحسن من ثيابه! أواه... لشد ما أحب أن أندفع إليه فأعانقه و... آخذ أبكي... لكتني أخاف، أخاف جداً!... إنه غريب الأطوار يا رب! هو يتكلم برقة وحنان، ومع ذلك أنا خائفة! عجيب، ممّ أنا خائفة؟»

استأنفت كلامها فجأة، إذ سارعت ترد على ملاحظة ابنها، فقالت:

- آه يا روديا! لا تستطيع أن تتصور مدى ما شعرنا به من شقاء، أنا ودونيتشكا، أمس. أما وقد انتهى هذا الآن، أما وأنه انقضى فأصبحنا

جميعاً سعداء من جديد، فإننا نستطيع أن نرويه لك. تصور أننا هرعنا إلى هنا لنقبلك، منذ نزلنا من القطار، فقالت لنا تلك المرأة... . . . هه . . . ها هي ذي . . . نعمت صباحاً يا ناستاسيا . . . نعم، قالت لنا هذه المرأة . . . هكذا فجأة . . . إنك كنت في السرير تعاني من حمى حارة، ثم هربت وأنت تهدي هذيانا شديداً، دون أن يعرف الطبيب عن ذلك شيئاً، وأنهم ركضوا يبحثون عنك في الشارع. لا تستطيع أن تتصور ما أحدثه هذا فينا من أثر! . . لقد تذكرت أنا على الفور النهاية الفاجعة التي انتهت إليها الملائم بوتاتشيكوف، أحد أصحابنا القدماء، صديق أبيك - ألا تذكره يا روديا - الذي كان مصاباً هو أيضاً بحمى حارة فهرب من البيت مثلث فسقط في بئر الحوش، ولم يمكن إخراجه منه إلا في اليوم التالي. وقد غالينا طبعاً في تصور خطورة حالتك. وتمتنينا أن نركض نبحث عن بيوتر بتروفتش ليساعدنا قليلاً على الأقل . . . لأننا كنا وحيدتين، وحيدتين تماماً . . .

قالت جملتها الأخيرة هذه بصوت فيه شكوى وتوجع. لكنها أمسكت عن الكلام فجأة، لأنها تذكرت أن الكلام عن بيوتر بتروفتش ما يزال خطراً بعض الشيء، «رغم أن الجميع قد أصبحوا سعداء من جديد».

جمجم راسكونيكوف يقول مجيناً:

- نعم نعم، هذا كله مؤسف طبعاً . . .

ولكن هيئته كانت تنم على ذهول وغياب يبلغان من الشدة أن دونيتشكا نظرت إليه مشدوهة.

وابع يقول وهو يبذل جهداً واضحاً ليستجمع ذكرياته:

- ماذا كنت أريد أن أقول لكم أيضاً؟ ها . . . نعم . . . أرجوك يا أمي، وأرجوك أنت يا دونيتشكا، أن لا يذهب بكما الظن إلى أنني كنت لا أنوي أن أسبقكم إلى الذهاب إليكما، وأنني انتظرت أن تجيئاً أنتما إلى . . .

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول مدحشة هي أيضاً:

- ما هذا الذي تقوله يا روديا؟

وقالت دونيا لنفسها: «ما باله؟ أتراء لا يجيينا إلا من باب القيام بالواجب؟ إنه يصالحنا ويستغفرا، ولكنه كأنه يقوم بسخرة ثقيلة أو يتلو درساً محفوظاً».

- لقد أردت منذ صحوت أن أذهب إليكما، لكن مسألة الثياب آخرتني... لقد نسيت أمس أن أقول لها، أعني أن أقول لناستاسيا أن... تغسل هذا الدم. ولم أستطع أن أرتدي ثيابي إلا الآن.

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تسأله في قلق:

- الدم؟ أي دم؟

فأجابها:

- لا تقلقي، ليس الأمر بذبي بال. هذا الدم سببه أنني ترتحت قليلاً أمس، بسبب الهذيان، فاصطدمت برجلٍ كانت قد داسته عربة... هو موظف...

قاطعه رازوميخين قائلاً:

- هذيان؟ ولكن هاؤنت ذا تذكر كل شيء!

فأجاب راسكولنيكوف بهلجة تنم على الهم:

- صحيح... أتذكر كل شيء، حتى أدق التفاصيل. ولكن لماذا فعلت كيت وكيت، لماذا ذهبت إلى مكان كذا، لماذا قلت ذلك الشيء في ذلك المكان، هذا ما لا أستطيع أن أفسّره لنفسي.

تدخل زوسيموف فقال:

- هذه ظاهرة معروفة جداً. رب فعل يقوم به صاحبه على نحو رائع، ببراعة فائقة وحذق مدهش، ثم يبقى الباعث عليه والدافع إليه ممّوهاً، لارتباطه بمشاعر مرضية شتى. فكأن الأمر كله حلم من الأحلام.

قال راسكولنيكوف لنفسه: «إنه لحظ موفق أن يعدني أشبه بمحجون!»

قالت دونيا وهي تلقي على زوسيموف نظرة قلقه:

- ولكن ألا يصدق هذا على أناس أصحاء أيضاً؟

فأجابها زوسيموف قائلاً:

- هذه ملاحظة سديدة جداً، بمعنى أننا جمِيعاً على وجه التقرير نشبه المجانين حقاً في كثير من الأحيان، مع فرق واحد مع ذلك هو أن «المرضى» مجانيين أكثر منا قليلاً، فمن الضروري أن نميّز هنا درجات. أما الإنسان «السوبي»، فمن الواجب أن نقول أنه لا يكاد له وجود. قد نجد فرداً سويناً، أو فرداً قريباً من السوبي، بين عشرات الآلوف وربما مئات الآلوف من الأفراد.

اربَدَت وجوه الحاضرين جميعاً حين سمعوا كلمة «المجانين» هذه التي أفلتت من لسان زوسيموف بغير حذر ولا تروي أثناء ثرثرته حول موضوعه المفضل. وكانت تطوف على شفتي راسكولنيكوف الذي ما يزال جالساً، كانت تطوف على شفتيه اللتين زال عنهما لونهما، ابتسامة تتم على أنه كان مسترسلًا في أحلام عميقة.

صاح رازوميixin يسأله بسرعة شديدة:

- فيه، لقد قاطعتك... ما حكاية الرجل الذي داسته العربية؟

قال راسكولنيكوف وكأنه يستيقظ فجأة:

- ماذا؟ آ... نعم... لقد تلوثت بالدم حين ساعدت في نقله إلى بيته... بالمناسبة يا أمي: لقد فعلت أمس أمراً لا يغتفر. حقاً لم أكن أملك كل عقلي. لقد أعطيت امرأة ذلك الرجل، أمس، كل المال الذي أرسلته إليها... من أجل دفنه... هي الآن أرملة، أنها امرأة شقية فقيرة... عندها ثلاثة يتامى صغار جائعين... ما من قرش واحد في بيتهم... وهناك أيضاً بنت... لعلكم كنتما ستفعلان ما فعلته أنا لو كنتما في مكانني. طبعاً لم يكن من حقي أن أفعل ذلك، أنا أعرف

بهذا... لأنني أعرف حق المعرفة كيف حصلتما على ذلك المال. فمن أجل أن يساعد المرء غيره يجب عليه أولاً أن يكون له حق في ذلك وإلا: «موتوا أيها الكلاب إذا لم تكونوا راضين».

أليس الأمر كذلك يا دونيا؟

قال راسكولنيكوف هذا وضحك.

أجابته دونيا بلهجة جازمة تقول:

- لا، ليس الأمر كذلك!

فدمدم يقول وهو يلقي عليها نظرة توشك أن تكون كارهة، وتطرف بشفتيه ابتسامة ساخرة:

- ها... أنت أيضاً تزخررين بنيات طيبة. كان ينبغي لي أن أفهم هذا!.. ذلك جميل جداً على كل حال... ربما كان ذلك أفضل!.. إذا وصلت إلى نقطة لا تجسررين أن تتخطيها فسوف تشقيين، وإذا تخطيتكها فربما شقيت أكثر. ثم إن هذا كله سخافات (أضاف ذلك مهتابجاً، نادماً على أنه استسلم لاندفاعه). وإنما أردت يا أمي أن أعذر إليك، أن أستغفرك.

كذلك ختم راسكولنيكوف كلامه بصوتٍ جازم متقطع.

قالت الأم راضيةً كل الرضى:

- كل ما تفعله يا روديا فهو خير. أنا واثقة بهذا.

فأجابها بابتسامة مصطنعة:

- لا تشقي كل هذه الثقة!

أعقب ذلك صمت. لقد كان الحديث كله متواتراً جداً، سواء في الصمت، أو في المصالحة، وفي الغفران. وكان الجميع يحسون بذلك.

قال راسكولنيكوف لنفسه وهو ينظر إلى أمه وأخته بطرف عينه: «لأنهما خائفتان مني حقاً». والحق أن بولخيريا الكسندروفنا كان يزداد خوفها على قدر امتداد صمتها.

وومضت هذه الفكرة في ذهن راسكولنيكوف: «أنا أنما كنت أحبهما إذن من بعد».

هتفت بولخيريا الكسندروفنا تقول فجأة:

- هل تعلم يا روديا؟ لقد ماتت مارفا بتروفنا!

- من هي مارفا بتروفنا؟

- عجيب! مارفا بتروفنا سفيديرجايلوفا. حدثتك عنها طويلاً في رسالتي!

- آ... آ... نعم... تذكرت! إذن ماتت؟ آ... حقاً؟.. (قال

ذلك مرتعشاً كمن يصحو من نوم). ماتت... أصحيح أنها ماتت؟ مم ماتت؟

أسرعت بولخيريا الكسندروفنا تجيئه وقد شجعها هذا الاستطلاع:

- ماتت فجأة. حدث ذلك يوم أرسلت إليك رسالتي. تصور! وتصور أن أغلب الظن أن ذلك الرهيب هو سبب موتها. يقال أنه كان قد ضربها ضرباً فظيعاً.

سأل راسكولنيكوف أخته:

- هل كان ذلك من عاداتهما؟

- لا، بالعكس. كان يبدو على الدوام صبوراً جداً معها، بل ولطيفاً جداً في معاملتها. وكان في كثير من المناسبات كثير اللين والتسامح في تصرفه إزاء طبع زوجته. ولكن ذلك دام سبع سنين، فلعله فقد صبره على حين فجأة.

- إذن لم يكن فظيعاً إلى ذلك الحد ما دام قد استطاع أن يسيطر على نفسه خلال سبع سنين. لكانك تعذريله يا دونيتشكا.

- لا، لا، إنه رجل فظيع! لا أستطيع أن أتخيل رجلاً أفظع منه. كذلك أجبت دونيتشكا وهي تكاد ترتجف. وقطبت حاجبيها وغرقت في أفكارها.

وأسرعت بولخيريا ألكسندروفنا تتابع كلامها فقالت:

- ضربها في الصباح فأمرت بعد ذلك بإعداد العربية لذهب إلى المدينة بعد الغداء رأساً، لأنها تذهب إلى المدينة دائمًا في مثل تلك الحالات. يقال إنها التهمت غداها بشهية قوية.

- بعد أن ضربت؟

- نعم، هذه عادة من عاداتها. وما إن انتهت من تناول طعامها حتى أسرعت تستحم حتى لا تتأخر في الذهاب إلى المدينة. إنها تعالج نفسها بالحمامات. أن لديهم ينبوع ماء بارد، فهي تستحم به بانتظام واطراد كل يوم. ولكنها ما إن غطست في الماء حتى أصبت بالسكتة.

قال زوسيموف معيقاً:

- لا غرابة!

- وهل ضربها ضرباً شديداً جداً؟

قالت دونيا:

- أي قيمة لهذا؟

وقال راسكولنيكوف فجأة، في اهتياج ولهرجة غير متوقعة:

- هم... ثم ما قيمة قص سخافات من هذا النوع يا أمي؟

فقالت بولخيريا الكستندروفنا:

- آه يا بني!... أنما أنا رويت هذه الأمور لأنني أصبحت لا أعرف عم ي ينبغي أن أتكلم!

فقال راسكولنيكوف وهو يتسم بابتسمة مصنوعة من جديد:

- أتراكم تخافون جميعاً مني؟

قالت دونيا وهي تحدق إلى عيني أخيها بنظرة ثابتة:

- هذا صحيح. حتى إن ماما قد رسمت إشارة الصليب قبل صعودها للسلم، من شدة خوفها.

تقلص وجه راسكولنيكوف حتى لكانه أصيب بالتشنج.

فتمتت بولخيريا الكسندر وفنا تقول مرتبكةً كل الارتكاك :

- آه... ما هذا الذي تقولينه يا دونيا؟ لا تزعل يا روديا، أرجوك... لماذا تقولين هذا الكلام يا دونيا؟ صحيح أنني طوال مدة الرحلة، في القطار، كنت أتخيل كيف سأنتقي، وما الذي سيقوله بعضاً لبعض... وقد بلغت من شدة السعادة أنني لم أشعر بالرحلة. ولكن ما هذا الذي أقوله؟ إنني ما زلت سعيدة... الآن أيضاً أنا سعيدة... ما كان ينبغي لك يا دونيا أن تقولي هذا الكلام... أنتي سعيدة يا روديا، أن رؤيتك تجعلني سعيدة...

فدمدم راسكولنيكوف يقول لأمه مرتبكاً، وهو يشد على يدها دون أن ينظر إليها :

- كفى يا ماما. سيسع وقتنا للتحدث طويلاً!

ولكنه ما إن قال هذا الكلام حتى اضطرب فجأةً، واصفر وجهه، وعاوده ذلك الإحساس الرهيب الذي يعرفه حق المعرفة، الإحساس ببرودة رهيبة تجتاح نفسه، وشعر شعوراً لا يحالجه ريب بأنه قد كذب كذبة فظيعة، وبأنه لن يستطيع أن يكلم أحداً بعد الآن بقلب مفتوح في يوم من الأيام، بل ولن يستطيع بعد الآن أن يتكلم في أمر من الأمور أياً كان. وبلغ الإحساس الذي ولدته هذه الفكرة في نفسه من شدة الإيلام أنه كاد يفقد الشعور بالواقع فقداناً كاملاً خلال لحظة، فنهض واتجه نحو الباب قُدُّماً لا يلوي على شيء ولا ينظر إلى أحد.

هتف رازوميخين يسأله وهو يمسكه من ذراعه :

- ماذا تفعل؟

فعاد راسكولنيكوف يجلس، وأجال بصره حواليه صامتاً. فكان الجميع يتأملونه مشدوهين.

وهتف يقول فجأةً :

- حقاً إنكم جميعاً تتبعون الضجر والسم في النفس! هلاً قلتم شيئاً!

ما بالنا نبقى جالسين هكذا! تكلموا! تكلموا! سوف نتكلّم... معاً!
أنجتمع ثم لا نقول شيئاً؟ هيأ قولوا شيئاً! هلموا!

قالت بولخيريا الكسندروفنا وهي ترسم إشارة الصليب:

- الحمد لله. لشد ما خفت أن يتكرر ما حدث أمس.

وقالت آفدوتييا رومانوفنا تسأل أخاها مرتابة:

- ما بك يا روديا؟

فأجابها راسكولنيكوف وقد أخذ يضحك فجأة:

- لا شيء... لا شيء... تذكرت سخافة من السخافات!

دمدم زوسيموف يقول:

- إذا كان الأمر أمر سخافة من السخافات، فهذا يبعث على الاطمئنان. وإنما كان يمكن أن أفترض...

ثم أضاف:

- على كل حال، يجب أن أصرف. قد أجيء لأراك، إذا أنا وجدتك!

ثم هيأ وخرج.

قالت بولخيريا الكسندروفنا:

- يا له من رجل رائع!

فقال راسكولنيكوف فجأة وبسرعة شديدة غير متوقعة، وبحرارة أشد مما أظهر من حرارة حتى الآن:

- نعم، هو رجل رائع، مدهش، مثقف، ذكي... لا أتذكر الآن أين التقيت به قبل مرضي. ولكن يبدو لي أنني سبق أن التقيت به.

ثم أضاف وهو يومئ إلى رازوميixin بإشارة من رأسه:

- وهذا أيضاً رجل ممتاز!

ثم التفت إلى أخته يسألها وقد أخذ يضحك فجأة لا يدرى أحد
لماذا:

- هل يعجبك يا دونيا؟

فأجابته دونيا قائلة:

- كثيراً.

قال رازوميixin و هو ينهض محمراً الوجه من الخجل والاضطراب:

- يا للأحمق!

وابتسمت بولخيريا الكسندروفنا ابتسامة خفيفة، بينما كان راسكولنيكوف يضحك ضحكاً صاخباً.

- ولكن إلى أين أنت ذاهب؟

- أنا أيضاً مشغول.

- لا لست مشغولاً بشيء البتة، أبق! ألا يكفي أن ينصرف زوسيموف حتى يكون عليك أن تنصرف أنت أيضاً. لا، لا تذهب! ثم كم الساعة الآن؟ الثانية عشرة؟ ما أجمل هذه الساعة التي تحملينها يا دونيا! ولكن ما بالكم تصمتون جميعاً من جديد؟ لا يتكلم أحد غيري هنا!

أجابت دونيا:

- هي هدية من مارفا بتروفنا.

وعقبت بولخيريا الكسندروفنا تقول:

- وقد كلفت ثمناً غالياً جداً.

- هي ضخمة جداً بالقياس إلى ساعة نسائية.

- أحب الساعات الضخمة هكذا.

وقال رازوميixin لنفسه: «ليست هدية من الخطيب إذن»، وابتھج لهذا دون أن يدرى كثيراً لماذا!

وقال راسكولنيكوف :

- تصورت أنا أنها هدية من لوجين !

- لا ، إنه لم يقدم إلى دونيا حتى الآن أية هدية !

قال راسكولنيكوف فجأة وهو ينظر إلى أمه التي ذهلت من انتقاله إلى هذا الكلام بغير تدرج ، ومن اصطناعه هذه اللهجة التي اصطناعها :

- آ... آ... هل تذكري يا أمي أني عشت وأنني أردت أن أتزوج ؟

- نعم أتذكر يا بني .

وتبادلـت بولخيريا الكسندر وفنا نظرةً مع دونيتـشـكا ورازومـيخـين .

- نعم . وماذا أقول لك عن ذلك الأمر أيضاً؟ لقد نسيت فأصبحت لا أذكر ...

وتـابـعـ كـلامـهـ وـهـوـ يـطـرـقـ إـلـىـ الـأـرـضـ وـيـصـبـحـ شـارـدـ الـذـهـنـ حـالـمـاـ مـنـ جـدـيدـ :

- كانت فتاة ممراضـاً... مـمـراـضاـ جـداـ . وكانت تحـبـ أن تـتـصـدقـ عـلـىـ المـتـسـؤـلـينـ . وكانت تحـلـمـ بالـدـيرـ... وقد أـجـهـشـتـ باـكـيـةـ فيـ ذاتـ يـوـمـ حـيـنـ حدـثـتـيـ عنـ ذـلـكـ . نـعـمـ... نـعـمـ... أـتـذـكـرـ . لاـ يـمـكـنـ أنـ يـقـالـ إنـهـ كـانـتـ جـمـيـلـةـ! حـقـاـ... لاـ أـدـرـيـ لـمـاـذاـ تـعـلـقـتـ بـهـاـ . ربماـ لأنـهـ كـانـتـ دائمـاـ مـرـيـضـةـ . وأـحـسـبـ أنـهـ لـوـ كـانـتـ عـرـجـاءـ أوـ حـدـباءـ لـأـحـبـبـتـهـاـ أـكـثـرـ .
(قال ذلك وابتسم ابتسامة ذاهلة). كان ذلك نوعـاـ منـ جـنـونـ الـرـبـيعـ!

قالـتـ دونـيـاـ منـدـفـعـةـ :

- لا ، لمـ يـكـنـ نوعـاـ منـ جـنـونـ الـرـبـيعـ .

ألـقـىـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ عـلـىـ أـخـتـهـ نـظـرـةـ مـتـبـهـةـ . ولـكـنـ كـانـ يـبـدوـ عـلـيـهـ أـنـهـ لمـ يـفـهـمـ كـلـامـهـ وـلـاـ سـمـعـهـ . ثـمـ نـهـضـ وـهـوـ مـاـ يـزـالـ شـارـدـ الـفـكـرـ ، فـمضـىـ إـلـىـ أـمـهـ ، فـقـبـلـهـاـ ، وـعـادـ يـجـلـسـ فـيـ مـكـانـهـ .

سألته بولخيريا الكسندروفنا مضطربةً أشد الاضطراب:

- أما زلت تحبها؟

- هي؟ ما زلت أحبها؟ آ... نعم... أنت تتكلمين عنها... لا... ذلك كله قد أصبح الآن عالماً آخر... انقضى زمان طويل... انقضى زمان طويل... ليس هذا فحسب... بل إن كل ما يجري حولي الآن فكأنه يجري في عالم آخر.

قال راسكولنيكوف ذلك، ونظر إليهم بانتباه ثم أردد يقول:

- إليكم هذا المثال: أنا انظر إليكم الآن، فكأنكم على مسافة ألف فرسخ مني... ولكن لماذا نتكلم عن هذه الأشياء؟ ثم لماذا تسألونني؟ (أضاف ذلك غاضباً، وصمت، وأخذ يقضم أظافره، وغاب في أحلامه من جديد).

وقطعت بولخيريا الكسندروفنا هذا الصمت الأليم، إذ قالت فجأة:

- ما أرداً مسكنك يا روديا! إنه أشبه بتابوت! أنا على يقين من أن مسكنك هذا هو نصف أسباب كآبك!

فقال راسكولنيكوف ذا هل الهيئة:

- المسكن... نعم... لا بد أن لمسكني هذا دخلاً في الأمر... أنا أيضاً خطر بيالي هذا.

ثم أضاف يقول فجأة وهو يبتسم ابتسامة غريبة:

- ولكن ليتك تعلمين عن أي فكرة غريبة عبرتِ أنت الآن يا أمي! كان راسكولنيكوف يحس أن هذا الاجتماع، وهذه الأم وهذه الأخت اللتين يراهما بعد فراق دام ثلاثة سنين، وهذه اللهجة الحميمة في الحديث، بينما هو عاجز عن أن يقول كل شيء، كان راسكولنيكوف يحس أن هذا كله يوشك أن يصبح أمراً لا يطاق إطلاقاً. غير أن هناك مسألة لا تحتمل مناقشتها إرجاءً، مسألةً كان قد قرر منذ صحا من نومه

أن يحلّها في هذا اليوم نفسه بطريقة أو بأخرى . وها هو ذا يحس الآن بالارتياح لأن بوسعه أن يتّخذ هذه المسألة وسيلةً للخروج من مأزقه .

بدأ كلامه فقال بلهجة خشنة قاسية :

- اسمعي يا دونيا . أنا طبعاً أستغفرك عما جرى أمس ، ولكنني أرى أن من واجبي أن أذكري بأنني ما زلت مصرأ على الشيء الأساسي من أقوالي . إما أنا وإما لوجين . قد أكون أنا أسوأ الناس طرأ ، ولكن ما ينبغي أن تكوني أنت كذلك . يكفي أن يكون أحدهنا سيئاً . إذا تزوجت لوجين ، فلن أعدك أختي .

صاحت بولخيريا الكسندروفنا تقول بمرارة :

- روديا ، روديا ! ها نحن إذن نعود إلى ما كنا فيه بالأمس ! لماذا تعد نفسك «أسوأ الناس طرأ»؟ أنا لا أستطيع أن أحتمل هذا . أمس أيضاً كان هذا نفسه . . .

وأجابت دونيا تقول بلهجة جازمة ، قاسية كلها :

- هذا ناشئ عن خطأ ترتكبه يا أخي . لقد فَكَرت هذه الليلة ، فاكتشفت سبب خطئك . إن كل شيء ناشئ ، فيما يبدو لي ، عن تصورك أنني أضحي بي نفسي في سبيل أحد . وهذا ليس صحيحاً بالمرة . فإنما أتزوج تحقيقاً لمصلحتي الخاصة ، لأن حياتي صعبة . طبعاً . . . إذا استطعت في المستقبل أن أنفع أهلي . . . فسوف يسعدني ذلك ، ولكن السبب الرئيسي للقرار الذي اتخذته ليس هو هذا . . .

قال راسكولنيكوف لنفسه وهو يقضم أظافره حانقاً : «إنها تكذب ! يا للمتعجرفة ! إنها لا تريد أن تعرف بأنها تحلم أن تكون محسنة . آه ! يا لهذه الطبائع ! حتى حين يحبون ، فكأنهم يكرهون . آه . . . لشد ما أكرههم جميعاً !»

وتابعت دونيا تقول :

- باختصار : أنا أتزوج بيوتر بتروفتش لأنني اختار أهون الشررين . وإذا

أنتي قررت أن أنفُذ كل ما ينتظره مني ، بأمانة واستقامة وشرف ، فإنني
أعتقد أنني لا أخدعه . . . لماذا تبتسم؟

سألها راسكولينيكوف بلهجة مسمومة :

- ستنفذين كل شيء؟

- إلى حد ما . وإن الطريقة التي اتبعها بيوتر بتروفتش في خطبتي قد
أفهمتني على الفور ما ينتظره مني . صحيح أن رأيه في نفسه عالٍ كثيراً،
ولكنني آمل أن يقدّرني أيضاً . . . لماذا تضحك من جديد؟

- وأنت لماذا تحرّمِين من جديد؟ إنك تكذبين يا أختي ، تكذبن
عامدةً ، بعناد امرأة ، حتى لا تتراجعين أمامي . أنت لا يمكن أن تتحترمي
لوجين : لقد رأيته وتحدثت معه . إذن أنت تبيعين نفسك بالمال . إذن
أنت تتصرفين تصرفًا دنيئًا على كل حال . وإنه ليسعدني ، أن تكوني على
الأقل قادرةً على أن تحرّمي خجلاً .

صاحت دونيا تقول وقد فقدت كل هدوئها :

- هذا غير صحيح . أنا لا أكذب ! لن أتزوجه دون أن أقنعني بأنه
يقدرني حق قدرى ، وأنه يحرص علىَّ . لن أتزوجه دون أن أقنعني اقتناعاً
جازماً بأنني أستطيع أن أقدرها . ومن حسن الحظ أن في وسعي أن أقنعني
بهذا على وجه اليقين في هذا اليوم نفسه . ليس هذا الزواج دناءةً على
نحو ما تصف . وهبك على صواب ، وهبني قررت أن أرتكب عملاً
دنيئاً ، أفلأ تكون أنت قاسيًا حين تقول لي هذا الكلام؟ لماذا تتطلب مني
بطولةً تعجز عنها أنت نفسك؟ هذا ظلم واستبداد ، هذا عنف وطغيان!
إذا كنت أشقي أحداً ، فإنما أشقي نفسي ! أنا لم أذبح أحداً بعد . . . لماذا
تنظر إلىَّ هكذا؟ لماذا أصفر وجهك هذا الاصفار فجأة؟ روديا ، ماذا
بك؟ روديا ، عزيزي . . .

صاحت بولخيريا الكسندروفنا :

- رباء ! لقد بلغت من تعذيبه أنه سُيغمى عليه!

- لا، لا، لم يحدث شيء، لا قيمة لهذا. كل ما حدث هو أنني أحسست بشيء من دوار... ولكن لم يُغمِّ علىَيْ. إنكم تظنون كل شيء إغماءاً... ماذا كنت أريد أن أقول؟ نعم: بأية وسيلة ستقتعنين، في هذا اليوم نفسه، بأنك تستطعين احترامه، وبأنه يقدرك؟ ذلك هو ما قلته، أليس كذلك؟ يخيل إلىَيْ أنك قلت: «في هذا اليوم نفسه»، أم تراني سمعت خطأ؟

قالت دونيا:

- ماما، أطلعي أخي على رسالة بيوتر بتروفتش. فمدَّت بولخيريا الكسندروفنا الرسالة إليه، مرتعشةً اليدين. فتناولها باهتمام شديد واستطلاع قوي، ولكنه قبل أن يفضِّلها نظر إلى دونيا مدهوشًا. وقال ببطء، كأنما وافته فكرة جديدة:

- غريب جداً أنني ثرت هذه الثورة كلها من أجل... لماذا هذا الاضطراب كله؟ تزوجي من تشائين...

قال هذا كمن يحدث نفسه، ولكنه كان يتكلم بصوت عالٍ، وظل برهةً من الوقت ينظر إلى أخيه مرتباً.

وفضَّل الرسالة أخيراً وهو ما يزال على ما هو عليه من دهشة لا تعليل لها. ثم أخذ يقرأ الرسالة ببطء وانتباه. أعاد قراءة الرسالة مرتين. وكانت بولخيريا الكسندروفنا قلقة إلى أبعد حدود القلق. وكان الجميع، من جهة أخرى، يتوقعون انفجاراً.

بدأ راسكولنيكوف كلامه بعد لحظةٍ من تأمل، فقال وهو يرد الرسالة إلى أمه، ولكن دون أن يخاطب أحداً بعينه:

- غريب. هو محام. وله زبائن، وحتى حديثه لا يخلو من... حذقة. ومع ذلك يحسن المرء حين يقرؤه أنه ليس على شيء من تعليم أو ثقافة.

حدثت حركة شاملة: لقد كانوا يتوقعون شيئاً آخر غير هذا تماماً.

قال رازوميخين بلهجة قاطعة :

- ولكنهم جميعاً يكتبون هكذا.

- هل قرأت هذه الرسالة؟

- نعم.

قالت بولخيريا الكسندروفنا مرتبةً :

- أطلعناه عليها يا روديا، و... سألناه... النصح... منذ

برهة...

فقطها رازوميخين يقول :

- هذا أسلوب القضاء لا أكثر... إن جميع الأوراق القضائية تحرّر الآن بهذا الأسلوب!

- القضاء؟ نعم... صحيح!... ذلك أن أسلوب هذه الرسالة ليس أسلوب رجل محروم من أي حظ من ثقافة، ولكنه في الوقت نفسه ليس أسلوبياً أدبياً. إنه أسلوب رجل من رجال الأعمال.

قالت آفدوتيما رومانوفنا وقد أزعجتها لهجة أخيها الجديدة:

- أن بيوتر بتروفتش لا يخفى أن تعليمه كان متواضعاً؛ بل أنه ليعتز بأنه عصامي شق طريقه بنفسه.

- إذا كان يعتز فلا شك أن هناك ما يدعوه إلى الاعتزاز! أعتقد أنك انزعجت يا أختي لأنني لم أخرج من هذه الرسالة كلها إلا بهذه الملاحظة التافهة؛ وأنت تظندين أنني تعمدت أن أتشبث بهذه السفاسف لأسرّه منك بداعٍ زعلى. والحق عن ذلك بعيد: ففي صدد موضوع الأسلوب هذا، أنما خطرت ببالي ملاحظة تبدو لي في هذه الحالة ذات شأن. لقد ورد في الرسالة تعبير يقول: «لن يكون لكم عندئذ أن تلوموا أحداً إلا أنفسكم»، وهو تعبير ذو دلالة بلغة في ذاته، عدا أنه يشتمل على تهديد: لقد قرر لوجين أن ينصرف فوراً إذا أنا حضرت. فهذا التهديد بالانصراف معناه أنه سيترك كما إذا أنتما لم تطاوعاه، مع أنه هو

الذي حملكما على المجيء إلى بطرسبرج. فما رأيك؟ هل يمكن أن تسوءك هذه الكلمات حين يكتبها لوجين مثلك يمكن أن تسوءك لو كتبها هذا (قال ذلك وهو يومئ إلى رازوميختين) أو كتبها زوسيموف أو كتبها أي واحد منا؟

قالت دونيتتشكا متحمسة:

- لـ... لا!.. لقد أدركت حق الإدراك أن في أسلوبه سذاجة شديدة، وأنه قد لا يكون حاذقاً كل الحذق في استعمال قلمه. إن ملاحظتك سديدة جداً يا أخي، حتى إنني لم أكن أتوقع أن...

- نعم، هذا هو طابع الأسلوب القضائي، وبالأسلوب القضائي لا يمكن أن يكتب المرء غير هذا. ولعل لوجين كان فيما كتبه فظاً أكثر مما أراد. ومع ذلك أريد أن أخيب ظنك قليلاً: إن في هذه الرسالة نفسها تعبيراً آخر هو نيمية في حقي، نيمية خسيسة. لتن وهبت بالأمس مالاً لأرملة مصدورة يائسة، فإنني لم أفعل ذلك «بحجة» دفع نفقات الجنازة، بل لدفع نفقات الجنازة فعلاً. ثم إنني وضعت هذا المال لا في يد الفتاة أو في يد «البنت المعروفة بسوء السمعة» على حد تعبيره، (وهي الفتاة التي رأيتها بالأمس لأول مرة في حياتي) وإنما وضعت المال في يد الأرملة نفسها. إنني أرى في كلامه هذا رغبةً شديدةً جامحةً في تلطيخ صفتتي، وفي إحداث شقاق بيني وبينكم. هنا يكشف الأسلوب القضائي عن نيات صاحبه بوضوح، ويidel على تسرع فيه شيء من سذاجة. إن الرجل ذكي، ولكن لا يكفي أن يكون المرء ذكياً حتى يتصرف بذكاء. هذا كله يطلعك على حقيقته. ثم إنني... لا أعتقد أنه يحترمك كثيراً. لا أقول لك هذا إلا لتحيطي علماً... ذلك أنني أتمنى لك الخير صادقاً كل الصدق.

لم تجب دونيا. كانت قد اتخذت قرارها منذ مدة، فهي تنتظر حلول المساء.

سألت بولخيريا الكسندروفنا ابنها، وقد اشتد قلقها بسبب أقواله الجديدة المفاجئة التي تتناول موضوع الأعمال.

- فماذا قررت يا روديا؟

- ماذا تعنين بقولك «ماذا قررت»؟

- أن... بيوتر بتروفتش يطلب في رسالته أن لا تجيء إلينا هذا المساء، وأنه سينصرف إذا أنت جئت. فهل... تجيء؟

- لست أنا من يجب أن يقرر. وإنما ينبغي أولاً أن تقرري أنت: هل تجدين في طلب بيوتر بترورفتش إهانة لك أم لا؛ وينبغي ثانياً أن تقرر دونيا: هل هي أيضاً مسؤولة عن هذا الطلب وتجد فيه إهانة لها أم لا.

وأضاف راسكولنيكوف يقول ببرود:

- أما أنا فسأفعل ما يناسبكم كلتكم.

أسرعت بولخيريا الكسندروفنا تجيب:

- لقد اتخذت دونيتشكى قرارها وانتهى الأمر؛ وأنا أتفقها كل الموافقة.

قالت دونيا:

- نعم، لقد قررت يا روديا... قررت أن أطلب منك، ملحة مصرةً، أن تحضر الاجتماع عندنا هذا المساء. هل تجيء؟

- سأجيء.

والتفت دونيا إلى رازوميixin فقلت له:

- وأنت أيضاً... أرجوك أن تكون عندنا في الساعة الثامنة. يا أمي، إنني أدعوه أيضاً.

قالت بولخيريا الكسندروفنا:

- هذا حسن جداً يا دونيا.

ثم أضافت :

- ليكن ما تقرران. ثم إنني أنا نفسي أؤثر هذا. إنني لا أحب أن أتظاهر وأن أكذب. نعم، الأفضل أن نقول الحقيقة جمِيعاً... اغضب أو لا تغضب يا بيوتر بتروفتشن !

الفصل الرابع

تلك اللحظة فتح الباب برفق، ودخلت الغرفة فتاة تلقي على ما حولها نظرات وجلى. فالتفت الجميع نحوها مدهوشين مستطمعين. ولم يتعرفها راسكولنيكوف في الوهلة الأولى. أنها صوفيا سيميونوفنا مارميلادوفا. كان قد رأها أمس أول مرة، ولكنه رأها في لحظة خاصة وظروف خاصة، ورأها مرتدية ثياباً خاصة، فكانت صورتها المنقوشة في ذاكرته صورة إنسانة أخرى غير هذه التي يراها الآن. هي فتاة بسيطة الملبس بل فقيرة الملبس، تبدو في ميعه الصبا حتى لکأنها بنية صغيرة، متحفظة الحركات محتشمة، نقية الوجه على شيء من خوف ووجل، ترتدي ثوباً بسيطاً مما يلبس كل يوم، وتضع على رأسها قبعة بالية الزي، ولكنها تحمل بيدها شمسية كالامس. فلما رأت، على دهشة شديدة منها، أن الغرفة تغص بالناس، لم تضطرب فحسب، بل فقدت كذلك كل سيطرة لها على نفسها، ووغلت كطفلة صغيرة وتحركت تهم أن تنسحب.

قال راسكولنيكوف وقد بلغ ذروة الدهشة:

- آ... أهذا أنت؟

وقد هو أيضاً كل سيطرة له على نفسه.

وسرعان ما تذگر أن رسالة لوجين قد أخبرت أمه وأخته بوجود هذه

الأنسة «المعروفة بسوء السمعة لدى جميع الناس». وقد احتاج هو منذ قليل على نمائم لوجين معلناً أنه رأى هذه الفتاة أول مرة مساء أمس، وها هي ذي تدخل عليه الآن بشخصها فجأة. وتذكر أيضاً أنه لم يحتاج أي احتجاج على ما ورد في رسالة لوجين من أن «البنت معروفة بسوء السمعة». ومض ذلك كله في ذهنه مضطرباً مبهماً بسرعة كسرعة البرق. ولكنه حين تأمل القادمة بانتباه أكبر، رأى أنها مخلوقة مسكونة مذلة إلى حد كبير فلم يلبث أن أخذته بها شفقة. فلما تحركت تهم من رعبها أن تهرب، كان هو قد شعر باضطراب، فأسرع يقول لها وهو يستوقفها بنظره:

- لم أكن أتوقع مجئك البة. هلا سررتني فجلست. لا شك أنك آتية من قبل كاترينا إيفانوفنا. من فضلك. لا، ليس هنا. بل هنا. أجلسني هنا.

حين دخلت صونيا، كان رازوميخين جالساً بالقرب من الباب على أحد الكراسي الثلاثة التي تضمها غرفة راسكولنيكوف، فنهض ليفسح لها مجال المرور. وقد دلّها راسكولنيكوف في أول الأمر على مكان في طرف الديوان هو المكان الذي كان يشغله زوسيموف منذ برهة. لكنه وقد تذكر أن الجلوس على الديوان ينبع عن رفع الكلفة، وأنه يتخد الديوان سريرًا له، أسرع يدّلها على كرسي رازوميخين. وقال لرازوميخين وهو يجلسه على طرف الديوان الذي كان يجلس عليه زوسيموف:

- وأنت، اجلس هنا.

جلست صونيا وهي تكاد ترتعش من الخوف، ونظرت إلى السيدتين خجلةً وجلة. كان واضحًا أنها لا تفهم هي نفسها كيف تجرأت أن تجلس إلى جانبهما. وقد بلغت من الارتياح حين تصورت ذلك أنها

نهضت على حين فجأة مضطربة أشدّ الاضطراب، وثأثأت تقول متوجهةً بكلامها إلى راسكولنيكوف:

- أنا... أنا ما جئت إلا لدقيقة واحدة... اغفر لي إزعاجك. إن كاترينا إيفانوفنا هي التي أوفدتني إليك... لأنها لم تجد أحداً غيري يمكنها أن توفره. طلبت مني كاترينا إيفانوفنا أن أرجوك ملحّة... أن تحضر غداً قداس الجنازة... صباحاً... بعد الصلاة... في مقبرة ميتروفان⁽⁶³⁾... وأن تجيء بعد ذلك إلينا... إليها... لتصيب شيئاً من طعام... هي ترجوك أن تهب لها هذا الشرف. نعم، كلفتني بأن أسألك هذا...

قالت صونيا ذلك، واشتد ارتباكاً فصمت.

نهض راسكولنيكوف هو أيضاً، واضطرب هو أيضاً، وقال يجيبها:

- سأحاول أن أجيء حتماً... حتماً...

ثم أردد يقول لها فجأةً:

- هلاً سررتني فجلست. إن لي حديثاً معك. أرجوك. أنت مستعجلة ولكن أرجوك، هبلي لي دقيقتين!

قال ذلك وقرب لها الكرسي. جلست صونيا. وعادت تلقي على السيدتين نظرة سريعة خجلة وجلة، ثم خفضت عينيها فجأة.

احمر وجه راسكولنيكوف الشاحب، وقبضت قسماته، وقد حلت عيناه، وقال بلهجة قاطعة ملحّة:

- يا أمي، هذه صوفيا سيميونوفنا مارميلادوفا، ابنة ذلك السيد المسكين مارميلادوف الذي داسته الخيل مساء أمس على مرأى مني، والذي سبق أن حدثتكم عنه...

ألقت بولخيريا الكسندرزوفنا نظرة على صونيا وقد زلت عينيها قليلاً. إنها لم تستطع، رغم الخشية التي توقعها فيها نظرة ابنها الثابتة

المتحدية، أن تمنع عن نفسها هذه المتعة. أما دونيا فقد حدّقت إلى وجه الفتاة المسكينة في جد وإصرار، وأخذت تدرسها بعناية واهتمام. وقد أرادت صونيا، حين سمعت التعريف بها، أن ترفع عينيها، ولكنها اضطررت مزيداً من الأضطراب.

وأسرع راسكولنيكوف يقول لها:

- وددت أن أعرف كيف جرت الأمور عندكم اليوم. ألم تلقو مضائقات؟ من جهة الشرطة مثلاً؟

فأجابت الفتاة:

- لا . . . جرى كل شيء مجرى عادياً. كان لا يمكن أن يشك أحد في سبب الوفاة. لم يزعجونا. ولكن السكان غاضبون علينا.

- لماذا؟

- لأن الجثمان بقي مدة طويلة . . . والجو الآن حار، والرائحة . . . لذلك سينقل الجثمان اليوم إلى المقبرة، عند صلاة الغروب، فيوضع في المصلى إلى الغد. كانت كاترينا ايفانوفنا لا تريد ذلك في أول الأمر، لكنها تدرك الآن أن ليس هناك وسيلة أخرى . . .

- إذن اليوم؟

- لا بل هي ترجوك أن تشرفنا بحضور صلاة الجنازة غداً . . . في الكنيسة . . . وبأن تأتي غداً إلينا للمشاركة في الوليمة.

- أهي تقيم وليمة؟

- نعم، وليمة جنازة. وقد كلفتني بأنأشكر لك المساعدة التي تفضلت عليها بها أمس. فلو لاك لما ملكنا ما نفقه على الدفن.

وأخذت شفتا الفتاة وذقنها تختلج فجأة، ولكنها كابررت وتجلدت فاستطاعت أن تسيطر على نفسها، ثم أغضت طرفها من جديد.

تفحصها راسكولنيكوف أثناء الحديث تفحصاً دقيقاً. إن لها وجهان

صغيراً بائساً، شديد الهزال والنحول، شاحب اللون، ليس في قسماته اتساق كثير، متكسر الخطوط، بأنف وذقن صغيرين مدببين. حتى ليصعب أن يقال إنها جميلة. ولكن لها في مقابل ذلك عينين زرقاوين تبلغان من الصفاء أن وجهها يكتسي حين تقدان طيبة وسماحة لا يملك المرء إزاءهما إلا أن ينجدب إليها. هذا إلى أن لوجه صونيا، ولسائر شخصها، صفة خاصة تميزها هي أنها، على كونها في الثامنة عشرة من عمرها، تبدو أصغر سناً من ذلك بكثير، حتى ليكاد يحسبها المرء طفلة. وكان هذا يتجلى أحياناً في بعض حركاتها، فيكاد يبعث على الضحك.

سألها راسكولنيكوف وكان يواصل الحديث بإلحاح:

- ولكن كيف استطاعت كاترينا ايفانوفنا أن تتدبر أمورها بمثل ذلك المبلغ الضئيل من المال، حتى لتولم وليمة؟

- سيكون التابوت بسيطاً جداً... وسيكون كل شيء بسيطاً... فلا تكون النفقات باهظة... لقد أجرينا الحساب منذ قليل مع كاترينا ايفانوفنا، فلاحظنا أن سيبقى لنا من المال ما نولم به وليمة... لأن كاترينا ايفانوفنا تحرص على هذا أشدّ الحرص. ليس في الإمكان أن لا... أن في هذا عزاء لها. هذه طبيعتها، هي هكذا... أنت تعرفها...

- مفهوم، مفهوم... لماذا تتحчин غرفتي؟ أمي أيضاً تقول إن غرفتي أشبه بقبر.

قالت صونيا تجبيه بنوع من همس قوي سريع، وهي تخفض عينيها من جديد:

- أنت أعطيتنا بالأمس كل ما كنت تملك... وعادت شفتاها وذقنها تختلجم. كانت قد لاحظت منذ برهة طويلة ما يسود غرفة راسكولنيكوف من فقر شديد، فأفلتت هذه الكلمات منها الآن على غير إرادة أو شعور

تقريراً. وخيم بعد ذلك صمت. وأضاءت عينا دونيا. وحتى بولخيريا الكسندروفنا نظرت إلى الفتاة في رضى وبشاشة. ثم قالت وهي تنهض:

- يا روديا، سنتغدى معاً بالطبع. هلمي يا دونيا. أما أنت يا روديا فعليك أن تقوم بتنزه قصيرة، ثم تستريح: تستلقي قليلاً، وتجيء إلينا بعد ذلك. أخشى أن تكون قد أتعبناك كثيراً.

أجاب راسكولنيكوف وهو ينهض متعجلاً:

- نعم نعم، سأجيء. ثم إن هناك أ عملاً يجب أن أقوم بها... صاح رازوميixin يقول مدھوشًا وهو ينظر إلى راسكولنيكوف:

- أصحيح أنكم لن تتغدوا معاً؟ ما هذا الذي تقوله؟

- نعم نعم، سأجيء بالطبع. أما أنت يا رازوميixin، فابق دقيقة أخرى. لستما في حاجة إليه على الفور يا أمي، أليس كذلك؟ أو ربما حرمتكما منه؟

- لا، لا!... وأنت يا دمترى بروكوفتش، هل تصحبنا إلى الغداء؟ هل تتفضل فتقبل أن تصحبنا إلى الغداء؟

وثبت دونيا على طلب أمها فقالت هي أيضاً:

- أرجوك، تعال...

انحنى رازوميixin وقد أشرق وجهه فرحاً. وشعر الجميع بنوع من الضيق والحرج الغريب للحظة ما.

- وداعاً يا روديا، بل إلى اللقاء... أنا لا أحب أن أقول وداعاً! وداعاً يا ناستاسيا... هوه! هأنذا أعود فأقول وداعاً!...

وبدت بولخيريا الكسندروفنا لو تحبى صونيا أيضاً، ولكنها لم تفلح في ذلك، فأسرعت تخرج من الغرفة.

ولكن آفدوتييا رومانوفنا، حين مررت أمام صونيا بعد أنها كأنها انتظرت دورها فحيتها تحية فيها كياسة، بل فيها مودة أيضاً. فاضطررت

صونيا، وأخذت رأسها متوجلةً وجلةً، بينما طاف بقصمات وجهها تعبير أليم، كان ما أظهرته لها آفدوتيا رومانوفنا من أدب ولطف قد شق على نفسها وجعلها تتذمّر.

هتف راسكولنيكوف يقول لأنّته وقد خرج في أثرها إلى فسحة السلم:

- أستودعك الله يا دونيا! هلاً صافحتني!

فأجابته دونيا وهي تلتفت إليه بحركة خرقاء فيها عطف وحب:

- ولكنني صافحتك، هل نسيت؟

- أي ضمير في أن تصافحيني مرة أخرى؟

وتناول يدها، وشدّ على أصابعها شدّاً قوياً، فابتسمت له دونيا، وأحرّرت، وسحبت يدها بسرعة، وهرّعت تلحق بأمّها سعيدة كل السعادة لا تدرّي لماذا!

قال راسكولنيكوف وهو يعود إلى الغرفة ويلقي على صونيا نظرة صافية مضيئة:

- عظيم! اللهم اجعل الموتى في سلام، وابق الأحياء على قيد الحياة. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ هو كذلك، هو؟

كانت صونيا تنظر مدهوشة إلى وجهه الذي أضاءه الفرح على حين فجأة. ثم لم تلبث قصة أبيها الراحل عنها أن عادت إلى ذاكرته بفترة...

بدأت بولخيريا الكسندروفنا تتكلّم، منذ صارتافي الشارع، فقالت تخاطب ابنتها:

- رباه! دونيتشكا! إنني أشعر بارتياح عظيم لأننا خرجنا من عنده! نعم، إنني أحس كأن حملاً قد أزيح عن صدري. لو قال لي قائل بالأمس، في القطار، إن ترك ابني سيسرنى، فهل كنت أصدق؟

- أكرر لك يا أمي إنه ما يزال مريضاً جداً. هل يمكن أن لا تكوني

قد لاحظت ذلك؟ لعل حزنه الناشئ عن أنه يتألم ويعطف علينا هو الذي جعله في هذه الحالة. يجب على الإنسان أن يكون متسامحاً، فيمكنه عندئذ أن يغفر أموراً كثيرة، كثيرة جداً.

فأجابتها بولخيريا الكسندروفنا بلهجة حادة ساخطة:

- وهل كنت أنت متسامحة؟ اسمعي يا دونيا: لقد أنعمت النظر إليكما، فهل تعرفين ماذا لاحظت؟ لاحظت أنك صورته تماماً، تشبهينه وجهها وروحها، بل وتشبهينه روحأ أكثر مما تشبهينه وجهها. كلا كما مكتتب المزاج، كلا كما متوجهن النفس، مندفع الطبع؛ كلا كما متكبر متعال وسمح كريم. يستحيل أن يكون أناانياً يا دونيتشكا، أليس كذلك؟ حين أفكرا فيما سيحدث عندنا هذا المساء، يتجمد قلبي!

- لا تقلقي يا ماما! لن يحدث إلا ما يجب أن يحدث.

- ولكن هلاً فكرت يا دونيتشكا في الظرف الذي نحن فيه؟ ماذا لو رجع بيوتر بتروفتش عن وعده؟

هذا ما أفلت من لسان بولخيريا الكسندروفنا المسكونة بغير حذر أو تبصر. فأجابتها دونيا بلهجة جافة تنم على الاحتقار:

- إن ذلك لن يشرفه كثيراً!

فأسرعت بولخيريا الكسندروفنا تقاطعها قائلةً:

- لقد أحسنا صنعاً إذ تركنا روديا. كان يستعجل الخروج لأمرٍ ملح. بهذا يُتاح له أن يتحرك قليلاً، وأن يستنشق هواء نقىأ. الجو خانق في غرفته! ولكن أين يمكن أن يتنفس الإنسان في هذه المدينة؟ حتى في عرض الشارع يحس المرء أنه في غرفة بلا نوافذ! رباه! يا لها من مدينة! .. انتبهي .. ابتعدي .. كادوا يدوسونك! هذا بيانو محمول! آه... ما أكثر ما يُصدِّم المرء هنا! .. أنا خائفة أيضاً من تلك البنت! ..

- أية بنت؟

- صونيا سيميونوفنا تلك التي كانت . . .

- لماذا أنت خائفة منها؟

- عندي هواجس يا دونيا. . . صدقيني أو لا تصدقيني. . . ولكنني منذ أن دخلت، قلت لنفسي، في تلك الدقيقة نفسها، أن كل شيء ربما كان مردئاً إلى هذا. . .

هفت دونيا تقول غاضبةً:

- لا شيء مردئ إلى هذا. . . عجيبة أنت وهواجسك يا ماما! . . إنه لا يعرفها إلا منذ أمس. . . حتى إنه لم يتعرفها حين دخلت!

- سوف ترين! . . هي. . . سوف ترين. . . سوف ترين! . . آه. . . ما أشد ما أشعر به من خوف! كانت تنظر إلى عينين. . . عينين لا أدرى ماذا أقول فيهما. . . حتى لقد كنت من نظراتها لا أكاد أستطيع المكوث في مكانى. . . هل تتذكري طريقة في تقديمها إلينا وتعريفنا بها؟ إن الأمر الذي يبدو لي غريباً عجيباً هو أن يقول عنها بيوتر بتروفتش ذلك الكلام، ثم إذا بروديا يقدمها إلينا، ويقدمها إليك أنت خاصةً! ذلك دليل أنها عزيزة لديه.

- ما أكثر ما يقوله الناس! ألم يقولوا عنا نحن أيضاً أشياء كثيرة؟ أتراك نسيت ذلك؟ أما أنا. . . فإنهي واثقة بأنها إنسانة. . . رائعة. . . وأن كل ما قيل عنها ليس إلا افتراء. . .

- أسأل الله أن يكون هذا صحيحاً!

- أما بيوتر بتروفتش فليس إلا ناماً دنياً.

كذلك قالت دونيتشكا بلهجة قاطعة على حين فجأة! فتعكر مزاج بولخيريا الكسندروفنا، وانقطع الحديث.

قال راسكولنيكوف وهو يقود رازوميixin نحو النافذة:

- إليك الأمر الذي أريد أن أحدثك فيه. . .

فقالت صونيا متوجلةً وهي تحبي لتنصرف:

- سأقول إذن لكاترينا إيفانوفنا إنك ستجيء . . .

- لحظةً يا صوفيا سيميونوفنا. ليس هناك أسرار. إنك لا تضايقيننا
البطة . . . وأنا أريد أن أقول لك كلمتين أيضاً . . .

قال ذلك ثم التفت إلى رازوميخين قبل أن يتم جملته، فواصل كلامه
له قائلاً:

- إليك الأمر . . . أنت تعرف ذلك الرجل الذي يسمى . . . ما اسمه؟
نعم . . . بورفيري بتروفتش . . . أنت تعرفه، أليس كذلك؟

- أعرفه. نحن قريبان!

ثم أردف يسأل باستطلاع قوي:

- ولكن لماذا هذا السؤال؟

- أليس هو الذي يحقق في القضية، قضية مقتل العجوز؟ ألم تقل إنه
هو الذي يحقق فيها؟

حملق رازوميخين فجأةً وسائل:

- طب وماذا؟

- لقد استجوب أولئك الذين لهم أشياء مرهونة، وأنا لي أشياء
مرهونة هناك . . . أشياء صغيرة على كل حال: خاتم أعطتنيه أختي
تذكاراً عند سفري إلى بطرسبرج، وساعة أبي الفضية. والرهنان كلاهما
لا يساويان أكثر من خمسة روبلات أو ستة، لكنهما تذكاران، وأنا
أحرص عليهما. فما الذي يجب عليَّ أن أفعله الآن؟ لا أريد لهذين
الشيئين أن يضيعا، ولا سيما الساعة. فمنذ قليل، حين تكلمنا عن ساعة
أختي، ارتجفت أنا خوفاً من أن تسألني أمي أن ترى ساعتي. إن هذه
الساعة هي الشيء الوحيد الذي بقي لها من أبي! فإذا ضاعت هذه
الساعة كان يمكن أن تمرض من ذلك أمي. هكذا هنَّ النساء! فإنما انتظر

منك نصيحة . قل ما علىي أن أفعل . أنا أعلم أنه سيكون من الواجب أن أدلي بإفادة في قسم الشرطة ، ولكن أليس الأفضل أن أتجه إلى بورفيرى نفسه؟ ما رأيك؟ إنني أود أن أسوّي هذا الأمر بأقصى سرعة . لسوف ترى أن أمي ستسأل عن هذه الساعة حتى قبل الغداء !

هتف رازوميخين يقول مضطرباً أشد الاضطراب :

- لا فائدة من الذهاب إلى الشرطة . الأفضل أن نتجه إلى بورفيرى . آه... أنا مسرور! نستطيع أن نمضي إليه فوراً . هو على مسافة خطوتين . وسنجده حتماً .

- إذن هلمَّ بنا إليه!

- وسيسرئه أن يتعرف إليك! لقد حدثته كثيراً عنك ، عدّة مرات . أمس أيضاً حدثته عنك . هلمَّ نذهب إليه . إذن كنت تعرف العجوز؟ هذا هو الأمر! هذا هو الأمر! إن كل شيء يترابط ترابطاً را... . ئعا! آ... نعم... يا صوفيا إيفانوفنا... .

- صوفيا سيميونوفنا (هكذا صحيح راسكولنيكوف)... . يا صوفيا سيميونوفنا ، هذا الرجل هو صديقي رازوميخين ، وهو رجل طيب... . قالت صونيا دون أن تنظر إلى رازوميخين مما جعل ارتباكها يزداد : - إذا كان عليكم أن تخرجوا الآن... .

قال راسكولنيكوف يحسم الأمر :

- نعم ، فلنخرج . سأجيء إليك في هذا النهار يا صوفيا سيميونوفنا ولكن قولي لي أين تقيمين؟

قال لها راسكولنيكوف ذلك دون ارتباك ، ولكنه كان يتكلم بسرعة محمومة ، متحاشياً أن ينظر إلى الفتاة . ذكرت له الفتاة عنوانها وأحرّ وجهها . وخرجوا جميعاً.

سأله رازوميخين وهو يهبط السلالم وراءهما :

- أنت لا تغلق بابك إذن بالمفتاح؟

فأجابه راسكولنيكوف بقوله:

- أبداً.

ثم أضاف يقول بإهمال:

- على أنني أنوي منذ ستين أنأشتري قفلًا.

ثم قال يخاطب صونيا وهو يضحك:

- ما أسعد الذين لا يملكون شيئاً يستحق أن يوصدوا عليه الأبواب
بالأقفال، أليس كذلك؟

حتى إذا صاروا في الخارج، توقفوا عند المدخل.

- أنت ذاهبةً يمنة يا صوفيا سيميونوفنا؟ .. بالمناسبة: كيف فعلت
حتى استطعت أن تعثري على بيتي؟

ألقى عليها هذا السؤال وكأنه كان يريد أن يقول شيئاً آخر. لقد ظل طوال الوقت يشتهر ببصره على عيني الفتاة الصافيتين الهدائين دون أن يفلح في ذلك .. .

أجابته صونيا:

- أنت نفسك ذكرت بالأمس لبولি�تشكا عنوانك.

- ذكرته لبوليا؟ آ... نعم... بولি�تشكا! هي الصغرى... هي
أختك! إذن أنا أعطيتها عنواني؟

- هل نسيت هذا؟

- لا... الآن تذكريت.

- ثم إنني سمعت أبي الراحل يتحدث عنك. لكنني لم أكن أعرف اسمك... وهو أيضاً لم يكن يعرف اسمك... فجئت الآن... ولما كنت قد عرفت اسمك أمس، سألت اليوم: «أين يسكن السيد راسكولنيكوف؟»... ولم أكن أعرف أنك تقيم في غرفة مفروشة... .

أَسْتُوْدِعُكَ اللَّهُ . . سَأُقُولُ لِكَاتِرِينَا إِيْفَانُوفَنَا . . .

كانت تشعر بسرور رهيب من أنها استطاعت أخيراً أن تودع لتنصرف. وسارت خافضة العينين، مسرعة، تستعجل الهروب من نظراتهما وأن تقطع العشرين خطوة التي تفصلها عن ناصية الشارع التالية على اليمين، وأن تبقى أخيراً وحدها فتستطيع أثناء سيرها البطيء، دون أن تنظر إلى أحد ودون أن ترى شيئاً، أن تفك وتدبر وتزدري ذهنها كل كلمة قيلت وكل أمر حدث. إنها لم تشعر طوال حياتها، بشيء يشبه ما تشعر به الآن. إن عالماً جديداً كاملاً يدخل إلى نفسها غامضاً مجهولاً. وتذكرت فجأة أن راسكولنيكوف يريد أن يجيء إليها في هذا النهار، وربما في الصباح، وربما على الفور.

دمدمت تقول منقبضة الصدر متضرعة كطفل خائف:

- لا، لا اليوم، أرجوك! رباه! أيجيء إليّ، في هذه الغرفة؟ . . إذن سوف يرى . . رباه!

ولم يكن في وسعها طبعاً أن تلاحظ أن سيداً مجهولاً كان يتبعها في تلك اللحظة. كان هذا السيد قد تبعها منذ مدخل العمارة، حين توقفت هي وراسكولنيكوف ورازوميixin على الرصيف يتبادلون بعض الكلمات. وكان هذا السيد المجهول قد بدا كأنه يرتعش حين التقط عرضاً، أثناء مروره بهم، تلك الكلمات التي قالتها صونيا: «سألت: «أين يسكن السيد راسكولنيكوف؟». فألقى على المتحادثين ثلاثة، ولا سيما على راسكولنيكوف الذي كانت الفتاة تتجه إليه بالكلام، نظرة سريعة لكنها متتبهة، ثم تفحص المنزل وحفظ رقمه. تم ذلك كله بمثل لمع البصر سرعة، ودون أن يتوقف ودون أن يلفت نظر أحد، ثم ابتعد الرجل متباطئ الخطى كمن ينتظر أحداً. كان يتظاهر صونيا. ورأى صونيا تودع الشابين، فأدرك أنها ذاهبة إلى مسكنها.

قال يسائل نفسه وهو يتذكر ملامح صونيا: «إلى مسكنها! ولكن أين

مسكناها؟ لقد رأيت هذا الوجه في مكان ما... يجب أن أستعلم!»

فلما وصل إلى ناصية الشارع انتقل إلى الرصيف المقابل، والتفت فرأى صونيا تسير الآن في نفس الاتجاه، ولكن دون أن تلاحظ شيئاً. فلما وصلت هي أيضاً إلى الناصية مضت في نفس الشارع الذي مضى هو فيه. فأخذ يتبعها دون أن يحول عنها بصره. حتى إذا قطع نحو خمسين خطوة رجع إلى الرصيف الذي كانت تسير عليه صونيا، ولحق بها، وأخذ يسير وراءها على مسافة خمس خطوات منها.

هو رجل في نحو الخمسين من عمره، يميل إلى الطول، بدین، عريض المنكبين عالي الكتفين، حسن الملبس أنيق الهندام، له مظهر سيد من السادة، يحمل عصا جميلة يقرع بها أرض الرصيف عند كل خطوة من خطواته، ويداه موشحتان بقفازين جديدين. إن وجهه العريض لا يخلو من وسامه، وإن لبشرته نضارة لا يُرى مثلها في سكان بطرسبرج. وإن شعره أشقر زاه، ما يزال كثيفاً، لم يكد يشيخ؛ وإن لحيته المزدهرة الكثيفة أزهى من شعر رأسه أيضاً. عيناه زرقاءان لهما بريق كبريق المعدن، ولهمان نظرة ثابتة ملحاح. وشفتاه حمراوان حمرة قوية. إنه، على وجه الإجمال، رجل ما يزال محافظاً على نضارته، يبدو أصغر كثيراً من سنه.

فلما وصلت صونيا إلى القناة، كان هو وهي وحدهما على الرصيف؛ فاستطاع الرجل أن يلاحظها فرأى ما كان يعبر عنه وجهها من شرود وتفكير. وحين وصلت أمام العمارة التي تسكن فيها، استدارت فدخلت الباب الكبير، فتبعها مدھوشًا بعض الدهشة. حتى إذا بلغت فناء المنزل اتجهت يمنة نحو الركن الذي يوجد فيه السلم المفضي إلى شقتها. فجمجم السيد المجهول يقول لنفسه: «عجب!»، وأخذ يصعد درجات السلم وراءها. وفي تلك اللحظة إنما انتبهت إليه صونيا. صعدت صونيا حتى وصلت إلى الطابق الثاني، فسارت إلى الرواق، ثم قرعت جرس باب الشقة 9، حيث يقرأ المرء على بابها هاتين الكلمتين

مكتوبتين بالطبashir: «كابرناوموف، خياط». فجمجم السيد المجهول يقول من جديد: «عجب!». لقد أدهشته المصادفة الغريبة. وقرع هو جرس باب الشقة المجاورة، الشقة 8. إن المسافة بين البابين لا تزيد على ست خطوات.

قال وهو ينظر إلى صونيا ضاحكاً:

- آ... أنت تسكنين عند كابرناوموف! لقد أصلح لي صديرتي أمس. أنا أسكن هنا، قريباً منك، عند السيدة ريسليخ، السيدة جرترودا كارلوفنا ريسليخ. يا لها من مصادفة!

نظرت إليه صونيا بانتباه.

وتابع هو كلامه يقول لها بلهجة فيها مرح خاص:

- نحن إذن جاران. أنا لا أقيم ببطرسبرج إلا منذ ثلاثة أيام، وسيسرني أن ألقاك مرة أخرى.

لم تجب صونيا. وفتح الباب، فانسلت إلى بيتها. كانت وجلى فكأنها تشعر بخجلٍ وعارٍ من شيء ما...

كان رازوميixin مضطرباً اضطراباً شديداً في الطريق إلى بورفيرى. وقد كرر يقول لراسكولنيكوف عدة مرات:

- هذه فكرة حسنة! أنا مسرور، مسرور جداً!

قال راسكولنيكوف لنفسه: «ولكن ممّ أنت مسرور؟»

وتابع رازوميixin:

- كنت أجهل أنك أنت أيضاً قد رهنت عند العجوز بعض الأشياء. هل حدث ذلك منذ مدة طويلة؟ أقصد: هل منذ مدة طويلة ذهبت إليها؟

فقال راسكولنيكوف لنفسه: «يا للساذج! يا للأحمق! هل منذ مدة طويلة كنت عندها؟»

وتوقف لحظة يفكر. ثم قال يجيب صاحبه:

- قبل موتها بثلاثة أيام، فيما يبدو لي .

ثم أسرع يضيف بلهجة يُظهر بها اهتمامه الشديد بأشياء المراهونة:

- على أنني لا أنوي استرداد أشيائي حالاً. فإنني لم يبق معي إلا روبل واحد... ومرد هذا إلى ذلك الهذيان اللعين الذي اعتراني أمس! وقد نطق كلمة «الهذيان» هذه نطقاً فيه دلالة وإصرار.

فسرعان ما قال رازوميخين مزاوداً دون أن يدرى لماذا:

- نعم، نعم... ذلك هو السبب إذن في أنه... في ذلك اليوم... آه... لشد ما فاجأني ذلك... إنك، أثناء هذيانك، كنت لا تقطع عن الكلام عن خواتم، وعن سلاسل، وعمّا لا أدرى أيضاً... آ... نعم... اتضح الآن كل شيء... اتضحت الأمور... أصبح كل شيء واضحاً!

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «هكذا إذن! لقد قامت الفكرة في أذهانهم ونمّت... إن هذا الرجل مستعد لأن يصلب في سبيلي، ومع ذلك يشعر بسعادة عظيمة لأن السبب الذي جعلني أتكلّم أثناء الهذيان عن خواتم، قد اتضح له الآن! لقد ترسخت الفكرة في أذهانهم جميعاً!»

ثم سأله صاحبه بصوّت عالٍ:

- هل تعتقد أننا سنجده في بيته؟

فأسرع رازوميخين يجيئه قائلاً:

- سنجده، سنجده! إنه شاب شهم يا صاحبي... سوف ترى. صحيح أنه أخرق قليلاً... وإن يكن ممن يرتادون المجتمع الرافي... على أنني أجده أخرق من ناحية أخرى، بمعنى آخر... إنه شاب ذكي، ذكي، ليس بالغبي البتة... ولكن لتفكيره مجرى غريباً بعض الغرابة. فهو كثير الشك والريب، قوي الاشتباه والحدّر، شديد الاستخفاف والاستهتار... يحلو له أن يضلّك... لا أقصد أن يضلّك، بل أن يغرّ

بك... الخلاصة: هو الأسلوب العتيق... أسلوب الواقع المادي! ولكنه يجيد مهنته... يتقنها!... في السنة الماضية حقق في قضية قتل كانت قد اختفت جميع آثارها تقربياً. وهو يرغب كثيراً في التعرف إليك، يرغب في ذلك كثيراً جداً.

- لماذا يرغب في ذلك كثيراً؟

- لا بسبب أن... وإنما لأنني، في الآونة الأخيرة، أثناء مرضك، اتفق لي أن حدثه عنك مراراً. فكان هو يصغي... فلما علم أنك تدرس القانون، وأنك لم تستطع أن تنهي دراستك بسبب الظروف، قال: «خسارة!»... فاستنتجت من ذلك... أقصد... من كافة هذه الأشياء مجتمعة... لا من ذلك وحده... وبالأمس، قال زاميتوف... اسمع يا روديا، أمس مساء، حين كنا عائدين إلى بيتك معاً، كنت أنا سكران جداً، فلعلني أسرفت في الشرارة، فأرجو يا روديا أن لا تغلو في حمل كلامي على محمل الجد...

- لماذا؟ هم يعتقدون أنني مجنون، أليس كذلك؟ ولكن قد يكونون على حق.

قال راسكولنيكوف ذلك وابتسم ابتسامة مصطنعة.

- نعم نعم... لا بل!... دعك من هذا الكلام! إن كل ما قلته (وسائل ما عداه أيضاً) ليس إلا سخفاً... ليس إلا ثمرة السكر!

صرخ راسكولنيكوف بغضب شديد نصفه تصنع وتظاهر:

- ولكن علام تعذر؟ أوه!... ما أكثر ما تضجرني وتزعجني هذه الأمور كلها.

قال رازوميixin:

- أعرف، أعرف، أنا أفهم. ثق أنني أفهم. بل إن الكلام عن هذا كله عار!

- إذا كان الكلام عن هذا كله عاراً، فلنكتف إذن عنه!

صمت الاثنان. كان رازوميخين متھمساً وقد لاحظ راسكولنيکوف ذلك مشمئزاً. وكان من جهة أخرى قلقاً مما قاله له رازوميخين عن بورفيري منذ هنیهة.

قال يحدث نفسه وقد شحب لونه وخفق قلبه: «لهذا الرجل أيضاً سيكون على أن أشكوا الفقر، وأن أظهر بمظهر من يستحق الشفقة والرثاء... وأن أفعل ذلك بطريقة تبدو طبيعية. ولكن الطريقة الطبيعية هي أن لا أقول شيئاً، أن لا أقول شيئاً البتة! ولكن لا... أن لا أقول شيئاً البتة هذا أيضاً لن يبدو طبيعياً!.. على كل حال سوف نرى كيف ستجري الأمور، وسوف نرى هل كان من الخير أن أذهب إلى هناك أم لم يكن ذلك من الخير!.. الفراشة تطير إلى لهب الشمعة من تلقاء نفسها. قلبي يخفق. هذا نذير سوء!»

قال رازوميخين:

- هنا، في هذه العمارة الرمادية.

وقال راسكولنيکوف يحدث نفسه: «النقطة الأساسية هي هذه: هل بورفيري على علم بالزيارة التي قمت بها أمس لمسكن العجوز، وهل هو على علم بسؤالي عن الدم؟ يجب على أن أعرف هذا منذ دخل، من النظرة الأولى، يجب أن أقرأه في وجهه لحظة دخولي، وإلا فإن... لأعرفنَّ هذا ولو هلكت!»

وقال يخاطب رازوميخين فجأة، وهو يتسم بابتسامة ماكرة:

- هل تعرف ماذا لاحظت عليك؟ لقد لاحظت عليك من هذا الصباح، يا صاحبي، أنك مضطرب اضطراباً غير مألوف كثيراً. أنا مخطيء؟

أجاب رازوميخين مستاءً:

- أنا مضطرب؟ لا لست مضطرباً البتة.

- دعك من هذا الكلام يا صاحبي! الأمر واضح! منذ قليل، كنت

جالساً على الكرسي كما لا تجلس عادةً. كنت جالساً على حافة الكرسي تماماً، وكنت كمن أصيّب برعدة. وكنت تتحرّك من هذا الطرف إلى الطرف الآخر، لا أدرى لماذا. فتارةً تغضب، وتارةً يظهر على وجهك تعبير مريع لسبب ما! بل لقد كان وجهك يحمر أحمراراً شديداً. وقد أحمر وجهك خاصةً حين دُعيت إلى الغداء. نعم، اصطبغت بالحمرة حتى جذور شعرك.

- غير صحيح. أنت تكذب. ماذا تقصد إلى ماذا تغمز؟

- أريد أن أغمز إلى أنك خجول كتلميذ! ها... ها أنت ذا تحرّم من جديد!

- يا للختير!

- ولكن علام هذا الاضطراب كله؟ مسكين روميو! اسمع: لن يفوتني أن أتكلّم عنك اليوم في مكان ما. ها ها ها! سوف أضحك أمي كثيراً... وسوف أضحك شخصاً آخر أيضاً.

قال رازوميixin وقد طاش عقله وتجمد رعباً:

- اسمع، اسمع، هذا أمر خطير، هذا... يا للعواقب!... ما عساك قائلًا لهما؟ أنا... يا صاحبي... آه... يا لك من خنزير!...

- وردة، وردة من ورود الربيع حقاً! ليتك تعلم كم يناسبك هذا! روميو طوله متراً تقريباً! ثم إنك قد غسلت وجهك اليوم، ونظفت أظافرك، هه؟ ذلك ما لم يحدث يوماً. ها... وهما أنت ذا قد تدهنت وتطيّبت! هياً أخفض رأسك لأرى!

- يا لك من خنزير!

كان راسكولنيكوف يقول هذا الكلام وهو يضحك ضحكاً يبلغ من الشدة أنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه. وعلى هذه الحال من الضحك الشديد إنما دخل الشابان شقة بروفيرى بتروفتش. وذلك بعينه هو ما أراده راسكولنيكوف. من آخر البيت كان يمكن أن يُسمع

دخلهما ضاحكين . وقد استمرا يضحكان هنا في الردهة .
همس رازوميixin يقول لراسكولنيكوف غاضباً وهو يقبض على
كتفه :

- إياك أن تقول كلمة واحدة في هذا الموضوع هنا ، وإلا هشمت
بوزك !

كان

الفصل الخامس

راسكولنيكوف قد دخل الشقة. دخل دخول من يبذل كل ما يملك من قوة حتى لا ينفجر ضاحكاً. ودخل وراءه رازوميixin، الخجل الطويل القامة، محمراً الوجه، أخرق الحركات، متقبض القسمات من الغضب. كان وجهه في تلك اللحظة، بل كان شخصه كله مضحكاً حقاً، يبرر ما كان فيه راسكولنيكوف من قهقهة صاحبة. وقد انحنى راسكولنيكوف يحيي رب البيت حتى قبل أن يقدم إليه. وكان رب البيت واقفاً في وسط الغرفة يلقي على القادمين نظرة سائلة. ثم مدَّ راسكولنيكوف إليه يده فصافحه، وهو يبذل جهداً ظاهراً في سبيل أن يكبح جماح مرحه، وأن ينطق بالكلمات القليلة التي يوجها التعارف. ولكنه ما إن أفلح في اتخاذ هيئة الجد، وفي أن يدمدم ببعض كلمات حتى عاد ينظر إلى رازوميixin كأنما رغم إرادته، فلم يستطع في هذه المرة أن يصمد، فإذا بضمكه يتندق قوياً لا سبيل إلى مغالبته، لا سيما بعد أن كظمه مدة طويلة. فإذا بالغيظ الخارق الذي يستقبل به رازوميixin هذا الضحك «الصرير» يضفي على المشهد كله مظهر مرح طبيعي، بل ومرح صادق. وقد فاقم رازوميixin مظهر المرح مزيداً من المفاقمة كأنما عن عمد: ذلك أنه زأر يقول لراسكولنيكوف وهو يُجري يده بحركة تنم عن الغضب قائلاً:

- آ... يا للشيطان الرجيم !

فإذا بالحركة التي أجرأها تصدم منضدة صغيرة مستديرة عليها فنجان شاي فارغ، فيطير كل شيء في الهواء، ويسقط على الأرض مقرقاً.
هتف بروفيري بتروفتتش يقول مرحباً :

- لماذا تحطمون الأثاث يا سادة؟ لماذا تلحقون أذى بالدولة؟

إليكم وصف المشهد الذي كان يُرى في تلك اللحظة : راسكولنيكوف يضحك مليء حنجرته تاركاً يده في يد رب البيت ، ولكن دون أن يفقد حس الاعتدال ، متظراً اللحظة المناسبة التي سوف يستطيع فيها أن يسحب يده بسرعة وعلى نحو طبيعي . ورازوميixin قد هوى به سقوط المنضدة وتهشم الفنجان إلى درك الخجل والاضطراب ، فألقى على الحطام نظرة سوداء ، وبصق على الأرض ، وابتعد نحو النافذة ، فلبث أمامها مديراً ظهره ، عابس الوجه مقطب الأسaris ينظر إلى الخارج دون أن يرى شيئاً . وبورفيرى بتروفتتش يضحك ويرغب في الضحك ، لكنه ينتظر شروداً بطبعية الحال . وفي ركن من الأركان ، يجلس زاميوتوف على كرسي . كان زاميوتوف ، حين دخل الزائران ، قد نهض يتظر وانفرج فمه عن ابتسامة ، لكنه يبدو مدهوشًا مرتابة ، ولا سيما إزاء راسكولنيكوف ، فهو ينظر إليه الآن متفرساً بانتباه . إن وجود زاميوتوف قد فاجأ راسكولنيكوف وأزعجه ، فقال يحدث نفسه : « هذا عنصر يجب أخذه في الحسبان » وبدأ يتكلم فقال يعرف بنفسه مصطنعاً الخجل :

- معذرةً ، أرجوك . اسمى راسكولنيكوف . . .

قال بورفيرى بتروفتتش يجيئه :

- لا داعي إلى الاعتذار البتة ؛ إنه لجميل جداً أنك دخلت على هذا النحو .

وأردف يقول مشيراً إلى رازوميixin :

- هيه ! ما باله لا يريد حتى أن يحيي ؟

قال راسكولنيكوف :

- حقاً لست أدرى ما سبب حنقه على إلى هذا الحد. كل ما فعلته هو أنني قلت له أثناء الطريق إنه أشبه بروميو... وبرهنت له على صدق قوله. لا شيء غير هذا. أو ذلك هو ما يخيل إلى على الأقل!

دمدم رازوميخين يقول شاتما دون أن يلتفت :

- خنزير!

قال بورفيرى ضاحكاً :

- لا بد أن هناك أسباباً خطيرة كل الخطورة تجعله يغضب هذا الغضب كله لكلمة بسيطة صغيرة!

قال رازوميخين مقاطعاً :

- هيه! اسكت أنت يا قاضي التحقيق! ثم فلتذهبوا جميعاً إلى الشيطان!

قال ذلك وقد أخذ يضحك هو أيضاً على حين فجأة واقترب من بورفيرى بتروفت مشرق الوجه منبسط الأسارير كان شيئاً لم يحدث. وتتابع كلامه يقول :

- كفى! نحن جميعاً حمقى في الواقع. اسمع: هذا صديقي روبيون رومانوفتش راسكولنيكوف. إنه أولاً، من كثرة ما سمع عنك، أراد أن يتعرف إليك؛ وهو ثانياً يحب أن يحدثك في قضية صغيرة. هه! زاميوتوف؟ شيء عجيب! ماذا تفعل هنا؟ أنتما متعارفان إذاً؟ منذ متى؟

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه في قلق: «ما معنى هذا أيضاً؟» ظهر الاضطراب على زاميوتوف، ولكن اضطرابه لم يكن شديداً. وقال يجيب بلهجـة طلقة:

- لقد تعارفنا أمس في بيتك!

- إذن لقد أعفوني العناية الإلهية من جهد كان ينبغي أن أبذله . تصور يا بورفيرى أنه يلُّح ، منذ أسبوع ، إلحاحاً شديداً على أن أعرفك به . فها أنتما قد استغنيتما عني ، فتعارفتما دون وساطة مني . . . أين تبغك؟

كان بورفيرى بتروفتش يرتدي ملابس البيت : ثوب المنزل ، وقميصاً نظيفاً ، وبابوجين قديمين بنعلين باليين . هو رجل في نحو الخامسة والثلاثين من عمره ؛ مربوع القامة ؛ بدین الجسم ؛ له كرش ، حليق الوجه تماماً فلا شارب ولا لحية ؛ مقصوص الشعر على رأس ضخم مدوار بارز القفا ؛ متورم الوجه ، أفطس الأنف قليلاً ، أصفر اللون كأنه مريض ، ولكن وجهه لا يخلو من تعبير عن الحيوية ، ولا عن السخرية . حتى لقد كان يمكن أن يعبر وجهه عن شيء من الطيبة لو لا عيناه اللتان تنظر إليهما فترى فيها أخضلاً وبريقاً كبريق الماء ، وتکاد تحجبهما أهداب يضرب لونها إلى بياض ، وكأنهما من غمزهما المستمر ترسلان إشارات لا تقطع . إن نظرة هاتين العينين تنافي سائر هيئته بعض المنافة (وهي هيئه فيها شيء من أنوثة) وتجعل هذه الهيئة تبدو أميل إلى الجد والجهادة مما قد يتوقعه المرء عند أول نظرة يلقاها عليه .

ما أن علم بورفيرى بتروفتش أن زائره يرغب في أن يحدثه في «قضية صغيرة» ، حتى رجاه أن يجلس على الديوان ، ثم جلس على الطرف الآخر ، محدقاً إليه ومنتظراً عرض القضية بلا إبطاء ، مُظهراً أشد الاهتمام . إن مثل هذا الانتباه الصادر عن رجل لا تعرفه ، يبدو لك غير طبيعي ، بل ويسعرك بشيء من الحرج والارتباك ، ولا سيما إذا كان ما ستقوله لا يستحق في رأيك هذا الانتباه ؛ ومع ذلك شرح راسكولنيكوف قضيته ببعض الكلمات ، في دقة ووضوح ، فبلغ من رضاه عن نفسه أنه أتيح له أن ينعم النظر في بورفيرى بتروفتش أثناء ذلك . وكان بورفيرى بتروفتش ، من جهته ، لا يحول بصره عن راسكولنيكوف دقيقة واحدة . وكان رازوميixin قد استقر أمامهما إلى المنضدة ، فهو يتبع عرض القضية بشغف عارم وصبر نافذ ، متوجهاً بنظراته إلى هذا تارة ، وإلى هذا

تارة أخرى، وكان في هذا شيء من غلو طبعاً.

دمدم راسكولنيكوف يقول بينه وبين نفسه: «يا للأبله!»
أجاب بورفيري بلهجة رسمية جداً:

- يجب عليك أن تبعث إلى الشرطة ببلاغاً تقول فيه إنك وقد علمت
بالنها، نبأ مقتل العجوز، وتريد إبلاغ قاضي التحقيق المكلف بالقضية أن
هذه الأشياء هي أشياؤك وأنك تريد استردادها. أو أن... على كل
حال، سيفدون إليك...

قال راسكولنيكوف وهو يحاول أن يصطفع الخجل ما وسعه ذلك:
- ولكنني... ولكنني... في الوقت الحاضر... لا أملك
مالاً... فحتى هذه الأشياء التافهة التي لا قيمة لها لا أستطيع أن...
كل ما أريده الآن هو أن أصرّح بأن هذه الأشياء لي، وبأنني متى أصبح
معي مال سوف...

أجاب بورفيري بترورفتش مستقبلاً هذه الإيضاحات المالية ببرودة:
- ليس لهذا من قيمة. تستطيع على كل حال أن تكتب إلى رئيس إذا
أردت فتقول: لما كنت قد علمت كيت وكيت ولما كانت الأشياء كذا
وكذا هي أشيائي، فإني أرجوكم أن... إلخ.

فأسرع راسكولنيكوف يسأل، مظهراً بذلك اهتمامه بالناحية المالية
من جديد:

- أكتب هذه العريضة على ورق عادي؟

- نعم نعم، على ورق عادي...

أجابه بورفيري بترورفتش بهذا، ثم نظر إليه على حين فجأة نظرة فيها
سخرية صريحة، زاماً عينيه كأنه يقول له إن أسلوبه هذا لا يخفى على
ذكائه. على أن من الجائز أن لا يكون ذلك إلا إحساساً خالج
راسكولنيكوف، لأن الغمرة لم تدم إلا لحظة قصيرة كومض البرق. ومع

ذلك لا بد أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث . ومهما يكن من أمر ، فإن راسكولنيكوف مستعد لأن يحلف أغلفظ الإيمان على أن بورفيرى قد غمز له . . . فإذا بكلمتين تو مضان في ذهنه بسرعة شديدة ، فيقول لنفسه : « إنه يعلم ! »

وتتابع كلامه يقول وقد ارتبك قليلاً :

- اغفر لي أزعاجك بهذه الترهات . . . صحيح أن هذين الشيئين اللذين كانا مرهونين عند العجوز لا تساوي قيمتهما أكثر من خمسة روبلات ، ولكنني أحرص عليهما حرصاً شديداً ، لأنهما تذكار من واهبيهما ؛ أعترف لك بأنني دُعِرت أشد الذعر حين علمت أن . . .

قال رازوميخين متعمداً وهو يبكي نية واضحة :

- ذلك هو السبب في إنك أنتفضت أمس حين كنت أثرثر أنا مع زوسيموف فقلت له أن بورفيرى يستجوب الأشخاص الذين كانوا قد رهنا أشياء عند العجوز .

طبع الكيل عندئذ . فهذا هو راسكولنيكوف يخرج عن طوره فيلقى على رازوميخين نظرة سوداء تشتعل غضباً . ولكن لم يلبث أن سيطر على نفسه فوراً . ثم قال له بحق أحسن اصطناعه في حذق وبراعة :

- يا عزيزي ، يخيل إلىك تسخر من عقلي . أنا أواافقك على أنني أسرف قليلاً في الاهتمام بأشياء هي في نظرك تافهة لا قيمة لها . ولكن هذا ليس سبباً يدعو إلى اعتباري أناياً أو بخيلاً ، لأن هذه الأشياء التافهة في نظرك قد لا تكون تافهة في نظري أنا . لقد قلت لك منذ قليل إن تلك الساعة الفضية التي لا قيمة لها هي الشيء الوحيد الذي بقي لي من أبي . فاسخر مني ما شئت أن تسخر ، ولكن أمري قد وصلت (وهنا التفت راسكولنيكوف نحو بورفيرى فجأة) ، فإذا علمت (استأنف راسكولنيكوف كلامه وهو يعود إلى رازوميخين مسرعاً ويحاول أن يجعل صوته متهدجاً مرتجفاً) فإذا علمت أن هذه الساعة قد فقدت ،

فيمينا أنها ستهوي إلى حضيض الكرب واليأس . هكذا خلقت النساء !

هتف رازوميخين يقول بمرارة :

- ولكنني لم أقصد هذا قط ! أنا لم أقل ما قلته بهذا المعنى ! هذا نقىض ما أردت أن . . .

تساءل راسكولنيكوف مهوماً مغموماً : « هل نجح هذا الأسلوب ؟

هل كان كلامي طبيعياً ؟ ألم أبالغ ؟ لماذا قلت : « هكذا خلقت النساء » ؟ »

قال بورفيرى بترؤفتش يسأل لسبب من الأسباب :

- آ . . . وصلت أمك ؟

- نعم .

- متى ؟

- مساء أمس .

وصمت بورفيرى كأنه يفكر . ثم أردد يقول بهدوء ، ببرود :

- أشياؤك لا يمكن أن تفقد بحال من الأحوال . ثم إنني كنت أنتظرك منذ مدة طويلة .

قال بورفيرى ذلك ، ثم التفت نحو رازوميخين وكأنما لم يحدث شيء ، ووضع أمامه منفحة سجائر ، لأن رازوميخين كان يهز سيجارته بغير شفقة فيسقط رمادها على السجادة . ارتعش راسكولنيكوف ، ولكن بورفيرى الذي كان مشغولاً بسيجارة رازوميخين ، كان يبدو عليه أنه لا يلاحظه .

صرخ رازوميخين سائلاً :

- كيف ؟ كنت تنتظره ؟ أكنت تعرف إذن أن له رهوناً هناك هو أيضاً ؟

فاتجه بورفيرى بترؤفتش إلى راسكولنيكوف رأساً وقال له :

- كان رهناً ، الخاتم والساعة ، موجودين عندها ، ملفوفين بورقة واحدة ، وقد كتب اسمك على الورقة واضحاً بقلم الرصاص ، كما

سُجّل على الورقة تاريخ الرهن أيضاً...
قال راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكاً آخر، ويحاول خاصةً أن
ينظر إلى عيني بورفيري:
- ما أقوى ذاكرتك!

ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن أن يضيف قائلاً على حين فجأة:
- لشن أبيدىت هذه الملاحظة، فلأن هناك أشخاصاً كثيرين جداً قد
رهنوا أشياء كما أعتقد... فلا بد أن يصعب عليك أن تتذكر أسماءهم
جميعاً... ولكنك تتذكرهم تذكرة واضحاً، و... و....

ثم قال لنفسه: «ما أغباني! ضعيف جداً! لماذا أضفت هذا الكلام؟»
أجا به بورفيري بشيء من سخر طفيف لا يكاد يلاحظ:
- ولكن جميع أولئك الأشخاص أصبحت أعرفهم، وأنت الشخص
الوحيد الذي لم يطالب بأشياءه حتى الآن.
- ذلك أنني كنت مريضاً.

- هذا أيضاً سمعته عنك. بل لقد سمعت كذلك أنك كنت قلقاً للغاية
مضطرباً جداً من شيء ما. ثم إنك ما زلت تبدو شاحباً.
- لست شاحباً بالمرة. بالعكس: صحتي الآن حسنة جداً.

كذلك رد راسكولنيكوف بفظاظة وشراسة، وقد تغيرت لهجته فجأة.
لقد غلى الغضب في نفسه، فأصبح لا يستطيع كبحه. وقال يحدث نفسه
من جديد: «هذا الغضب هو الذي سيفضحي! ولكن لماذا يعذبونني
هذا التعذيب!»

عاد رازوميخين يتكلم فقال:

- صحتك جيدة جداً! اسمعوا هذا الكلام! كان حتى أمس لا يكاد
يعي، وكان يهذي! هل تصدق يا بورفيري أنه كان لا يكاد يستطيع
الوقوف على ساقيه، فما أن أدرنا ظهرنا، أنا وزوسيموف، حتى ارتدى

ثيابه وتسدل خلسةً ليمضي يتسلق لا أدرى أين، إلى منتصف الليل، أو إلى منتصف الليل تقربياً، وهو في حالة هذيان كامل؟ هل تستطيع أن تخيل شيئاً كهذا يا بورفيرى؟ أمر غريب!

قال بورفيرى وهو يهز رأسه بحركة من الحركات التي تجريها النساء:

- حقاً؟ في حالة هذيان كامل؟ غريب! ..

وأفلت لسان راسكولنيكوف يقول غاضباً أشد الغضب:

- هذا سخف! لا تصدقه!

ولكن بورفيرى بتروفتش بدا كأنه لم يسمع هذه الأقوال العجيبة!

قال رازوميixin وقد تحمس مزيداً من الحماسة على حين فجأة:

- ولكن هل كان يمكن أن تخرج لولا أنك كنت في حالة هذيان؟ ولماذا خرجم؟ ماذا كان هدفك من الخروج؟ ولماذا خرجم خفية؟ إنك لم تكن تملك عقلك! أستطيع أن أقول لك هذا الآن وقد زال كل خطير!

قال راسكولنيكوف متوجهًا بالكلام إلى بورفيرى وهو يبتسم ابتسامة فيها وقاحة وتحدي:

- لقد أرهقوني أمس إرهاقاً فظيعاً، فهربت لأستأجر شقة أخرى لا يستطيعون أن يعثروا علىَ فيها؛ وحين خرجم حملت كل ما أملكه من مال. وقد رأى السيد زاميوتوف ذلك المال. يا سيد زاميوتوف، أكنت بالأمس سليم العقل أم لا؟ عليك أنت أن تحسن النقاش.

لو استطاع في تلك اللحظة أن يختنق زاميوتوف لما تردد في ذلك. كانت نظرة زاميوتوف وكان صمته يغيبانه أعظم الغيظ.

قال زاميوتوف يجيئه بجفاف:

- فيرأىي أنك كنت تتكلم كلام إنسان عاقل جداً، بل وكلام رجل حاذق جداً... كل ما هنا لك أنك كنت سريع الاهتمام والغضب.

وقال بورفيرى بتروفتش :

- واليوم ذكر لي نيكوديم فومتش أنه لقيك أمس ، في ساعة متأخرة ،
بمنزل موظف داسته عربة .

فقال رازوميخين يستأنف كلامه مخاطباً راسكولنيكوف :

- نعم ، لنظر فيما قلته في بيتك ذلك الموظف مثلاً : ألم تتصرف
تصرف رجل مجنون هناك ؟ لقد أعطيت أرملته كل ما كان معك من مال
لدفع نفقات الجنازة . أبداً كان في وسعك ، إذا أنت حرست حرضاً
مطلقاً على مساعدتها ، أن تعطيها خمسة عشر روبلأ أو حتى عشرين
روبلأ ، أو أن تحفظ لنفسك بثلاثة روبلات في أقل تقدير ؟ ولكنك لم
تفعل هذا ، بل جدت عليها بكل ما تملك : خمسة وعشرين روبلأ !

- ولكن لعلني عثرت في مكان ما على كنز . ما يدريك ؟ ولهذا كنت
كريماً ذلك الكرم كله بالأمس . إن السيد زاميوتوف يعلم أنني وجدت
كنزاً ! اغفر لنا (قال ذلك لبورفيرى بتروفتش مختلجة الشفتين) اغفر لنا
إذ عاجلك بمثل هذه السفاسف طوال نصف ساعة ! نحن نضجرك ، أليس
كذلك ؟

- بالعكس ، بالعكس ! ليتك تعلم كم يهمني أمرك ويشوّقني حديثك !
أنها لمعنة عظيمة أن يراك المرء وأن يصغي إليك ... أعترف لك أنني
شدید السرور بأنك تفضلت فجئت إليَّ ...

هتف رازوميخين يقول لبورفيرى :

- هيه ! هلاً قدمت إلينا شيئاً من الشاي على الأقل ! لقد جف حلقى
 تماماً !

- هذه فكرة رائعة ، ولعل سائر الصحب بواافقونك عليها ! ولكن
أليست تحب أن تصيب قبل الشاي شيئاً أحلى ؟

- لا ...

وخرج بورفيرى بتروفتشر ليأمر بالشاي .
كانت الخواطر تعصف في رأس راسكولنيكوف كالإعصار . وكان
مهماجاً أشد الالهتياج .

قال يحدث نفسه : «أنكى ما في الأمر أنهم لا يخفون ولا يكتمون ،
أنهم لا يتحرجون ! كيف حدث ، وأنت لا تعرفني بعد ، أن تتحدث عني
مع نيكوديم فومتش ؟ معنى ذلك أنهم لا يحاولون حتى أن يخفوا أو
يكتموا ، وأنهم يطاردونني جميعاً كما يطارد الفريسة سرب من كلاب
الصيد ! أنهم يبصرون في وجهي صراحة ! (كذلك قال لنفسه وهو
يرتجف من شدة الغضب) . ما بالكم لا تكونون صريحين ! لماذا تلعبون
معي لعبة القط والفارة ؟ حقاً أن هذا لمن قلة الأدب يا بورفيرى
بتروفتشر ! ولعلني لن أسمح به بعد الآن ! .. لسوف أنهض واقفاً ،
فأرميكم بالحقيقة كلها صفعاً على وجوهكم . ولسوف يرون عندئذ مدى
الاحتقار الذي أحمله لهم ! » دارت هذه الخواطر في رأس راسكولنيكوف
وهو يجد في التنفس مشقة كبيرة . تابع يحدث نفسه : « ولكن ألا يمكن
أن يكون هذا كله إحساساً باطلأ ، وهما من أوهام الخيال ، سراباً لا
أكثر ؟ ألا يمكن أن أكون مخطئاً في الحكم على الأمر كله من أوله إلى
آخره ، وأن لا يكون غضبي ناشئاً إلا عن نقص الخبرة وقلة التجربة وعن
عجزي عن تمثيل دوري الساقط ؟ لعلهم يقولون كل ما يقولونه بدون
فكرة مبيبة أو نية سيئة ! .. لا ، إن كل ما يقولونه عادي ، ولكن المرء
يحس وراء كل كلمة من كلماتهم . .. صحيح أن من الممكن أن يتكلم
جميع الناس بهذه الطريقة وهذا الأسلوب ، ولكن لا بد أن هؤلاء
يضمرون أشياء يلمعون إليها إلماعاً . لماذا قال كلمة «عندها» بـالحاج
خاص ؟ ولماذا قال زاميوتوف أنني كنت أتكلم كلام رجل حاذق ؟ لماذا
يخاطبونني بهذه اللهجة ؟ نعم ، هي اللهجة . .. ورازوميخين موجود ،
فلماذا لا يشبهه في شيء ؟ لكن هذا الأبله الساذج لا يشبهه في شيء يوماً
من الأيام . ها هي ذي الحمى تعترفيني من جديداً ! هل غمزني بورفيرى

بعينه منذ لحظة ألم هو لم يغمض؟ سخافة؟ ترى لماذا وجه إلى تلك الغمزة؟ أتراهم لا يريدون إلا أن يثيروا أعصابي ويُخرجنني عن طوري؟ .. إما أن ذلك كله ليس إلا سراباً، وإما أنهم يعرفون... ولكن حتى زاميوتوف وقع! هل زاميوتوف وقع؟ لا بد أنه فكر طويلاً أثناء الليل. كنت أوجس أنه سيفكر! هو هنا كأنه في بيته رغم أنه جاء إلى هنا لأول مرة. بورفيرى لا يعده ضيفاً ويجلس مديرأً ظهره له! إنهم متواطئان على! لا شك في أنهم كانوا يتكلمان عني أنا قبل وصولنا. هل يعرفان أنني ذهبت أرى الشقة؟ ليتنى أعلم هذا بسرعة! حين قلت إننى هربت أمس مساء لأبحث عن شقة أستأجرها، فإن بورفيرى لم يفطن إلى أقوالى ولم يردد على إشارتى. نعم، لقد دسست مسألة الشقة هذه بصدق. سوف يفيدنى هذا في المستقبل! .. في حالة هذيان... ها ها ها! .. ولكنه يعرف كل ما فعلته مساء أمس. كان يجعل أن أمى وصلت! وقد سجلت العجوز تاريخ الرهن بقلم الرصاص! أنت تكذب، أنت مخطئون، لن أسلم نفسي! ما هذه بوقائع على كل حال. سراب لا أكثر! هاتوا وقائع! والشقة نفسها ليست واقعة، وإنما هي هذيان! ألا أننى أعرف ماذا سيجب على أن أقول لهم! أهم يعرفون ما حدث في الشقة؟ لن انصرف قبل أن أعرف هذا. لماذا جئت؟ هانا ذا أغضب الآن! هذه واقعة! أوه... ما أشد احتياجى وما أسرع غضبى! ولكن لعل هذا أفضل... فإننى بذلك أمثل دور المريض... إنه يختبرنى وسيحاول أن يشوش أفكارى. لماذا جئت؟..»

ذلك كله ومض في ذهن راسكولنيكوف سريعاً كالبرق.

وعاد بورفيرى بعد لحظة. أنه يبدو الآن مرحاً جداً.

قال يخاطب رازوميixin ضاحكاً، بلهجة مختلفة كل الاختلاف عن اللهجة التي كان يتكلم بها منذ قليل:

- هل تعرف يا صاحبى أننى بعد سهرة الأمس فى بيتك الجديد،

أخذ رأسي يدور، وأنني ما زلت على هذا الحال . . .

- كانت سهرة شائقه، أليس كذلك؟ لا تنس أنني تركتكم في أجمل لحظة. من الذي انتصر؟

- لم ينتصر أحد طبعاً. لقد أخذوا يتناقشون في مشكلات أبدية، وحبي وطيس المناقشة! . . .

- تصور يا روديا أنهم اندفعوا يتجادلون في هذا الموضوع: أهناك جرائم أم ليس هناك جرائم؟ يا للسخافات التي قالوها! . . شيء فظيع . . .

فأجاب راسكولنيكوف شارد الفكر وبلهجة عادية:

- لا غرابة! هذه مسألة اجتماعية عادلة جداً، مع ذلك!
وتدخل بورفيرى فقال:

- غير أن السؤال لم تكن هذه صيغته.

فأسرع رازوميخين يعترف قائلاً وقد اشتعلت حماسته على عادته:

- صحيح. لم تكن هذه صيغته تماماً. اسمع يا روديا، اسمع وقل لي رأيك. أنا حريص على معرفة رأيك. لقد اندفعت أمس معهم بانتظار وصولك. وكنت قد أعلنت لهم جميعاً أنك آتٍ. بدأت المناقشة بوجهة نظر الاشتراكيين. معروفة وجهة نظر الاشتراكيين. الجريمة احتاجت على وضع اجتماعي غير سليم. ليست الجريمة شيئاً غير هذا. ليس هناك أي باعث آخر على الجريمة.

صاحب بورفيرى بتروفتشر يقول:

- هاؤنت ذا تعود إلى الافتاء!

كان بورفيرى بتروفتشر ينتعش انتعاشاً واضحاً، ولا يكف عن الضحك وهو يلاحظ رازوميخين، فكان ذلك يزيد هياج رازوميخين.

وتتابع رازوميخين كلامه يقول محموماً:

- نعم، ليس هناك أي باعث آخر، في نظر الاشتراكيين. أنا لا أفترى . سوف أريك كتبهم . هم يرون أن كل شيء، أن كل شيء على الإطلاق، إنما مرده إلى «جو البيئة السيئة». لا أكثر من ذلك . نعم، هذا هو تعبيرهم المفضل . ويستنتاجون من هنا أن جميع الجرائم ستزول دفعًّا واحدة متى ظهر المجتمع تنظيمًا سليماناً . فمتى زالت أسباب الاحتجاج، أصبح جميع الناس فوراً «صالحين» من تلقاء أنفسهم . إن الاشتراكيين لا ينظرون إلى الطبيعة بعين الاعتبار، بل يسقطونها من الحساب . لا مكان للطبيعة! هم لا يرون أن الإنسانية هي التي ستصل من تلقاء ذاتها، بتطور تاريخي حي، إلى أن تصبح مجتمعاً سليماناً، وإنما يتصورون نظاماً اجتماعياً سوف يخرج من رأس عالم رياضي لا يدرى أحد ما هو، فإذا هو ينظم النوع الإنساني بأسره حالاً، وفي طرفة عين يجعله صالحاً مبرأً من كل خطيئة؛ وذلك طبعاً خارج أي منطق تاريخي، حيaticي، حي . هذا هو السبب في أنهم بغرائزهم يكرهون التاريخ: «ليس التاريخ إلا أهوالاً كريهة وحماقات حقيرة». هذا ما يقولونه . وهم يفسرون كل شيء بالحماقة . وذلك هو السبب في أنهم يكرهون تطور الحياة تطوراً حياً، وينادون خاصةً بأن: لا نفس حية! .. أن النفس الحية تتطلب الحياة، فالنفس الحية لا تخضع للميكانيكا، النفس الحية ريبة، النفس الحية رجعية! لذلك تراهم يصنعون نفساً من كاوتشوك ينبعث منها نتن الموت، ولكنها ليست حية على الأقل، يصنعون نفساً طبيعية ذليلة لا تتمرد! كل ذلك في سبيل أن يصلوا إلى حيث قادونا: إلى تلك المجموعة من الآجر، المقسمة ممرات وغرفاً، التي يسمونها تعاونية⁽⁶⁴⁾! أن تعاونيتهم هذه جاهزة، والطبيعة هي التي لم تصبح جاهزة بعد لهذه الفالانستيرا، لأنها تقتضي الحياة، لأنها لم تفرغ بعد من التطور الحيaticي، لأنها لم تتأهب بعد للمقبرة! ألا إن المنطق وحده لا يمكن أن يجعلنا نثبت فوق الطبيعة ونتخطاها . إن المنطق يتصور ثلاث حالات، مع أن الحالات ملائين! أفنحذف هذه الملائين كلها

باسم قضية الرخاء وحدها؟ لا شك أن حلَّ المشكلة بهذه الطريقة هو أسهـلـ الحلولـ! كلـ شيءـ واضحـ: لمـ تبقـ حاجةـ إلىـ التفكـيرـ! ذلكـ مـغـرـ جـذـابـ. فإنـماـ المـهمـ أنـ لاـ نـفـكـرـ. وفيـ الإـمـكـانـ بـعـدـ ذـلـكـ أنـ نـحـصـرـ سـرـ الحـيـاةـ كـلـهـ فـيـ وـرـقـتـينـ مـطـبـوـعـتـينـ!

قال بورفيرى ضاحكاً:

- هـاـ هوـ ذـاـ يـنـدـفـعـ وـيـشـرـثـ. يـجـبـ تـكـبـيلـهـ!

ثم أضاف يقول ملتفتاً نحو راسكولنيكوف:

- تصـوـرـ أـنـ هـذـاـ نـفـسـهـ هـوـ مـاـ حـدـثـ مـسـاءـ أـمـسـ...ـ وـذـلـكـ فـيـ غـرـفـةـ تـعلـوـ فـيـهاـ سـتـةـ أـصـوـاتـ...ـ وـكـانـ قـدـ سـقـانـاـ فـوقـ ذـلـكـ حـتـىـ سـكـرـنـاـ. هـلـ تـتصـورـ مـاـ حـدـثـ؟ـ لـاـ يـاـ صـاحـبـيـ،ـ أـنـتـ مـخـطـئـ...ـ إـنـ «ـلـلـبـيـةـ»ـ دـخـلـاـ كـبـيـراـ فـيـ الجـرـيمـةـ.ـ أـسـتـطـعـ أـنـ أـؤـكـدـ لـكـ ذـلـكـ.

- أـعـرـفـ أـنـ لـلـبـيـةـ دـخـلـاـ كـبـيـراـ فـيـ الجـرـيمـةـ.ـ وـلـكـ قـلـ لـيـ:ـ هـبـ رـجـلـاـ فـيـ الـأـرـبـيعـينـ قـدـ اـغـتـصـبـ بـنـتـاـ فـيـ الـعـاـشـرـةـ،ـ فـهـلـ الـبـيـةـ هـيـ التـيـ دـفـعـتـهـ إـلـىـ اـرـتكـابـ هـذـهـ الجـرـيمـةـ؟ـ

قال بورفيرى برصانة تشير الدهشة:

- بـالـمعـنىـ الدـقـيقـ لـلـكـلـمـةـ،ـ يـجـوزـ أـنـ نـقـولـ إـنـ الـبـيـةـ هـيـ التـيـ دـفـعـتـهـ إـلـىـ ذـلـكـ.ـ نـعـمـ،ـ إـنـ اـغـتـصـابـ بـنـتـ صـغـيرـةـ يـمـكـنـ جـداـ أـنـ يـعـلـلـ بـالـتـأـثـيرـ الـذـيـ تـحدـثـهـ الـبـيـةـ.

قاد رازوميخين أن يستعر غضبه استعاراً رهيباً. وزأر يقول:

- هـذـاـ هـرـاءـ.ـ وـبـمـثـلـ هـذـاـ الـهـرـاءـ أـسـتـطـعـ أـنـ أـبـرـهـنـ لـكـ عـلـىـ أـنـ السـبـبـ فـيـ أـهـدـابـكـ بـيـضـاءـ هـوـ أـنـ بـرجـ الـأـجـرـاسـ فـيـ كـنـيـسـةـ الـقـدـيسـ يـوـحـنـاـ بـمـوسـكـوـ يـبـلـغـ عـلـوـهـ 35ـ سـاجـينـ⁽⁶⁵⁾ـ،ـ وـأـنـ أـبـرـهـنـ لـكـ عـلـىـ ذـلـكـ بـوـضـوحـ،ـ وـبـدـقـةـ،ـ وـأـنـ أـبـرـهـنـ عـلـيـهـ بـرـهـانـاـ فـيـ تـقـدـمـيـةـ،ـ بـلـ وـفـيـ لـيـبرـالـيـةـ.ـ أـتـرـيدـ أـنـ أـبـرـهـنـ لـكـ عـلـىـ ذـلـكـ؟ـ هـلـ تـرـاهـنـ عـلـىـ أـنـيـ قـادـرـ أـنـ أـفـعـلـ؟ـ

- إفعل ! سوف نرى كيف تستطيع أن تفعل !
هتف رازوميixin يقول وهو ينهض بوثبة واحدة ، ويحرّك يده بإشارة
تم على الأسف والممضى :

- ما أشدَّ ولعه بالتمثيل والعبث ! لا حاجة إلى الكلام معك ، لا داعي
إلى هذا العناء ! ذلك أنه يفعل هذا عاماً ، أنت لا تعرفه بعد يا روديا !
ولقد تحيَّز أمس لهم ، ليسخر منهم ويعبث بهم ! الله يعلم ماذا قال لهم
أمس ! وما كان أشد سرورهم برؤيته منحازاً إلى صفهم ! إنه قادر على أن
يظل يمثل خمسة عشر يوماً بغير انقطاع . في السنة الماضية ، روى لنا ،
لسبب من الأسباب ، أنه سيصبح راهباً ، وظل يخدعنا بهذه القصة
شهرين كاملين . ومنذ مدة قصيرة ، أوهمنا بأنه سيتزوج ، وقال إنه هيا
للاحتفال كل شيء . حتى لقد أوصى ببدلة جديدة ، وصدقناه نحن
وأخذنا نهنته . فماذا كان ؟ لم يكن هناك خطيبة ، لم يكن هناك شيء
البطة : سراب لا أكثر !

- أنت تكذب ! لقد أوصيت بالبدلة الجديدة أولاً ، والبدلة الجديدة
هي التي أوحت إلىي بفكرة تضليلكم جمِيعاً !
سأله راسكولنيكوف بإهمال :

- أنت تحب التغريب بالناس كل هذا الحب حقاً ؟

- أكنت تظن غير ذلك ؟ انتظر إذن ، فسوف أغرس بك أيضاً . ها ها
ها ! ولكن اسمع ، سأقول لك الحقيقة كلها : إن جميع هذه المسائل التي
دار عليها الحديث ، كمسألة الجريمة ، ومسألة البنات الصغيرات ،
ومسألة «البيئة» ، قد ذكرتني بمقالة لك منشورة ، مقالة شاقتني دائماً على
كل حال ، وعنوانها : «في الجريمة» . . . أو شيء من هذا القبيل . . . لا
أذكر الآن . لقد أتيح لي منذ شهرين أن أستمتع بقراءة تلك المقالة في
مجلة «القول الدورية» .

هتف راسكولنيكوف يقول مدھوشًا :

- مقالتي؟ في «القول الدورية»؟ صحيح أنتي، منذ ستة أشهر، بعد تركي الجامعة، كتبت مقالةً عن كتاب كان قد صدر منذ مدة قصيرة، ولكنني بعثت بالمقالة إلى جريدة «القول الأسبوعية»، لا إلى «القول الدورية».

- لكنها نشرت في مجلة «القول الدورية».

- جريدة «القول الأسبوعية» توقفت عن الصدور ولذلك لم تنشر مقالتي . . .

- نعم. ولكنها حين توقفت عن الصدور قد انضمت في «القول الدورية»؛ وذلك هو السبب في أن مقالتك قد نشرت في «القول الدورية» منذ شهرين. أكنت تجهل ذلك؟
كان راسكولنيكوف يجهل ذلك فعلاً.

قال له بورفيرى بتروفتش :

- غريب! إنك تستطيع أن تطالب المجلة بأجرك عن المقال. ما أعجب طبعك! أنت تعيش إذن في عزلة كاملة فتجهل حتى الأمور التي تتصل بك من قرب. هذا واقع.

هتف رازوميixin يقول :

- مرحي روديا! أنا أيضاً كنت أجهل هذا! سأركض في هذا اليوم نفسه إلى قاعة مطالعة، فأطلب المقالة. هل ظهرت منذ شهرين؟ ولكن في أي يوم على وجه الدقة؟ لا بأس، سأجدها على كل حال. هذه حكاية حقاً. أتنشر مقالة ولا تذكر عن ذلك شيئاً؟

- ولكن كيف عرفت أن المقالة لي؟ أنا لم أوقعها إلا بالحروف الأولى.

- عرفت ذلك عرضاً وعرفته في الآونة الأخيرة فقط، بفضل رئيس التحرير الذي أعرفه. وقد كانت المقالة مشوقة كثيراً، وأثارت اهتمامي.

- أذكر أنني حللت في تلك المقالة الحالة النفسية التي يكون عليها القاتل طوال مدة الجريمة.

- نعم، كنت تقول إن تنفيذ الجريمة يُصاحب دائماً بحالة نفسية مرضية. وجهة نظر أصيلة، أصيلة جداً... ولكن هذا الجزء من مقالتك ليس هو الجزء الذي أثار اهتمامي أكثر من غيره، وإنما أثارت اهتمامي فكرة دستتها في نهاية المقالة، ولم تتوقف عندها طويلاً، وإنما أشرت إليها إشارة سريعة لسوء الحظ. وقد أردت أن تقول، إذا كنت تذكر ذلك، أن على الأرض أناساً يستطيعون... لا يستطيعون فحسب... بل لهم كذلك حق مطلق في أن يرتكبوا جميع أنواع الأفعال الشائنة والجرائم، وأنه لا قيمة لأي قانون بالنسبة إلى هؤلاء الناس.

ابتسم راسكولنيكوف بسخرية إزاء هذا الكلام الذي يُؤوّل فكرته تأويلاً مراوغًا جداً.

سأل رازوميخين بنوع من الذعر:

- ماذا؟ ما هو الموضوع؟ الحق في ارتكاب الجريمة؟ ولكن لا بسبب «البيئة» على كل حال، هه؟
فأجابه بورفيرى:

- لا، لا، إنك لم تفهم المقصود. المسألة في تلك المقالة هي أن الناس فشتان: فئة العاديين، وفئة الخارجين. فأما «العاديون» فيجب أن يعيشوا طائعين خاضعين، وليس لهم حق في مخالففة القانون، وذلك لأنهم عاديون. وأما «الخارجون»، فيحق لهم أن يرتكبوا جميع الجرائم وأن يخالفوا جميع القوانين، وذلك لأنهم «خارجون». أكان هذا رأيك أم ترانى مخطئاً؟

دمدم رازوميخين يقول مدهوشًا:

- ولكن كيف؟ ليس من الممكن... أن يكون الأمر كذلك...

وابتسم راسكولنيكوف ابتسامة ساخرة من جديد. لقد أدرك فوراً ما الذي يريد أن يبلغه بورفيرى، ما الذي يريد أن يستدرجه إليه أو أن يستخرجه منه. وكان يتذكر مقالته. وقرر أن يرد على التحدي بمثله.

بدأ يتكلّم فقال بلهجة بسيطة متواضعة:

- ليس هذا ما أردت أن أقوله على وجه الدقة. على أنني أعترف بأنك عرضت فكري عرضاً أميناً، بل وأميناً كل الأمانة إذا شئت (كان يسره أن يوافق على أن فكرته قد عُرضت عرضاً أميناً كل الأمانة). والفرق الوحيد هو أنني لم أقطع بأن جميع الخارجين يجب عليهم أن يرتكبوا دائماً جميع أنواع الجرائم كما تقول. ولو قد فعلت ذلك لمنعت الرقابة نشر المقالة فيما يخيل إلي. كل ما أوحيت به هو أن الإنسان الخارق يملك الحق... لا الحق الرسمي بل الحق الشخصي في أن يأذن لضميره بتخطي بعض الحواجز... وذلك في حالة واحدة هي الحالة التي يتطلب فيها تنفيذ فكرته هذا التخطي (وهي فكرة قد يتوقف عليها سلام النوع الإنساني). أنت تدعى أن مقالتي غير واضحة، فإنما مستعد لأن أشرحها لك في حدود الإمكانيات. ولعلني لا أخطئ إذ أفترض أن هذه هي رغبتك. فليكن لك ما تشاء!... فيرأيي أنه لو كانت إكتشافات كبلر أو نيوتن، بسبب تضافر ظروف معينة، ما كان لها أن تتحقق إلا إذا ضُحِي في سبيلها بحياة فرد أو عشرة أفراد أو مائة فرد بل بحياة عدد من الأفراد أكبر يعيقون تحقيقها أو يقفون حائلآ دونها، فإنه يكون من حق نيوتن بل ومن واجبه... أن يزدح أولئك الأفراد العشرة أو المائة في سبيل أن ينفع الإنسانية بإكتشافه. ولكن ليس يترب على هذا قط أن من حق نيوتن أن يقتل أي إنسان يحلو له أن يقتله، ولا أن يسرق كل يوم من أحد الأسواق. وإذا ذكر أنني أوضحت في مقالتي أن جميع المؤسسين والمُشرعين في تاريخ الإنسانية، من أقدمهم إلى أحدثهم، مروراً بأمثال لي سورجوس وسولون ومحمد ونابليون وغيرهم، يمكن أن يوصفوا جميعاً بأنهم مجرمون، لأنهم حين أقاموا قانوناً إنما

خالفوا بذلك قانوناً قدماً كان يُعدُّ مقدساً وكان موروثاً عن الأسلاف؛ وما كان لهم طبعاً أن يمتنعوا عن سفك الدم (مهما يكن بريئاً في بعض الأحيان، ومهما يكن قد بذل بذلاً بطولياً في سبيل القانون القديم) حين يسهل سفك هذا الدم مهمتهم، بل ويحسن أن نلاحظ أن أكثر هؤلاء الرواد الذين أحسنوا إلى الإنسانية وأصلحوا المجتمع أنما كانوا أناساً شاذين دمويين . وأوجز فأقول إنهم جميعاً، لا أعظمهم فحسب بل الذين يعلون أقل علوٍ فوق الحد الوسط أيضاً، أي الذين هم قادرون ولو قدرة يسيرة على التعبير عن أفكارهم الجديدة، أنما كانوا مضطربين بحكم طبيعتهم نفسها إلى أن يكونوا قتلةً، قليلاً أو كثيراً طبعاً، ولو لا ذلك لما استطاعوا أن يخرجوا عن الحد الوسط ، وهم بحكم طبيعتهم أيضاً ما كان لهم أن يقبلوا البقاء عند هذا الحد الوسط؛ بل وفي رأيي أنه كان من واجبهم أن لا يقبلوا البقاء عند هذا الحد الوسط . الخلاصة: ها أنت ذا ترى أنه ليس فيما قلته حتى الآن شيءٌ جديدٌ كل الجدة . أما عن تقسيمي الرجال إلى فتئين، فئة العاديين وفئة الخارجين، فإني أواقف على أن في هذا التقسيم شيئاً من التحكم، ولكنني لم أقدم أرقاماً أيضاً . وأنا أنما أؤمن بفكري الرئيسية، وهي أن الرجال ينقسمون، بحكم قوانين الطبيعة، إلى فتئين، بوجه عام: فئة دنيا هي فئة العاديين الذين لا وجود لهم إلا من حيث إنهم موادٌ إن صح التعبير، وليس لهم من وظيفة إلا أن يتناسلوا، وفئة عليا هي فئة الخارجين الذين أوتوا موهبة أن يقولوا في بيئتهم قولًا جديداً . ولا شك أن هناك تقسيمات فرعية لا حصر لعددها، ولكن السمات المميزة التي تفصل هاتين الفتئين قاطعة . فاما الفتئة الأولى، وهي فئة المواد، فإن أفرادها، على وجه العموم، أناس، «خلقوا محافظين»، أناس معتدلون يعيشون في الطاعة ويحلو لهم أن يعيشوا في الطاعة . وعندى أن عليهم أن يطيعوا، لأن الطاعة هي ما كتب لهم، وليس في طاعتهم ما يسيء إليهم أو يذل كرامتهم . وأما الفتئة الثانية فهي تتألف من رجال يتميزون بأنهم جميعاً يكسرن القانون،

بأنهم جميعاً مدمرُون، أو بأنهم جميعاً ميالون إلى أن يصبحوا كذلك بحكم ملوكاتهم. وجرائم هؤلاء الرجال تتفاوت خطورتها وتنوع أشكالها طبعاً. وأكثرهم يريدون، بأساليب متنوعة جداً، تدمير الحاضر في سبيل شيء أفضل. فإذا وجب على أحدهم، من أجل تحقيق فكرته، أن يخطو فوق جثة، أو فوق بركة دم، فإنه يستطيع (في رأيي) أن يعزّم أمره على أن يخطو فوق الجثة وفوق بركة الدم مرتاحاً الضمير، وكل شيء رهن بمضمون فكرته، وبما لها من أهمية طبعاً. لاحظوا ذلك.

بهذا المعنى وحده أنما تحدثت في مقالتي عن حق ارتكاب الجريمة (إنك تذكر أن نقطة البداية التي انطلقنا منها إنما كانت مسألة حقوقية).

على أنه لا داعي إلى القلق كثيراً. فإن الجمهور لا يكاد يعترض لهؤلاء الرجال أبداً بهذا الحق. بالعكس: إن الجمهور يضطهدُهم ويشنقُهم (كثيراً أو قليلاً)، وهو في هذا يمارس حقه، ويقوم بوظيفته كجمهور محافظ، رغم أن الأجيال اللاحقة من هذا الجمهور نفسه ستخلد ذكر أولئك المضطهدِين المعدّين فتقديسهم (كثيراً أو قليلاً). فالفتاة الأولى من الرجال هي سيدة الحاضر، والفتاة الثانية هي سيدة المستقبل.

الأولون يحفظون العالم ويزيدونه كماً، والآخرون يحركونه ويقودونه إلى غاية. ولهم ولهم ولهم حق واحد في الحياة. أي أن لهم كلهم حقوقاً متساوية، و«عاشت الحرب الأبدية» (بالفرنسية)، إلى أن تقوم أورشليم الجديدة طبعاً!

- أنت تؤمن إذن بأورشليم الجديدة؟

أجاب راسكولنيكوف بصوت ثابت:

- أؤمن!

قال ذلك خافضاً رأسه مثبتاً بصره على نقطة من السجادة، كما كان طوال مدة حديثه المستفيض.

- وهل تؤمن بالله أيضاً! اغفر لي فضولي!

فأجاب راسكولنيكوف وهو يرفع بصره إلى بورفيرى:

- أؤمن به.

- وهل تؤمن ببعث لعازار؟

- أو... أومن به. ولكن لماذا تسألنى عن هذا كله؟

- هل تؤمن بذلك نصاً وحرفاً؟

- نصاً وحرفاً!

- صحيح؟ اغفر لي فضولي. لقد سألك عن هذا كله من باب حب الإطلاع. ولكن إسمح لي. سوف أعود الآن إلى ما كنت تقوله. أنا أرى الجمهور لا يضطهد them ويعذّبهم جميعاً. بالعكس: بعضهم... .

- بعضهم ينتصرون أثناء حياتهم؟... . نعم بعضهم يتحققون غایاتهم أثناء حياتهم، وعندئذ فإنهم هم الذين... .

- هم الذين يرسلون الآخرين إلى التعذيب والاضطهاد... .

- نعم، إذا لزم الأمر... . وأكثرهم يفعلون ذلك حقاً. ملاحظتك هذه... . لطيفة جداً.

- أشكرك. ولكن قل لي: كيف نميز هؤلاء الخارجين عن أولئك العاديين؟ هل هم يحملون علامات خاصة منذ ولادتهم؟ أقصد أنه لا بد من دقة أكبر، أي لا بد من علامة مميزة واضحة. اغفر لي هذا الاهتمام، وهو اهتمام طبيعي لدى رجل عملي يريد الخير. إلا يمكننا مثلاً أن نلبسهم رداء خاصاً، أن نخلع عليهم زياً موحداً، أن نميزهم بعلامة فارقة؟ إذ لا بد أن تسلم معي بأنه إذا حدث إختلاط، فتخيلَ رجل من رجال الفتنة الأولى أنه ينتمي إلى الفتنة الثانية، فأخذ «يزبح جميع العوائق»، على حد تعبيرك الموفق، فإن... .

- صحيح... . هذا يحدث كثيراً. ملاحظتك هذه أطف من سابقتها أيضاً.

- أشكرك.

- لا داعي إلى الشكر. ولكن لاحظ أن هذا الخطأ لا يمكن أن يقع إلا لأفراد الفتة الأولى، أي فئة العاديين (الذين لعلني لم أوفق كثيراً حين أطلقت عليهم هذا الإسم): إن كثيراً من هؤلاء العاديين، رغم ميلهم الفطري إلى الطاعة، يمكن أن نلاحظ فيهم نزوةً من تلك النزوات التي نلاحظها في الطبيعة، ونلاحظها حتى لدى الأبقار، فإذا هم يحبون أن يحسبوا أنفسهم رجالاً من الطبيعة، رجالاً «مدمرین». وإذا هم يقحمون أنفسهم في الدعوة إلى «القول الجديد»، صادقين مخلصين من جهة أخرى. وكثيراً ما يحدث لهم في الوقت نفسه أن لا يلاحظوا ولا يعترفوا بأولئك الذين هم مجذدون حقاً، حتى لقد يعدونهم أناساً منحطين، رجعيين، جديرين بالاحتقار. ولكنني أعتقد أن هذا ليس فيه خطر كبير، مما ينبغي لك أن تقلق، وذلك لسبب بسيط هو أن هؤلاء لا يقطعون شوطاً بعيداً في يوم من الأيام، وفي وسعت طبعاً، من أجل أن تعاقبهم على حماستهم الطائشة، وأن تردهم إلى مواقعهم، في وسعت أن تجلدهم أحياناً. ولكن هذا كل شيء؛ بل إنه لا حاجة إلى أن يتولى أحد هذه المهمة، فإنهم يجلدون أنفسهم بأنفسهم، لأنهم أناس أخلاقيون جداً، فبعضهم يجلدون أنفسهم بأيديهم، وبعضهم يطلبون إلى أقرانهم البشر أن يؤدوا لهم هذه الخدمة. ثم إنهم يفرضون على أنفسهم أنواعاً من الكفارات على رؤوس الأشهاد فيكون هذا درساً مفيداً وعبرة جميلة.

الخلاصة: ليس عليك أن تقلق. ذلك هو القانون!

- حسناً! لقد طمأنتني من هذه الناحية قليلاً على كل حال. ولكتنى أرى خطراً آخر. قل لي من فضلك: هل هم كثيرون أولئك الأفراد الذين يحق لهم أن يذبحوا غيرهم، هل هم كثيرون أولئك «الخارقون»؟ إني مستعد طبعاً لأن أنحني احتراماً لهم، ولكن لا بد أن توافقني على أن المرء لا بد أن يشعر برعدة تسرى في ظهره إذا هم كانوا كثيرين؟

ليس كذلك؟

تابع راسكولنيكوف كلامه قائلاً بتلك اللهجة نفسها:

- لا تقلق من هذا أيضاً. فعلى وجه العموم، لا تولد إلا قلة قليلة جداً من هؤلاء الأفراد الذين يملكون فكره جديدة حقاً، أو يقدرون ولو قليلاً على أن يعبروا عن شيء ما جديد. هنالك شيء واحد محقق، هو أن نسبة الأفراد الذين يولدون في هذه الفتاة أو تلك لا بد أن يحدّدها قانون طبيعي ما تحديداً دقيقاً. وهذا القانون ما يزال حتى الآن مجهاً، ولكنني أعتقد أنه موجود، وأنه يمكن إكتشافه في المستقبل. ولشن وُجدت كتلة من الأفراد تبلغ هذا المبلغ من الصخامة، فما ذلك إلا لمحاولة خلق إنسان مستقل بعض الاستقلال، ولو بنسبة واحد إلى ألف، وذلك بتطور ما يزال سرياً مجهاً، وبواسطة أنواع شتى من إختلاط عروق وأنواع، إلخ. أما الأفراد الذين يملكون استقلالاً أكبر فإن نسبتهم أصغر من ذلك: هم واحد بين عشرة آلاف (أتكلم على وجه التقريب). وأما الأفراد الذين يملكون درجة علياً من الاستقلال فإن يوجد منهم إلا واحد بين مليون. وأما كبار العباقرة، الذين هم قمة النوع الإنساني، فلا بد أن ننتظر أن تمر على الأرض ألف ملايين الأفراد حتى يظهر منهم واحد. أنا لم أقم طبعاً بجولة في البوقة التي يتم فيها هذا كله، ولكن القانون موجود، ولا بد أن يكون هناك قانون من هذا النوع. فلا مصادفة هنا!

صاحب رازوميixin يقول أخيراً:

- قولوا لي: أنتما تمزحان؟ أنتما بسييل أن يخدع كل منكم الآخر؟ إن كلاً منها جالس أمام صاحبه يستهزئ به ويضحك عليه! أنت تتكلم جاداً يا روديا؟

رفع راسكولنيكوف وجهه الشاحب نحو رازوميixin صامتاً، حزيناً، ولم يعجب بشيء. فلما رأى رازوميixin هذا الوجه الهادئ المتأنم،

استغرب تلك اللهجة اللاذعة الفظة الوقحة الملحة التي استعملها بورفيرى . قال رازوميixin :

- طيب يا صاحبى ، إذا كنت تتكلم جاداً . . . فمن حرك طبعاً أن تقول إن هذا كله ليس فيه جديد ، فهو يشبه ما قرأناه وسمعناه ألف مرة . ولكن الشيء الجديد حقاً في الأمر ، الشيء الذي تنفرد به - وهذا ما أشعر منه بهول ورعب - هو أنك تجد أن من الطبيعي أن يسفع إنسان دماً وهو واع كل الوعي ، وأنك تدافع عن هذا الرأي بمثل هذا التعصب كله . . . سأمحنني . معنى ذلك أن هذه هي الفكرة الأساسية التي تتضمنها مقالتك . وأنا أرى أن هذا السماح الأخلاقي بسفح الدم ، أفظع حتى من السماح بسفح الدم رسمياً أو شرعاً . . .

قال بورفيرى :

- صحيح تماماً . هو أفظع منه .

وقال رازوميixin يخاطب راسكولنيكوف :

- لا ، لا ، لقد سمحت لنفسك بالاندفاع في مزالق الخطأ . هناك خطأ . سوف أقرأ المقالة . حقاً لقد أسرفت في الغلو . لا يمكن أن يكون هذا تفكيرك . سوف أقرأ المقالة . . .

قال راسكولنيكوف :

- ليس في المقالة شيء من هذا كله . المقالة لا تتضمن إلا إشارة .

قال بورفيرى وقد أصبح لا يستطيع أن يستقر في مكانه :

- نعم ، نعم ، الآن أصبحت أدرك رأيك في الجريمة بشيء من الوضوح . أغفر لي إلحاچي (أنا أعرف أنني أضايقك مما يشعرني بالحرج) . لقد طمأنته منذ قليل في موضوع الإختلاط الذي يمكن أن يحدث بين الفتتى من باب الخطأ . ولكن . . . هناك حالات تظل تقلقني من وجهة النظر العملية . لنفرض أن رجلاً أو شاباً يعذ نفسه مثل ليكورجوس أو مثل محمد - في المستقبل طبعاً . إنه سوف يشرع فوراً

في «إزاحة» جميع العوائق. سوف يقول: إن على عاتقي أن أقوم بحملة بعيدة؛ ومن أجل القيام بحملة لا بد لي مال. ولذلك سوف يبدأ بالحصول على المال للقيام بحملته. واضح؟

هنا انفجر زاميتوف ضاحكاً في ركته ضاحكاً قوياً على حين فجأة. ولكن راسكولنيكوف ظل ساكناً، حتى إنه لم يرفع نحوه عينيه. وأجاب يقول بلهجة هادئة:

- أعترف بأن حالات كهذه لا بد أن تقع فعلاً. إن الحمقى والمغرورين يقعون في هذا الفخ، ولا سيما إذا كانوا شباباً.

- أرأيت؟ فماذا إذن؟

أجاب راسكولنيكوف مبتسمًا ابتسامة ساخرة:

- هذا لا يغير من الأمر. أنا لا دخل لي! هكذا أنما جرت الأمور دائمًا. قال هو منذ قليل (هنا أو ما راسكولنيكوف إلى رازوميixin) أنني أبيح سفح الدم. ما قيمة ذلك؟ إن المجتمع تحميء المنافي والسجون وقضاء التحقيق والمعتقلات. فعلام القلق؟ طاردوا السارق!

- وإذا قبضنا عليه؟

- هذا ما يستحقه ويجب أن يتبيح لكم أن تقبضوا عليه.

- أنت منطقي. ولكن ماذا عن ضميره الأخلاقي؟

- فيم يعنيكم ضميره الأخلاقي؟

- مسألة إنسانية.

- من كان له ضمير أخلاقي فليس له إلا أن يتعدب إذا هو اعترف لنفسه بخطيئته. سيكون هذا عقاباً له، بالإضافة إلى السجن.

سؤال رازوميixin وهو يقطب حاجبيه:

- والأشخاص الذين يملكون العبرية حقاً، الأشخاص الذين أعطوا حق القتل، هل يجب عليهم أن لا يتآلموا البتة ولو سفحوا دماً؟

- لماذا تستعمل تعبير يجب عليهم؟ ليس ه هنا لا إذن ولا منع. إلا فليتألم من تأخذه بضحية شفقة! لا بد أن يتالم من كان واسع الوجودان عميق الشعور.

ثم أضاف راسكولنيكوف يقول فجأة وقد شرد فكره واختلفت لهجته عما كانت عليه أثناء الحديث:

- يخيل إلى أن الرجال العظام حقاً لا بد أن يشعروا على هذه الأرض بحزن عظيم.

ورفع راسكولنيكوف عينيه ونظر إلى الجميع مفكراً، وابتسم، وتناول قبعته. كان هادئاً هدوءاً كبيراً بالقياس إلى الحالة التي كان عليها حين دخل؛ وكان يحس هو بذلك.

نهض الجميع.

واستأنف بورفيرى بتروفتشر كلامه فقال:

- لك أن تشتمني ولك أن تغضب أن شئت؛ ولكنني لا أستطيع أن أغالب رغبتي في أن ألقى عليك سؤالاً آخر صغيراً. أنا أعلم أنني أرهقتك إرهاقاً شديداً، ولكنني أحب أن أعبر لك عن فكرة صغيرة راودتني وأخشى أن أنساها...

- هات فكرتك الصغيرة.

كذلك قال له راسكولنيكوف جاداً، شاحب الوجه، وهو واقف أمامه يتضرر.

- إليك فكري... ولكنني لا أعرف حقاً كيف أعبر عنها تعبيراً مناسباً... أن فكري الصغيرة قد تكون تافهة قليلاً... هي فكرة سيكولوجية... اسمع: إنه لمن المستحيل عليك أثناء كتابتك تلك المقالة أن لا تكون... هي هي... أن لا تكون قد عدلت نفسك... إنساناً خارقاً بعض الشيء... إنساناً يحمل القول الجديد، بالمعنى الذي قصدته، أليس هذا صحيحاً؟

قال راسكولنيكوف باحتقار:

- جائز جداً.

وتحرك رازوميixin .

وعاد بورفيرى بتروفتsh يتكلم فقال:

- فإذا كان الأمر كذلك، أفلأ يمكن أن تكون قد قررت أنت نفسك، في أعقاب إخفاق شخصي ما، أو للخلاص من الفقر، أو أيضاً لتعجيل سير الإنسانية إلى أمام، لا يمكن أن تكون قد قررت أنت نفسك أن تخطى الحاجز... ف... فتقتل مثلاً أو تسرق؟ ..

قال بورفيرى بتروفتsh هذا وغمز بعينه اليسرى وأخذ يضحك ضحكاً صامتاً، كما فعل منذ قليل.

فأجابه راسكولنيكوف بلهجة متكبرة متحدية:

- إذا كنت قد تخطيت الحاجز فلن أقول لك إنني تخطيته.

- أسألك لأن أمراً واحداً يهمني، هو أن أحسن تأويل مقالتك، وأن أحسن ذلك من الناحية الأدبية وحدها... .

قال راسكولنيكوف لنفسه باشمئزاز: «هوه! يا لنيته الواضحة الوقحة!»

وقال يجيب مخاطبه ببرود:

- اسمح لي أن ألفت نظرك إلى أنني لا أعد نفسي لا مثل محمد ولا مثل نابوليون... ولا مثل أي شخص من هذا النوع!... وإذا أنني لست واحداً من هؤلاء الأشخاص، فإنني لا أستطيع أن أقدم إليك جواباً مرضياً، فأقول لك ما الذي يمكن أن أفعله.

قال بورفيرى بتروفتsh فجأة بـالفـة مـخيـفة:

- دعك من هذا الكلام! أي واحد منا، في روسيا، لا يعد نفسه اليوم مثل نابوليون؟

وكان في نبرة صوته نفسها ما يدل على نية واضحة جداً.

ورشق زاميتوف من ركنه هذا السؤال:

- ألا يمكن أن يكون واحد ممن يعدون أنفسهم مثل نابوليون في المستقبل هو الذي قتل آليونا إيفانوفنا في الأسبوع الماضي؟

صمت راسكولنيكوف وحذق إلى بورفيرى بنظرة ثابتة قاسية. واكتفى وجه رازوميختين. كان رازوميختين قد بدأ يشتبه منذ برهة. ونظر حواليه غاضباً. وانقضت دقيقة في صمت قاتم. وتحرك راسكولنيكوف يريد أن ينصرف.

قال بورفيرى بلهجة رقيقة عذبة:

- أنتصرف؟

ومد إليه يده بكثير من التحبب والتودد. وتتابع يقول له:

- سعيد جداً، سعيد جداً بمعرفتك. أما عن مطالباتك برهنيك، فكن مطمئناً: يكفي أن تكتب عريضة بالمعنى الذي أشرت به عليك. نعم، بل ربما كان الأفضل من ذلك أيضاً أن تأتي إلى، في يوم قريب... في الغد مثلاً... سأكون بمكتبي حتماً في نحو الساعة... الحادية عشرة. سترتب الأمر كله، وسنثرثر قليلاً... بما أنه واحد من أواخر من ذهبوا إلى هناك، فإنك قد تستطيع أن تقول لنا شيئاً ما (هذا ما أضاف قوله وهو يصطنع كل الطيبة وكل البساطة).

سأله راسكولنيكوف بلهجة خشنة:

- أتريد أن تستجوبني رسمياً، وفقاً للأصول؟

- فيم أستجوبك على هذا النحو؟ لا يدفعني إلى هذا أية ضرورة حتى الآن. طبعاً... أنا لا أدع لأية فرصة أن تفلت مني... وقد تحدثت إلى جميع الذين أودعوا رهونا لدى العجوز. حتى لقد استطعت أن أحصل على بعض الدلائل. ولما كنت أنت آخر هؤلاء... ولكن

بالمناسبة (هتف يقول ذلك فجأة في غمرة من الفرح) بالمناسبة... الآن تذكرت... كيف نسيت هذا؟ (هنا التفت يخاطب رازوميخين)... نعم يا رازوميخين، إن الفتى نيكولاشكا ذاك الذي صدّعْت به رأسي... قد ثبت لي اليوم... على وجه اليقين (وهنا عاد يلتفت إلى راسكولنيكوف) أنه برىء... ولكن ما حيلتي؟ لقد كان لا بد لي أيضاً من إزعاج ميتكا... والآن إليك ما كنت أريد أن أسألك عنه: حين صعدت السلم، كانت الساعة بين السابعة والثامنة، أليس كذلك؟

أجاب راسكولنيكوف:

- نعم، كانت الساعة قد تجاوزت السابعة.

وسرعان ما أدرك راسكولنيكوف ممتعضاً أنه كان في وسعه أن لا يذكر هذا.

- ألم تَرَ، وأنت تصعد السلم، بعد الساعة السابعة، في شقة كان بابها مفتوحاً هل تذكر؟ - ألم تَرَ عملاً كانوا يعملون في تلك الشقة، أو عملاً منهم على الأقل؟ هم دهانون كانوا يدهنون الشقة، ألم تلاحظهم؟ هذا أمر هام جداً، هام جداً جداً بالنسبة إليهم.

أجاب راسكولنيكوف يقول ببطء، كأنه ينبش ذاكرته، وهو يحاول بجهد مرهق أن يكتشف الفخ الذي ينصبه له مخاطبه ليتحاشى الوقع فيه:

- دهانون؟ لا، لم أر دهانين. لا، لم أرهم. ثم، لا أذكر أنني رأيت شقة كان بابها مفتوحاً. ولكنني في مقابل ذلك (لقد اكتشف الآن الفخ وهو فرح بذلك) أذكر أن موظفاً كان ينتقل في الطابق الثالث من الشقة التي تقع أمام شقة آليونا إيفانوفنا. إنني أذكر هذا، بل أذكره واضحاً كل الوضوح... كان هناك جنود يحملون أريكة، فاضطررت أن ألتقط بالحائط. ولكنني لم أر دهانين، لا، لا أذكر أنني رأيت دهانين. ويخيل إلى أنه لم يكن أي باب من الأبواب مفتوحاً. لا، لم يكن هناك باب مفتوح...

صاحب رازوميفين يقول فجأة كأنه ثاب إلى رشده أخيراً وفهم في هذه اللحظة نفسها، صاح يقول مخاطباً بورفيري:

- ولكن ما هذا الذي تقوله؟ أنت تعلم أن الدهانين كانوا يعملون يوم مقتل العجوز، أما هو فقد ذهب إلى العجوز قبل ذلك بيومين. فما هذا السؤال الذي تلقيه عليه؟

فهتف بورفيري قائلاً وهو يلطم جبينه:

- آ... نعم... إختلط على كل شيء. تبالي. اللعنة! إن هذه القضية قد أفقدتني صوابي.

والتفت يقول لراسكولنيكوف كأنما ليعتذر:

- إنني من فرط اهتمامي بأن أعرف هل رأى أحد أولئك الدهانين بعد الساعة السابعة في الشقة، قد تخيلت أنك تستطيع أن تجيب عن هذا السؤال... نعم، لقد اختلط على كل شيء...

قال رازوميفين غاضباً:

- يجب عليك أن تتبه!

وقد قيلت هذه الكلمات الأخيرة حين وصلوا إلى حجرة المدخل. لقد شيعهما بورفيري بتروفتش إلى الباب بتودد كبير ولطف بالغ. فلما صارا في الشارع كان كل منهما مظلوم النفس متوجه الوجه. وسارا بضع خطوات لا ينطقان بكلمة واحدة. وتنفس راسكولنيكوف تنفساً عميقاً...

الفصل السادس

رازوميخين يردد قائلاً في حيرة واضطراب وهو يحاول أن يدحض حجج راسكولنيكوف بكل ما أوتي من قوة:

- أنا لا أصدق هذا! لا أستطيع أن أصدقه! كانا قد اقتربا من عمارة باكالايف، حيث تنتظرهما بولخيريا الكسندروفنا ودونيا منذ مدة طويلة. وفي غمرة المناقشة الحامية، كان الفتى يتوقف في كل لحظة مضطرباً قلقاً، على الأقل لأن هذه هي المرة الأولى التي يتحدثان فيها صراحة عن ذلك الأمر.

أجاب راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة باردة جافة:

- لا تصدق! أنت على عادتك لم تلاحظ شيئاً، أما أنا فقد كنت أزن كل الكلمة.

- أنت شكارك رئاب، لذلك كنت تزن كل الكلمة. هم... أواافقك على أن لهجة بورفيرى كانت غريبة بعض الغرابة... وأن ذلك الوعد زاميتوف خاصه... أنت على حق... لقد كان فيه شيء ما، ولكن لماذا؟ لماذا؟

- جاءت له فكرة أثناء الليل!

- ولكن لا، بالعكس، بالعكس! لو كانت تدور في ذهنيهما فكرة كهذه الفكرة الغبية، لحاولا، على العكس، أن يخفياها بجميع

الوسائل، لحاولاً أن يكتمها ليفاجئك بها فيما بعد، أما ما فعلاه فقد كان... كان وقاحةً لا حذر فيها...

- لو كانا يملكان وقائع، أقصد وقائع حقيقة، أو شبكات تقوم على أي أساس من وقائع، لحاولاً أن يخفيما ما يدور في ذهنيناً أملاً في أن يكتشفاً مزيداً من الواقع (ولقاماً من جهة أخرى بتفتيش مسكنى منذ مدة طويلة). ولكنهما لا يملكان وقائع، لا يملكان أية واقعة. ليس هذا كله إلا سراباً!.. هذا كله لا رأس له ولا ذنب!.. هذا كله لا يقوم على شيء ولا يستند إلى شيء، لذلك يعمدان إلى الوقاحة. لعله هو نفسه غاضب من أنه لا يملك أية واقعة. لعل هذا هو السبب في حنقه وغضبه. وربما كان كذلك يبيت نية خفية خبيثة. هذا رجل ذكي، كما يبدو لي أنا على الأقل... لعله أراد تخويفي بإظهار أنه يعرف أشياء... يا صاحبي، الأمر هنا أمر سيكولوجياً شخصية. على كل حال... فإن جميع هذه التفسيرات والتؤولات تشير اشمئزازي. هلا تركنا هذا الحديث كله!

- ثم إن في كلامه إهانة، إهانة! أنا أفهمك. ولكن ما دمنا قد بدأنا التحدث بصراحة (وإنه لحسن جداً أننا وصلنا إلى ذلك، وأننا مرتبط بهذا أشد الاغتراب)، فأحب أن أعترف لك دون لف أو دوران أنني قد لاحظت منذ مدة طويلة أن هذه الفكرة تدور في ذهنيهما. ولكن لا شك أنها لم تكن قد تجسدت بعد، وأنها لم يكن لها إلا وجود كامن. على أن وجودها في ذهنيهما حتى في هذه الصورة أمر لا يطاق. كيف يجرؤان؟ أين، في أي جزء من نفسيهما استطاعت هذه الفكرة أن تجد لها عشاً؟ ليتك تعلم كم أحنتني هذا وكم أثار جنوني! طالب فقير دمرته أنواع البؤس وصنوف الهواجس والمخاوف... على وشك الإصابة بمرض مصحوب بهذيان... بل لعل المرض كان قد ألم به منذ ذلك الحين (لاحظ هذا)... شاب مفرط في الشك والحدر، شديد الكبراء شاعر بقيمه، ظل مدفوناً في ركته ستة أشهر لا يرى في أثنائها أحداً...

قد بليت ثيابه حتى أصبحت خرقاً رثة لا تستر ظهره، وبلي حذاءه حتى اهترأ فكأنه حافي القدمين . . . شاب هذا شأنه يجد نفسه واقفاً على حين فجأة أمام رجال من الشرطة تافهين يصرون عليه وقاحتهم ، ويطالبوه بأن يبادر إلى سداد قيمة سند باطل فاجأه به المستشار الاعتباري تشيباروف . . . ورائحة الدهان الطري تزكم أنفه . . . والحرارة ثلاثة درجة في غرفة غاصة بالناس ، فلا يكاد يستطيع أن يتفس . . .وها هو ذا يسمع حدثاً عن مقتل امرأة كان قد رآها بالأمس . . . وهو فوق ذلك خاوي المعدة . . . أفعجib أن يغمى على هذا الشاب حينذاك؟ كيف يبنون كل تلك الافتراضات السخيفية على إغمائه ذاك؟ شيطان يأخذهم! . . . اسمع يا روديا! أنا أدرك أن هذا أمر يثير الغمظ . ولتكنني لو كنت في مكانك لما زدت على أن أضحك منه . . . لما زدت على أن أضحك عليهم ، أمام أنوفهم ، بل وأن أبصق في وجوههم . . . أن أرمي وجوههم بسيول من البصاق ، وأن أكيل لهم صفعات يحسون بها إحساساً قوياً . . . أبصق عليهم! أقول لك أبصق عليهم ، لا تكتئب! من المخزي أنك تهتم بالأمر!

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «تكلم فأحسن الكلام على كل حال!»

ثم قال لرازوميخين بمرارة:

- أبصق عليهم؟ ولكنني سأخضع في غد لاستجواب جديد. هل يجب عليّ حقاً أن أصل إلى حد تقديم شروح وتعليلات ، بينما أنا ساخط على نفسي منذ الآن لأنني أهنت نفسي إذ ارتضيت أن أكلم زاميوتوف بالأمس في الحانة . . .

- شيطان يأخذهم. سأذهب إلى بورفيرى بنفسي. ولا تصرفن معه تصرف قريب من أقربائه. لا بد أن يفرغ جعبته. أما زاميوتوف . . .

قال راسكولنيكوف لنفسه: «أخيراً فهم».

وصاح رازوميixin قائلاً وهو يمسكه من كتفه :

- انتظر! انتظر! لقد قلت حماقة من الحماقات. نعم، فكّرت في الأمر، فأيقنت أنك قلت حماقة من الحماقات. ما هذا الذي تذكره عن فخ ثُصْب لك؟ أين الفخ في هذا؟ أنت تزعم أن مسألة العمال هذه فخ. ولكن فكر قليلاً: لو كنت فعلت ذلك الأمر، أفكنت تستسلم فتذكرة أن الشقة كانت تُدْهَن... وأنك فوق ذلك قد رأيت العمال؟ بالعكس. ما كنت لتذكرة أنك رأيت عمالاً، حتى ولو كنت قد رأيتمهم. من ذا الذي يشهد على نفسه؟

أجاب راسكولنيكوف يقول على مضض، مشمتزاً اشمتزاً واضحاً:

- لو كنت قد فعلت ذلك الأمر، لذكرة حتماً أني رأيت العمال والشقة.

- ولكن لماذا يشهد المرء على نفسه؟

- لأنه ما من أحد غير الفلاحين السُّدُج أو الأغرار الذين ليس لهم خبرة ينكر كل شيء على الإطلاق حين يُستجوب. أما الإنسان الذي يملك ولو أقل قدر من الذكاء والخبرة، فإنه لا يفوته أبداً، في حدود الإمكان، أن يعترف بالواقع الخارجية التي لا سبيل إلى إنكارها، وإنما هو يحاول أن يؤولها تأويلاً آخر، أن يرتبها على النحو الذي يريد، أن يضفي عليها دلالة غير متوقعة، فإذا هي تفسير تفسيراً جديداً وثُرِى في ضوء جديد. ولقد كان بورفيرى يأمل أن أجيب قطعاً بهذه الطريقة، أي أن أذكر له أني رأيت العمال، من باب إضفاء مزيد من مظهر الصدق على أقوالي، ثم أضيف إلى ذلك تفسيراً ما.

- ولكن لو فعلت ذلك لأجاك فوراً بأنه لم يكن هناك عمال قبل مقتل العجوز بيومين، فلا بد إذن أنك كنت هنالك يوم مقتل العجوز بعد الساعة السابعة... ولضيئك هذا الأمر التافه!

- ذلك بعينه هو ما كان يعوّل عليه ويأمل فيه. كان يأمل أن لا يتسع

وقتي لتفكير، فإذا أنا أسارع إلى تقديم الجواب الذي يضفي على أقوالي مظهر الصدق، ناسيًا أن العمال لم يكونوا هناك قبل وقوع الجريمة بيومين.

- وكيف تنسى هذا؟

- لا أسهل من نسيانه! وفي مثل هذه التفاصيل التافهة أنما يرتكب أمكر الناس بأكبر سهولة. لا يصدق الرجل الماكر أن الأمور التافهة قد توقعه في الفخ. فكلما كان مكر المرء أكبر كانت الأمور الأبسط هي التي توقعه في الفخ. ليس بورفيرى غبياً إلى الحد الذي تتصوره.

- هو وغد كبير على كل حال!

لم يستطع راسكولنيكوف أن يمتنع عن الضحك. ولكنه في الوقت نفسه قد استغرب هذه الحماسة وهذا التلذذ اللذين سيطرا عليه وهو يقدم هذا الشرح، ألم يكن قد أجرى ذلك الحديث كله مشتمزاً، مكرهاً، مستجيناً لدعاعي الحساب وحده. قال لنفسه: «لا شك أن بعض نقاط هذه القضية تجد هوى في نفسي؟».

ولكنه في تلك الدقيقة نفسها بدا عليه القلق فجأة، لأن فكرة غير متوقعة، فكرةً تبعث على الخوف قد ساورته على حين بغتة. وازداد قلقه. وكان قد وصلا إلى باب عمارة باكايايف.

قال راسكولنيكوف فجأة:

- ادخل وحدك، وسأرجع حالاً.

- ولكن إلى أين تذهب؟ لقد وصلنا!

- يجب علىي أن... يجب علىي أن... هناك عمل ينبغي أن أقوم به. سأعود بعد نصف ساعة. قل لهم هذا.

- لك ما تشاء، ولكني أذهب معك.

فهتف راسكولنيكوف يقول بحنق يبلغ من المرارة والكره أن رازوميخين شعر بحيرة وارتباك:

- أأنت أيضاً ت يريد إذن أن تعذبني؟

وظل رازوميخين بعض الوقت واقفاً على درجات المدخل، مظلم الهيئة، ينظر إلى راسكولنيكوف الذي كان يمضي بخطى مديدة في اتجاه الزقاق المؤدي إلى بيته. وأخيراً كرَّ أسناته، وشَّجَ قبضته، وحلف ليعصرُ بورفيرى في ذلك اليوم نفسه؛ وصعد يهديه روع بولخيريا الكسندروفنا التي كانت قلقةً من تأخرهما الطويل منذ ذلك الحين.

وصل راسكولنيكوف أمام بيته مبلل الصدغين بالعرق، لا هناءً يتنفس تنفساً شاقاً. وصعد السلم مسرعاً ودخل غرفته التي لم يكن قد أغلق بابها، وأسرع يوصد عليه من الداخل بالكلابة. ثم هرع، وقد جُنِّ جنونه رعباً وذرعاً، أسرع نحو الركن الذي كان فيه الثقب الذي يخفيه ورق الجدار، والذي كان قد خبأ فيه الأشياء المسروقة في ذلك اليوم. دسَ يده في الثقب، وظل ينشه بكثير من العناء خلال عدة دقائق، سابراً جميع الشقوق وجميع ثنيات الورق. فلما لم يعثر على شيءٍ نهض فتنفس تنفساً عميقاً. لقد تخيل منذ قليل، حين وصل مع رفيقه إلى عمارة باكالايف، تخيل فجأةً أن من الممكن أن يكون أحد الأشياء التي أودعها في هذا الثقب، كسلسلة صغيرة أو زرَّ كم أو حتى الورقة التي لفَتْ بها هذه الأشياء وعليها كتابة بخط العجوز، أن يكون أحد هذه الأشياء قد اندرس في شق من الشقوق على نحو من الأنجاء، فإذا هو يظهر بعد ذلك قرينة قاطعة أو دليلاً ثابتاً لم يكن متوقعاً ولا يمكن إنكاره.

لبث راسكولنيكوف واقفاً هنالك كالمشدوه، ثم إذا بابتسمة غريبة ذليلة تدور على شفتيه. وأخيراً تناول قبعته وخرج من الغرفة صامتاً. كانت أفكاره مشوشة مضطربة. ومرةً تحت باب المدخل الكبير شارد الفكر حالمًا.

صاحب صوت ضخم قائلاً:

- هذا هو!

فرفع راسكولنيكوف رأسه.

كان الباب واقفاً على عتبة حجرته، يومئى إلى راسكولنيكوف لرجل قصير القامة يبدو عليه أنه باائع صغير، يرتدي معطفاً أشبه بثوب من ثياب المنزل وفوقه صديرة، إذا رأه الرائي من بعيد ظنه امرأة، وعلى رأسه قبعة متسخة، ورأسه مائل على صدره؛ وبدا كأنه محدودب، ويدل وجهه الرخو المتغضن على أنه في نحو الخمسين من عمره على أقل تقدير، وتعبر عيناه الصغيرتان المتورمتان عن قسوة وتجهم واستياء.

سأل راسكولنيكوف الباب وهو يقترب:

- ماذا هناك؟

فرشقه البائع الصغير بنظرة من تحت، وحدق إليه يتفحصه بانتباه ودون تعجل، ثم استدار ببطء وابتعد عن باب المدخل وسار في الشارع دون تعجل ودون أن يقول كلمة واحدة.

هتف راسكولنيكوف يقول:

- ولكن ماذا هناك؟

فأجابه الباب:

- هو رجل سألني هل يسكن في هذه العمارة طالب. وقد ذكر اسمك، وسأل كذلك عن الشخص الذي تقيم عنده. فلما نزلت أنت في تلك اللحظة نفسها دللتة عليك، فإذا هو ينصرف... على النحو الذيرأيت.

كان الباب مدهوشًا هو أيضاً، لكن دهشته لم تكن قوية كثيراً. وقد فكر لحظة، ثم استدار وعاد يدخل حجرته.

هرع راسكولنيكوف يجري في أثر البائع الصغير، فسرعان ما لمحه سائراً في الجهة الأخرى من الشارع، بخطى متساوية بطيئة، مطرقاً إلى الأرض، كأنه يفكر في شيء ما. ولم يلبث راسكولنيكوف أن لحق به،

ولكنه اكتفى في أول الأمر بأن يسير وراءه. ثم أدركه أخيراً، فألقى على وجهه نظرة موافقة. فلاحظه الرجل فوراً، فألقى عليه نظرة سريعة لكنه عاد يخفض عينيه. وسار الرجلان على هذا النحو جنباً إلى جنب مدة دقيقة دون أن يقول أحد منهم شيئاً.

وأخيراً قال راسكولنيكوف بصوت غير عال لسبب ما:

- سأله عنـي . . . الـبـواب . . .

فلم يجـبهـ الرـجـلـ ، حتى إنـهـ لمـ يـرـفـعـ إـلـيـ بـصـرـهـ . وـسـادـ صـمـتـ جـدـيدـ . عـادـ رـاسـكـولـنـيـكـوـفـ يـقـولـ بـصـوـتـ مـخـتـنـقـ ، فـلاـ تـخـرـجـ الـأـلـفـاظـ منـ صـدـرـهـ إـلـاـ بـعـنـاءـ كـبـيرـ :

- إنـكـ قدـ جـثـتـ تـسـأـلـ عـنـيـ . . . وـهـاـ أـنـتـ ذـاـ تصـمـتـ الـآنـ . . . فـماـ معـنـىـ هـذـاـ؟

فرفع الرجل عينيه في هذه المرة، وحدق إلى راسكولنيكوف بنظرة قائمة مشتمة، وقال له بصوت خافت لكنه واضح متميز:

- قـاتـلـ !

كان راسكولنيكوف يسير إلى جانبه. فلما سمع منه هذه الكلمة، ضعفت ساقاه ضعفاً رهيباً، وسرت في ظهره رعدة باردة، وتوقف قلبه عن الخفقان لحظة، ثم أخذ يخفق خفقاناً شديداً كأنه قد انهار انهياراً كاملاً على حين فجأة. وسارا على هذا النحو مسافة مائة خطوة، جنباً إلى جنب، في صمت مطلق. وكان الرجل لا ينظر إليه.

تمتم راسكولنيكوف يقول أخيراً بصوت لا يكاد يسمع:

- ولكنـ ماـذـاـ تـرـيـدـ أـنـ . . . مـنـ . . . مـنـ هـوـ القـاتـلـ؟

فقال الرجل بصوت فيه مزيد من الوضوح، وفيه مزيد من الجزم أيضاً:

- القـاتـلـ أـنـتـ !

وبنوع من ابتسامة تعبر عن كره وانتصار، نظر إلى راسكولنيكوف من جديد، متفرساً في وجهه الشاحب وعينيه المنطفئتين. وكان قد وصلا إلى مفترق، فسار الرجل يسرّه، وابتعد دون أن يلتفت. وظل راسكولنيكوف مسماً في مكانه يتبعه بنظراته مدة طويلة. حتى إذا قطع الرجل المجهول مسافة خمسين خطوة، رأه راسكولنيكوف الذي ما يزال جامداً في مكانه، رأه يلتفت وينظر إليه. رغم أن الرؤية كانت غير واضحة فقد بدا لراسكولنيكوف أن الرجل يبتسم من جديد ابتسامة فيها برودة، وانتصار، وكره.

فقبل راسكولنيكوف راجعاً إلى بيته، يسير بخطى مترنحة، مصطك الساقين، في جسمه قشعريرة. فلما وصل إلى غرفته خلع قبعته فوضعها على المائدة، ولبث واقفاً خلال عشر دقائق كاملة لا يستطيع حراكاً. ثم استلقى على أريكته مهدود القوى، ومد ساقيه وذراعيه وهو يئن أنيناً واهناً شاكياً. وانطبقت أجفانه. وظل راقداً على هذه الحال قرابة نصف ساعة.

لم يكن يفكر في شيء. لا شيء إلا بضع خطرات، أو قل بضع شذرات من خطرات كانت تتلاحق في فكره فوضى بغير نظام ولا اتصال ولا اتساق: وجوه أفراد كان قد رأهم في ماضيات الأيام، أثناء طفولته، وجوه صادفها مرة واحدة ثم لم يتذكرها في أحواله العادية بعد ذلك قط؛ برج أجراس الكنيسة ف...؛ بلياردو في خماره وضابط يقف قرب هذا البلياردو؛ رائحة سجائر في محل لبيع التبغ في قبو؛ سلم خماره من الخمارات، مظلم جداً يؤدي إلى الفناء، مملوء بالقاذورات، قد تناشرت على درجاته قشور بيض، بينما يتراكم إلى المكان رنين النواقيس في يوم الأحد... وهذه الأشياء تتلاحق سريعةً كأنما يحملها إعصار. ومنها أشياء ممتعة يتثبت بها راسكولنيكوف ويتسلى عليها، ولكنها تغيب وتزول؛ ويظل في نفسه شيء ما يثقل على قلبه، ولكنه لا يسرف في إيلامه... حتى لقد يحس أحياناً بارتياح وهناء. وثمة رعدة خفيفة لا تبارحه. وهذه أيضاً لذيدة... .

سمع راسكولنيكوف وقع أقدام متوجلة، وسمع صوت رازوميixin، فأغمض عينيه متظاهراً بالنوم. فتح رازوميixin الباب، ولبث على العتبة متربداً لحظة. ثم دخل الغرفة بهدوء ورفق، واقترب من الأريكة محاذراً، وسمعت وشوشة ناستاسيا قائلة:

- لا تزعجه. لينم ما شاء أن ينام! سياكل فيما بعد.
ويجيبها رازوميixin:
- أنت على حق.

ويخرج رازوميixin وناستاسيا بهدوء، ويغلقان الباب. انقضى على هذه الحال نصف ساعة. وفتح راسكولنيكوف عينيه، ثم تهالك على ظهره من جديد، مصالباً يديه وراء رأسه . . .

«من كان ذلك الرجل؟ ما هو ذلك الرجل الذي خرج من تحت الأرض؟ أين كان وماذا رأى؟ لا ريب في أنه رأى كل شيء. ولكن أين كان يتواجد؟ من أين كان يراقب ويرصد؟ ولماذا لم يخرج من تحت الأرض إلا الآن؟ كيف استطاع أن يرى؟ هل هذا ممكن؟ هم . . .»

كذلك كان يتساءل راسكولنيكوف، ثم تابع تساؤلاته وقد اعتبره رعدة باردة سرت في ظهره فارتعش: «والعلبة التي وجدها نيكولاي وراء الباب؟ هل كان يمكن أن يتصور المرء شيئاً كهذا؟ . . . قرائن قاطعة؟ أدلة ثابتة؟ أيكفي إغفال شيء صغير كحبة رمل حتى يظهر دليلاً ضخماً كأهرام مصر! ذبابة طارت، فرأيت الذبابة كل شيء . . . هل يتصور أحد هذا؟»

وباشمئزاز عميق أدرك راسكولنيكوف ضعفه، أحسّ وهن جسمه.

قال يحدث نفسه وهو يبتسم ابتسامة مرأة: «كان ينبغي لي أن أتصور هذا! كيف تجرأت، وأنا أعرف نفسي، وأنا أتنبأ بقدراتي وطاقيتي، كيف تجرأت وتناولت فأساً ولطخت يدي بالدم؟ كان يجب عليَّ أن أعرف هذا سلفاً . . . آ . . . ولقد كنت أعرفه سلفاً بالفعل!».

هكذا دمدم يقول وقد بلغ غاية الكرب واليأس.

وكانت تدور في رأسه أحياناً فكرة تسلّه شلاً. قال يحدث نفسه: «لا، لا، إن أولئك الرجال هم من طينة أخرى غير طينتي! إن المسيطر⁽⁶⁶⁾ الحقيقي، الذي يجوز له كل شيء، يقصف طولون بالمدافع، ويقوم بمذبحة في باريس، وينسى جيشه بمصر، وينفق نصف مليون من الرجال في حملة موسكو، ثم يتملص من القضية في فلنو بجملة تشتمل على تلاعب بالألفاظ ثم تقام له التماشيل بعد موته. كل شيء مباح إذاً له! لا، إن أولئك الرجال ليسوا من لحم بل من برونز».

وومضت في فكر راسكولنيكوف فكرة مفاجئة فكاد يضحك. قال يحدث نفسه: «نابوليون، أهرامات مصر، واترلو، ثم عجوز مرابية ناحلة سافلة هي أرملة موظف صغير، تخفي تحت سريرها صندوقاً من جلد أحمر... كيف يمكن تشبيه هذا بذاك، كيف يستطيع إنسان أن يبلغ هذا حتى ولو كان بورفيرى بتروفتش؟ كيف يمكنهم أن يهضموا هذا؟ إلا أن الجمال الفني نفسه يرفض ذلك: «هل كان يمكن أن يندس نابوليون تحت سرير عجوز حقيرة؟ يا للصغراء!»

وكان راسكولنيكوف يحس في بعض اللحظات بأنه يهذى، وكان يحس باندفاعات فيها حمى! ..

قال يحدث نفسه بحميّا مسحورة: «ليست العجوز شيئاً ذا بال. العجوز ليست إلا خطأ. ولكن القضية ليست قضية العجوز. العجوز ليست إلا مرضًا... وقد أردت أن أقفز فوق الحاجز وأن أتخطاه بسرعة. أنا لم أقتل كائناً إنسانياً، وإنما قتلت مبدأ. ولكن لئن قتلت المبدأ، فإنني لم أستطيع أن أتخطاه، بل بقيت في الجهة التي كنت فيها. كل ما استطعت أن أفعله هو أنني قتلت. حتى إنني كما تبين، لم أعرف كيف أقتل... هو المبدأ؟ لماذا كان هذا الغبي رازوميخين يهاجم الاشتراكيين منذ قليل؟ هؤلاء أناس عاملون، جادون، يهتمون «بسعادة البشر العامة الشاملة»⁽⁶⁷⁾. لا، لا، لقد وُهبت لي الحياة مرة واحدة إلى الأبد، ولن أعرف حياة أخرى ولا أريد أن انتظر «السعادة الشاملة».

أريد أن أحيا شخصياً، وإنما الأفضل أن لا أحيا البة. أي عيب في هذا؟ أنا لم أزد على أن رفضت أن أمر بأم جائعة، قابضاً على قروشي في جنبي، متظراً تحقق «السعادة العامة الشاملة»، «لقد حملت حجري إلى المبني الذي يُشاد لتحقيق السعادة العامة الشاملة، ومن ذلك أستمد طمأنينة القلب وسكينة النفس!» ها ها! لماذا نسيتني؟ أنا ليس لي إلا حياة واحدة، وإنني لأريد أن أحياها! آه... ما أنا إلا قملة ممحشة بأفكار فنية. ذلك أنا. ولست شيئاً آخر. (كذلك أضاف يقول فجأة وهو ينفجر في ضحك كضحك المجانين). نعم، أنا قملة فعلاً (هكذا تابع يقول بفرح خبيث وهو يتثبت بفكرته متلذذاً بها): أولاً لأنني أفكر كما أفكر في هذه اللحظة مستدلاً على أنني قملة؛ ثانياً لأنني لبشت شهراً بكامله أزعج العناية الإلهية، وأشهدها على أنني لم أقرر أن أفعل ما فعلت عن هوئي مني بل في سبيل غاية عظيمة وهدف كبير... ها ها، وثالثاً لأنني قررت أن أسلك إلى فعلتي كل العدالة الممكنة، فراعيت في تنفيذها الوزن والقياس والحساب: ألم أختر من بين جميع قمل الكون قملة هي أقل القمل جدوئ؟ وحين قتلتها، ألم أكن أنوي أن لا آخذ منها إلا ما كنت في حاجة إليه لأخطو خطوتي الأولى (ثم يذهب الباقى إلى الدير تنفيذاً لوصيتها)، ها ها ها!. نعم، أنا قملة قطعاً (هذا ما أضافه إلى قوله وهو يضغط على أسنانه)، بل لعلني أحق وأسوأ من قملة مسحوق، لأنني كنت أعلم سلفاً، كنت أتنبأ سلفاً بأنني بعد قتلها سأقول لنفسي هذا الكلام! هل في العالم كله شيء يمكن أن يقارن بفطاعة كهذه الفطاعة؟ يا للوضاعة! يا للحقارة! إلا أنني لأفهم أعمق الفهم ذلك «النبي» الممتطي صهوة جواده، المشهور سيفه، القائل: الله يريد هذا، فأطع وأخضع أيها المخلوق «المرتعش»⁽⁶⁸⁾! لقد كان على حق، كان على حق تماماً، ذلك النبي، الذي صفت المدافع في عرض الشارع وأمر بإطلاق القذائف على الأبراء والجناة على السواء، ولم يرض حتى أن يشرح سلوكه وأن يسوغه. أطع أيها المخلوق المرتجف، وحدار أن ترغب في أي شيء، فليس هذا شأنك أنت!..

آه... لن أغفر لهذه العجوز في يوم من الأيام،
بحال من الأحوال!»

كان شعره مبتلاً بالعرق، وكانت شفاته المختلجنان مصوّحتين، وكان بصره يحدُق إلى السقف بنظرة ثابتة.

«أمي، أختي، لشد ما كنت أحبهما! فلماذا صرت أكرههما الآن؟
أجل، أبني أكرههما، أكرههما جسماً، لا أطيق أن أحتمل وجودهما
إلى جانبي!.. منذ قليل، اقتربت من أمي وقبلتها... أبني أتذكر
هذا... عانقتها وتساءلت: ثُرى لو كانت تعلم... أقول لها إذن?
هذا ما أستطيعه... هِنْ! لا شك في أنها مثلي (كذلك أضاف يقول
بجهد، كأنه يقاوم الهذيان الذي يجتاجه). أوه! لشد ما أكرهها الآن،
تلك العجوز! أعتقد أبني مستعد لأن أقتلها مرة أخرى لو بعثت حية!
مسكينة اليزافيتا! لماذا وجدت هناك؟.. ومع ذلك لا تخطر بيالي إلا
قليلًا، فكأنني لم أقتلها! ما أغرب هذا! اليزافيتا، صونيا! يا للبنتين
المسكيتين، المتواضعتين، الوديعتين... الراخمة أعينهما رقة وعدوبه!
يا هذه المخلوقات العزيزة، لماذا لا تبكين؟ لماذا لا تشرين؟ إنها تعطي
كل شيء، وتنظر إليك نظرة تفيض رقة وهدوء وسكينة!.. صونيا!
صونيا! يا صونيا الوادعة!»

وأغمي على راسكولنيكوف. واستغرب كيف أمكن أن لا يتذكر كيف
وجد نفسه مرة أخرى في الشارع. الوقت متاخر. الظلمات تتکائف.
البدر يسطع وما ينفك يقوى. ولكن الجو خانق. أناس كثيرون يسيرون
في الشوارع. فبعضهم من الحرفيين والعمال يعودون إلى بيوتهم،
وبعضهم يتنترون. وفي الهواء رائحة كلس وغبار ومياه مستنقعة.
وراسكولنيكوف يمشي حزيناً مهوماً. وهو يتذكر أنه خرج على نية
معينة محددة؛ هو يعرف أن عليه أن يتوجه القِيام بأمر من الأمور،
ولكنه أصبح لا يدري ما هو ذلك الأمر على وجه الدقة.وها هو ذا
يتوقف فجأة، فيرى في الجهة الأخرى من الشارع، على الرصيف،

رجلًا يومئ له بيده. أخذ يقطع الشارع ليمضي إليه، ولكن الرجل استدار وابتعد فجأة مطرق الرأس، كأن شيئاً لم يكن، حتى دون أن يلتفت وكأنه لم يناديه. تسأله راسكولنيكوف وقد أخذ يلاحقه: «هل ناداني حقاً؟». ولكنه وعن مسافة عشر خطوات تعرف إليه بغتةً فاستولى عليه رعب: إنه ذلك البائع الصغير نفسه، بمعطفه الذي يشبه ثوباً من ثواب المنزل، وبظهره المحدودب. تبعه راسكولنيكوف من بعد، خافق القلب. ودخل الاثنان في شارع صغير. ما زال الرجل لا يلتفت. تسأله راسكولنيكوف: «هل يعرف أنني أمشي وراءه؟». عبر البائع الصغير مدخل عمارة من العمارات. اقترب راسكولنيكوف من الباب بسرعة كبيرة، ونظر: ثُرى ألن ينظر إليه هذا الرجل، ألن يناديه؟ وما هو ذا الرجل يلتفت على حين فجأة فعلاً، حين صار في فناء المنزل، في يومئ له بغتةً من جديد. ولجه راسكولنيكوف مدخل العمارة، ولكن ما أن مر تحت الباب حتى اختفى الرجل من الفناء. لا يمكن إلا أن يكون الرجل قد دخل السلم الأول الذي يقع هنا. اندفع راسكولنيكوف يلاحقه. وكانت ما تزال تسمع، فعلاً، بعد طابقين، أصواتُ وقع أقدام تسير بخطى منتظمة بطيئة. شيءٌ غريب: إن السلم لا يبدو لراسكولنيكوف مجهولاً. هذه نافذة الطابق الأول. إن ضياء القمر، الحزين السري، يتسلل من خلال الزجاج. وهذا هو الطابق الأول. عجيب: إنها الشقة التي كان يعمل فيها الدهانون!.. كيف لم يتعرّف ذلك فوراً؟ سكتت أصوات خطوات الرجل الذي كان يتقدمه: «لقد توقف إذا، أو اختباً في مكان ما». وهذا هو الطابق الثاني. هل يجب على راسكولنيكوف أن يصعد إلى أعلى؟ إن الصمت رهيب جداً! وظل راسكولنيكوف يصعد رغم ذلك. إن أصوات وقع أقدامه هو نفسه تقلقه، ترعبه. رباه! ما أحلك هذا الظلام! لا شك في أن الرجل المجهول قد اختباً في مكان ما، في ركن ما. آه... إن باب الشقة مفتوح على سعته كلها! فَكَر راسكولنيكوف لحظةً، ثم دخل. الدهليز مظلم خال، والأثاث يبدو أنه ثقل. تقدم راسكولنيكوف إلى الصالون سائراً على رؤوس الأصابع في

رفق وهدوء: إن ضوء القمر الساطع يغمر الغرفة. كل شيء في الصالون ما يزال كما كان: الكراسي، المرأة، الديوان الأصفر، الصور في أطراها. وهذا قمر ضخم، أحمر بلون النحاس، مدورة تماماً، يُطل من النافذة رأساً. قال راسكولنيكوف يحدث نفسه: «عن القمر إنما يصدر هذا الصمت... لا شك في أن القمر يحاول الآن أن يفضح سراً من الأسرار، أن يكشف لغزاً من الألغاز!» ظل راسكولنيكوف ساكناً جامداً ينتظر، فكلما ازداد القمر صمتاً ازداد خفقان قلبه شدة وعنفاً حتى أصبح يؤلمه. وما يزال الصمت مخيماً! وفجأة تنطلق قرقعة جافة كقرحة غصن ينكسر، ثم يصمت كل شيء من جديد. وهذه ذبابة تستيقظ وتتطير فتصدم الزجاج، وتتدنن بصوت كأنه شكاوة وأنين. وفي تلك اللحظة نفسها يميز راسكولنيكوف، في الركن، بين الخزانة الصغيرة والنافذة، شيئاً يشبه معطف معطف امرأة، يتدلّى على الحائط: تسائل راسكولنيكوف: «لماذا يوجد معطف هنا؟ لم يكن في هذا المكان معطف من قبل!». واقترب سائراً بخطى بطيئة، وحضر أن أحداً لا بد أنه يختبئ وراء هذا المعطف. وأزاح المعطف محاذراً، فرأى كرسياً، ورأى العجوز جالسة على الكرسي، متكومة على نفسها، خاضعة رأسها بحيث لم يستطع أن يرى وجهها. لكنها هي العجوز ما في ذلك ريب. لبث واقفاً إلى جانبها لحظة. قال لنفسه: «إنها خائفة» ثم أخرج الفأس من العلاقة برفق وهدوء، فهو يها على قمة جمجمة العجوز، مرة أولى، فمرة ثانية. ولكن الشيء الغريب أن العجوز لم تترنح تحت الضربات. لكانها من خشب. خاف راسكولنيكوف، ومال على العجوز يتفحصها عن كثب. كل ما هنالك أن رأسها قد انخفض مزيداً من الانخفاض. أنحني راسكولنيكوف عندئذ انحناء كاملاً حتى الأرض، ونظر إليها. نظر إليها فتجمد من الرعب. كانت العجوز تضحك وهي جالسة على كرسيتها، تضحك ضحكاً كبيراً يهزُّ جسمها كله، ولكنه ضحك لا يكاد يدرك، فهي تخنقه حتى لا يكاد يسمعه راسكولنيكوف. ويدا له فجأة أن باب غرفة النوم يُشق، وأن وراء الباب أيضاً أناساً

يضحكون ويتهمون. استولى عليه الغضب. فأخذ يضرب العجوز على رأسها بكل ما يملك من قوة، ولكن الضحك والتهامس الصادرين عن غرفة النوم يزدادان وضوحاً وقوة كلما هوى على رأس العجوز بضربية جديدة. والعجوز نفسها قد أصبح جسمها يهتز الآن كله من شدة الضحك. أراد راسكولنيكوف أن يهرب. ولكن الدهليز كان قد امتلاه الناس. وكان الباب الذي يفضي إلى السلم مفتوحاً على سعته كلها. وكان السلم ممتلئاً بالناس كذلك من أسفله إلى أعلى. جمورو كبير. حشد هائل. رؤوس ثم رؤوس. والجميع ينظرون إليه، ولكنهم في الوقت نفسه يختبئون، وينتظرون، ويصمتون!.. انقبض قلبه، ورفضت ساقاه أن تتحرك، فكأنهما قد أصبحتا لهما جذور في الأرض. أراد أن يصرخ. وأفاق من إغمائه.

استرد أنفاسه في جهد وعناء. ولكن الشيء الغريب أنه تراءى له أنه ما يزال يحلم. كان باب غرفته ما يزال مفتوحاً على سعته كلها. وكان يقف على عتبة الباب رجل لا يعرفه راسكولنيكوف إطلاقاً، رجلٌ كان يتفرس فيه بالحاج.

ما كاد راسكولنيكوف يفتح عينيه تماماً حتى عاد يغمضهما فوراً. كان مستلقياً على ظهره لا يقوم بأية حركة. قال يسأل نفسه: «أهو الحلم ما يزال مستمراً أم لا؟» وفتح جفنيه قليلاً ونظر: كان الرجل المجهول ما يزال واقفاً في المكان نفسه يحدق إليه. ثم ها هو ذا يجتاز العتبة محاذراً، ويغلق الباب وراءه إغلاقاً محكماً. ويقترب من المائدة، وينتظر دقيقة دون أن يحول بصره عن راسكولنيكوف، ثم يجلس على الكرسي قرب الديوان هادئاً صامتاً. وضع الرجل المجهول قبعته على الأرض إلى جانبه، ثم أرسنديديه إلى مقبض عصاه، وألقى بذقنه على يديه. كان واضحاً أنه يتهيأ لانتظار طويل. إذا صَحَّ ما استطاع راسكولنيكوف أن يلاحظه من خلال أجفانه التي كانت أشبه بالمغمضة، فإن هذا الرجل كان قد تجاوز الشباب، وكان قوي البنية، عريض

المنكبين، كثيف اللحية، زاهي الشقرة حتى لتتکاد تكون شقرته
ياضاً...

انقضت عشر دقائق. لم يكن الظلام قد هبط بعد، ولكن المساء
يقرب. إن صمتاً كاملاً يسود الغرفة. حتى السلم لا تصل منه أية
ضجة. ليس يسمع شيء إلا دندنة ذبابة ضخمة كانت قد صدمت الزجاج
أثناء طيرانها. نفذ صبر راسكولنيكوف فنهض فجأة وجلس على
الديوان، وقال يخاطب الزائر المجهول:

- هيء... تكلم... ماذا تريده؟

فأجابه الزائر المجهول بلهجـة غريبـة عجـيبة، وهو يطلق ضـحـكة
هادـئـة:

- كنت أعلم أنك لست نائماً، وأنك تتطاـهر بالنوم ظـاهـراً. اسـمع
لي أن أعرـفك بـنـفـسي: آركـادـى إـيفـانـوفـش سـفـدـريـجاـيلـوفـ.

الهوا مش

- (1) الأمير ميشكين بطل رواية «الأبله»، وايفان كارامازو夫 أحد أبطال رواية «الأخوة كارامازو夫» وستافروجين أحد أبطال رواية «الأبالسة».
- (2) «زقاق س...»: هو زقاق ستوليانبي بيريتولوك، أي «زنقة التجارين»، القريب من «سوق العلف»، حيث أقام دوستويفسكي من سنة 1864 إلى سنة 1867.
- (3) «سوق العلف»، هو ميدان محاط بحانات وخمارات وفنادق رخيصة.
- (4) «تسيرمان»: رجل ألماني كان يملك محلًا لأزياء القبعات.
- (5) «راسكولنيكوف»: أشتقت المؤلف اسم راسكولنيكوف من الكلمة الروسية «راسكولنيك» ومعناها المنشق، ليشير بذلك إلى انشقاق بطل الرواية عن آراء المجتمع. وفي الصياغة الأولى لهذه الرواية، أي الصياغة التي جعل دوستويفسكي عنوانها: «يوميات راسكولنيكوف»، أطلق المؤلف على بطله اسم «فاسيا». ولعله لاحظ بعد ذلك أن اسم «فاسيا» ألطاف وأرق من أن يطلق على هذا البطل فجعل اسمه ونسبة إلى أبيه: «روديون رومانوفتش».
- (6) «أليونا» تلطيف شعبي لاسم إيلينا (هيلانة).
- (7) «بودياتشسكيايا»: أي شارع القسس، وهو أحد شوارع وسط مدينة بطرسبرج، قرب «سوق العلف».
- (8) ... ولقبه مستشار اعتباري... كان «جدول الرتب»، أي لائحة الرتب ونظام الوظائف المدنية المعمول بها في روسيا منذ عام 1722 حتى 1917، يقسم الرتب المدنية كلها إلى 14 طبقة (درجة) (أعلى درجة هي الأولى وأدنى درجة هي الرابعة عشرة). وكان لكل رتبة وظيفة معينة. والمستشار الاعتباري رتبة من الدرجة التاسعة تعادل رتبة النقيب في الجيش.
- (9) «بطاقتها الصفراء»: هي بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بالموسمات.
- (10) «كل خبيء مآل إلى ظهور»: إشارة إلى النص الوارد في إنجيل متى (الإصحاح

- العاشر : 26) : «ليس مكتوم لن يستعلن ، ولا خفي لن يعرف».
- (11) إنجيل يوحنا. الإصحاح التاسع عشر : 5.
- (12) «إنني أشبه الوحش كل الشبه»: إشارة إلى الوحش الذي جاء ذكره في رؤيا يوحنا.
- (13) «نالت ميدالية ذهبية»: في المدارس الثانوية والمعاهد في روسيا كان نجاء التلاميذ ينالون عند حصولهم على شهادة البكالوريا ميدالية ذهبية.
- (14) «ليويس»: ج. هـ. ليويس (1817 - 1848)، فيلسوف إنجليزي. ألف كتاباً بعنوان «فزيولوجية الحياة العامة» ترجم إلى اللغة الروسية 1861 وراج رواجاً كبيراً في روسيا، ولا سيما في أوساط الشباب الديمقراطي.
- (15) «صونيا»، «دونيشكا»: تصغير اسم صونيا، تحبباً وملائفة.
- (16) «مستشار الدولة»: موظف من الدرجة الخامسة.
- (17) كاريناوموف: نسبة إلى كفرناحوم التي ورد ذكرها في الانجيل.
- (18) «زاخارتش»: تخفيف اسم زاخاروفتش، والشعب يعمد إلى هذا التخفيف مستغنية عن «فتتش» بـ«تش». ولسوف نقع في النص على راسكولنيكوف تارة باسم روبيون رومانوفتش وتارة باسم روبيون رومانتش، وكذلك سنقع على بروكوفتش وببروكوفيوفتش اسمان لشخص واحد، وهكذا دواليك.
- (19) «كلص الليل»: يستعمل مارميلادولف هنا التعبير الوارد في رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل تسالونيك (الإصحاح الخامس، 2).
- (20) «الجسر المصري»: جسر مزين بتماثيل فرعونية على قناة فونتانكا، غير بعيد عن «سوق العلف».
- (21) ... هي تزن لوتين... لوت مقاييس روسي قديم للوزن يساوي 8.12 غرام يستعمل لتحديد وزن الطرود البريدية.
- (22) «روديا» مصغر اسم روبيون.
- (23) «دونيا»، «دونيشكا»: تصغير اسم آفدوتيا، من باب المحبة والتدليل.
- (24) «سفيدريجايروف»: إشتق المؤلف هذا الاسم من اسم سفيدريجاييلو، وهو دوق كبير من ليتوانيا في القرن الخامس عشر، إشارة إلى نبالة محتد هذه الشخصية من شخصيات روايته.
- (25) «باخوس»: إله الخمر عند قدماء الإغريق.
- (26) «مستشار قضائي»: موظف من الدرجة السابعة.
- (27) ... كان مجلس الشيوخ أعلى هيئة قضائية في روسيا ما قبل الثورة وكان يراقب عمل جميع المؤسسات القضائية ويعتبر في نفس الوقت محكمة الاستئناف العليا.
- (28) مائة كيلو متر تقريباً.
- (29) أي بورقتين صغيرتين قيمة كل منها روبل واحد.
- (30) ... هكذا حال نفوس شيللر الطيبة... الإشارة هنا إلى أبطال مسرحيات الشاعر

والكاتب المسرحي الألماني العظيم يوهان فريدرش شيلر (1759 - 1805) الذي تغنى بالحرية وأشاد بالمشاعر النبيلة.

(31) وسام القدس آنا: يمنحك تقديرًا لخدمة الدولة وله أربع درجات.

(32) إن الحرب التي شنتها بروسيا على الدنمارك (سنة 1864) وعلى النمسا (سنة 1866) لامتلاك دوقية شفلفسبيج وهولشتاين. وقد نشرت الجرائد والمجلات الروسية الأنباء الكثيرة عنها في الستينات من القرن التاسع عشر.

(33) كانت الصحف الروسية تتحدث كثيراً آنذاك عن سوء معاملة الزنوج في أمريكا بسبب حرب الانفصال (1861 - 1865); وكان معروفاً أن البارونات الألمان في مقاطعات البلطيق يسومون الليتوانيين سوء العذاب.

(34) يقال إن هناك نسبة مئوية لا بد أن يُضخّم بها كل عام... الحديث عن «النسبة المئوية» الدائمة من الضحايا الذين تدفع بهم المقادير حتماً إلى طريق الجريمة والدعارة، ظهر في الصحافة الروسية في عامي 1865 - 1866 بمناسبة إصدار الترجمات الروسية لكتب العالم الرياضي والاقتصادي البلجيكي أ. كتلي وكذلك كتب الاقتصادي الألماني أ. فاجنر الذي روج لأفكار كتلي.

(35) ... فعبر الجسر واستدار إلى جهة الجزر... المقصود الجزر الواقعة في نهر النيفا في ضواحي بطرسبرغ، حيث أقيمت الحدائق العامة وشيد الكثير من الفيلات الصيفية الفخمة (جزر أبتيكارسكي، يلاجين، كاميني وغيرها). وهناك كانت توجد أيضاً شتي دور اللهو.

(36) «ميكلوكا» تصغير ميكولا (نيقولا).

(37) «ميتكا»: تصغير دمترى، ديمترى.

(38) ... لقد أخذ هو أيضاً يجاري التيار ويتبع الاتجاهات الجديدة... كان وصف «الكتاب ذو الاتجاهات» يطلق في ستينيات القرن الماضي على الكتاب الذين يطرحون في مؤلفاتهم أفكاراً اجتماعية - سياسية تتسم بالتقدمية في غالب الأحوال.

(39) رادتشيف: كاتب من القرن الثامن عشر، نشر سنة 1870 كتابه الشهير "رحلة من سان بطرسبرج إلى موسكو" وهو كتاب عاطفي ثوري، تأثر بالأدب رانينال أكثر مما تأثر بجان جاك روسو. وقد صادرت الرقابة الكتاب، وُنفي المؤلف إلى سيبيريا حيث قضى ست سنين.

(40) "جسر نيكولا": الجسر الذي يوصل من جزيرة فاسيلفسكي إلى المدينة، قرب قصر الشتاء.

(41) هي كاتدرائية القديس إسحاق الكبير، الواقعة في وسط المدينة.

(42) تقع الجامعة في أولى جزيرة فاسيلفسكي.

(43) «باشنكا» و«باشا»: تصغير اسم باراسكيفا، براسكوفيا، تحبياً؛ وبراسكوفيا هذه هي صاحبة البيت الذي يسكن فيه راسكولنيكوف.

- (44) كان اللورد بالمرستون قد مات منذ مدة قصيرة، سنة 1865، وقد سُميَّ باسمه معطف ذو شكل خاص، كما يوجد معطف سُميَّ باسم لورد رجلان.
- (45) الولايات المتحدة الأمريكية، تعني هنا السراويل (البنطلون)، وهذا قائم على لعب بالتجانس اللغظي بين كلمة «شناوي» الروسية ومعناها الدولة أو الولاية، وبين كلمة «شناوي» ومعناها السروال.
- (46) «شارمر» خياط على الموضة ببطرسبرج في الستينيات من القرن الماضي.
- (47) «قصر الكريستال»: حانة تقع غير بعيد عن مركز بطرسبرج وقد أطلق عليها دوستويفסקי اسم قصر الكريستال من باب التهكم، تشبيهاً لها «بقصر الكريستال» الذي رأه في لندن وتحدث عنه في «ذكريات شتاء عن مشاعر صيف».
- (48) حي الرمال وهي كولومنا - حيان في بطرسبرج يقعان في طرفين مختلفين من المدينة. ومعنى هذا أن نيكولاي قد خلط الأمور في جوابه.
- (49) المقصود هنا هو الإصلاحات الكبرى التي تمت بين عامي 1861 و1864، أي إلغاء القنانة، والإصلاح القضائي والجزائي، وإدخال نظام «الحكم الذاتي»، إلخ.
- (50) إن لوجين يعرض هنا عرضاً عامياً نظرية «الأنانية العاقلة»، تلك النظرية المبوطة في كتاب تشيرنيشففسكي: «ما العمل؟»
- (51) «هنا، طالب سابق يهاجم عربة...»: يشير دوستويف斯基 إلى هذه الواقعة في رسالة بعث بها إلى كاتكوف في شهر أيلول (سبتمبر) 1865.
- (52) «...أستاذ من أساتذة التاريخ العام»: نظر القضاء في هذه القضية وفصل فيها في شهر أيار (مايو) 1865.
- (53) لا شك في أن هذه التأملات التي تمرّ بذهن رجل محكوم عليه بالإعدام إنما احتفظ بها دوستويف斯基 من الدقائق التي عاشها قرب المقصلة في 22 كانون الأول (ديسمبر) 1849.
- (54) كان رجل اسمه إيسنتر قد افتتح في ضواحي بطرسبرج حانة على الطراز الريفي فكان ينشر إعلانات كثيرة عنها في الجرائد. أما الإعلانات التي يقرأ راسكونيكوف عنوانها «ماسيمو - بارتولا - الأزتيكيان» فهي عن رجل أمريكي اسمه موريس كان يعرض في صيف 1865 بمدينة سان بطرسبرج «آخر شخصين من آزتيكيبي المكسيك»، أحدهما بنت اسمها بارتولا، والثاني صبي اسمه ماسيمو. وكان الرجل الأمريكي ينشر إعلانات في الصحف كل يوم عن هذا العرض لاجتذاب المشاهدين.
- وأما «حريق في... وحريق في... وحريق آخر في...»، فهي أنباء حرائق كثيرة شبّت بمدينة سان بطرسبرج في ذلك الصيف نفسه من عام 1865، لذلك كتبت جريدة «الصوت» في عددها 166 تقول: «جميع الصحف ملأى بوصف حرائق خطيرة كثيراً أو قليلاً».

- (55) «- أرأيت؟ أوراق حمراء وأوراق زرقاء!»: الأوراق المالية الحمراء هي أوراق العشرة روبلات، أما الزرقاء فهي أوراق الخمسة روبلات.
- (56) «جسر ص...»: هو جسر «الصعود» على قناة كاترينا.
- (57) «بيوتر»: اختصار شعبي لاسم مدينة بطرسبرج.
- (58) «بوليا» و«بولينكا»: تصغير إسم أبوليناريا.
- (59) «ليدا» و«ليدوتشكا»: تصغير إسم ليديا.
- (60) ... كاهن يحمل الأعراض السرية... هي الخبز والخمر المقدسان وللذان يرمزان إلى لحم المسيح ودمه، ويستخدمان في المناولة وعند الاعتراف (بما في ذلك اعتراف ما قبل الموت) لدى المسيحيين. وهذه الأعراض السرية يضعها الكاهن في صندوق خاص حينما يأتي إلى المحتضر.
- (61) كان عازف البيانو روينشتاين (1829 - 1894) عندئذ في قمة مجده.
- (62) ... إن تلك الملكة التي كانت ترقع جوربها... هي ماريا أنطوانيت (1755 - 1792) قرينة الملك لويس السادس عشر التي سُجنت ثم أعدمت في عهد الثورة الفرنسية الكبرى.
- (63) «مقبرة متروفان»: مقبرة فقيرة تقع في جنوب العاصمة، بعد محطات القطار.
- (64) «... إلى تلك المجموعة من الأجر المقسمة ممرات وغرفاً، التي يستمونها فالانستير!...» تلميح إلى أحد فصول رواية «ما العمل؟» (1863) للكاتب الاجتماعي تشيرنيشيفסקי، وهو الفصل الذي يرسم صورة الحياة القادمة المشيدة على أسس اشتراكية. والفالانستيرات هي قصور ضخمة تستخدم كمساكن جماعية لأفراد المجتمع الاشتراكي القادم (حسب نظرية الاشتراكيين الطوباوين).
- (65) الساجين قياس طول روسي قديم يساوي 13.2 متراً.
- (66) المقصود نابوليون بونابرت الذي قصف طلدون بالمدافع فعلاً سنة 1793، ورمى الملوكين بالرصاص بباريس في شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1795، وترك جيشه بمصر سنة 1799، ويقال إنه بعد أن فقد «الجيش الكبير» قال في فلنا سنة 1812: «ليس بين الرائع والمضحك إلا خطوة واحدة. فلتفصل الأجيال القادمة في هذا».
- (67) ... لقد حملت حجري إلى المبني الذي يشاد لتحقيق السعادة العامة الشاملة... تهكم على الرواية «ما العمل؟» التي أعجب ببطالها بالمثل العليا للاشتراكيين الطوباوين. وتعبير «حملت حجري إلى المبني الذي يشاد للمجتمع المقبل» كثيراً ما يتعدد في مؤلفات الاشتراكيين الطوباوين.
- (68) إشارة إلى بيت من الشعر في قصيدة بوشكين «محاكاة القرآن».

يعتبر دوستويفسكي واحداً من أعظم كتب الرواية، فأعماله تتميز بقدرة على السرد تشد القارئ، ويتعبيرها القوي عن دوائل النفس الإنسانية، وقد عبر عن ذلك في عناوين رواياته التي تصف الإنسان في شتى مواقفه وتصرّفاته: المقامر - المراهق - مذلون مهانون - الجريمة والعقوب - الأبله...

وتعتبر رواية "الجريمة والعقوب" إحدى قمم الأعمال الإنسانية، إنها ذلك اللغز المفتوح على النفس الإنسانية، وما يدور في أعماقها. والمفتوح على قضايا الوجود، والعداب، والخير، والشرّ، والحب، والجريمة، والجنون، والأهواء، والمنفعة، والمرض...

إن شخصية راسكولنيكوف هي محاولة لفهم تعقيدات الشخصية الإنسانية مقدماً عدداً من التفسيرات، مناقشاً الدافع والبواعث الكامنة في اللاوعي والتي حدّت براسكولينيكوف للتصرف بما يخالف المنطق.

يطرح دوستويفسكي فكرة استحالة معرفة الإنسان، ويجبرنا على أن نتطلع إلى ما يكمن في نفوسنا، وأن نعثر فيها على تلك الأهواء التي تعصف بأبطاله، وكيف أن النفس الإنسانية تحمل في آن أسمى المثل إلى جانب أحط الدناءات..كيف أن الإنسان يحمل في داخله قوة تنفيذ الجريمة ورغبة تحقيق العدالة.

ISBN 978-9953-68-462-6



9 789953 684628

المراكز الثقافية العربية

cca@ccaedition.com

